الحرب الخفية

فلسفة الجاسوسية ومقاومتها

صلاح نصر

الوطن العربي
للنشر والتوزيع

الحرب الخفية

صلاح محمد نصر

الحرب الخفية

فلسفة الجاسوسية ومقاومتها

الوطن العربي
للنشر والتوزيع

الطبعة الثانية

مقدمة

تحدثنا فى كتاب حرب العقل والمعرفة عن المخابرات من زاوية المعرفة والعمل ، فأبرزنا أهمية منظمات مخابرات الدول فى ميدان انتاج المعلومات والتقديرات ، ودورها فى رسم السياسة القومية للدولة كما شرحنا واجباتها ومهماتها المتشعبة ، وبينا أساليبها فى العمل ووضعها فى الدولة .

وقد وعدنا القارىء أن نتحدث فى هذا المؤلف عن القسم الضخم من نشاط المخابرات حيث تحشد الدول كل إمكاناتها المادية والعقلية والمعنوية لشن حرب خفية ، تستغل فيها العقول كل قدراتها من ذكاء ومهارة ودهاء فى معارك ضارية لا تستخدم فيها الأسلحة التقليدية ، بل تدور رحاها فى شكل معارك ذهنية .

وإذا كان الكثير من الشراح يعارضون فكرة قيام الدول بأعمال سرية ، فإن كل الدول تميل فى وقت السلم والحرب إلى القيام بالأعمال المستترة ، بل أن الدول قد تعارفت تعارفاً تقليدياً منذ زمن بعيد ، على أن العمليات السرية قد قبلت على أساس أن هذه العمليات تمد كل دولة بالمرونة التى تعطى لها الوقاية .

والواقع أن الخدمة السرية بنوعيها — الإيجابى والسلبى — لا يمكن أن

تستغنى عنها دولة فى هذا العصر لأسباب عدة : فإن أمنها القومى يتطلب القيام بها ، على نحو ما فى أعمال الجاسوسية والجاسوسية المضادة ، ومن ثم فمن الضرورى أن تتم العمليات فى الخفاء كما أن العمليات السياسية لا يمكن أن تنجح لو اتضح أن هناك نشاطاً داخلياً تقصده دولة أجنبية ، كذلك لا ترغب الدول فى الزج بقوى قد تتسبب إخفاق المهمة أو تعدل من التوازن السياسى الدولى .

ولقد تم فى القرنين الأخيرين تطور قومى فى الخدمة السرية ، وأدركت معظم الدول الفوائد التى يمكن أن تحققها خدمة سرية ناجحة ، ولكن جهود الدول اختلفت في إنشاء منظماتها تبعاً لاختلاف اتجاهاتها القومية .

والطابع الذى تتخذه أى منظمة للخدمة السرية يتأثر إلى حد كبير فى حد ذاته بسياسات الحكومة نفسها ، ويتضح ذلك بجلاء حينما يكون للأمة طابع عدوانى ، هذا الطابع الذى يقترن بأطماع قومية ، وبخاصة من ناحية التوسع الإقليمى .

كما يتأثر طابع المنظمة بما يتوافر لها من موارد ، وتتضح هذه الأمور فى تنظيم ونشاط الجاسوسية اليابانية حتى نهاية الحرب العالمية الثانية ، وفى نشاط السوفييت قبل الحرب العالمية الثانية وبعدها .

ويتوقف نجاح منظمة الخدمة السرية فى الواقع على ما لرئيسها من غريزة التجسس وقدرة على التنظيم ، وهنا تلعب الخاصيات القومية أدوارها .

فمنظمة شتيبر فى عهد بسمارك كانت النموذج الذى عملت على أساسه دول كثيرة ، ولكى تحقق أى من هذه المنظمات النجاح الذى حققته منظمة شتيبر ، فإن هذه المنظمات كانت تتبع نموذج التنظيم وأسلوب العمل ، ولكن كان ينقصها المادة الخام اللازمة لنجاح التنظيم والأسلوب .

كان ولهلم شتيبر فى عصره — ملك الجواسيس — بلا نزاع ، وقد استطاع

بذكائه الخارق أن يستبدل بالتنظيم البروسى القديم ــ الذى كان يعتقد أنه لا يصلح لتحقيق أهداف الدول ــ تنظيماً مستحدثاً مكنه من السيطرة بفاعلية على أعمال الجاسوسية والجاسوسية المضادة كما كان يضع قبضته القوية على المخابرات الحربية .

والواقع أن النشاط الذى تقوم به الخدمة السرية ليس الا معركة دهاء لها مراحلها الهجومية والوقائية ، ومن الطبيعى أن كلتا المرحلتين لا تنفصلان ، ولكن يمكن التمييز بينهما تنظيمياً فى حرفة المخابرات .

فالمرحلة الهجومية أو الإيجابية تشمل اصطلاح « التجسس » أو « العمليات السرية » أو « الخدمات الاستراتيجية » ، وكلها تعنى معنى واحداً . أما المرحلة الوقائية فيغطيها اصطلاح المخابرات المضادة .

والمبادىء التى تحكم ادارة وتوجيه النوعين متماثلة متشابهة ، بالرغم من وجود فاصل إدارى بينهما .

فالنشاط داخل أرض الدولة هو فى غالبيته نشاط وقائى ضد عمليات العدو ، ومن ثم فإن مسئوليته تقع على منظمات الأمن ومقاومة التجسس ، بينما توكل مسئوليات عمليات الخدمة السرية خارج أرض الوطن إلى منظمة منفصلة للعمليات السرية .

وعلى سبيل المثال نجد أن هذا الفصل يتم فى الولايات المتحدة بين مكتب التحقيقات الفدرالى وبين المخابرات المركزية ، وفى بريطانيا يقسم الواجبان بين المكتب الخامس ، الذى يعمل أحياناً وراء ستار سكوتلانديارد ، وبين المكتب السادس ، أما فى الدول الشيوعية فان الفصل ليس اداريا إلى هذا الحد من الجمود ، على الرغم من أن الواجبات المدنية تتولاها وزارة الداخلية . ففى الاتحاد السوفيتى تتولى لجنة أمن الدولة نواحى الأمن ، بينما تقوم المخابرات الحربية السوفييتية بالنشاط خارج الاتحاد السوفييتى .

والواقع مهما يكن مدى الفصل الادارى ، فانه من ناحية عامة تصعب ملاحظته ، ويؤدى فى بلاد كثيرة إلى احتكاك داخلى بين الأجهزة ، اذ إن كثيراً من العمليات الهجومية الخارجية – ولا سيما العمليات السياسية – يجب أن تعد دعامتها فى أرض الوطن ، هذا بالاضافة إلى أن خدمات المخابرات الداخلية والخارجية تهتم وتعنى بأمر الأجانب الموجودين فى أرض الوطن ، ولكن اتجاهات هذا الاهتمام تتقاطع وتتشابك لأن كلاً من الخدمات الداخلية والخدمات الخارجية تنظر إلى هؤلاء الأجانب من وجهة نظر خاصة .

ونتيجة للصراع الايديولوجى الذى يشمل كل أنحاء العالم ، اتسع نطاق العمليات السرية ، فدخل فى قاموس المصطلحات السياسية أسماء جديدة تنضوى تحت بنود العمليات السرية ، فهناك الحرب السياسية ، والحرب النفسية ، وحروب التحرير ، وحملات السلام ، وحرب العصابات ، والحرب الأهلية وغير ذلك من المصطلحات التى لا يمكن أن نفصلها عن أنشطة العمليات السرية .

كما نود أن نشير إلى أن هذه العمليات السرية ، بأنواعها المتشعبة ، أصبحت تعتمد اعتماداً كلياً على جودة التنظيم والتقدم التكنولوجى وأهمية الخامات البشرية المنتقاة بدقة وذكاء ، واستغلال هذه الطاقات الذهنية لاستخدام كل الوسائل البشرية سواء أكانت حقيقية أم زائفة ، وسواء كانت مشروعة أو غير مشروعة للتغلب على الخصم ، ومنعه من التفوق عليه فى أى ميدان من ميادين النشاط الإنسانى .

وإذ نقدم لقراء العربية كتاب الحرب الخفية ، إنما نهدف بذلك إلى أن نبين للأمة العربية أبعاد هذه المعركة التى يستخدمها أعضاء المجتمع الدولى اليوم فى صراعهم الأليم الذى يتخذ صوراً متعددة إبتداء من إرسال عميل للتجسس على أسرار دولة ما ، إلى القيام بعمليات سياسية سرية تصل إلى حد إجراء انقلابات للحكومات الشرعية ، أو التدخل السافر والتهديد بالقوة .

كما نهدف من وراء هذا الكتاب إلى أن نوضح للقارىء العربى المسئوليات الجسام التى تقع على كاهل منظمات المخابرات ، ونعطى صورة حقيقية عن تلك المهمة الشاقة التى يقوم بها رجال المخابرات ، ونزيل كثيراً من الأوهام التى تلتصق فى أذهان الكثير من الناس ، نتيجة القصص الأسطورية المتناقلة .

وأخيراً فاننا نضرع إلى الله أن يحفظ أمتنا من الفتنة والتصدع ، وأن يلم شملها على أساس الاخوة الصادقة والمصالح المشتركة ، النابعة من وجدان الشعوب العربية الخالصة ، بعيدة عن أى مذاهب مستوردة أو شعارات مزيفة .

كذلك نسأله سبحانه وتعالى أن يهدينا إلى الحق وإلى أن نحرر أنفسنا من قيد النفاق السياسى ، وأن نحاول أن نعرف مكاننا الصحيح الذى لا يمكن أن نحدده الا بالتحرى عن الحقيقة .

والله ولى التوفيق .

صلاح محمد نصر



الفصل الأول

طبيعة أعمال الجاسوسية

دور الجاسوسية

وصف الكابتن فرانزفون رنبلين — وهو من أنجح جواسيس الألمان فى الحرب العالمية الاولى — الدور المعنوى للجاسوسية قائلاً :

إن لكل دولة الحق فى أسرارها الخاصة ، وهى فى نفس الوقت ملتزمة بالمحافظة عليها ولكن نفس هذا المعنى يعطى كل دولة الحق فى أن تكتشف أسرار الدول الأخرى ، ولها أن تعالج الجاسوسية بنفس الروح التى كان ينظر بها « داروين » إلى تشريح الأحياء . إن الذى يبرر هذا العمل هو الرغبة فى التحرى الصحيح لا مجرد حب الاستطلاع اللعين الكريه » . ويضيف قوله :

« ليس هناك فى الغالب جزء من الطبيعة الانسانية مثل الاحتفاظ بالأسرار ».

هذا العنصر من السرية هو العامل الأساسى الذى يجب علينا مراعاته للتمييز بين المخابرات وبين الجاسوسية ، فالإدراك الواضح لهذا التمييز هام جداً للتقدير الصحيح لنشاط الجاسوسية .

فالجاسوسية هى ذلك الجزء من مجهود المخابرات الشامل ، الذى يهدف إلى التفتيش السرى على مجهودات الدول الأجنبية ، للتحقق من قوتها وتحركاتها ، ثم إبلاغ مثل هذه المعلومات إلى السلطات المختصة .

إنها المجهود للكشف بواسطة طرق خفية عن أسرار الآخرين ، وتبعاً للظروف والمصاعب التى تكتنف الجاسوسية فانها تعد واجباً مستقلاً قائماً بذاته ، وان كانت فى تحليلها النهائى لا تزال تعد جزءاً لا يتجزأ من التخطيط الاجمالى الشامل للمخابرات .

والواقع أن الجاسوسية ليست بالشىء الجديد . فهى قديمة قدم التاريخ ، عرفها الانسان وفهم أساليبها بنفس المفهوم الحديث . كانت الجاسوسية بصفة خاصة سلاحا من أسلحة الحرب ، أى أن الدول التى كانت تقاتل أو تستعد للقتال استخدمت الجاسوسية وسيلة من وسائل إبقاء عين ساهرة تراقب العدو فى وقت السلم والحرب ، وان كانت لم تعرف التنظيمات الحديثة للجاسوسية .

الجاسوسية ومصر الفرعونية

ويعد فراعنة مصر أقدم من استخدم العمليات السرية ، وان لم تكن على أساس علمى أو تنظيمى كما عرفت فيما بعد . فالتوجيهات التى أعطاها حورمحب القائد المصرى القديم المظفر إلى سنوحى الطبيب المصرى بعد عودتهما إلى أورشاليم من المعركة التأديبية التى شنها حورمحب ضد العبريين فى عهد امحتب الرابع تعد من أقدم « احتياجات المخابرات » التى عرفها التاريخ فى تشغيل الجواسيس .

لقد وجه حورمحب الحديث إلى سنوحى قائلاً : « ... وأنت يا سنوحى تأمل بلادك فى خدماتك ... وانك أكثر من غيرك احاطة بالأمور ، وأوسع علماً بأحوال البلدان ، وفى وسعك وأنت الحر الطليق أن تنتقل من مدينة إلى أخرى ، وتكشف عن كثب خفايا شئونها . ولو كان لى مثل حريتك ونشاطك

لما ونيت ولا كففت عن الرحيل إلى سائر الممالك والأقطار ، مستزيداً من المعرفة والاطلاع ... كنت أتجه إلى بلاد « ميتاني » و « بابل » وأتعرف على العجلات الحربية التى يستخدمها الحيثيون ، وأنقب عن وسائل تدريب جنودهم ، كما كنت أقصد إلى الجزر فى البحر لأرى السفن الكبيرة التى تتناثر علينا أنباؤها غير الدقيقة . انى واأسفاه لا أستطيع القيام بذلك ، لأن اسمى معروف فى كل أنحاء سوريا ، وحركاتى تقترن بشهرتى ، وهذا يقيدنى ، ولا يهىء لى فرصة التجوال والإرتحال » .

ثم يعود فيقول : « ... أنت تتدثر فى ملابس السوريين ، وتحسن الحديث بلغتهم ولسانهم ، وتجيد فوق ذلك لغة أخرى يعرفها المتعلمون فى سائر أقطار الدنيا ، ثم أنك فوق هذا طبيب وقلما يخطر بذهن أحد أنك تعنى بشىء مما يدور حولك غير ما يقع فى نطاق مهنتك ، وحديثك بعامة يجرى مع الناس هيناً يستميلهم اليك ولا يريبهم فيك ، وقلبك بعيد الغور يختزن الأسرار والملاحظات ولا يفشيها » .

ويضيف قوله : « أتمنى أن تذهب إلى تلك البلاد مزوداً منى بمقدار من الذهب فتباشر بها أعمالك كطبيب ، وهنالك سيكون لك بقدرتك الفنية مكان مرموق وشهرة بعيدة فى علاج المرضى وشفائهم فيقبل الناس عليك ويطمئنون اليك ، ويمهد لك هذا سبيل الإتصال بالأغنياء وأصحاب النفوذ والملوك ، وهؤلاء فى أغلب الأحوال أكثر طلباً للأطباء المهرة ، وعندئذ تستطيع أن تنال مودتهم وثقتهم فيتكشفون لك ، وتعرف من حيث لا يشعرون دخائلهم وأسرارهم ، فاذا ما عدت إلى مصر أفضيت إلىّ بها » .

« إن المأثور عن ملوكهم أن فيهم كبرياء ، فهم لهذا لا يحجمون عن عرض جنودهم المدربين على أعين الغرباء ... إن فى ذلك فرصتك لمعرفة ما أريده عن تسليح جنودهم وعدد عجلاتهم وأنواعها وأحجامها ... هل هى كبيرة ثقيلة أو خفيفة صغيرة ؟ وهل تحمل كل عجلة منها رجلين أو ثلاثة ؟ ولا

يفوتك أن تعرف ما إذا كان الجنود يتناولون غذاءاً كافياً ومبلغ ما هم عليه من قوة وضعف ... ولقد قيل ان الحيثيين اكتشفوا معدنا جديداً يصنعون منه أسلحتهم ، وأريد أن أعرف اذا كان ذلك صحيحاً ، كما يهمنى — بخاصة — أن أعرف قلوب الحكام ومستشاريهم ، وما يدور فى رؤوسهم من اتجاهات وأفكار » .

هذه التوجيهات وان كانت تبدو بسيطة فى مظهرها الا أنها عميقة الهدف تكمن فيها دروس بالغة الأهمية لمن يعمل فى حقل التخابر والمعلومات ، لقد حوت كثيراً من طبيعة أعمال الجاسوسية وظروفها وفلسفتها ومجالاتها التى ستجىء فى فصول هذا الكتاب .

فى ذلك الوقت كانت سوريا جزءاً من امبراطورية مصر ، وكانت بابل وبلاد الحيثيين من أقوى الدول التى تهدد أمن مصر ، فقام الفراعنة باستخدام أرض ميتانى على حدود هاتين الدولتين كدرع تتقى به مصر وسوريا هجمات البابليين والحيثيين .

وفى تلك الرحلة الطويلة التى قام بها سنوحى بعد أن تلقى تعليمات حورمحب بدأ بزيارة بابل ، واستطاع سنوحى أن يقنع الملك بعد أن أبرأه من علته بعمل عرض عسكرى لجيشه ، فشاهدها وهى تسير على الطريق العريض صفوفاً متتابعة من القواد والجنود بحرابهم وسباعهم ، ومن خلفهم تحركت العربات الحربية فى صف واحد وبدت كرمال فى الصحراء .

وألهمته قريحته بأنه لا يكفى أن يسجل فى تقريره المطلوب ، بأن المحاربين فى بابل كعدد حبات الرمال ، بل يجب أن يحصيهم بدقة ، فأخذ يستعرض فى ذاكرته الصفوف التى شهدها ، وكانت المشاة تمر فى تشكيلات متتابعة قوامها ستون رجلاً ، وقد تتابعوا ستين مرة ، كما كانت العربات تمر أيضاً فى تشكيلات من ستين عربة ، وبعملية حسابية بسيطة استطاع أن يعرف قوة الجيش بدقة .

كذلك استرعى انتباهه أن جند الحرس كانوا مفرطى البدانة يبدو على وجوههم شىء من رهقة وعناء ، أما الفرق الوافدة من الأقاليم البعيدة فكان جنودها ضامرين بادين للسمرة من لفحة الشمس ، وملابسهم قذرة ، وأكثرهم من غير حراب ، مما يوحى بالكثير لطالبي المعلومات . وكانت عجلاتهم الحربية بعيدة كل البعد عن شكل عجالة حربية ، إذ كانت تتخلخل في سيرها وتصدر عنها أصوات تنبىء باختلال أجهزتها .

وفى بلاد الحيثيين ، حينما وصل سنوحى فى رحلته الطويلة إلى مشارف « هاتوشاش » كبرى مدن الحيثيين ومقر ملكهم ، رأى أنها مدينة كبيرة ذات مبان شاهقـــة منحوتة من الأحجار ، تقـــع بين الجبال فبدت كحصن منيع . ولقد أوصدها الملك « شوبلوكيوما » فى وجوه الأغراب والأجانب ، فلا يأذن لغير القوافل العابرة بالدخول اليها لتضع أحمالها بين يديها ، وهى غالباً ما تكون محملة بالهدايا المرسلة إليه من الامراء الخاضعين لسلطانه ... وكانت الرقابة تفرض على رجال هذه القوافل خلال اقامتهم بالمدينة إلى أن يرحلوا عنها ، ومن هنا بقيت سرًّا مجهولاً على العالم البعيد .

واستطاع سنوحى أن يقتحم عش النسر ، بالرغم من الصعوبات التى واجهته ؛ فالحيثيون لا يتداوون من المرض ، بل يخجلون من الشكوى منه ، ووصل الأمر أنهم كانوا يقتلون الأطفال المشوهة أو ناقصة النمو عقب خروجها للحياة مباشرة ، كما كانوا يقتلون أرقاءهم المقبلين. ومن ثم وجد أن استخدامه لساتر الطبيب لن يسعفه فى تحقيق غرضه الذى كلفه به حورمحب .

لم يجعل اليأس يتسلل إلى نفسه ، فاستطاع بحكمته أن يعالج سرًّا المرضى الذين كانوا يشكون من مرض الاضطراب العصبى الشائع لديهم ، ونجح في ازالة المرض عن عدد كبير من المواطنين فى الطبقة العليا من الدولة ، فنشأت بينه وبينهم وشائج وطيدة ، وأصبح أثيراً لديهم ، وموضع ثقتهم واحترامهم .

واستطاع سنوحى أن يعرف رئيس محفوظات الملك ، وكان بحكم مركزه

على علاقة مباشرة بدخائل الملك وأسرار مراسلاته المتبادلة بينه وبين البلاد الأجنبية ... وفى جلسة دار فيها الشراب ، انتشى رئيس المحفوظات فاستغل سنوحى الفرصة ، واستطاع أن يعرف منه أن اقتصاد الحيثيين قائم على بيع الأسلحة إلى الممالك الاخرى ، كما علم منه نوايا الحيثيين بالنسبة إلى جيرانها والعالم الخارجى .

كما استطاع أثناء اقامته أن يلم بالمصانع التى تزدحم بها المدينة ، والتى تصنع فيها الأسنة والحراب والعجلات الحربية ، كما تأكد من روح الجندية الشائعة فى السكان ، واعتداد الرجال بوظائفهم فى الجيش ، كما أن شبابهم كان يذهب إلى معسكرات التدريب فى سن التجنيد دون استدعائهم من الدولة .

ولاحظ سنوحى أن أهل المدينة على حذر شديد وحرص ملحوظ عندما يتصلون بالأجانب فهم إما صامتون أو مجيبون بعبارات غير مجدية اذا ما سئلوا ، مثل عبارة « لا أفهم » أو « لا أعرف » كذلك كان أهل المدينة قد تعودوا على الارتياب فى أى أجنبى .

وكان لا بد لسنوحى أن يحصل على عينة من المعدن الذى اكتشفه الحيثيون والذى يصنعون منه أسلحتهم الحديثة . وقد تهيأت له الفرصة فى ميناء الحيثيين وهو يغادرها إلى كريت إذ جاءه رئيس الحركة البحرية بها ، وكان يعانى من مرض تناسلى مزمن فعالجه حتى برأ منه ، وحينما سأله عما يريد من أجر ، أظهر له زهده فى المال ، وطلب منه أن يهديه السكين التى كانت تتدلى من نطاقه الجلدى ليعتز بها كذكرى من صديق .

واعترض الحيثى مبدياً أنها سكين عادية لا قيمة لها . ولم يغب عن بال سنوحى قيمة السكين من ناحية أنها سلعة استراتيجية ، وأدرك أن معارضة الحيثى إنما جاءت نتيجة منع الحكومة لبيعها أو التعامل بها مع الأجانب ، وكان ثمنها يوازى عشرة أضعاف وزنها ذهباً .

ونجح سنوحى فى استدرار عطف رئيس الحركة ، فأهداه السكين نظير أجره على علاجه ، واستطاع بذلك أن يحصل على سر حربى لا يقدر بمال .

على أن « إخناتون » فرعون مصر استخدم سنوحى فى صورة أخرى من أعمال التجسس والحرب النفسية اذ أرسله إلى « عزيرو » ملك عمورية كمفاوض غير رسمى لعقد معاهدة تحالف سرية ، وكجامع معلومات عن نواياه التى تواترت الأخبار عنها بأنه قد تحالف مع الحيثيين ضد مصر ، وأنه ينوى الاستيلاء على غزة التى كانت فى ذاك الوقت من ممتلكات مصر تحتلها حامية مصرية . كما انتشرت الأنباء عن نوايا « عزيرو » لإشعال الفتنة بين مصر وسوريا .

واستطاع سنوحى وهو المحنك المدرب ، أن يحقق أهدافه بعد أن بث الرعب فى ملك « عمورية » بالإشادة بقوة فرعون ، بعد أن حاوره بمهارة فائقة ليبين له أهمية تحالفه مع فرعون مصر ، والمنافع التى ستعود عليه نتيجة ذلك .

قال سنوحى له : « ... ونصيحتى لك يا ملك الملوك ، أن تقطع علاقتك بالحيثيين ، فهم غير أهل لثقتك ، وما أسرع أن يتألبوا عليك ، ليطيحوا بالتيجان من فوق رأسك وليحطموا رأسك فى الوقت نفسه ... إن الغدر والخيانة طبيعة فيهم ، وخير لك وأجدى أن تعقد الصلح مع فرعون وتدعهم مشتبكين فى المعارك مع ميتانى وبابل ... وانى إذ أنصحك بمسالمة فرعون ومصالحته ، انما أنظر فى الأمر نظرة الصديق ، لا أخدعك ولا أداجيك ... ذلك أن فرعون لن يرسل اليكم فى الشتاء القمح الذى كانت مصر ترسله وافراً من قبل ما دمت تقف هذا الموقف ، ونتيجة هذا أن تلم بكم حتماً مجاعة فاتكة ، غير ما يحيط بكم من غدر الحيثيين وخيانتهم » .

ولما حاول عزيرو المراوغة والصلافة قام سنوحى بإرهابه مبيناً له قوة

مصر ، وهدف فرعون القوى فى مناشدة السلام فقال له فى نبرة قاسية مهددة :

« ماذا تقول يا « عزيرو » أيها السفاح ؟ ... ألا تعلم أن مصانع مصر فى كل أنحاء المملكة السفلى لا تنفك تعمل ليلاً ونهاراً فى صناعة الدروع والأسلحة ، وغيرها من أدوات القتال . ان لدى حورمحب من العجلات الحربية ما يربو عن عدد البراغيث التى تسرى فى فراشك ... وانها لتوشك أن تنقض عليك انقضاض الصواعق فى موسم الحصاد . لقد أعماك غرورك عن إدراك هذه الحقيقة ، وأغرتك بفرعون دعوته إلى السلام ، وهو لا يدعو اليه عن ضعف ، وانما يدعو اليه حقناً للدماء ، ويجب أن تعلم أن حورمحب الذى ذاعت شهرته فى الآفاق ، غير راض عن هـذا السلام ، وليس لك قبل بقوته ، وعليك أن تنظر فى الأمر بحكمة والا فستندم حين لا ينفع الندم . أما غزة فلن تفرط مصر فى قيد أنملة من أرضها ، وستحتفظ بها رضيت أنت أم لم ترض » .

ونجح سنوحى فى اقناع ملك عمورية ، واستطاع أن يعقد معاهدة سلام معه ومع المدن السورية كلها ، على أن تبقى غزة لمصر ، ويكون لفرعون حق افتداء الأسرى المصريين وشراء الارقاء .

وبالرغم من تلك المعاهدة لم تكن سوى مجرد خطوط رسمت على ألواح الطين ، اقتضاها من جانب « عزيرو » إدراكه للظروف القاسية التى تحيط به ، واقتضاها من جانب فرعون ايمانه برغبة آلهه « آتون » ، غير أن هذه المعاهدة كانت أضعف من أن تحقق السلام الذى تنشده ، ذلك أن السلام سيبقى إلى حد كبير رهين نوايا الحيثيين بعد عودتهم من « أرض ميتانى » ، كما أنه يتوقف على مبلغ صمود بابل ، ومدى قوة سفن كريت الحربية فى حماية التجارة البحرية . هذه كلها عوامل خارجة عن نطاق المعاهدة ، ولها مؤثراتها الفعالة على السلام بشكل عام .

إستخدام هانيبال للجواسيس

وقد استخدم هانيبال القرطاجى الجواسيس إستخداما أصيلاً ، ففى حملة صقلية مثلاً كان يحاصر إحدى المدن الساحلية التي تقع على مرتفع من الأرض يطل على جنوده ، ولما مرت عدة شهور دون أن يستولى عليهـا ، أدرك أنه لن يستطيع تحقيق ذلك دون أن يلم إلماماً تاماً بدفاعاتها ومن ثم فقد استدعى عميلاً له كان قد أبدى مهارة فى مهمة سابقة ووضع معه خطة العمل .

وتخفى العميل فى ثياب جندى من أهل صقلية له تاريخ طويل فى القتال ، وادعى أنه حينما سمع بما تعانيه المدينة قرر أن يحضر لعرض خدماته .

واستطاع الجندى بتلك الحيلة أن يدخل المدينة واتخذ سكناً بمنزل فى أعلى التل . ولما كان الجندى ذو الحنكة فى القتال له دراية بقضاء حاجاته ذاتياً ، فقد راح يتجول فى المدينة ويدرس تحصيناتها دون اثارة أى شك . كما أن إعداد طعامه بنفسه لم يكن يثير أى شك .

وكان يبدأ فى طهى طعامه فى فناء المنزل المكشوف بعد أن يكون الجميع قد انتهوا من طهى طعامهم وأخمدوا كل نيرانهم ، وكان دخان النيران هو وسيلة الاشارة بين العميل وبين هانيبال الذى كان يراقب اتجاهات الدخان من مكانه في السهل البعيد .

ولما كان دخان نيران العميل وحده الواضح ، لم يكن ثمة أى احتمال لحدوث أى تضارب فى الاشارات .

كما استخدم هانيبال الجاسوسية الاقتصادية وبخاصة فى تقدمه نحو روما ، فقد أرسل قبل حملته التى قاد فيها الفيلة عبر جبال البو بسنوات عدة جيشاً من العملاء السريين ليعمل فى وادى نهر البو وفى سهول الألب السفلى . كانت مهمتهم التجسس على المنطقة والحصول على معلومات عن مدى خصوبة الأرض ومعنويات الأهالى وحالتهم المعيشية .

وعلى أساس هذه المعلومات وضع الكثير من خططه التى قربته من النصر النهائى .

أهمية القوة البدنية للجواسيس قديماً

على أنه كانت لقوة الجواسيس البدنية أهميتها فى ذاك الوقت حيث كان السفر والتجول يحتاج إلى بذل مجهود بدنى كبير . وثمة مثل لذلك نجده فى قصة جواسيس القائد الرومانى سيبيو الأفريقى * في حملته ضد سيفاكس ملك توميديا ** حليف هانيبال القرطاجى ، فقد بعث سيبيو إلى سيفاكس سفيراً ليناقش معه أمر الهدنة بين الجيشين ، ولكنه أرسله فى الواقع ليتعرف على قدرة التوميديين على القتال .

وقد اختار فى هذه المهمة أحد كبار قادته « لليوس » وبعث معه بعض ضباطه متخفين فى ثياب الرقيق ، وقد بدأت مهمة لليوس فور وصوله إلى معسكر سيفاكس بورطة شديدة اذ أشار أحد ضباط سيفاكس إلى أحد العبيد وصاح قائلا : —

« إن هذا العبد ضابط رومانى التقيت به مرة فى مدينة قريبة وانه كان يرتدى ثياب الرومان » .

وتفتقت فوراً قريحة لليوس عن حيلة بارعة ، إذ استدار نحو الضابط المتخفى ، وضربه بيده على وجهه عدة ضربات سريعة وهو يوبخه على أنه عبد رقيق قد ارتدى ثياب الضباط الرومان ، وزعم لنفسه مكانة ليست له ،

---

* سيبيو عاش بين ٢٢٧— ١٨٣ قبل الميلاد هزم هانيبال سنة ٢٠٧ ق . م . كان له حفيد بالاسم نفسه عاش بين ١٨٥ — ١٢٩ ق. م. وكان هو الذى دمر قرطاجة سنة ١٤٦ ق.م.

** توميديا مملكة قديمة على الساحل الشمالي لأفريقيا كان أهلها يتكلمون لغة من اللغـات الحامية أطلق عليها اسمهم وقد تحولت الى ولاية رومانية بعد انتهاء الحروب مع قرطاجة فى سنة ١٤٦ ق. م .

ولحسن الحظ أن الضابط تلقى الضربات فى سكون ، وأحنى رأسه فى خضوع ومذلة كما يفعل الرقيق ، وبذلك اعتقد رجال سيفاكس أن الرجل فعلاً من الرقيق ، لأنهم لم يتصوروا إطلاقاً أن ضابطاً رومانياً يمكن أن يتحمل هذا الضرب المهين دون أن يثأر لنفسه .

وكان سيفاكس قد أعد لحماية معسكره بعض التحصينات ، ولما كان يشك فى نوايا لليوس فانه قد أبقى لليوس ومن فى رفقته على مسافة بعيدة من معسكره ، وبالطبع كان ذلك معوقاً لمهمة لليوس ورجاله ، فأخذوا يفكرون حتى اهتدوا إلى حيلة ، اذ أطلقوا أحد جيادهم ، وراحوا يطاردونه بطريقة أزعجوه ، حتى أنه أسرع نحو معسكر سيفاكس ، وأسرعوا خلفه يطاردونه حول المعسكر بل وفى داخله .

وحينما أمكن الإمساك بالجواد ، كان الرجال قد عرفوا أوضاع التحصينات ومدى قوتها .

وأخفقت مهمة لليوس فى الاتفاق على الهدنة حسب المخطط ، وبعد عودته بوقت قصير هاجم سيبيو معسكر سيفاكس ، وأشعل النار فى التحصينات ، وأربك خطوط قواته ، حتى اضطر سيفاكس إلى أن يطلب الصلح .

نظرة الحكومة إلى الجواسيس

لا جرم أن الجاسوسية لم تعرف قديماً التنظيم الحديث لمنظمات الجاسوسية بشكلها الراهن ، ومع ذلك فإن نتائجها أثمرت فى كثير من الحالات عبر التاريخ .

ولقد ازدادت أهمية الجاسوسية فى وقت السلم منذ القرن السادس عشر ، وأخذت أساليبها تتطور نتيجة التقدم العظيم فى التكنولوجيا كما أوضحت فى مكان آخر .

ويعد الجواسيس أو العملاء من ناحية عادة كالآلات ، تتطلب الكثير من النفقات كما تحتاج إلى وقت طويل للانتفاع منها .

وينظر إلى الجواسيس — حتى بواسطة حكوماتهم — كمنبوذين ومجرمين . وقد يكون ثمة أسباب تجعل الناس تنظر إلى الجاسوس على أنه انسان سيء أو شرير ، فان عمله يقوم على الخداع والتضليل ، كما أنه يعمل على سرية تامة ، وهذه السرية والغموض اللذان يحيطان به هما السبب فى هذه الصورة السيئة التى تعلق فى أذهان الناس .

وفى الماضى كان أولئك الذين يستخدمون الجواسيس ينظرون إليهم نظرة ازدراء ، فمثلاً اعترف نابليون بالفضل لكارل شولميستر ، ومع ذلك فقد رفض صراحة أن يمنحه وسام جوقة الشرف الذى ألح الجاسوس العظيم فى الحصول عليه .

وقال نابليون معلقا على طلبه هذا : « ان أعمال الفروسية التى وضع لها الوسام لا تتمشى مع ما يقوم به الجاسوس من أعمال » .

وعلى نقيض ذلك ، كان الملك جورج الخامس يعترف بالجاسوس وينوه بأنه من أشجع الرجال ، ويعد ذلك شجاعة من الملك ، اذ إن الحكومات فى هذا العصر كانت تتنكر للجواسيس اذا ما قبض عليهم ، وتنكر كل صلة لها بهم ، وفى نفس الوقت تعمل عن طريق خفى لمعاونتهم وتسهيل أعمالهم وحمايتهم بل تبذل كل طاقاتها لبقائهم ، والمحافظة على حياتهم .

الجواسيس عمل شاق باهظ التكاليف

ان الجاسوسية عمل صعب مجهد ، يتطلب نفقات باهظة قد لا تحقق ما يوازى هذه النفقات فى بعض الأحيان ، وفى أوقات أخرى يمكن الحصول على معلومات قيمة بأقل النفقات ، ومثلها هنا مثل المقامر ، تارة يربح ربحاً

فاحشاً ، وتارة يخسر خسارة فادحة . أى أن الجاسوسية لا يمكن أن نقارنها بالتجارة ، أو نشبهها بعمليات البيع والشراء .

ولقد أثبتت التجارب أن الجواسيس يجيئون فى كثير من الأحوال بنتائج ليست لها أهمية كبيرة وأنهم قد يضيفون القليل إلى المعلومات التى يمكن الحصول عليها بوسائل المخابرات العادية المكشوفة .

إن العميل الذى يرسل إلى دولة أجنبية بتعليمات للحصول على كل ما يمكن الحصول عليه من معلومات دون أن يحدد له المطلوب منه ، لا يجيء بنتائج تتعادل مع الوقت الذى يقضيه هناك ، ولا مع الجهد الذى يبذل لأجاه ، والأموال التى ينفقها ، وقد يحدث أن يصل هذا العميل إلى معلومات لها قيمتها الحقيقية ولكن ليست هذه القاعدة دائمة ، وانما هى مسألة تجيء بالصدفة وحدها دون أى شيء آخر .

وغالباً ما تفضل منظمات التجسس استخدام الأهالي المحليين أى سكان البلاد الأجنبية فى أعمال التجسس ، ولذا فهى تقوم بتجنيد بعض المواطنين فى الدولة الهدف ، وتدفع لهم الأجر نظير المعلومات التى يحصلون عليها ويمدون بها منظمات التجسس التى تجندهم .

عمل الجاسوس

ويعن أن نتساءل هنا : أى نوع من الرجال تتطلبه أعمال الجاسوسية ؟

للإجابة عن ذلك يجب أن نحدد أو نعرف العمل الذى يسعى الجاسوس لتحقيقه ، كما يجب أن نتعرف على الظروف التى يعمل فى ضوئها .

إن عمل الجاسوس هو البحث عن المعلومات السرية ، ومعنى أن هذه المعلومات سرية ، فانها توضع تحت حراسة دقيقة ، ومن ثم يتعين عليه قبل

الوصول إليها ، أن يخترق كل تدابير الأمن ، وأن يمر من بين صفوف عديدة من الحراس .

والجاسوس فى تحقيقه لمهمته لا يتقدم نحو الحراس شاهراً مسدسه فى يده ، ثم يطلب منهم تسليم الوثائق الهامة ليأخذها وينصرف ، انما يقوم بمهمته فى الحصول على المعلومات دون أن يحس به أحد ، مثله فى ذلك مثل اللص الذى يتسلل الى مكان ما ليسرق شيئاً معيناً وهو فى أثناء ذلك يفكر فى أمنه وسلامته ووسيلة فراره .

والفرق الوحيد بين العميل واللص — بعيداً عن الشيء المسروق — هو أن الجاسوس يؤدى مهمته وهو يحاول أن يشعر صاحب المكان أنه لم يحدث به أى شيء ، اذ غالباً ما تساعده آلة التصوير التى يحملها فى تصوير المستندات والوثائق المطلوبة ، ثم يعيدها إلى مكانها بحرص حتى لا يثير شك أى مخلوق .

وهكذا فإن الجاسوس فى حصوله على المعلومات ، يجب أن تكون وسائله وأساليبه مختفية تماماً ، وهذه الوسائل تفرض عليه كثيراً من المعوقات المعطلة التى يجب أن يتغلب عليها قبل أن ينجح فى عمله .

فهو أولا يجب أن يعرف تماماً نوع وقوة المقاومة التى تواجهه ، فاذا ما عرف هذا ، وجب أن يعمل للوصول إلى طريقة يمكن بها أن يشل هذه المقاومة .

وعادة ما يواجه العميل واحداً من احتمالات ثلاثة : —

١ — أن تكون المعلومات المطلوبة مدونة في وثائق ، ومن ثم فعليه أن يحصل على نسخة من هذه الوثائق . ولهذا يجب أن يخدع الحراس ، وأن يفتح أقفال الخزائن الحديدية ، وأن يقوم بدور اللص .

٢ — أن تكون المعلومات من النوع الذى يمكن الحصول عليه ، بالمراقبة الشخصية ، كأن تكون مواقع تحصينات ، أو معدات عسكرية ، أو منشآت

سرية . ويتطلب ذلك زيارة عدة أماكن مما قد يثير الشبهة ضده ما لم يتخذ بعض احتياطات الأمن المضادة ، وهذا النوع من العمل من ناحية المبدأ أكثر خطورة من عملية السرقة ، حيث تكون كل أنواع المخاطر معروفة من قبل ، وحيث يمكن اعداد التدابير المضادة .

٣ ـ أما الإحتمال الأخير فهو الأكثر خطورة ، اذ يقوم الجاسوس باستخلاص المعلومات من شخص ، وتتمثل الخطورة هنا فى مدى دهاء هذا الشخص الملم بالمعلومات . ومن الضرورى فى مثل هذه الحالة أن يحصل الجاسوس على ثقة ضحيته ، وأن يستخدم أقصى ما يمكن من الدهاء فى القيام بهذا العمل وفى استخلاص المعلومات منه .

وعلى ذلك فالمسألة اذن مسألة مواجهة المخاطر فى صورة ما ، فالجاسوس حينما يقوم بسرقة الوثائق قد يستطيع أن يبقى مستورا حتى ولو أخفق ، بينما قد يتعرض للكشف عن حقيقته فى عملية المراقبة قبل أن يتم عمليته .

وهكذا نجد ان أولى الصفات التى يجب أن تتوافر فى الجاسوس هى أن يكون على درجة عالية من الشجاعة البدنية ، وأن يكون قادراً على السيطرة على أعصابه ، فمهما تكن الأفكار التى يواجهها فانه سيكون فى حد ذاته عبئاً على نفسه وعلى زملائه ، ربما كان ذلك غير معروف له ، ذلك لأن الخوف قبل أى شىء آخر يؤدى إلى خيانة النفس ، وأى تردد فى الذهاب إلى أماكن ما نتيجة الاحساس بالتعرض لخطر بدنى أو الخوف من السيطرة على أعصابه ، يجعل العميل غير صالح للعمل إطلاقا .

صعوبة إخفاء أنشطة الجاسوسية

وتتصف أعمال الجاسوسية بالتعقد وصعوبة إخفائها ، كذا تعرضها للخطر المستمر من أجهزة مكافحة التجسس ، وفى القصة التالية تبرز هذه الصفات .

والقصة عن الزوجين « موللر » العجوزين وعميل إنجليزى أرسل خصيصا لمعاونتهما فى الحرب العالمية الثانية . كان هذان الزوجان يملكان فندقاً صغيراً فى « برونزيو تلكاوج » عند الطرف الجنوبى لقناة كييل التى تربط بحر البلطيق ببحر الشمال ، وكانا موضع تقدير بحارة الغواصات الألمانية التى تعبر القناة فى طريقها للعمليات فى البحر الفسيح فى الأطلنطيقى ، وكانت عادة هؤلاء البحارة أن يقوموا بزيارة للفندق قبيل رحيلهم مباشرة لاحتساء زجاجة من الجعة الألمانية فى أرض الوطن ، كولاء وطنى لمواطنين محبوبين .

وقد وضعت لهذه الحفلات تقاليد مرعية ، ففى نهاية كل حفل لوداع مجموعة من البحارة كان « موللر » العجوز يقدم سجل الزوار للبحارة ليوقعوا فيه بإمضاءاتهم كتذكار لهذه الزيارة .

وكان البحارة يسارعون بجهل بالتوقيع وهم جذلون ، وحينما يذهب البحارة ويقفر الساحل ، يحمل « موللر » السجل ويهبط إلى بدروم الفندق ويسير فى ممر أرضى إلى منزل مجاور ليقدم هذا السجل لرجل ينتظره هناك ، هذا الرجل هو العميل الانجليزى الذى ينقل هذه الأسماء ويرسلها باللاسكى إلى بريطانيا .

وبهذه الطريقة استطاعت مخابرات الأسطول الانجليزى أن تعرف أن غواصة ألمانية قد خرجت للعمل ، ولكن الأهم من هذا هو أنه بمعرفة اسم قائد الغواصة أمكن معرفة حمولتها ومدى طاقتها على العمل ، بل وحتى طبيعة العمل الذى ستقوم به .

أسلوب العمل

على أن توافر الصفات والخاصيات التى يجب أن تتوافر فى الجاسوس والتى ذكرناها فى الفصل الخاص من الجزء الأول لا تكفى إطلاقاً لتكون وحدها كافية لكى تجعل الجاسوس صالحاً للانغمار فى المهنة ، فهذه الخاصيات ليست

فى الحقيقة إلا بعض ضروريات بداية المهنة ، والتى قد تساعد العميل فى اداء مهمته بعد أن تتوافر له تفاصيل فنية عملية ، وبعد أن يبذل مجهوداً شاقاً من التدريب .

والعميل فى الغالبية رجل غريب فى أرض غريبة بالنسبة له ، ولهذا يجب أن يعد بعناية الأسباب التى تدفعه للتواجد بها ، كما يجب أن تبدو هذه الأسباب صحيحة منطقية لا تثير الشك فى تواجد العميل بالمنطقة التى يعمل فيها .

والجاسوس الجيد هو الذى يضيع فى خضم المجتمع الذى يعيش فيه ... هو ذلك الرجل الذى يبدو كشخص عادى لا تظهر منه الخاصيات التى تجعل منه جاسوساً ناجحاً .

ويعمل العملاء فى الميدان بأسلوبين : الأسلوب الأول أن يعملوا فرادى كالذئاب الضارية التى تخرج وحدها تبحث عن فريستها ، وفى هذه الحالة يعمل العميل دون أى معونة خارجية ، ولكن مثل هذه الوسيلة نادرة الحدوث ، نادرة النجاح ، إلا إذا التقى العميل برجل أو إمرأة واستطاع أن يستخلص منهما المعلومات المطلوبة . أما الأسلوب الثاني فهو العمل فى أطقم وهذا هو الشائع ، وفى مثل هذه الحالة يحتاج الطاقم مهما صغر حجمه إلى وسيلة اتصال بين أفراده ، كما يحتاج اتصالاً مع المكتب الرئيسى لمنظمة الجاسوسية فى أرض الوطن ، ويكون فى هذا المكتب الشخص الذى وضع التخطيط ونظام المهمة ويبقى مسيطراً على سير العملية باستمرار بمراقبته للعملاء بواسطة وسائل الاتصال الميسرة .

ومن الواضح أن العملاء الذين يعملون فى الميدان ، لا يستطيعون أن يذهبوا إلى المصارف ليسحبوا النقود التى يحتاجونها ، ذلك لأن أى حساب جار قد يكشف عن حقيقة أعمال الشخص ، حتى ولو كان العميل من الذين يقيمون إقامة دائمة طويلة فى البلاد .

كما أنه لا يستطيع أن يوضح وسائل كسبه ، ولا أن يدفع ضريبة الدخل

عما يكسبه من الجاسوسية كما يفعل أى فرد من ذوى الدخل العادى ، ولهذا فإن كل العمليات الخاصة بالنقود فى ميدان عمل الجاسوسية تقوم على أساس الأخذ والعطاء ، أى على أساس أن يحمل العميل معه نقداً يستطيع استخدامه لتوه .

وغالباً ما تستخدم منظمات الجاسوسية وسائل إخفاء ماهرة عند ارسالها نفقات الجواسيس ومستحقاتهم ، لأن النقود التى يحتاجها العملاء تكون بعملة البلد الذين يعيشون فيه .

ومن النادر أن يترك الجاسوس لنفسه مهما كان صغر حجم الدائرة التى يعمل فيها ، اذ من الضرورى أن يكون ثمة أشخاص غيره يعملون معه ويستند اليهم فى عماه .

فهناك مثلاً « عميل اتصال » وهو ما يطلق عليه الفرنسيون اصطلاح Agent-de-Liaison وغالباً ما يكون هـــذا من أهالي الدولة التي يعمل في أرضها . كما أن هناك عملاء واجبهم استضافة الجاسوس ، أي يعدون له عناوين إقامة عند بعض الناس الذين يمكن أن يختفي عندهم في الظروف الحرجة أو يتمكن من استخدام جهازه اللاسلكي عندهم ، أو يبقى لديهم بعض الوقت لتمويه تحركاته وسترها .

ولكن بالرغم من وجود هؤلاء المعاونين فان الجاسوس رجل يعيش فى وحدة ، بل من المفيد أن يبقى نفسه بمعزل عن كل صحبة قد تسبب فقدم لأمنه ووقايته .

وتبذل منظمات الجاسوسية منذ البداية جل طاقاتها لدراسة ما يمكن أن يواجهه العميل أثناء عمله فى الميدان ، كما تعمل أيضاً على تحذيره من حيل الإيقاع به كما سيرد تفصيلاً فيما بعد ، كما تقترح عليه وسائل وسبل اخرى تمكنه من النجاة أو الفكاك . وتقوم هذه المنظمات بإعداد الجاسوس ليستطيع

مواجهة كل المواقف الحرجة التى يحتمل أن تواجهه ، وتعد له منذ البداية ما يقلل من فرص تعرضه للخطر أو إلقاء القبض عليه .

والجاسوس أمامه عدو ضخم يتمثل فى قوى مقاومة الجاسوسية بجميع أجهزتها على كثرتها وقوتها وتخصصها ، فضلاً عن سكان المجتمع الذى يعيش فيه ، وأمام هذه القوى مجتمعة لا يكون الجاسوس أكثر من شىء هزيل .

وبلا جدال هذا الشخص الذى يستطيع أن يوجه ضربة قاضية فى وجه خصم قوى كهذه القوى مجتمعة ويتحدى كل هذه الصعوبات التى تواجهه ، إنما هو إنسان يستحق الإعجاب والتقدير .

وثمة نقطة هامة تؤثر فى أعمال الجاسوسية وهى اشتراك الخصوم فى لغة وتراث واحد ، وأبرز مثال لذلك فى الحرب الأهلية الامريكية ، اذ كان تعاطف الناس مع جانبى الفريقين ما جعل مهمة التجسس الأساسية سهلة : بينما جعل مهمة التجسس المضادة شديدة الصعوبة . ومع ذلك تدل الوثائق على وجود عدد قليل من عمليات الجاسوسية الممتازة التى قام بها كلا الفريقين ، وإن كانت عمليات الجاسوسية قاصرة على الأهداف المحلية المؤقتة ، وقد عبر عن ذلك أحد الكتاب بقوله « لقد كانت عمليات الجاسوسية التى قامت فى سنة واحدة فى أية مدينة ايطالية فى القرون الوسطى ، أكثر مما كان فى سنوات الانفصال الأربع للحرب الأهلية » .

ويرجع ذلك إلى أسباب عدة ، فمثلاً لم يكن لدى أى من الجانبين تنظيم للمخابرات عند نشوب الحرب ، كما لم تكن هناك خبرة واسعة لدى العسكريين فى ذلك الوقت ، اذ كان زعماء مقاومة الاستعمار قبل الثورة يتآمرون ويقومون بحرب سرية محدودة ضد البريطانيين لعدة سنوات ، وعندما أصبح النزاع سافراً ، كان لهم عدد من المصادر النشطة الذين عملوا لحسابهم فى انجلترا ، كما كانت لهم أساليب مجربة للعمل سراً فى الداخل .

وكان الجنرال واشنطون رئيساً موهوباً للمخابرات . وكان يدير بنفسه كل

جهود مخابرات القوات الأمريكية إلى درجة أنه كان يشترك شخصياً فى كل عملياتها الهامة ، ولكن لم يكن هناك جنرال له نفس الموهبة من بين جنرالات الاتحاد .

ومن ناحية أخرى لم تكن الحرب الأهلية بطبيعتها حرب مفاجآت أو أسرار . كانت ثمة جيوش ضخمة تعسكر فى مكان واحد مدة طويلة ، حتى إذا بدأت تتحرك إنتشر نبأ تحركها مقدماً وتلقائياً ، وكان واشنطون برجاله القلائل يستطيع أن يضلل البريطانيين بنشر أنباء كاذبة عن قوته ، كما كان باستطاعته أن يحرك قواته بسرعة لدرجة أن البريطانيين كانوا يعجزون عن اللحاق به فى المكان الذى كان به فى اليوم السابق ، وخاصة عندما كان واشنطون يلم مقدماً خلال شبكات مخابراته بتحركات البريطانيين .

وفى بداية الحرب الأهلية ، كان التنظيم فى الجانب الشمالى معروفاً ، لدرجة أن حركات قواته كانت واضحة لكل من كانت تعنيه معرفتها . ويقال ان الجانب المتحالف لم يكن لديه قط مثل هذه المخابرات الممتازة لمعاونته .

على أن من أول أحداث ذلك الوقت التى أوضحت فيه الحاجة إلى بناء جهاز تجسس سرى ، تلك المؤامرة التى دبرت فى « بالتيمور » لاغتيال « لينكولن » وهو فى طريقه إلى حفل الافتتاح الأول فى فبراير من عام ١٨٦١ . كان « الان بنكرتون » بعد أن نال بعض الشهرة كمخبر خاص لشركة السكك الحديدية ، قد استخدم بواسطة بعض مؤيدى لينكولن لحمايته . وقد تمكن بنكرتون من أن يجعل لينكولن يصل واشنطون بسلامـــة ، وذلك بأن جعل قطار الرئاسة يمر عبر بالتيمور دون اعلان سابق فى وقت متأخر من الليل . وفى نفس الوقت اندس عملاء بنكرتون بين متآمرى بالتيمور وراقبوا بدقة كل نشاطهم .

أجر العمل وتعويضاته

وقد يبدو لنا أن نتساءل : هل من حق العميل أن يرفع على الدولة قضايا يطالب فيها بتعويض أو أجر متأخر عليها ؟ . قد نجد الإجابة على ذلك فى القضية التالية : كان لينكولن يستأجر عميلاً خاصاً فى مهمة مخابرات عسكرية وقت معركة « بل رن » ، ولم يكتشف ذلك الا عندما رفعت قضية ضد الحكومة طلباً لدفع نقود . ففى مارس ١٨٧٦ نظرت محكمة الولايات المتحدة العليا قضية يطالب فيها « انوك توتين » الحكومة بدفع تعويض مقابل خدمات أداها « وليم لويد » طبقاً لعقد أبرم مع الرئيس لينكولن فى يوليو ١٨٦١ حيث يقوم لويد بمقتضاه بالتوجه جنوباً للتحقق من عدد القوات العسكرية فى نقط مختلفة فى الولايات الثائرة ، وكذا الحصول على تصميم القلاع والاستحكامات ، وتقديم هذه الحقائق للرئيس لينكولن . وذهب لويد إلى خطوط الثوار وبقى هناك طيلة فترة الحرب ، وجمع المعلومات وأرسلها إلى الرئيس من وقت لآخر. وبعد أن وضعت الحرب أوزارها ، دفعت له نفقاته ولكن لم يدفع له مرتبه الشهرى — ٢٠٠ دولار — الذى كان قد وعده به لينكولن . وتبدو أهمية هذه القضية بالرغم من قصورها على هذه الحقائق ، فى أنها تلقى الضوء على بعد نظر لينكولن فى ذلك الوقت ، والطريقة السليمة التى عالج بها الأمور خلال هذه السنوات الأربع الطويلة التى استغرقتها الحرب . وقالت المحكمة العليا معلنة رأيها وهو « ... وكان الواجب أن يحتفظ المخدوم والعميل بسر العلاقة التى كانت بين كل منهما وبين الموضوع » .

كذلك كانت القضية سابقة تفيد أن عميل المخابرات لا يستطيع أن يسترد عن طريق المحكمة نقوده نظير خدمات سرية أداها . وقالت المحكمة: « ... ويجب على العملاء أن يتناولوا تعويضاتهم من البند المخصص من الإدارة التى استخدمتهم . ان السرية التى تفرضها مثل هذه العقود تمنع رفع أى قضية

لالتزام تنفيذ العقود » . وكان هذا بمثابة تحذير للعميل بأن واجبه يقتضيه أن يتسلم نقوده فى حينه عند إتمام العملية .

تكييف أعمال التجسس مع الظروف

وفى الفترة التى أعقبت الحرب العالمية الثانية ، اتجه كل من الشرق والغرب إلى استخدام رجال الحرس الألماني ومجرمى الحرب فى كل من ألمانيا الشرقية والغربية فى أعمال التجسس .

وهذا الأسلوب يوضح سرعة تكييف أعمال التجسس مع الظروف السائدة ، فقد اكتشفت منظمات الجاسوسية عاملين قويين يمكن استغلالهما حيال هؤلاء الناس ، الأول وضع العملاء ــ طبقاً لموافقة كل الحلفاء ــ ضمن قائمة الأشخاص المطلوب القبض عليهم ، أما العامل الاخر فكان إرهاب العملاء المنتظرين بتنفيذ حكم الإعدام فيهم .

ولكن هل هناك وسيلة أفضل لتجنيد أحد العملاء من أن ترجىء إعدامه ، أو تعفيه من سجن لمدة طويلة اذا ما وافق على أن يقوم بالتجسس فى مقابل هذا الجميل ؟ .. هذا هو الخط الذى سار عليه السوفييت فى ألمانيا الشرقية . أما فى ألمانيا الغربية فقد كان من نتيجة حل النازية أن أصبح من الصعب جداً على أحد أعضاء الحرس الألماني أو الجستابو أو أى منظمة نازية مشابهة أن يحصل على عمل محترم ، فكثير من هؤلاء الذين رأوا أياماً زاهرة فى عهد النازى فقدوا كل السلطة وأصبحوا متعطلين ، وعانوا الضيق . وكان موقفهم تجاه سلطات الاحتلال الامريكية والبريطانية سلبياً . كانوا أشبه بفاكهة ناضجة يمكن للغرب والشرق أن يقتطفوها ، ويستخدمونها للخيانة ، وكانوا لا يشعرون بأن فى عملهم خيانة ، اذ إنهم كانوا يحسون بأنه لا يربطهم بألمانيا ، وهى تحت الحكم العسكرى الأجنبى أى ولاء مباشر .

ومن هذا النوع كانت حالة « هاينز فيلف » وهو ضابط كبير في جهاز

مخابرات ألمانيا الغربية ، وقد تمّ القبض عليه بوساطة زملائه ورؤسائه فى نوفمبر من عام ١٩٦١ بعد أن كان قد كشف عن كل ما يعرفه إلى السوفييت عندما التحق بذلك الجهاز منذ أكثر من عشر سنوات ، بل استطاع بالاضافة إلى ذلك أن يجند بعض زملائه من رجال الحرس الألماني .

وكان الثمن بالنسبة للسوفييت بخساً — عبارة عن العفو عن الخطايا السابقة لرجال الحرس الألمانى مع بعض المال وحماية لهم فى المستقبل — ولكنهم كانوا يعملون والسيف مسلطاً فوق رؤوسهم بحيث يقضى عليهم لو فكروا فى خيانة السوفييت . وقد استطاع السوفييت أن يلتقطوا كل رجال الحرس الألمانى الذين عثروا عليهم ، ومعظمهم كانوا من ذوى الطموح ، عديمى المبادىء ، وقد نجح قلة منهم فى ارتقاء سلم الخدمة المدنية فى ألمانيا الغربية ، وكان « فيلف » أحد هؤلاء ولذلك كان السوفييت يجزلون له العطاء .

كانت حالة « فيلف » من حالات التجنيد السوفيتى المستند على ماض نازى ، وكان جهاز الأمن السوفيتى على استعداد أيضاً لاستغلال العلاقات الشيوعية القديمة الخفية ، حيث تكون الضحية تعمل فى الغرب ، وحيث يكون مستقبله يعتمد على الايحاء بأنه لا توجد بينه وبين الشيوعية أى علاقة . وكان هذا منطبقاً على الحالة الهامة — حالة الفريد فزتول — وهو أحد أعضاء برلمان ألمانيا الغربية البارزين ، وكان قد انتخب أول مرة عام ١٩٥٣ ، وظل عدة سنوات يفشى أسرار الدفاع عن ألمانيا الغربية للشيوعيين ، ونظراً لأهمية هذا الموضوع فقد شرحنا ذلك بالتفصيل فى فصل قادم .

هاتان القضيتان توضحان أهمية ضرورة تكيف منظمات الجاسوسية مع الظروف السائدة وتوضح كيف تعمل هذه المنظمات على استغلال كل الامكانيات الممكنة لتسخير الناس فى أعمال التجسس .

التكنولوجيا والجاسوسية

وفى هذا العصر حيث أصبح للعلم والتكنولوجيا مركز الصدارة ، يتفق العلماء على أن العالم يواجه الآن ثورة جديدة لا يستطيع الإنسان أن يتكهن بنتائجها .

فاستخدام الطائرات وتجارب غزو الفضاء قد أحدث ثورة كبيرة فى مفهوم الجاسوسية وامكانياتها .

ولنضرب بذلك مثلاً فى حادث طائرة التجسس الامريكية « U2 » التى خرجت فى ربيع عام ١٩٦٠ من مطار بباكستان لتقوم بعملية تجسس شاسعة فوق أرض الاتحاد السوفيتى . فبالرغم من أن وزارة الخارجية الامريكية أنكرت فى بادىء الأمر قيام الطائرة بالتجسس ، الا أن السوفييت أعلنوا عن ذلك صراحة ، مما جعل ايزنهاور يعلن أنه هو الذى وجه هذا النوع من العمليات .

وقد يكون فى سردنا تفاصيل هذا الحادث إبراز لدروس وملامح جديدة فى مجال التجسس . ففى يوم ٧ مايو من عام ١٩٦٠ أعلن خروشوف أمام مجلس السوفييت الأعلى أن الطائرة « U2 » الامريكية قد أسقطت من الجو بواسطة صاروخ سوفيتى ، حيث كانت على ارتفاع ٦٨,٠٠٠ قدم ولمسافة ١٢٥٠ ميلاً داخل أرض الاتحاد السوفيتى .

وأجابت وزارة الخارجية الامريكية على بيان خروشوف بقولها : على قدر ما تعلم سلطات واشنطون ، لا توجد رحلات جوية بالصورة التى وصفها مسيو خروشوف .

ولو ترك الامريكيون الأمر عند هذا الحد لسلكوا السبيل العادى التقليدى فى الجاسوسية ، وهو سبيل إنكار الجاسوس الذى تم القبض عليه .

ولكن الذى حدث هو أن وزير الدولة « هيرتر Herter » ، أصدر فى

يوم ٩ من مايو بياناً يتناقض تماماً مع البيان السابق ، إذ قال : إنه فى ضوء قانون الأمن القومى لسنة ١٩٤٧ ، كان الرئيس ايزنهاور قد أصدر توجيهات منذ توليه الحكم للقيام بمثل هذه العمليات ضد الاتحاد السوفييتى ، وتبعاً لهذه التعليمات ، وضع برنامج تطور إلى عمليات استكشاف أمريكية فى المجال الجوى للاتحاد السوفييتى .

ويبدو أن اعتراف أيزنهاور بموضوع الطائرة « U2 » له دلالته على أنه لم يكن سياسياً محترفاً ، بل كان رجلاً شريفاً لم يحب أن يكون طرفاً فى مناورة سياسية تقوم على أكاذيب ، حتى ولو كانت المسألة جملة وتفصيلاً كذبة سياسية يمكن فهمها وتقبلها .

لا جرم أن رجال السياسة يعرفون أن حكوماتهم تستخدم الجواسيس ، وهم على استعداد للانتفاع بنتائج عمل الجواسيس ، ولكن ليس من الحقيقى انهم يعرفون تفاصيل ونشاط الجواسيس ، واذا كان الزعماء السياسيون لا يقتنعون بنفس الطابع من التجاهل ، فانهم ولا شك يسببون لجواسيسهم الكثير من الاضرار والاساءة .

فالاعتراف من حكومة الولايات المتحدة بأن الطائرة « U2 » كانت فى مهمة للجاسوسية ، معناه أن « فرنسيس باورز » قائد الطائرة الذى أمسك به السوفييت حياً ، قد صدر قرار إدانته من حكومته حتى قبل أن يقدمه معتقلوه إلى المحاكمة وكان من الواضح أيضاً أن السلطات الامريكية قد وضعت فى أيدى الدعاية الروسية سلاحاً قوياً طواعية منهم .

وزاد من سوء الحال وتعقد الأمور ، خروج نيكسون نائب الرئيس الأمريكى فى ذاك الوقت فى حديث تلفزيوني بمحاولة لتبرير البيان الأول الخاص بالابحاث الجوية فى المجال الجوى ، مؤيداً وجهات نظر الرئيس ووزارة الخارجية فى حق الولايات المتحدة التجسس على الاتحاد السوفييتى .

وقد حاول أن يبرر هذه السياسة بقوله : إن الطائرات والسفن السوفييتية

قد قامت بعمليات تجسس فوق وتجاه محطات الرادار الامريكية عدة مرات فى الماضى .

ولم تقف عمليات التجسس العلمية عند هذا الحد ، إذ لا تزال تتمثل أمام أذهاننا حادث سفينة التجسس الامريكية « ليبرتي » التى ساعدت الاسرائيليين فى العمليات الحربية فى معارك يونيو من عام ١٩٦٧ ، وكذلك حادث أسر كوريا الشمالية لسفينة تجسس أمريكية فى مياهها الاقليمية فى أوائل عام ١٩٦٨ .

إن ما سبق لهو الصورة لطبيعة أعمال التجسس ، وقد حاولنا أن نتحدث فيه بإيجاز غير مخل ، حتى يستطيع القارىء أن يقرر مدى خطورة أعمال التجسس على العلاقات الدولية ، ويفرق بين تلك الخيالات التى قد تثيرها روايات الكتاب وإثارات الأفلام السينمائية ، وبين الجاسوسية كعلم وفن له أساليبه وتخصصاته العلمية .

مراحل عملية الجاسوسية

على أن عملية الجاسوسية تمر بمراحل مختلفة ، ولكل مرحلة منها قواعد خاصة ، وستتناول الخمسة فصول التالية المراحل الرئيسية فى معركة الجاسوسية والتى يمكن تبويبها تحت البنود الآتية : —

— إختيار العميل وتجنيده .
— التدريب العام والاعداد الخاص للعمل الذى يقوم به الجاسوس .
— إعداد الساتر الذى يعمل الجاسوس من ورائه .
— وسائل الإتصال والنقل .
— تدبيرات الأمن للعميل ، وتعد هذه أصعب جزء فى العملية كلها .

* * *

الفصل الثاني

الاختيــار والتجنيــد

أهمية المهارة في التجنيد

تعد مهمة تجنيد عملاء جدد للعمل فى شبكة جاسوسية من أكثر النشاطات صعوبة وخطورة لمنظمات الجاسوسية . ومنذ اللحظة الأولى فى هذه العملية يجد العميل الذى يقوم بمهمة التجنيد نفسه فى مركز حرج ، ذلك لأنه عندما يعرض على شخص ما إقتراحاً بتجنيده لجهاز أجنبى ، فان معنى ذلك انه يقول له أنه أصبح جاسوساً يعمل لحساب منظمة أجنبية ، وبهذا يكون العميل قد كشف عن شخصيته لهذا الشخص حتى قبل أن يعطى هذا الشخص رده النهائى ، فاذا كان الرد بالنفى فان النتيجة هى أن العميل قد كشف عن شخصيته .

هذه نقطة توضح لنا مدى المهارة والدهاء اللذين يجب أن يتصف بهما العميل الذى يقوم بمهمة تجنيد آخرين ، وتبين لنا كيف أن هذا العميل يجب أن يكون قادراً على إصدار حكم سليم على الرجال ، وأن يكون قادراً على اتخاذ هذه الخطوة بحذر بالغ حتى يستطيع التقهقر سريعاً .

إن المسلم به أن منظمات الجاسوسية تبحث دائماً عن الرجال أو النساء القادرين على تسليم أسرار هامة تسعى إليها هذه المنظمات ، والخطوة الأولى أمام منظمة التجسس هى أن تكتشف من هم هؤلاء الناس ، وأين هم ، وما هى الأعمال التى يقومون بها ، وما هى آراءهم ومعتقداتهم، وما هى حياتهم الشخصية وأطماعهم ، وما هى النواحى الخلقية فيهم ومواطن الضعف فيهم ، وأهم من هذا كله قيمتهم الكبيرة كمصادر للمعلومات .

وقد تحدثنا من قبل — فى الجزء الأول — عن الدوافع التى تدفع العميل لاختيار ميدان الجاسوسية كعمل له ، فقد يكون وطنياً أو عقائدياً ، أو يكون بحثا عن المال أو كسب شخصى أو ارتباطات عاطفية أو حب المغامرة أو لإخفاء جريمة مرتكبة ، أو نتيجة انحرافات الشذوذ الجنسى أو أى رذائل أخرى .

على أنه يجب أن نذكر هنا أن وسائل التهديد بالتشهير كوسيلة لتجنيد العملاء فى العمليات الأجنبية طريقة خطرة ، وسلاح ذو حدين ، قد يرتد فى وجه الشخص الذى يقوم بعملية التجنيد سواء كان ضابطاً أو عميلاً رئيسياً ، فالشخص الذى يقوم بالتجنيد يباشر عمله على أرض دولة أجنبية ، وقد يكون مصيره فى أيدى العملاء الذين يحاول تجنيدهم .

وفى ضوء هذه الظروف ، فان من المجازفة بمكان أن تحول مواطناً صالحاً إلى خائن ، ثم تعتمد عليه فيما بعد فى مسألة دقيقة خطرة مثل عملية التجسس .

وهناك حالات لذلك ، فمثلاً لجأ الأشخاص الذين هددهم العملاء إلى سلطاتهم واعترفوا للسلطات بأخطائهم ، ونالوا العفو فى مقابل تقديمهم مساعدتهم للسلطات للإيقاع بالعميل الأجنبى المنوط به تجنيد عملاء جدد .

ولما كان العملاء يعملون فى بلد أجنبى بالنسبة لهم حيث تختلف اللغة وعادات الناس فإن منظمات الجاسوسية تفضل الأشخاص الذين يتحدثون لغة هذا البلد ولهم دراية بعادات سكانه .

ولقد كان لهذا الاعتبار الأهمية الأولى عند اختيار العملاء وتجنيدهم لأعمال الجاسوسية ، فمثلاً قد يمكن إرسال عميل سويسرى يجيد الحديث بالألمانية ويعرف عادات أهل ألمانيا . ومع ذلك فقد يكون من الضرورى أن يقصر استخدامه فى أجزاء محدودة من ألمانيا ، حيث تتفق لهجته فى الحديث بالألمانية مع اللهجة المحلية للأهلين . وعلى أية حال فان دقة معرفة اللغة واللهجة التى يتحدث بها الأهلون مع الإلمام التام بعادات السكان ، هى من أولى الأسس التى يقوم عليها اختيار العملاء واستخدامهم فى الجاسوسية .

واذا طبقنا ذلك على قطبى المعسكرين نجد أن هذا الاختيار أو الاستخدام ليس مشكلة بالنسبة للمنظمة السوفييتية للجاسوسية التى تسحب عملاءها من العدد الكبير الذى يمثله أعضاء الأحزاب الشيوعية الدولية ، كما أنها ليست مشكلة بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية التى تستطيع اختيار هؤلاء العملاء من أبنائها الذين هم من أصل أجنبى ، أو تتخذهم من بين اللاجئين الفارين من الاضطهاد ، أو من المنفيين السياسيين .

على أن بريطانيا تتغلب على هذه العقبة باختيارها من تأمل في استخدامهم كجواسيس فى سن مبكرة ، فتشجع الشبان على الاقامة فى البلاد الأجنبية والانخراط وسط المجتمعات التى يعيشون فيها ، وبذلك يعدون أنفسهم لما سيوكل إليهم من مهام وأعمال فى البلاد التى نشأوا فيها .

ومن وجهة نظر الدافع أو الباعث الإنسانى ، فإن أسباباً كثيرة متنوعة وتقديرات وحسابات وانفعالات ، تهدى وترشد الناس إلى الطريق أثناء قيامهم بعمليات الجاسوسية الخطرة .

أوجه الشبه بين الروائي ومخطط شبكات التجسس

وهناك وجه شبه كبير بين الروائى المبدع وبين الشخص الذى يبنى شبكة تجسس ، فهو يختار الناس ويستدرجهم إلى مغامرات التجسس ،

ويرشدهم فى معركة الدهاء التى لا نهاية لها .

ولكن هناك فارقاً أساسياً بين الروائى وبين رجل المخابرات . فالروائى يتابع على الورق انفعالات وعواطف وأعمال أشخاص وهميين . أما رجل المخابرات الذى يبنى شبكة الجاسوسية ، فانه يتعامل مع أشخاص حقيقيين ، ويوجه أحاسيسهم وأعمالهم . فإذا جعل الروائى أبطال قصته يسلكون سلوكاً يتنافى مع العقل والحكمة ، أى سلوكاً مخالفاً لكيانهم السيكولوجى ، فان الناقد الأدبى سرعان ما يضع اصبعه على هذا العيب ويهاجم الروائى الذى خلق موقفاً لا يمكن تصديقه . أما رجل المخابرات الذى يبنى شبكة التجسس ، فانه اذا وضع خطة ما ، وأدخل فيها ارتباطات متناقضة غير منطقية ولا يمكن تصديقها ، فان خطته سوف تنتهى بالفشل ، وسوف يجد أبطاله الأحياء أنفسهم وراء القضبان .

ولذلك فقد صار الدليل الأكبر على كفاءة رجل المخابرات ومهارته ، هو قدرة العميل السرى على وضع خطة مخابرات سليمة محكمة ... خطة تتضمن جماعة من الناس لهم ميولهم المتنافرة . ان نجاح العميل يتوقف على قدرته لجعل هؤلاء الناس يتعاونون معاً لإمداد المنظمة بالمعلومات الثمينة .

أساليب الاختيار

ويفضل رجل المخابرات السوفييتى فى عمله السرى أن يتعامل مع رجال ونساء كرسوا أنفسهم للمبادىء والمثل العليا للشيوعية ، أو الذين يعطفون على أهداف وسياسات الاتحاد السوفييتى ، اذ إن مثل هؤلاء الناس يضحون بكل ما لديهم ويمكن الاعتماد عليهم .

ولقد حققت المخابرات السوفييتية نجاحاً كبيراً عن طريق الخدمات التى تتسم بالولاء والاخلاص والتى قدمها عملاء من هذا النوع . وفى تلك

الحالات عندما اعتقل بعضهم فانهم تحملوا أقسى عقوبة ، ولم يحاولوا تخفيف تلك العقوبة عن طريق افشاء أسرار زملائهم . وبالرغم من ذلك فان الحكومة السوفييتية لا تميل إلى استخدام أعضاء الأحزاب الشيوعية الأجنبية الذين يحملون بطاقات العضوية فى أنشطة التجسس ، لأن هذا يحط من وطنية الأحزاب الشيوعية المحلية ويصورها بأنها مجرد فروع مساعدة لوكالات الجاسوسية فى الاتحاد السوفييتى ، وليست أحزاباً سياسية وطنية تستحق الثقة .

ويواجه اليابانيون مشكلة التجنيد فى صورة أكثر تعقيداً ، فان أشكال وجوههم ومظاهرهم البدنية تجعلهم بمعزل عن باقى سكان العالم ، ولهذا فقد حلوا هذه المشكلة على أساس اقتصار استخدامهم لعملائهم المدربين على أعمال التنظيم والادارة والاشراف واستخدموا بعض الأفراد من الشعوب « القوقازية » للعمل كجواسيس عاملين فى الميدان .

ويفضل الألمان والايطاليون استخدام العملاء من قوات الجيش الخاص بالدولة الهدف ، كما يقوم الألمان باختيار العملاء من الرعايا الألمان المقيمين فى الخارج ، أما الايطاليون فانهم يستغلون الجاليات الايطالية الكبيرة التى تعيش فى البلاد التى تستخدم ايطاليا فيها الجواسيس للحصول على ما تريد من معلومات .

وتتم عملية الاختيار بواسطة اخصائيين ، وهؤلاء – تبعاً لمواهب الكشف المتوافرة لديهم – يتخيرون من يصلح لهذا الاستخدام ، ثم يوجهونهم للفرع الخاص بعملية الاستخدام فى منظمة الجاسوسية . وتتم تدريجياً عملية اختيار من يقع عليه الاختيار لضمه لمنظمة الجاسوسية ، ولكن لا يتم استخدامه فعلاً إلا عندما يجتاز اختباراً قاسياً عنيفاً للتثبت من صلاحيته .

أهمية العوامل العاطفية

وثمة صورة أخرى من التجنيد تعتمد على أساس المصالح العاطفية وأواصر

القرابة ، ولكن أغلب المنظمات لا تميل إلى هذا الأسلوب لا بسبب أنه أمر مهين خلقياً ، بل لأنه أيضاً مصدر قلق فى نهايته ، وهو عادة قصير العمر ، وقد ينتهى أحياناً بانفجار قد يؤدى إلى تدمير خطة المخابرات كلها .

ولقد ظهرت هذه الطريقة « الرومانتيكية » فى حيز الوجود نتيجة للجهود المتواصلة التى بذلتها المخابرات السوفييتية لتجنيد فتيات يعملن كسكرتيرات أو ككاتبات اختزال أو ككاتبات الشفرة ، أو كمساعدات إداريات فى إدارات هامة فى الحكومات الأجنبية ، مثل إدارات الدفاع ، أو الادارات الخارجية ، وخاصة النساء اللائى يعملن كسكرتيرات خاصات لأعضاء مجلس الوزراء .

ويستخدم كثير من منظمات الجاسوسية نفس الأسلوب فى البلاد الأخرى ، فالنساء الشابات يمنن بالحب والزواج ، ومنظمات المخابرات مستعدة لتوفير الحب ، ولأن تعطى أملاً بتحقيق الزواج .

وتختار إدارة المخابرات السوفييتية — بعناية — شباباً يتصف بالوسامة والخلق الطيب والثقافة ، ويسعى هؤلاء الشباب إلى التعرف أولاً بأصدقاء تلك الفتيات ، ويقوم الأصدقاء أو الأقارب — فيما بعد — بتقديم ضباط المخابرات الشباب إلى هؤلاء أو أقاربهن الفتيات أنفسهم .

وعندما يتحول الغرام إلى قصة حب — وعادة ما يصاحبها خطوبة رسمية أو سرية — تدبر لعبة مناسبة حتى يشرح للفتاة السبب الذى يدفع حبيبها إلى قراءة الوثائق السرية التى تقع فى أيديها ، كأن يخبرها حبيبها بأنه قد عرضت عليه وظيفة مراسل صحفى بجريدة أجنبية ، وهى وظيفة سوف تؤمن له مستقبله المالي وتتيح لهما الفرصة للزواج .

وفى تلك الحالات التى يكون مستوى الفتاة العقلى ووسطها الاجتماعى يبرران سلوكاً معيناً من جانب ضابط المخابرات ، فان العاشق الشاب — وهو رجل المخابرات — قد يلجأ إلى أسلوب مباشر ويكشف لها عن المثل العليا

للاشتراكية والعدالة بالنسبة إلى جماهير الشعب المستغلة . فاذا ما أظهرت الفتاة اهتماماً ، فانه قد يتدرج إلى مصارحتها بأن من واجبه أن يساعد الاتحاد السوفييتى بتقديم معلومات عن المؤامرات المناهضة للسوفييت ، التى يدبرها الرأسماليون الماكرون .

وفى عام ١٩٣٩ كانت هناك سكرتيرة شابة جذابة فى وزارة الخارجية الألمانية ، وكانت تتباهى بجمالها ذى الطابع « النوردى » ، وكانت تعطف على النازيين مما جعلها تسرق البرقيات الدبلوماسية لحبيبها ، لأنها كانت تعتقد أنه من أتباع « هتلر » المخلصين ولكنه لم يكن فى الحقيقة سوى شيوعى ألمانى يعمل فى خدمة المخابرات السوفييتية .

والعجيب حقاً أن حالات الحب الزائفة المخادعة التى أعدتها ورسمتها المخابرات السوفييتية انتهت بزيجات حقيقية دائماً .

تناقض الطباع

والعميل من ناحية أعماله يتميز بالدهاء والشجاعة ، أما فى طابعه العادى كمخلوق بشرى ، فقد يمضى دون أن نرى فيه شيئاً من هذا .

ففى أثناء الحرب العالمية الثانية كان القسم الدنماركى فى المنظمة التنفيذية للعمليات الخاصة ، ينقصه الأفراد الذين يمكن أن يقال عن كل منهم « العميل الصالح » ، ذلك لأن غالبية الدنماركيين خارج أرض الوطن الذين يمكن استخدامهم بواسطة المنظمة للقيام بأعمالها ، كانوا من رجال البحر الذين يعملون على السفن التجارية ، وهؤلاء ينم منظرهم عنهم ، كما أن لهم طبائعهم وصورهم التى اعتادوها تبعاً لطبيعة حياتهم العملية ، وهم لا يعرفون النظام إلا حينما يكونون على ظهور السفن فى البحار الواسعة .

وحياة البحار على السفن التجارية حياة قاسية عنيفة ، وغير طبيعية ،

تدفعهم إلى الانطلاق إلى الناحية الجنسية كلما سنحت أول فرصة ، فالمعروف أن ٩٥ ٪ من هؤلاء البحارة بمجرد أن ترسو سفنهم على الساحل ، يندفعون سراعاً إلى أقرب خان لاحتساء كأس أو اثنين ، ثم يندفعون اندفاعاً إلى أقرب ماخور لاداء ما يسمى « الاستجابة لنداء البدن » .

وأهم ما يلاحظ هو أن هؤلاء البحارة ينصرفون تماماً حينما يفرغون من عملهم إلى التحدث عن النساء ، وعن العلاقات الجنسية ، ومن الطبيعى فهم يتحدثون فى هذا المجال بسبب الضغط الذى يطغى على عقولهم نتيجة تلك الحياة القاسية .

ولا تشغلهم المقامرة عن هذا ، لأن أوراق اللعب تشغل اليدين . ولكن العقول تظل دائماً فى كل وقت مشغولة بالعلاقات الجنسية وباستعادة ذكريات التجارب السابقة مع النساء فى أكثر من ميناء وفى أكثر من قارة . كل يفخر بخبراته وغزواته فى ميدان الحب ، وكل لا يحمل فى ذاكرته الا مغامرة غرامية مع صديقته التى لا تفضلها امرأة أخرى .

وكان هؤلاء البحارة الدنماركيين الذين يوضعون فى الصف الأول بين بحارة العالم حينما يكونون فى أعالى البحار ، ينقلبون إلى طابع آخر عكسى ، يناقض تماماً الطابع الأول حينما ينزلون إلى الساحل فى الدنمارك المحتلة ، فهم لم يتعودوا أن يخضعوا لنظام ما وهم على الساحل ، ولا يمكن أن يعرفوا النظام حتى لو واجهوا الاعتقال أو الموت ... ولهذا كان الكثيرون منهم الضحايا التى أجهدت حركة المقاومة الدنماركية فى بدايتها .

ومن ثم نجد أن هناك عملية صعبة فى محاولة تجنيد أفراد من هؤلاء الناس للاضطلاع بدور العميل الناجح .

إختبارات الإختيار

وتعد الولايات المتحدة الدولة الوحيدة فى العالم التى تختار عملاءها السريين

على أساس اجتياز اختبارات عملية ، وقد نظمت هذه الاختبارات ، ووضعت أصولها فى أثناء الحرب العالمية الثانية بواسطة هيئة أركـــان حرب المنظمة للجاسوسية ، والتى تخيرت مركزها فى مكان ما بولاية فرجينيا ، وكان أولئك الذين يقع عليهم الإختيار يقضون بها ثلاثة أيام كاملة ، يمرون طوالها باختبارات نفسية وبدنية قاسية تماثل تلك التى يتعرضون لها فعلاً فى أثناء عملهم فى الميدان ، ويعطى لهم أثناء الاختبارات أسماء مستعارة وشخصيات تخالف حقيقة هويتهم فى الحياة العامة ، وبذلك يمكن فى أثناء هذه الاختبارات العنيفة أن يواجهوا مواقف متنافرة مختلفة .

ومن أمثلة هذه المواقف لقياس مدى دقة من يقع عليه الاختيار فى الملاحظة مع صواب الرأى وجودة الاستنتاج ، أن يؤخذ الفرد إلى غرفة نوم ، ويقال له بأن عميلاً قد أقام بها لعدة أيام ، وأن هذا العميل الأجنبى عند رحيله ترك وراءه بعض حاجاته المختلفة ، بين قطع من ملابسه ، وأوراق مكتوبة وجدول زمنى وقطع من الصحف ، ويطلب من الشخص الذى يختبر أن يفحص بعناية هذه الأشياء وأن يستخرج ما يمكن أن يصل اليه من معلومات عن الشخص ، وأن يقدر طوله وحجم جسمه ، ولا يعطى له وقت أكثر من أربعة دقائق للقيام بالفحص والدراسة والاستنتاج .

وتستمر التجربة ثلاثة أيام للاختبار وقياس طاقة الفرد فى تحمل الضغط والاجهاد ، فمثلاً يمثل حادث القبض على العميل بأن يؤخذ إلى غرفة صغيرة ضيقة فى الطابق الأرضى حيث يوضع فى مواجهة ضوء ساطع جداً ، ثم تظلم الغرفة فجأة ، وتنطلق صرخات مختلفة تعلو وتنخفض ولكنها لا تهدأ ، وذلك بقصد تقدير مدى تحمل أعصاب العميل ، ومدى قبوله للانهيار العصبى تحت ضغط الإجهاد العصبى . والاختبار هنا فى الواقع يماثل إلى حد بعيد طرق الاستجواب بواسطة الشرطة فى الدول الدكتاتورية .

والأفراد الذين يجتازون هذه الاختبارات يستخدمون ويضمون إلى فروع

منظمة الجاسوسية تبعاً للمواهب الخاصة التى تكشف عنها هذه الاختبارات .

وربما كانت الولايات المتحدة هى الدولة الوحيدة فى العالم التى تحتمل كل هذا الجهد ، وكل هذه النفقات لاختبار عملائها السريين .

ولكن قيمة هذا كله لا تتضح إلا بعد أن يتم استخدام هؤلاء الناس فعلاً فى الميدان . ويدل سجل القسم الطبى لمنظمة « خدمة العمليات الاستراتيجية الامريكية » على أن النساء والرجال الذين اجتازوا هذه الاختبارات من النادر أن يتعرضوا للانهيار العصبى أو ما شابهه ، مهما تكن الصعاب التى واجهوها فى الميدان ، على نقيض أولئك الذين اختيروا للعمل دون أن يمروا بهذه الاختبارات .

ولم تتوان إسرائيل عن أن تستغل كل الامكانيات البشرية والسيكولوجية والمادية فى تجنيد عملائها ضد العرب . وقد ساعدها فى ذلك انتشار اليهود فى جميع أنحاء العالم مما هيأ لها فرصة سهولة عملية التجنيد .

ولما كنا قد تحدثنا عن أسلوب إسرائيل فى التجنيد فى الفصل الخاص بمخابرات اسرائيل بالجزء الأول ، فاننا نكتفى بما جاء بذلك الفصل ليوضح للقارىء الوسائل والامكانيات الميسرة لإسرائيل ، والتى تمكنها من التغلغل فى أى دولة من دول العالم ، بحثاً عن المعلومات السرية ، وتحقيقاً لأهدافها التجسسية .

* * *

الفصل الثالث

تــدريــب العميــل

أنواع التدريب

بعد أن يتم اختيار العميل ، ينضم إلى المنظمة التى ستقوم بتدريبه قبل أن تعده للعمل فى الميدان . ويمر العميل بنوعين من التدريب ، تدريب ابتدائى عام ، وتدريب خاص .

فالنوع الأول يهدف إلى أن تتوافر للعميل الدراية والمعرفة لكل المراحل العملية للمهمة التى سيقوم بها ، كما يهدف إلى تزويد العميل بما يحتاجه من المهارة لتنفيذ ما يوكل اليه ، ويعده لمواجهة كل الاحتمالات والمواقف التى سيتعرض لها .

ولا يعنى برنامج التدريب العام بالدراسات التى يمكن أن يشملها برنامج التدريب للأخصائيين ، والفكرة فى هذا أن كلاً من هؤلاء الأفراد الذين يعدون للعمل ، انما تتوافر له المعرفة والدراية الأساسية بالميدان الذى سيعمل فيه ، ولذا فليس ثمة من سبب لتدريبه على أشياء لن يستخدمها .

ويدرب العملاء السريون فى مدارس خاصة للجاسوسية ، ويتبع التدريب الأولى لكل الأفراد خطوطاً محددة ، تتفرع بعد هذا فى مرحلة راقية تالية إلى أقسام وميادين فيها طابع التخصص . ويشبه هذا إلى حد ما نظام التدريب فى كليات الطب ، والتى تتطلب الدراسة فيها توافر دراية كبيرة من الطالب فى بعض العلوم الأساسية قبل أن يسمح له بالتخصص .

على أن ثمة فاصلاً فى تدريب العملاء بين الدراسة الأساسية وبين الدراسة الراقية ، ففى الدراسة الأساسية يتلقى الفرد الموضوعات التى يجب أن يعرفها ويلمّ بها كل عميل ، أما الدراسة الراقية فتعد أساساً لإيجاد اخصائيين تتوافر لهم مهارة فردية كل فى ناحية خاصة .

أما التدريب الخاص للعميل ، فهو فى الواقع عملية تعليمية مجردة من القيم المادية التى يمكن أن تقاس بها ، ويهدف برنامج هذا التدريب الخاص إلى بناء القوى الداخلية فى شخصية الفرد ، وذلك بغرض جعله يتيقن من أهمية الجهد الذى يبذله ، كما يهدف إلى خلق قوى الولاء والثقة واحتمال المسئولية فى شخصيته .

والعادة أن يدرب العميل على إدراك أهمية أى معلومات يلتقطها ، ولو بدت أول الأمر غير ذات قيمة ، كما يدرب على القدرة على الملاحظة أو بمعنى أوضح دقة المراقبة .

ويدرب العميل كذلك على قراءة الخرائط ، ودراسة الوثائق ، وكذا على تمييز المنشآت المدنية والعسكرية ، والشكل العام للطائرات والسفن الحربية ومعرفة كل نوع منها ، وتمييز الآلات وأجزائها والمهمات والكسى العسكرية ، وعلامات الوحدات وفروع القوات المسلحة المختلفة .

ومن المواضيع الهامة التى يجب أن يشملها برنامج التدريب إستخدام البوصلة والتليسكوب وكيفية التقاط الصور الفوتوغرافية ، علانية أو بوسائل سرية ، وكتابة التقارير .

كما يجب أن يدرب العملاء على دراسات لزيادة إلمامهم بلغات وعادات الناس الذين سيعملون بينهم فى المستقبل .

أسلوب التدريب الألماني

وقد يكون فى دراستنا لوسائل التدريب الألمانية فائدة كبيرة لما حوته من كثير من الأساليب التى أخذت بها الدول الكبرى وخاصة الولايات المتحدة وبريطانيا .

بالرغم من أن ادارة المخابرات الألمانية فى الحرب العالمية الاولى ، لم تكن قد أتمت اتساعها إلى الحجم الذى تفرضه ضروريات الحرب على هيئات المخابرات ، الا أنه كانت هناك ثلاث مدارس لتدريب العملاء .

كانت إحدى هذه المدارس وأهمها موجودة فى « بادن بادن » تحت ادارة الميجر « جوزيف سالونيك » بهدف تنسيق التدريب للخدمة السرية الألمانية والنمسوية .

وكانت مدرسة بادن بادن تفرض نظاماً صارماً فيه الكثير من التزمت على طلبتها ، فهم بمجرد أن يلجوا بابها ينتهى وجودهم كأشخاص ويصيرون مجرد أرقام . وهم يعيشون رجالاً ونساء فى نظام عسكرى قاس ، ويقيمون فى غرف صغيرة ، ويمنحون مبالغ صغيرة اسبوعياً لنفقاتهم الخاصة . وكانت الفصول الدراسية تبدأ فى الثامنة صباحاً وتنتهى فى ساعة متأخرة ليلاً ، كما كانوا يختبرون فى استخدام الحبر السرى ، وقراءة ورسم الخرائط وتدابير الأمن .

والواقع أن الأمن كان يحتل مكان الصدارة فى برنامج التدريب ، وان كان عدد قليل جداً من العملاء الذين تخرجوا من مدارس الجاسوسية

الألمانية هم الذين نفذوا عملياً هذه التعاليم التى لقنت لهم أثناء دراستهم فى تلك المدارس .

على أن ثمة مسألة « مشتركة » فى كل معاهد تدريب الجواسيس ألا وهى إعطاء الطلبة أسماء كودية ، ومن المحظور عليهم أن يذكروا أو يكشفوا عن حقيقة أسمائهم أو عن ماضى حياتهم ، كما أن عليهم ألا يذكروا شيئا عن المهام التى توكل إليهم .

وكان كل طلبة بادن بادن يعيشون فى مساكن خاصة بهم ، وكان يحظر عليهم الالتقاء فى ساعات فراغهم ، ولكن الأغرب من هذا أنهم يضعون على الأجزاء العلوية من وجوههم أقنعة أثناء وجودهم فى فناء المعهد ، وكانت التعليمات المستديمة تنص على أن ينصرف الطلبة فى نهاية اليوم الدراسى بفاصل ثلاثة دقائق بين كل اثنين ، ومن ثم لا يعرف أى منهم أين يعيش الآخر ولا يحاول التعرف عليه ، وكان للمعهد عدد من المخبرين السريين الذين يراقبون الطلاب مراقبة دائمة فى أثناء تواجدهم خارج المدرسة .

ولقد وضعت أساليب تدريب العملاء الألمان بواسطة أخصائية عرفت فى المؤلفات التى جاءت عن الجاسوسية باسم الملازم « شارجموللر » وهى آنسة شقراء جميلة تخرجت من جامعة فرايبورج وحصلت على درجة الامتياز ، كما تخرجت من مدرسة بادن بادن للجواسيس بنفس الدرجة .

وقد تطوعت الآنسة شارجموللر فى فجر الحرب العالمية الأولى لمعاونة الكولونيل « نيكولاى » من مكتب مخابرات القيادة العليا ، واستطاعت بذكائها أن تقنع نيكولاى بارائها الخاصة عن تدريب الجواسيس ، فسمح لها بأن تنظم مدرسة تتولى فيها هذا التدريب .

ولقد طبقت أغلب مدارس الجاسوسية الحديثة هذه الطرق التى وضعتها شارجموللر ، سواء فى ألمانيا أو بريطانيا أو الولايات المتحدة .

وأرسلت شارجموللر للتدريس فى مدرسة جديدة للجاسوسية أنشئت فى انتورب ، لإعداد عملاء اخصائيين مهرة ، بقصد ارسالهم لداخل بريطانيا وإلى الموانىء الفرنسية على القنال الانجليزى ، وكذا للرقابة على نظام الجاسوسية الجيد الذى أقامه الحلفاء فى هولندا المحايدة ، وقد رقيت الدكتورة شارجموللر إلى رتبة عسكرية أكبر ، ووجهت للانضمام لهيئة التدريب فى مدرسة انتورب .

كان الطلاب يحضرون إلى هذه المدرسة فى عربات مسدلة الستائر ويدخلون إلى المبنى من الباب الخلفى ، وكان الباب يفتح من الداخل آليا بمجرد وصول العربة إلى الباب ، ثم يدلف الطالب إلى المنزل فتتلقفه الدكتورة شارجموللر التى ترشده إلى المكان الذى سيقيم فيه حتى يتم تدريبه ، وكان فى هذا المكان عادة غرفة جيدة الرياش فيها مكتبة صغيرة وخرائط وكتب دراسية مع بعض وسائل التسلية ، ويظل باب الغرفة مغلقاً من الخارج ، فلا يفتح إلا عند إحضار الطعام إلى الطالب .

وفى الأيام الأولى يظل الطالب تحت رقابة مستمرة دون أن تعطى له أية فرصة لمعرفة شىء عمن يقومون برقابته ، أو لأن يشعر حتى بهذه الرقابة .

وتوجد فى كل غرفة مرآة سحرية يمكن لأى شخص من خارج الغرفة أن يرى ما يحدث فى داخل الغرفة فى أى وقت ، وبهذه الطريقة استطاعت الدكتورة شارجموللر أن تعرف اتجاهات الطلبة ، وعلى الاخص مدى طاقتهم على تحمل الوحدة .

فاذا ما انتهى الاسبوع الأول على اقامة الطالب بالمدرسة ، بدأ المدرسون يفدون إليه فى غرفته الواحد اثر الآخر ، ليلقنوه لهجة الحديث فى البلد الذى سيوجه للعمل بين سكانه ، ثم يحضر إلى غرفته الأخصائيون الذين يعلمونه استخدام الشفرة واللاسلكى والحبر السرى ، وما إلى ذلك من الوسائل التى سيستخدمها فى عمله ، والتى يجب أن يتقن استخدامها إلى مستوى كبير . فاذا ما أتم الطالب تدريبه أدى امتحانا عملياً فى غرف خاصة ، وذلك ليثبت

أمام الممتحنين مدى حصيلته مما لقن من دروس وما طالعه من الكتب التى كانت فى غرفته ، وبذلك يمكن التثبت من مدى صلاحيته للعمل فى الجاسوسية .

ولم يستخدم الألمان قبل تلك المرأة أية نساء كمدرسات للجاسوسية ، ولا يوجد ما يدل على أنهم نقلوا هذا مرة ثانية بعدها ، ولكن لم يكن هذا مدعاة للعجب ، لأن شهرة « إليزابيت شارجموللر » لا تزال ذائعة الصيت ، ولا يزال كل الذين دربوا فى مدرستها يشعرون بقشعريرة حينما يذكرون أيامهم فى تلك المدرسة .

كانت الدكتورة شارجموللر فى الواقع وراء استحداث اختراع جديد فى الجاسوسية ، وهو التضحية بعميل عن قصد ، لإبعاد الأنظار عن عملاء آخرين يقومون بمهمة لها أهميتها .

فمثلاً يختار عميل أو عميلة يكونان قد استهلكا أو أخفقا فى أعمالهما ، فيتقدمان إلى المخابرات الأجنبية طواعية ، أو أن المنظمة نفسها تكشف الستار عنهما للخصم . وقد ضحى الألمان بماتا هارى — على ما يقال — عندما بدأوا يشكون فى ولائها .

على أن التضحية بالعملاء تعد فى الواقع مسألة غير طبيعية ، ولهذا فانه يقال انها كانت تفعل ذلك نتيجة « الصادية » Sadism التى كانت تميل اليها .

نصائح للجواسيس

ولقد كتبت الدكتورة شارجموللر بعض الكتب التى تستخدم كمراجع فى المدرسة التى تديرها ، ولا تزال هذه الكتب حتى اليوم ذات قيمة فى أغلب منظمات الجاسوسية الحديثة .

ويوجد فى مدرسة شارجموللر كتاب أساسى يعد أقيم مرجع أمكن إخراجه لتدريب العملاء السريين ، وقد جاء فى هذا الكتاب كثير من النصائح

التى تعد اليوم ذات قيمة كما كانت منذ القدم ، ونورد فيما يلى بعضاً من أهم هذه النصائح :

- لا تكشف عما يتوافر لك من دراية باللغات لتشجيع الناس على التحدث بطلاقة أمامك .

- لا تكتب ولا تنبس بكلمة واحدة بلغتك الأصلية حينما تكون فى البلاد الأجنبية التى ستعمل بها .

- حينما تقوم بجمع معلومات ، دع أولئك الذين يزودونك بالمعلومات يرحلون إلى أقصى ما يمكن بعيداً عن أماكن اقامتهم الأصلية ، وعن المكان الذى تعمل فيه أنت عادة . دع كل منهم يذهب إلى المكان الذى سيقابلك فيه بطريق ملتو أى بغير الطريق المباشر ، ويفضل أن يكون ذلك ليلاً .

- اجمع كل ما يمكن أن تحصل عليه من معلومات دون أن تبدى أى اهتمام بشىء ما على التخصيص ، ولا تتعجل الحصول على المعلومات خاصة بموضوع تعتقد أنك يجب أن تحصل عليه ، ذلك لأن إلحاحك بخصوص هذه المعلومات وقيامك بتحقيقات خاصة عنه وحده قد تكشف عن درجة اهتمامك به ، كما تكشف عن رغبتك فى معرفة موضوع بالذات ، مع أن المفروض أنك تسمع كل ما يقال لك دون غرض ظاهر .

- يجب إخفاء المعلومات الجديدة التى يمكن الحصول عليها بواسطة وسائل بريئة المظهر ، فالأرقام أو الأبعاد أو المسافات يمكن مثلاً تسجيلها وقيدها على أساس أنها نفقات مصروفات شخصية .

- حينما تقوم باحراق رسائل أو أوراق اخرى تذكر أن بقايا الأوراق المحترقة يمكن قراءتها ما دامت متماسكة لم تسحق إلى رماد ، فان

الفحص المكروسكوبي يستطيع أن يحصل منها على معلومات لها قيمتها ، كما يجب ملاحظة أن تمزيق الأوراق والقائها بعيدا لا يعني أن التصرف فيها سليم وصحيح . ان قطع الأوراق الممزقة لا يعتبر — حتى بالقائها في الادبخانات — تصرف سليم .

— لا تتكلم بإبهام وغموض ولا تتصرف تصرفاً غامضاً ، الا حينما تحاول حث شخص ثرثار أن يتحدث لك عن أشياء كثيرة مما يعرفها .

— تجنب كل ما يكشف بسرعة عن شخصيتك ، ولا تتعجل ولا تحاول أن تكون ابتداعياً أو ابتكارياً إلى درجة كبيرة ، أو بمعنى آخر لا تحاول أن تخترع شيئاً عن نفسك ، وتذكر ما كان « تاليران » يقوله لمبعوثيه السياسيين « إياكم والحماسة » .

— وثق أنك تسير إلى مدى بعيد حينما تتحرك ببطء ، واعرف أن الشخص الأكثر نجاحاً في الجاسوسية هو الشخص الذى لا يكون ظاهراً معروفاً ، وتذكر أيضاً ما يقوله هنرى أوستن « إن العبقرية التى تحير الأعين الفتاكة فى العادة ، هى الإصرار والمثابرة للبقاء في صورة مستورة مختفية » .

— حينما تبحث عن مكان حاول أن تبحث عن غرفة أو طابق له أكثر من مدخل واحد ، ضع تخطيطك للفكاك من البداية .

— تيقن دائماً أنك غير « متبوع » وتعلم جيداً طريقة التخلص ممن يتعقبك فى الطريق .

— لا تكثر من الشراب إلى الحد الذى يفقدك وعيك ، ولا تصادق إلا النساء اللاتى تثق بهن .

— لا تقبل أى شيء كما هو ولا تنظر بسرعة إلى صداقة عاجلة ، أو إلى

خصومة ظاهرة ، بل يجب أن تدقق بعناية فى تقدير قيم الأشياء وأهميتها ولا تحكم بظواهرها .

ضرورات لجاسوس التخريب

ويعطى لنا الجاسوس الكبير « رونالد سميث » بعض النقاط الرئيسية اللازمة لتدريب العميل الذى يقوم فى مهمة تخريب ، ويذكر هذه النقاط عن تجربة شخصية ، حينما كان مكلفاً بتدمير حقول البترول فى استونيا عام ١٩٤٢ .

يقول « سميث » إنه كان عليه أن يتدرب على نواح فنية عدة ، وذكر على سبيل المثال ما يلى :

- كان عليه أن يتعلم تحويل الكلمات إلى شفرة واعادة الشفرة إلى كلمات .
- كان عليه أن يرسل ويستقبل عشرين كلمة فى الدقيقة على المورس ، لأنه عامل لاسلكى للشبكة المكونة من رجل واحد هو شخصه .
- كان عليه أن يكون قادراً على صيانة جهازه اللاسلكى وإصلاحه .
- كان عليه أن يتدرب على وسائل خاصة لتخريب مناطق المتعدين ، وأن يعرف وسائل تخريب محطات القوى الكهربائية ، وقاطرات السكك الحديدية والعربات والطائرات والغواصات والسيارات واللوريات .
- كان عليه أن يعرف كيف يستخدم ثلاثة أنواع مختلفة من المتفجرات شديدة الانفجار .
- كان عليه أن يعرف كيف يعد العبوات المختلفة للأغراض المتباينة .

- كان عليه أن يعرف كيف ينظم حركة مقاومة من لا شيء .
- كان عليه أن يكون قادراً على تدريب العملاء الذين يستخدمهم .
- كان عليه أن يكون قادراً على القتل فى سكون مستخدماً يده أو سكينا .
- كان عليه أن يكون فى استطاعته الدفاع عن نفسه دون سلاح .
- كان عليه أن يعرف كيف يطارد غزالا !
- وأخيراً يجب أن تتوافر فيه بدرجة كبيرة الحاسة السادسة للأمن .

ولكن من النادر جداً أن نجد عميلاً يستطيع أن يستوعب كل هذه العناصر من المعلومات الفنية ، ولذلك يفضل أن تتم العملية فى صورة فريق يقوم كل فرد فيه بواجب معين حسب خطة معدة تماما .

التدريب على اللعبات القذرة

على أن المنظمات التى يوجد فى منظماتها قسم اللعبات القذرة تهتم بتدريب عملاء هذا القسم فى مدارس خاصة ، لدرجة أن العميل لا يستطيع أن يتعرف على نفسه بعد ستة أشهر من الدراسة لأنه سيصبح شخصاً آخر .

ففي المدرسة المختصة يتسلم الاخصائيون العميل ، ويغيرونه من قمة رأسه إلي أخمص قدمه . ولا يتناول التغيير المظهر الخارجى فقط ، كما لا يقتصر على الوسائل الكلاسيكية : الملابس وشكل ولون الشعر ، والذقن المستعارة ، والنظارات السوداء ، والصوت المتغير النبرات ، ولكن التغيير الذى يحدث يعتبر تغييراً شاملاً نفسانياً يقوم به اخصائيون فى علم النفس ، ولهذا فان الذى يتغير ليس فقط المظهر الخارجى ، بل الجوهر الداخلى بحيث يصبح العميل شخصاً آخر بعد تلقينه تاريخ حياة جديدة منطقية ومتكاملة منذ ولادته .

ووسائل التدريب لهذا النوع من العملاء وحشية ، ففى منتصف الليل

ينتزع الطالب من نومه ويقاد بعنف إلى غرفة تسلط منها عليه أضواء كاشفة ، بينما يقف حوله ثلاثة أو أربعة أشخاص فى الجزء المظلم من الغرفة ، ويجرون معه تجربة قاسية من تهديد بسكين أو ضربه فى فكه ضرباً موجعاً ، ثم يستجوب تحت ظروف قاسية .

العباءة والخنجر

إن اصطلاح « العباءة والخنجر » ليس إلا عملية من عمليات الجاسوسية تقوم أفرعها بأعمال العنف والتخريب والتهريب وسرقة المستندات الخ ... ويسمى فى الولايات المتحدة رسمياً باسم ادارة الأعمال السرية .

وكثيراً ما سمعنا فى أنحاء المعمورة عن شخصيات كبيرة اختفت فجأة ، أو انتحر بعضهم ، أو دهمت سيارة حامل حقيبة دبلوماسية ، أو انفجرت طائرة بلا سبب واضح ... هذه أمثلة من نشاط قسم اللعبــات القذرة تقوم بها بعض الأجهزة سواء فى المعسكر الشرقى أو الغربى .

وقبل أن يدرب العميل على عمله الذى سيوكل إليه تقوم المنظمة بالتأكد من تغيير شخصيته ، فيبدأ بأن يقص عليهم قصة حياته الجديدة التى طالما رددها وحفظها عن ظهر قلب ، ولكنه لا يتلوها تباعاً كما لو كان يردد قطعة محفوظات ، بل يتمهل أحياناً ويتوقف أحياناً وقفات طويلة كما لو كان فى حالة تذكر للأحداث ، وذلك كما يحدث فى الأحوال الطبيعية .

وليس بكاف فى هذه التجربة أن يذكر له مسقط رأسه الذى لم يشاهده قط ، أو يصف المدينة أو القرية التى نما فيها وترعرع ، والتى لم يرها أبداً ، بل يجب عليه أيضاً أن يذكر إلى جانب أمه الوحيدة خاله أو عمه ويطيل فى ذكر أحدهم ، ويصف طريقة حياته فى شكل مغر ومنطقى ، كما يستمر فى التحدث عن خالته التى تهتم بتربية الكلاب .

ومعنى ذلك أنه يحدث للعميل غسيل كامل للمخ ، وذلك قبل البدء فى تدريبه على أعمال الجاسوسية الأخرى .

التدريب السيكولوجي

ليس الهدف من هذا الفصل هو شرح برامج التدريب الخاصة بالعملاء ، حيث أن شرح تفاصيله يختلف تبعاً للمهمة التى ستوكل للعميل ، ووفقاً لسياسة منظمات الجاسوسية فى أسلوب عملها ، وان تشابهت المواضيع الأساسية التى يجب أن يتدرب عليها العميل .

وتعد العملية السيكولوجية من الموضوعات العامة الرئيسية التى يجب أن يتدرب عليها العميل ، اذ يجب عليه أن يستطيع تقدير طباع الناس الذين يتعامل معهم ، ومعرفة كيف يتصرف فى المواقف المختلفة ... كيف يبدو إنساناً طبيعياً يثور إذا تطلب الموقف ويكون لطيفاً فى مواقف معينة ، أى يجب أن يبدو إنساناً عادياً غير متناقض حتى لا يلفت إليه أنظار رجال مكافحة التجسس .

ان الجاسوس الكفء هو الذى يستطيع أن يدرك بمهارة دخيلة خصمه ، وأن يستشف بسرعة اللهجة الزائفة فى صوت محدثه ، أو الابتسامة الباردة التى لا تعبر عن غرض حقيقى .

والعملية السيكولوجية والتدريب عليها من أهم خاصيات نجاح عميل الجاسوسية ، فالجاسوس الذى يعتقل حياً يظل فى فزع حتى يؤخذ منه اعترافه ، وليس من الممكن معرفة المدى الذى يحتمله الفرد من التعذيب قبل أن ينهار . ويجيء الخوف دائماً نتيجة ما ينتظره من مجهول ، فالفرد لا يعرف إطلاقاً قبل أن يتعرض فعلاً للتجربة المدى الذى سيستطيع تحمله فى الظروف النفسية والبدنية التى ستواجهه ، وأولئك الذين مروا بهذه التجربة القاسية يعرفون أن

هناك نقطة تضيع عندها الحساسية بالألم بل قد يصل الإنسان إلى درجة اللامبالاة .

ولذلك فان الفترة التى تسبق هذه المرحلة الحرجة هى من أهم المراحل للعميل اذ يجب أن يكون عقله متيقظاً للسيطرة على النفس ، ولتشجيع الجسد على احتمال الإيذاء .

إن أشجع الشجعان قد ينهار لمجرد التهديد بالتعذيب بسبب جهله بمدى طاقته على احتمال التعذيب ، والواقع أنه حينما يفقد الإنسان سيطرته على عقله ، فانه يكون قد ضاع . ومع أن الفرد قد يعرف أنه يستطيع احتمال الايذاء ، الا أن هذه المعرفة لا تهدىء من مخاوفه حتى يستطيع فعلاً أن يجد بالتجربة امكان هذه السيطرة فى الساعتين أو الثلاث ساعات الأولى من تعذيبه .

ويعطى الجاسوس الكبير « رونالد سميث » مثلاً تجريبياً حدث له حينما اعتقل بواسطة رجال الجستابو الألمان حيث يقول :

« لست أتحدث هنـــا حديثاً نظرياً بل انى أتحدث عـــن تجربة ، فلقد تحملت التعذيب على ثلاث فترات منفصلة : الأولى لسبع عشرة ساعة ، والثانية لتسع ساعات ، والثالثة لثلاث ساعات ، وقد استخدم فيها الألمان ثلاث وسائل مختلفة .

« على أن النقطة التى لم أعد أحس عندها بالألم حدثت فى التجربة الأولى بعد ساعتين ، وفى المرة الثانية التى استمر فيها التعذيب لتسع ساعات ، وصلت لنقطة فقد الشعور بعد أربع ساعات ، وفى المرة الثالثة كانوا قد ربطوا حبلاً حول خصيتى ، ومد إلى الارتفاع الذى تصل اليه رأسى وعقبى فى أثناء إحناء ظهرى فى وضع دائرى ، وكنت أفقد الحس كل نصف ساعة فيستخدمون وسائل طبية لإعادتى إلى الرشد . وبعد ثلاث ساعات أسقط فى أيديهم ، واضطروا لايقاف تعذيبى عندما لم يجدوا أية فائدة منى لارغامى على الحديث .

« على أنني لم أفقد الحس مباشرة لأنني لم أكن أعرف ما سيكون عليه تأثير التعذيب ولهذا أبقيت عقلي متيقظاً يعمل ، على أنني لو تعرضت لهذا النوع من التعذيب مرة قادمة ، فلن أقاوم ولن أبقى عقلي متيقظاً ، وهكذا فانني سأغيب عن وعيي بمجرد بدء عملية التعذيب .

الأدلة سيدة البراهين

على أن وسائل التعذيب لا تأتي بنتيجة فعالة للوصول إلى الحقيقة ، فقد يدلي العميل تحت هذه الظروف بمعلومات خاطئة حسب رغبة المستجوب . ولا يستخدم هذا الأسلوب مع العملاء الا المنظمات الفاشية أو الشيوعية

ان منظمات مكافحة التجسس الناجحة هي التي تواجه العميل بالأدلة الدامغة لخيانته ، وهي أقوى بكثير من هذا الأسلوب .

لقد ارتفعت كفاءة رجال المخابرات العامة المصرية في مقاومة التجسس في الستينات إلى درجة جعلت رئيس البعثة الفرنسية في القاهرة التي ضبطت في أعمال التجسس يؤدي التحية العسكرية لرجال المخابرات تقديراً لجهودهم ، وذلك حينما ووجهت أفراد الشبكة بالأدلة الدامغة لنشاطها ، وقال « ماتييه » رئيس البعثة بالنص :

« انه عمل عظيم ... لا أستطيع إلا أن أقول الحقيقة ! »

على أن ثمة تساؤلاً له قيمته تعرضت له مراراً في أثناء رئاستي للمخابرات ، اذ كان يسألني الكثير حتى من المثقفين عن سبب ترك العملاء لمدة سنوات دون اعتقالهم مما قد يؤدي إلى نقل معلومات قد تضر أمن الدولة .

والواقع أن العميل يكون موضوعاً تحت رقابة شديدة في هذه الفترة ، كما أن البحث عن نشاط الشبكة بأكمله واكتشاف مراكز التجسس التي تحرك هذا النشاط هو الغرض الأساسي في العملية ، كما أن البحث عن الأدلة هو

من العوامل الرئيسية التى تحدد انهاء العملية .

وتستخدم بعض منظمات مكافحة الجاسوسية التعذيب البدني ، بل تستخدم لوناً من الضغط النفسي السيكولوجي ، وهذه الوسيلة تؤثر على العميل أكثر من التعذيب البدنى ، ولا يستطيع مقاومة هذا الأسلوب الا ذوى العقول القوية .

على انه — فى رأينا — لا التعذيب البدنى ، ولا الضغط السيكولوجى هما وحدهما كل ما يجب أن يعنى به الجاسوس الذى يقع فى قبضة العدو ، فلا يزال فى امكانه أن يحدث الكثير من الإرباك والاضطراب للعدو نتيجة امداده بمعلومات كاذبة تحت ستار الرغبة فى التعاون ، ولكن القيام بهذا الدور التمثيلى يتطلب من العميل طاقة قوية وخاصة من ناحية الذاكرة القوية ، كما يجب أن يكون قادراً على أن يستنبط من أسلوب توجيه السؤال ما يعرفه مستجوبوه وما لا يعرفونه .

تفريق السوفييت بين تدريب العملاء السريين وعملاء التآمر

وفى الاتحاد السوفييتى هناك فاصل كبير فى الأساليب التى تستخدمها منظماتها ، وذلك بين تدريب العملاء السريين وبين تدريب المتآمرين الذين يعدون للقيام بالمؤامرات حيث يعملون فى ميدان الدعاية واثارة الشغب والاضطرابات الثورية .

فتدريب العملاء السريين يكون قصير الأمد موضوعياً ، أى أنه يتجه إلى موضوعات فنية محددة كتنظيم الاجتماعات واعداد الأفلام الصغيرة للوثائق واستخدام اللاسلكى والكتابة السرية وحل الشيفرة ، وغير هذا من المسائل المتعلقة بسرية العمل والتى تبقى هؤلاء العملاء غير معروفين الا فى نطاق ضيق ، ويتولى هذا التدريب « المكتب الرابع » الذى له ادارة خاصة بالتدريب .

كما يدرب المتآمرون فى « أكاديمية لينين » بموسكو وهى أكبر جامعة

لدراسة المؤامرات وأساليبها العملية فى العالم الشيوعى كلّه .

وفى هذه الأكاديمية يتعلم كل الطلبة من جميع الدول كيف يستخدمون الأسلحة الخفيفة ، وكذا التدريب على كيفية الدفاع عن النفس ضد أسلحة البوليس فى الدول الأجنبية ، وحل الرموز والشفرة ، وكيف يستطيعون دخول المؤسسات والمصانع والمكاتب الحكومية بوسيلة سرية دون أن يتركوا ما يدل على دخولهم إليها ، وكذلك كيف يفحصون الملفات ويستخلصون الوثائق منها وينقلون الصور بالفوتوستات والأفلام الصغيرة ، والتدريب على العمل ضد أعمال الشغب والمظاهرات . وبمعنى أشمل كل ما تتطلبه مواقف التآمر والتصرف فى ظروف العنف والشغب .

إن تدريب العميل الذى يعمل فى ميدان الجاسوسية جهد يتطلب صبراً متواصلاً ونفقات كبيرة ، كما أن العملاء الذين يمرون بهذه المرحلة بنجاح من الممكن خلق جواسيس منهم على درجة عالية من الكفاءة ، بحيث يستطيعون أن يقوموا بأعمال خارقة .

وأخيراً نود أن نشير إلى أن تدريب العميل يتطلب دراسة واسعة شاملة ، سواء فى اللغات أو النواحى الفنية الصرفة أو أساليب الحرفة . وبدون هذا التدريب الشاق لا تستطيع أية منظمة أن تستكمل المرحلة التالية مع العميل .

الفصل الرابع

الساتـــــر

قصة الساتر

لا يمكن للعميل أن ينجح فى مهمته دون أن يختفى وراء ساتر ، ويدخل فى ذلك تاريخ حياة العميل ، وقصة الساتر التى سيتستر وراءها .

وعلى قدر دقة إحكام هذا العمل تتوافر للعميل فرصة الوصول إلى مصدر المعلومات ، وغالباً ما تتم هذه العملية بعد أن يتم تدريب العميل وتثقيفه وانضمامه إلى منظمة الجاسوسية كعميل سرى .

وفى هذه المرحلة يطلب من العميل أن ينسى حقيقته الماضية ، حيث يعطى شخصية جديدة ، يقال لها فى التعبير الحرفى اصطلاح « الساتر » ، وفى ظل هذه الشخصية الجديدة يدفع العميل للعمل فى الميدان .

ويتم هذا التحول ، أى عملية « الانسلاخ الشخصى » تبعاً لتدابير دقيقة لا يترك أى شخص فيها للصدفة ، ويبدأ ذلك باعداد قصة خرافية هى عبارة عن تاريخ زائف لماضى هذا العميل .

ويتطلب هذا العمل جهداً كبيراً ، ومن الضرورى فى إعداد القصة أن يوضع موضع التقدير صناعة العميل ومعلوماته ، وما يتوافر له من معرفة وعلوم ، وسابق الأماكن التى عاش فيها أو زارها ، وكذلك الناس الذين تربطهم به صلات . ذلك لأنه فى شخصيته الجديدة يتغير مكان مولده ودراسته السابقة ، وتختفى صناعته الأصلية والمكان الذى سبق له الاقامة فيه ، أى أنه يختفى كل شىء حقيقى عن حياته .

على أنه من ناحية أخرى يجب أن تكون هذه القصة الجديدة منطقية يسهل حفظ كل تفاصيلها الدقيقة ، إذ إنه من المحتمل أن يقع العميل فى ظروف حرجة تتطلب منه أن يبرهن على حقيقة هذه القصة فى أسوأ الظروف ، وتحت أقصى ألوان التعذيب .

وثمة نموذج مثالي لذلك فى عمل « جوليس سيلبر » الجاسوس الألمانى ، الذى عمل لوقت طويل فى إدارة رقابة البريد بلندن ولم تكتشف حقيقته إطلاقا .

كان « سيلبر » قد ترك ألمانيا قبيل ثلاثين سنة سابقة للحرب العالمية الأولى ، وكان قد حارب إلى جانب الانجليز فى حرب البوير ، ولهذا حينما انتهت الحرب منحه الانجليز شهادة عن خدمته وتوصية باستخدامه .

وحينما بدأت الحرب العالمية الأولى ، وبالرغم من غيابه الطويل عن وطنه ألمانيا ، فانه بحث مع نفسه كل احتمالات قيامه بخدمة وطنية لألمانيا ، اذ لم يكن فقد حبه لها وفى ضوء تفكيره الشخصى قرر أن يعمل فى الجاسوسية .

وقد خطر له أن التوصية التى حصل عليها من حرب البوير ، قد تكون غير كافية كوثيقة تؤهله للإقامة فى بريطانيا ، ولذا توجه إلى كندا وهناك حصل على بطاقة تحقيق شخصية . وبهذه البطاقة استطاع أن يدخل إلى بريطانيا حيث عدّ شخصاً صديقاً .

واستجابة لطلبه للقيام بخدمة ما لبريطانيا عين فى رقابة البريد بسبب كثرة اللغات التى يعرفها ، واستطاع أن يحصل من الخطابات التى تحت يده ، على معلومات هامة كان يرسلها للسلطات الألمانية .

وكان أهم ما حصل عليه ، نتيجة هذا الساتر الجديد ، معلومات عن استخدام الحلفاء للسفن القديمة ، بعد اصلاحها وتسليحها وتحويلها إلى سفن للقتال ضد الغواصات .

كان بين الخطابات التى جاءته للرقابة ذات يوم خطاب من سيدة شابة كتبته لصديق لأخيها الذى يعمل فى الاسطول ، حيث ذكرت فى خطابها أن أخاها كان يقيم معها حتى نقل للعمل فى مشروع سرى خاص بالسفن التجارية .

ومع أنه لم تكن هناك سلطة تخول « سيلبر » الاتصال بأصحاب الخطابات التى تمر عليه للرقابة ، فقد ذهب لمقابلة السيدة الشابة ، وأنبها على هذا الاسراف من جانبها فى التحدث عن الأسرار العسكرية .

واستطاع بمهارة أن يستخلص منها أن أخاها يعمل فى مشروع سرى لتسليح السفن التجارية القديمة ، التى تستخدم بعد ذلك كخدعة مضللة يمكن بها جذب الغواصات لتكون فى الموانىء القريبة من السفن التجارية القديمة البريئة المظهر ، وفجأة تخرج القنابل من فوهات المدافع المخبأة على ظهر السفينة ، وبذلك يمكن القضاء على الغواصات . وبعد ٤٨ ساعة كان هذا السر فى أيدى الألمان .

خلق ماضي العميل

ويعد جواز السفر أحد العناصر الأساسية فى مشكلة « خلق الشخصية الجديدة للعميل السرى » ، وهو يساعد إلى حد كبير على أن يكون للعميل ماض وتاريخ حياته الخاص .

وأفضل طريق للحصول على ماض ، هو أن ينسج هذا الماضي حول قصة حياة شخص آخر يستخدم جواز سفره ، ويتقمص العميل شخصيته . ومع ذلك لا يجب أن يتم هذا العمل بطريقة عشوائية ، بل بطريقة منتقاة يحوطها الحذر الشديد .

فمثلاً ، لو ان الرجل الذى تخلى عن جواز سفره للعميل هو رجل لبنانى ، وأن آباءه يقيمون فى بيروت ، وأنه كان يعمل فى شركة معينّة لعدة سنوات ، فمن الواضح أنه إذا كان أبو الرجل وكذلك أمه غير شريكين فى هذه العملية : أى إذا كان قد تعذر الاعتماد عليهما فى التصديق على أن العميل ابنهما ، فإنه من الأفضل إذن بالنسبة للعميل أن يعلن أن والديه قد توفيا . ولنفس السبب ، سوف يكون من الخطأ بالنسبة للعميل ، أن يشير إلى الشركة المذكورة على أنها مقر وظيفته السابقة ، لأنه فى حالة إجراء تحريات من منظمات المخابرات عنه ، لن يتعرف الموظفون الآخرون عليه كزميل سابق لهم فى العمل . ولذلك فإن أفضل شيء بالنسبة للعميل أن يجد رجل أعمال موثوقاً به ، يكون مستعداً لأن يؤكد أن العميل كان يعمل معه من قبل . ولنفس السبب سوف يكون من الخطأ بالنسبة للعميل أن يعطى عناوين كان يعيش فيها — الرجل صاحب الجواز الحقيقى — على أنها عناوينه . وانما يستطيع أن يختار واحداً أو اثنين من أصحاب الأملاك ، يمكن الاعتماد عليه أو عليهما ، ليؤكدا أن العميل فى فترات معيّنة فى الماضى كان أحد المستأجرين . وبالإضافة إلى هذا ، يمكن للعميل أيضاً أن يعد عنوانين فى مسكنين يكونان قد هدما وأزيلا من مكانيهما .

واذا ذكرت حرفة العميل فى جواز السفر ، لا بد أن يكون مستعداً للدخول فى حديث على الأقل عن موضوع حرفته ، وأن يتعلم كيف يستخدم التعبيرات الفنية المتصلة بحرفته أو مهنته ، باعتباره خبيراً فيها .

ولا بد أن يكون للعميل إلمام معقول بالمدن التى يفترض أنه عاش فيها ،

وإلمام بالملاهى والسهرات الأساسية فيها ، فاذا كان – طبقاً للأسطورة أو القصة المختلقة – يفترض أنه كان قد عاش فى بيروت أو بغداد أو روما ، فإن عليه أن يعرف أسماء المقاطعات ، والمبانى الرئيسية والشوارع الكبيرة ، والمتنزهات ، والسكك الحديدية والكبارى ، والمحلات التجارية الكبرى والمسارح ووسائل المواصلات وأسماء الضواحى .... الخ .

وقبل البدء بالاضطلاع بمهمة « عميل » بجواز سفر جديد ، ينبغى على العميل أن يعطى الفرصة لزيارة مدينته « مسقط رأسه » ودراستها .

ويجب أن يحتفظ العميل فى ذاكرته دائماً بأنه إذا وضع تحت المراقبة من أجهزة الأمن ، فان أفضل طريق أمامه هو الانسحاب من الميدان لأن التحرى الدقيق – باستثناء حالات قليلة – سوف ينتهى بالنفاذ إلى حقيقة شخصيته الزائفة ، مهما كانت هذه الشخصية محوطة بتمويه ماهر .

قيمة الإعداد السليم

وفى التاريخ المبكر للجاسوسية ، نجد أنه كان زاخراً بالحوادث التى فقد فيها العملاء سمعتهم بسبب الافتقار إلى الاعداد السليم ، فقد دفع أحد العملاء الروس عربوناً لشراء عمل صغير اشتراه فى فرنسا . كان العميل يتظاهر بأنه أمريكى ، وبعد أيام قليلة تقابل العميل مع شقيق صاحب العمل وكان يهودياً أمريكياً جاء فى زيارة من نيويورك ، وبعد دردشة استغرقت وقتاً قصيراً مع العميل باللغة الانجليزية ، أخبره الأمريكى قائلاً :

« إنك تقول إنك أمريكى وإنك عشت فى نيويورك ٢٠ عاما . حسناً .. إن الأمر لا يهمنى ولا أريد التدخل فى شئونك ، واذا أردت أن تتظاهر بأنك أمريكى فانك حر فى ذلك ، ولكن لن يصدقك أحد على الاطلاق . أرجو ألا أكون قد جرحت شعورك . » وقرر العميل الانسحاب وخسر العربون الذى دفعه .

وثمة حادث آخر يوضح سوء الإعداد والخطأ فى التقدير ، وقد وقع هذا الحادث على ظهر باخرة ركاب كبيرة تعبر المحيطات أثناء رحلة من الولايات المتحدة إلى أوروبا ، فبينما كان العميل السرى يلعب الورق مع جماعة من الركاب ، وجه أحد الركاب سؤالاً إلى العميل السرى — الذى كان يتظاهر بأنه أمريكى — عن مهنته ، فرد العميل بقوله : « تاجر فراء »، ولو أنه أجاب بأنه تاجر كتب أو تاجر فى الأسمدة ، لسارت الأمور على ما يرام ، ولكن مجرد ذكر الفراء أمام السيدات كان أمراً يحوطه الخطر ، فقد أظهرت السيدات اهتماما ، وبدأن يسألن تاجر الفراء المزعوم عدة أسئلة عن أنواع وأسعار الفراء . ولم تهتز أعصاب العميل السرى ، وبدأ يذكر أرقاماً عن أسعار الفراء جعلت عيون السيدات تجحظ من الدهشة . وفيما بعد بدأت السيدات يتحاشين العميل ، وتوقفن عن توجيه الدعوة إليه لمشاركتهن فى لعب الورق ، وكانوا ينظرون إليه نظرة ارتياب ، ومن الجائز أنهن كن ينظرن إليه على أنه لص أو مخبول .

وهناك قصة أخرى عن أحد العملاء السوفييت ، وضع تحت رقابة البوليس الألماني ، واستطاع مع ذلك تضليل رجال مكافحة التجسس وهرب منهم ، وأخذ حقيبة ملابس صغيرة وذهب إلى فندق للسكن فيه لمدة أسبوع لانتظار جواز سفر للطوارىء يستطيع به الفرار من البلاد . وقرر إعداد حساباته المالية لكى يعطى المال للعميل الذى سوف يحضر له جواز السفر ، وكانت حساباته فى حالة ارتباك ، وواجه لحظات حرجة فى حساب العملة الأجنبية . وبعد إجراء أول عملية حسابية اتضح له أن هناك عجزاً قدره ٢,٠٠٠ دولار فى ميزانيته . وأعاد الحساب وصعد رقم العجز المالي ، وحاول مرة أخرى ولم يستطع ضبط حساباته ، ثم خطرت له فكرة . فدق الجرس لكي يحضر الخادم . وعندما حضر الخادم طلب منه أن يحضر له « آلة آباكس » an abacus ، وهو اصطلاح يطلقه الروس على الآلة الحاسبة ، وتردد الخادم متسائلاً حيث لم يفهم طلبه ، فأعاد العميل عليه الكلمة من جديد وقال

للخادم « نعم انى أريد آباكس قل للبواب وسوف يعطيه لك » .

وبعد مرور عشرين دقيقة دخل الغرفة رجل ممتلىء الجسم ، متوسط العمر ، وتعلو وجهه ابتسامة وقال للعميل « انى سعيد للقاء روسى حقيقى ! » وذهل العميل وخطر بباله أن البوليس استطاع تعقبه وأحس بالخوف ، ولكن الرجل المبتسم قال للعميل : « عندما سمعت انك تستخدم لفظ آباكس عرفت على الفور انك روسى ، فالناس هنا لا يعرفون هذه الكلمة ، لانهم يستخدمون كلمة Adding Machines أى آلات حاسبة للجمع .

وبعد ذلك قدم الرجل نفسه للعميل على أنه المدير المساعد للفندق ، وكان ضابطاً برتبة رائد فى الحرس الامبراطورى الروسى فى الماضى .

كل هذه المزالق تنطبق على الخطوات المبدئية غير المعدة إعداداً دقيقاً ، والتى وقع فيها بعض العملاء نتيجة فشلهم فى إخفاء شخصياتهم واتخاذ ساتر جيد .

لعمل كستار يبرر الإقامة

وبجانب جواز السفر المزور ، لا بد أن يكون للعميل عمل كستار له يبرر اقامته الدائمة فى البلد المختار . والحصول على ستار سليم مناسب مشكلة صعبة هامة فى اعداد الصورة الكاملة للعمل السرى . ولا يستطيع العميل التهرب من هذه المشكلة لسبب بسيط هو أن رجلاً بدون حرفة ليس له مكان سليم فى مجتمع ما .

وحتى إذا كان للعميل مهارة خاصة تستطيع أن تضمن له بطريقة عادية مركزاً يتناول من ورائه مرتباً لا بأس به ، فلن يستطيع أن يتقدم إلى عمل ما ، لأنه لن يستطيع تقديم بيانات خاصة عن وظيفته السابقة إلى صاحب العمل المرتقب ، وحتى لو أمكنه التغلب على هذه المشكلة ، فإن رجال مكافحة

التجسس سوف تتعقب نشاطه اذا ما قبل فى وظيفة ما .

ولقد دلت التجارب على أن أفضل طريق للحصول على ستار أو غطاء ، هو أن يقوم العميل بتأسيس عمل أو مشروع خاص به .

ولقد قامت بعض منظمات المخابرات بمحاولات لبناء المنظمات السرية ، وكان أمراً عادياً أن يقام مشروع ما على نطاق واسع يثير الانتباه ، حتى يبدو العميل فى هذا العمل وكأنه رجل ناجح ، وانه يجنى الأرباح من وراء المشروع ، ومع ذلك فقد دلت التجارب على أن مثل هذه المشروعات تكلف الكثير ولا تحقق نجاحاً كبيراً .

وعلى سبيل المثال فقد حدث فى أواخر العشرينات ، أن أمدت إدارة البوليس السرى السوفييتى أحد عملائها واسمه « يورى براسلوف » بجواز سفر لاتينى ، وبمبلغ كبير من المال لاقامة شركة تصدير واستيراد فى فرنسا

وكان من الواضح منذ البداية أن المشروع مصيره الفشل ، فلم يكن لمستر براسلوف أية خبرة كرجل أعمال . ولم يدرك رؤساؤه أن هذا لم يكن الطريق السليم لاقامة مشروع عمل . فمثل هذه المشروعات تتدرج فى النمو من مشروع صغير إلى مشروع كبير ، ويجب أن يتم النمو بطريقة طبيعية وهى طريقة التنمية التجارية التى بواسطتها يمكن أن تجتذب العملاء وترضيهم ، وتصمد أمام المنافسة . ولكن مشروع براسلوف تأسس بطريقة مصطنعة مفتعلة ، وكان للشركة مكاتب أنيقة وموظفون ، حتى قبل أن تمارس الشركة أية صفقة تجارية تعود بالفائدة عليها .

وفى أثناء ذلك نفذت أموال الشركة التى أمدتها بها موسكو سريعاً ، فقد أنفقت على المرتبات والنفقات ، وبدأ الأمل فى نجاح الشركة يحوطه جو من الكآبة واليأس .

ثم لجأ براسلوف — بموافقة موسكو — إلى صديقه مستر « لوموفوسكى »

رئيس الوفد التجارى السوفييتى فى باريس طلباً لمساعدته . كان لوموفوسكى يريد إرضاء ادارة مخابرات البوليس السرى السوفييتى ، ولذلك وافق على ان يعطى شركة براسلوف – كأمانة – كميات هائلة من السلع التى صدرها الاتحاد السوفييتى إلى فرنسا على أساس مفهوم ، وهو أن براسلوف سوف يعمل كوسيط بالعمولة .

واجتذب براسلوف « اللاتيفى » وعلاقاته الوثيقة بالوفد التجارى السوفييتى – انتباه الشرطة الفرنسية العامة – ولكن الشرطة لم تضايقه فى شىء ، ذلك لأن براسلوف كان مشغولاً بإقامة الساتر الذى ينوى أن يخفى وراءه عمله الحقيقى ، لدرجة أنه لم يقم بأى عمل من أعمال التجسس فى تلك الفترة . ولكى يثير اعجاب موسكو ، قام براسلوف باجتذاب عدد قليل من الفرنسيين ذوى النفوذ إلى شركته ، وكان من بينهم سيدة فرنسية ذات اسم نبيل انحدرت من عائلة عريقة فى تاريخ فرنسا ، وبدأت تتدفق عشرات الملايين من الفرنكات إلى أيدى براسلوف ، وكان هذا أكثر من أن يتحمله براسلوف ، فقد لعب براسلوف دور الرجل السرى ، وسرعان ما أودت به حياة الترف إلى الافلاس ، فاختلس حوالي مليونى فرنك أى حوالى ٨٠,٠٠٠ دولار ، ولكى يعوض خسارته بدأ يمارس القمار وصار شخصية مألوفة فى « كازينو دى ديفيل » .

ولو كان براسلوف شخصاً آخر لولى هارباً ومعه مبلغ كبير من المال كان لا يزال فى البنك ، ولكن براسلوف أبدى استعداده للعودة إلى موسكو حيث كان يعرف انه سوف يطلق عليه الرصاص هناك . ولم يكن الدافع من وراء رغبته هذه إحساس صادق بالذنب ، ولكن لأنه كان متزوجاً من شقيقة « سيرتسوف » رئيس وزراء الجمهورية الفيدرالية الاشتراكية السوفييتية ، وكان سيرتسوف فى ذلك الوقت أحد المساعدين المقربين من « ستالين » . وقبل ذلك بشهرين تقريباً كانت زوجة براسلوف قد أنجبت

طفلاً ، وقبل السفر إلى لنينجراد على ظهرقارب سوفييتى قضى يومين يشترى كل أنواع الحاجيات للطفل . وكان سلوك ستالين يتسم بالقسوة فأصدر أوامره بنفى براسلوف إلى معسكر الاعتقال فى « سولوفكى » لمدة خمسة أعوام ، وعندما انتهت مدة السجن قرر براسلوف البقاء فى معسكر الاعتقال فى سولوفكى فى مركز ادارى وضيع ، وقال إنه يحس بالخجل من العودة إلى موسكو ومقابلة أصدقائه القدامى .

اختلاف العمل الساتر وفقاً للظروف

والعمل الساتر كالقصة الساترة يختلفان بعض الشىء فى وقت السلم عنهما فى وقت الحرب ، ففى أيام السلم يستطيع الأجنبى أن يقيم فى أى بلد دون أن يثير الشكوك ، كما يستطيع الأجانب فى كثير من الحالات الإدلاء بأسمائهم الحقيقية دون ما حاجة لاتخاذ اسم آخر ولا تاريخ مصطنع ، واذا كان هذا يخفف عبء الحياة تحت اسم مصطنع ، إلا أنه يضاعف أهمية « العمل الساتر » .

فمثلاً حينما عمل « الكسندر فوت » فى خدمة روسيا السوفييتية ، قضى الجزء الأكبر من عمله فى لوزان بسويسرا ، وكان الروس يمدونه بحاجته من المال ، اذ لم تكن الظروف تتطلب منه أن يقوم بعمل ينقد عليه أجراً ، ولكن كان من الضرورى الا يعيش كشخص متعطل ، والا اجتذب الانتباه اليه ، وكان من الضرورى أن يوضح مصدر معيشته ، ولهذا فقد أعد غطاءاً ساتراً بخلق قصة أن إعلان الحرب احتجزه فى سويسرا ، وانه يتلقى المال من بريطانيا من أملاكه هناك ، ولما كان هناك انجليز كثيرون يقيمون فى سويسرا ، وكانوا يتلقون فعلاً النقود من بريطانيا ، فان قصته لم تثر أى شك .

وكان الغطاء الذى استخدمه « ولفجانج زيجموند لوتز » العميل الاسرائيلى فى القاهرة بسيطاً ومؤثراً ، فقد حضر إلى البلاد فى ٢٢ من فبراير عام ١٩٦٢

تحت ساتر سياحة ، وحينما كان يستنفذ الحد الأقصى للسياحة وهى ستة شهور ، كان يتغلب على ذلك بالسفر للخارج ، ثم يعود مرة أخرى للبلاد بنفس الساتر .

واستغل خبرته وهوايته فى تربية الخيول فأقام فى منطقة الأهرام اسطبلاً لخيول أصيلة استوردها من الخارج ، واستأجر قطعة أرض لاستخدامها فى اقامة معهد لتدريب ركوب الخيل ، حيث يستهوى ذلك العديد من المصريين .

واستطاع تحت هذا الساتر أن يتصل بعدد من ضباط سلاح الفرسان ، وبعض الشخصيات ، بالرغم من أن هدفه الرئيسى كان تهديد العلماء الألمان الذين يعملون بمصر والحصول على معلومات عسكرية عن تطور القوات المسلحة المصرية .

وكانت نقطتا الضعف الوحيدتان فى هذا الساتر أن تجديد اقامته بغرض السياحة لمدة طويلة عرضه للكشف ، كما لم يكن متفقاً مع زوجته أو بمعنى أصح عشيقته على قصة ساتر موحدة تغطى مصدر ثروتهما والمستوى الاجتماعى الذى كانا يعيشان فيه .

وثمة قصة أخرى وهى قصة الجاسوس البريطانى « سوينبرن » الذى اتخذ غطاء لنشاطه بأن عمل موظفاً فى شركة تأمين بريطانية قبل اصدار قرارات التأميم ، وكان ذلك فى الواقع غطاءاً جيداً لنشاطه ، ومكنه من القيام بنشاط كبير فى أعمال التجسس بمصر .

تطعيم العميل

وتحدد القصة التى توضع لتصوير ماضى حياة العميل إتجاهاته وأهدافه مستقبلاً ، وكذا الستار الذى سيعمل من خلاله ، أى الشخصية الجديدة التى ستكون له . والعملاء السريون لا يستخدمون وسائل إخفاء مبالغ فيها ،

بل العادة يستخدمون طابعاً مقبولا .

وقد كتب « وينفريد لوديك » فى ذلك : —

« إن الجاسوس لا يحتاج إلى وسيلة اخفاء مجددة فقط ، بل كذلك يحتاج إلى مهارة ليلعب دوراً لشخصيته التى يتخيرها لاختفائه . ومن الأهمية بمكان أن يكون ممثلاً بارعاً ، وأن يكون سريع البديهة ، قادراً على أن يواجه فى ثبات واتزان أخطر المواقف وأعقدها » .

والعادة أن العميل السرى يحتاج إلى أن يتقمص شخصيات أخرى فى أوقات محددة ولعمليات موقوتة ، فقد يظهر فى شخصية جرسون أو عامل تليفون أو حلاق أو سائق ، وفى أحوال أخرى قد يظهر العميل فى ثياب راهب أو قسيس أو سائح أو أحد رجال الأعمال أو مندوب تجارى أو صحفى .

وقد يضطر العميل فى بعض الأحيان إلى ارتداء كسوة عسكرية لاحدى القوات المسلحة الأجنبية ، ولكن هذا الأسلوب لا يستخدم الا فى حالات الضرورة القصوى ، وان كانت الحوادث تثبت أن أحد الجواسيس قد بقى يرتدى الكسوة العسكرية لجيش أجنبي لسنوات طويلة .

وتعرف وكالات الأمن فى جميع البلاد من تجاربها أن الحرفة المحترمة لرجل ما قد تكون مجرد ستار لنشاطات غير مشروعة ، وأن البيانات المدرجة فى جواز السفر لا تثبت دائما وبصورة قاطعة أن الجواز يخص حامله حقا . ولهذا السبب عندما تحس وكالات الأمن بالارتياب من شخصية أجنبى فى البلاد ، فانها تحاول الحصول على بيانات اضافية مكملة قد تلقى ضوءاً عليه .

وتتم عملية البحث بأشكال مختلفة ، فقد يدخل ضباط الأمن شقق المشبوهين ، وهو إجراء غير مشروع طبعا ، ولكنه إجراء مباح يمارس فى جميع البلاد ، فيقومون بفحص وتفتيش حقائبه وخطاباته ومحتويات الجيوب

فى ملابسه داخل دولاب الملابس وكتبه ... الخ .

ولقد اخترعت المخابرات السوفييتية حيلة بارعة يطلق عليها اصطلاح « العرض السرى » Secret Exhibition ، وقد أثبتت فاعليتهـــا فى حالات قليلة معروفة . وتتكون هذه الحيلة من سلسلة من بعض الأشياء أو الأدلة التى يدسها العميل السوفييتى عمداً فى شقته بطريقة ما ، حتى اذا ما استلفتت هذه الأشياء نظر الدخيل السرى . فانها سوف تضلل الزائر الدخيل لأن الأجنبى المشبوه هو حقاً نفس الشخص المعروف أمام الناس بهذا الاسم ، ومن ثم تتبدد أى شكوك تراود شرطة الأمن فى شخصيته .

فإذا كان العميل يعيش مثلاً بجواز سفر ايطالى ، فان رجال الأمن الذين يفتشون مكان اقامته سوف يجدون بين احتياجات العميل المتناثرة بطاقتى بريد قديمتين مرسلتين على عنوانه فى ميلانو وعليهما أختام مكتب البريد المناسبة ، وتذكرة قطار من ميلانو إلى روما ، وبطاقة الاشتراك فى مكتبة عامة صدرت باسمه من موطنه ، وبطاقة عضوية فى نادى ايطالى ، وتلغراف حقيقى مرسل إلى عنوانه بروما ، وروشتة دواء مصروفة من مخزن أدوية بميلانو .

ومجرد النظرة إلى أنبوبة معجون أسنان إيطالى، أو مجرد النظرة إلى ملحقات لا تستخدم إلا فى إيطاليا ، أو فاتورة من مخزن بضائع إيطالى موجود فى صديرى العميل ، أو تذكرة أوتوبيس مكرمشة ... كل هذه الأشياء كفيلة بالتأثير على المحققين كدليل موضوعى . وبنفس الطريقة لو أن المحققين أو رجال المخابرات عثروا بين مقتنيات العميل على تذكرة أوتوبيس من موسكو أو ايصال يستحق السداد لاتحاد العمال فى موسكو ، لكان لهما الحق فى الوصول إلى استنتاج مختلف فيما يتعلق بحقيقة شخصيته « الايطالية » .

وفى الحقيقة ، حدث مثل هذا فى ايطاليا حيث نجحت الشرطة فى الكشف عن حقيقة شخصية عميل سوفييتى ، فقد فتشت الشرطة السرية الايطالية

شقة العميل فى أثناء غيابه وعثرت بصعوبة على نوتة بها عنوانين فى موسكو ، وأرقام تليفونات مكتوبة باللغة الروسية . ولو كانت الشرطة السرية الايطالية تعرف المزيد من اللغة الروسية لاكتشفت أن النوتة كانت بمحتوياتها تشبه إلى حد كبير « دائرة المعارف لادارة الشرطة السرية السوفييتية » .

وتنتهى عملية اكتمال الشخصية الجديدة للعميل باتمام تطعيمه بهذه الأوراق الزائفة التى هى دعامة شخصيته الجديدة .

ومن بين هذه الأوراق جوازات السفر وتذكرة تحقيق الشخصية ، وبطاقة الاقامة وبطاقة النوادى المنتمى إليها ، وبطاقة التموين وتصاريح قيادة السيارات ... الخ .

ولكى تكون الشخصية الجديدة أكثر انطباقاً على الواقع ولتبدو طبيعية تماما ، فمن الواجب تزويد العميل أيضاً بالتذاكر الموسمية ، وبعض المراسلات القديمة مع الأصدقاء وبقايا تذاكر السيارات والمترو ، وتذاكر السينما القديمة وما اليها مما يتواجد فى جيوب الأشخاص عادة فى كل مكان من العالم .

منظمات الساتر والجبهة

إن العميل الذى يعمل وحده تحت ساتر شخصى على ما يصوره الروائى « فيلبس اوبنهايم » فى قصصه الطويلة وفى رواياته ، لم يعد له من وجود فى الواقع ، بل أصبح شيئاً مستحيلا ، ففى عالم يعمل فيه الناس عادة فى منظمات فان أحسن غطاء ساتر هو أن يكون الفرد فى منظمة ما .

على أنه يجب منذ البداية اصدار قرار هام ، هو ما اذا كان استخدام المنظمة كساتر سيكشف عنه لواحد أو أكثر من كبار موظفى المنظمة نفسها أم لا ؟ ، وهذه المسألة حيوية لأن أى عميل مرتبط بعمل لكل الوقت فى مؤسسة حكومية ، لا تمكنه طاقته أو جهده من القيام بأى عمل آخر ، ثم ان

هذا فى الواقع يعتبر دواء للوقاية من أى مضايقة مستقبلة .

ان الكثير يمكن أن يفقد حينما يصل عميل إلى لحظة حرجة فى عملياته نتيجة كشف رؤسائه فى المنظمة للساتر الذى يستتر وراءه ، وذلك لأنهم سيشعرون بأنهم خدعوا فيه ، ومن ثم لا تكون حقيقته أو عمله الحقيقى — مهما كانت الظروف — موضع ترحيبهم .

صحيح أن الكثير من المنظمات والمؤسسات فى الدول المختلفة قد عاونت فى هذا النشاط واحتملت مسئوليات جسيمة بسببه ، ولكن هناك مؤسسات اخرى لا ترضى ولا تقر الاشتراك فى مثل هذه الاجراءات بسبب طبيعة عملها ، أو بسبب ما قد تتعرض له أعمالها نتيجة للاتهامات ، أو بسبب أنها لا تقر العمليات السرية من ناحية المبدأ .

ويواجه السوفييت مشكلات خطيرة فى هذا الميدان نفسه ، لأن كل النشاط السوفييتى فى الخارج تتولاه الحكومة ، ولذا يصعب على أى وكالة سوفييتية أن تقدم الغطاء الصالح للعميل ، ومن ثم فانهم فى الغالبية يستخدمون المنظمات الأجنبية دون التفاهم معها على تغطية العملاء ، وقد يفسر هذا لنا عدم استطاعتهم مقاومة الاغراء الذى تقدمه لهم الأمم المتحدة ليستخدموا وكالاتها كأماكن عمل ساترة يختفى عملاؤهم بين موظفيها .

ففى عام ١٩٣٩ أقام « ليوبولد تريير » البولندى بالاشتراك مع صديق له يدعى « جروس فوجل » الألمانى شركة للمنسوجات فى بروكسل وأوستن تحت اسم « شركة المعاطف المبطنة الأجنبية الممتازة » برأس مال قدره ١٠,٠٠٠ دولار ، وكان يعمل معهما فى بعض المناصب المختلفة فى المشروع أشخاص موضع ثقة « جروس فوجل » ، ولكن المشكلة التى واجهتهم عقب احتلال ألمانيا لبلجيكا فى مايو عام ١٩٤٠ هى أن تريير وجروس فوجل كانا يهوديين .

وقد وجدت موسكو لأغراض خاصة بالمخابرات ، ضرورة التسلل إلى

مؤسسات الألمان فى بروكسل ، وبصفة خاصة فى منظمة « تودت » ، وهى مؤسسة ضخمة تتعامل فى كل أنواع المنشآت العسكرية ، ورؤى أن أفضل وسيلة لكسب ثقة الضباط الألمان فى هذه المؤسسة هى تزويدها بمواد البناء ، ولذا قامت المخابرات السوفييتية فى بروكسل بانشاء شركة جديدة اسمها « سيمكسكو » Simexco ابتدأت فى العمل فى مارس عام ١٩٤١ ، ولم يشغل كلاً من تريبر وجروس فيجل أى مركز ظاهر فيها . وكان مجلس الادارة المكون من سبعة أشخاص من البلجيكيين ، يستحيل على أى منهم معرفة حقيقة أغراض هذه الشركة .

كما أنشئت شركة ثالثة كانت أكثر توفيقاً من سابقتها ، أسسها تريبر فى باريس ، وسميت « شركة سيمكس » ، وكان هدفها الرئيسى مثل الشركة التى تكونت فى بروكسل ، وهو التعاون مع الوكالات الألمانية فى فرنسا وبصفة خاصة منظمة « تودت » .

ولقد كسبت شركة سيمكس احترام وثقة الألمان فى باريس وذلك للكفاءة والدقة التى كانت تتم بها ارتباطاتها ، ولو أن الألمان كانوا قد تحروا قبل اقامة علاقات تجارية مع هذه الشركة لأدهشهم ما كانوا يكتشفونه بين « رجال الأعمال » من وجود محرر أخبار ومعلمة غناء ومحرر أخبار رياضية وثلاثة أشخاص من روسيا وبولندا ، بالاضافة إلى وجود ادارة عامة ليست لديها الخبرة التجارية .

كان هذا هو الموقف عشية حدوث الاعتداء الألمانى على الاتحاد السوفييتى : عدد من منظمات الجاسوسية لديها امكانيات فى أجهزة الاستقبال والارسال ، وتضم عدداً من العملاء ذوى الخبرة وعلى استعداد لتزويد السوفييت بالمعلومات.

على أن الساتر ليس وقفاً على مشكلات فردية أى مشكلات خاصة بالأفراد أو عمليات الجاسوسية ، فان معظم الدول تبذل جهدها اليوم لاعداد منظمات الساتر بدلاً من محاولة خلق ساتر لفرد واحد .

وهنا يجب أن نفرق بين نوعين من الساتر فى أعمال الجاسوسية :

النوع الأول ويطلق عليه « ساتر يدعمه التواجد فى منظمة » Organizational Cover والنوع الثاني وهو « منظمة الساتر» Cover Organization .

فعلى نقيض الساتر الذى يدعمه التواجد فى منظمة ما ، فان « منظمات الساتر » عبارة عن منظمات تنشأ وتقام وتؤسس فقط للمعاونة ، فى الامداد بالغطاء . والنفع الكبير الذى تقدمه هذه المنظمات يكمن فى اعطاء حقيقة واضحة ، وهى انه بمجرد أن تتكون مثل هذه المنظمات ، لا يكون هناك داع لاعداد ساتر آخر لأى عميل تضمه المنظمة .

والحقيقة الأهم هى أن عدداً من الأفراد الذين يمكن ضمهم للمنظمة ، يمكن أن يسهموا فى العملية ، دون أن يفهموا فى أى ظرف أنهم عملاء .

والغرض من هذه المنظمات هو جعل العمليات تتابع مسيرها مستقلة دون أن تبدو لها أى صلة بالحكومة . ودون أن تكون الحكومة مسئولة فى وضوح عما تقوم به من نشاط . ولهذا فان نشاط المنظمة لا يكون هو الشىء المغطى المستور ، بل يكون الشىء المستور هو حلقة الصلة بين المنظمة وبين الحكومة .

ومنظمات الساتر فى العادة عملية كبيرة النفقات ثم انها فى أكثر نواحيها صالحة فقط للعمليات السياسية التى سنتحدث عنها فى فصل قادم . وبالتبعية فانه يحتفظ بمثل هذه المنظمات للنشاط الذى يمكن التعبير عنه بنشاط السياسة الخارجية للدولة ، وهى أكثر تعقيداً من المحاولة الضعيفة التى حاولت بها الحكومة الاسرائيلية عام ١٩٦٠ ، أن تخفى مؤسسة للنشاط النووى بمجرد القول بأنها مصنع للنسيج .

على أن مجال عمل منظمات الساتر واسع فسيح ، فهو يحتضن كل صور النشاط فى كل ركن من أركان العالم ، وتتواجد هذه المنظمات فى كل ميادين الحياة الدولية : الحركات السياسية ، منظمات الشباب ، حملة السلام ،

الجماعات الدينية ، الفنون ، دور النشر ، ومؤسسات الثقافة والعمل ، الجمعيات المهنية على اختلاف أنواعها ، والمصارف والمؤسسات ، وجمعيات الصداقة .

وبعض من هذه المنظمات كبير جداً يلعب دوراً رئيسياً أصيلاً في ميادين تخصصه ، والبعض الآخر مجرد وكالات للتعضيد والمعاونة ، تعمل فى الغالبية للتمويل ، ولما كان الناس فى كل مكان يهتمون بأمر النقود وكيف جاءت وما مقدارها وفيم تنفق ، لذا فان عملية الامداد بالمال من أعقد المراحل فى العمليات السرية . وبعض منظمات الساتر لها الآن أقدام راسخة على المسرح الدولى ، وبعضها قد تكون فقط لأغراض محدودة ثم تحل بعد انتهاء الغرض من تكوينها .

وفى هذا العصر حيث نعيش فى عالم مضطرب ، يزداد فيه كل يوم التوتر العنيف فإن المنظمات الخاصة لا يمكن السماح لها بالقيام بأعمال دولية تؤثر فى العلاقات بين الدول أو تؤثر فى توازن القوى . إن مثل هذه الأعمال يجب الاحتفاظ بها للحكومات ، ومع هذا فان كثيراً من مثل هذه الأعمال ، وبخاصة السياسية منها تفقد تأثيرها دوليا ، لو عرف أن العمل الذى تقوم به توجهه حكومة أجنبية ، أو أن العمل توليه الحكومة علانية ، وقد يؤدى ذلك إلى مغامرة نتيجة اشراك قوات متعارضة مضادة قد تسبب فشل العملية ، أو قد تغير بدرجة لها خطرها من التوازن السياسى الدولى .

والحل لهذه المسألة المحيّرة بالنسبة للغرب هى منظمات الساتر ، وهى وسيلة لتنظيم واستخدام الرأى العام ذى القيمة الكبيرة بالرغم من توزعه ، وكذا استخدامه فى المصالح القومية والدولية .

وبمجرد أن تكون هذه المشكاة مفهومة ، فان حاجة الدول لمنظمة الساتر ومدى اقتناعها بها يبدو واضحا ، كما أنه من الواضح أن الغرب تتهيأ له

الفرصة أفضل من الدول الشيوعية ، وذلك من ناحية تعدد المنظمات والمؤسسات التى يمكن أن تخدم العملية .

ولكن من جهة أخرى فانه مهما كانت مشكلات السوفييت بالنسبة للساتر عن طريق المنظمة ، بل وبالنسبة لمنظمات الساتر نفسها ، فانهم لا يقاسون أى عجز نتيجة ذلك لقدرتهم على استغلال نوع آخر هام من أنواع الساتر للعمليات السياسية ذلك ، هو « منظمات الجبهة » Front Organization .

الخلاف بين منظمات الساتر ومنظمات الجبهة

ووجه الخلاف بين « منظمات الساتر » وبين « منظمات الجبهة » يعد موضوعاً يثير الجدل والنقاش بين المحترفين . ويتفق خبراء الساتر على أن أوجه الخلاف قائمة وموجودة ، ولكنها تضيع عند الاستخدام العملى لها ، ويحتوى الكثير من المنظمات على مظاهر لكلا الأمرين ، وبعض منظمات الساتر ينمو ويتحول إلى جبهات والعكس صحيح . ومع هذا فاننا نستطيع أن نقول فى إيجاز أن منظمة الجبهة تسير لخطوة أو خطوتين إلى ما وراء « منظمة الساتر » من ناحية التعقيد والتركيب . وعلى حين تقوم « منظمة الساتر » بإخفاء عملية إنغمار الحكومة فى نشاط ما ، فان « منظمة الجبهة » لا تخفى انغمار الحكومة فحسب ، بل تخفى أيضا الغرض الحقيقى وراء هذا الانغمار من جانب الحكومة .

ففى عام ١٩٣١ أسس بعض الشبان الشيوعيين الألمان بمساعدة السفارة السوفييتية فى برلين جمعية لدراسة الاقتصاد الموجّه ، وكان الرأس المدبر لهذه الجمعية « سرجى بسونوف » عضو الوفد التجارى السوفييتى ومستشار السفارة السوفييتية فى برلين فيما بعد .

وكانت نية السوفييت من اقامة ومساعدة هذه الجمعية ، هو جذب مجموعة

من العلماء غير الشيوعيين الذين يمكن الاعتماد عليهم فى احدى اللحظات السياسية الحرجة .

كانت الجمعية تنعقد مرة كل شهر تقريباً حيث تناقش أبحاثا عن المشاكل السوفييتية مثل القانون السوفييتى والزراعة فى الاتحاد السوفييتى وغير ذلك من الموضوعات ، وكانت هذه الأبحاث على مستوى علمى راق .

وبعد الحرب العالمية الثانية استخدمت التجارة كوسيلة ممتازة لتغطية النشاط غير الشرعى فى ألمانيا ، بالاضافة إلى المزايا العادية لعمليات الاستيراد والتصدير التى تقدمها كساتر .

وقد كشفت قضية « فولكان » فى ألمانيا كيف استخدمت الجاسوسية السوفييتية « معهد الأبحاث الاقتصادية » كمنظمة جبهة . لقد أنشأ هذا المعهد فى برلين عام ١٩٥١ على أنه منظمة علمية ، وكان من بين أعضائه أسماء معروفة ممن يعملون فى السياسة والشرطة فى المنطقة السوفييتية مثل ويلهام زايسر ، وريتشارد ردستالمان وانطون الرومان وغيرهم .

وحينما أقام مؤسسو هذه المنظمة مكاتبها وفروعها المختلفة ، كانوا يبغون من وراء ذلك جمع معلومات شاملة عن مختلف نواحى النشاط السياسى والاقتصادى فى ألمانيا الغربية ، وكذا جمع معلومات عن إعادة التسليح .

وثمة فارق هام بين « منظمات الساتر » و « منظمات الجبهة » ، ففى منظمة الساتر يعرف أكثر الأشخاص المسئولين حقيقة طبيعة المنظمة وحقيقة الصلة التى بينها وبين الحكومة ، ولو أن هذه الصلة تكون مستورة خفية .

ولكن فى منظمة الجبهة فان عدد الأشخاص فى المراكز القيادية الذين يعرفون الصلة بين المنظمة والحكومة يكون أقل نسبيا ، وتكون صلتهم بالحكومة خفية بوساطة ساتر من الأشخاص ، ويقوم هؤلاء الناس بدورهم الصحيح وراء ستار أغراض المنظمة المعلنة للناس ، ووراء « الجبهة » التى

يكونها أعضاء المنظمة الذين لا دراية لهم إطلاقاً بحقيقة المنظمة .

ولا يرضى بعض الأشخاص عن هذا الوضع . وهناك بعض مديرى « منظمات الساتر » فى كثير من الدول غير الشيوعية استقالوا حينما عرفوا بصفة رسمية أن منظماتهم تمول من الحكومة ، وانها تستهدف أغراضاً محددة لها ، بالرغم من أنهم فى الاجتماعات التمهيدية كانوا قد وافقوا على أغراض المنظمة وعلى أوجه نشاطها ، وكل ما غيّر من الموقف هو معرفة أن الحكومة تقف وراء المنظمة تمولها وتوجهها .

إننا نعيش اليوم فى فترة صراع عنيف ، والقوى الدافعة فى الوقت الحاضر هى قوى مركزين عظيمين من مراكز القوى ، وكل منهما يعلن صراحة رغبته فى تجنب النزاع المكشوف الذى يؤدى إلى استخدام الأسلحة الفتاكة ، ولكن كلاًّ منهما يشعر فى الوقت الحاضر بأنه مرغم على أن يتابع خطاه للاحتفاظ أو للحصول على كل ما يمكن الحصول عليه من كسب عسكرى .

وبالرغم من المواجهة بالقوة علانية وبصورة مباشرة سواء فى كوبا أو برلين أو فيتنام أو فى الشرق الأوسط أو فى أى مكان آخر من العالم ، فان العالم يحاول أن يتجنب هذه المواجهة السافرة . ولكنه فى الوقت نفسه يتجه إلى العمليات السرية وعمليات الجاسوسية التى تتفانى الدول فى إعداد الساتر الجيد لها .

الفصل الخامس

وسائل الاتصال

المواصلات عصب منظمات الجاسوسية

تبدو الحاجة إلى خط مواصلات بين العميل وبين رؤسائه مسألة جوهرية ، كما أن تسليم الرسائل لمندوبين يحملونها إلى المرسل اليهم ليست بالعملية السهلة الميسورة ولهذا هناك وسائل أخرى كثيرة يجب أن يلم بها العميل .

ومهما كان العميل منعزلاً ، فمن الضرورى أن تكون هناك دائما وسيلة مواصلات تربطه بمركز الرئاسة الذى يتبعه ، حيث يرسل اليه أى معلومات يحصل عليها ، ما لم تكن الأوامر التى تلقاها تقضى بأن يعود بهذه المعلومات شخصيا .

وهذه الطريقة الأخيرة نادرة جدا وذلك بسبب أهمية عامل الوقت فى كل المسائل الخاصة بالجاسوسية .

وتقاس قيمة المعلومات فى ضوء أهميتها ، وتبعاً لسرعة وصولها إلى التنظيم الذى قد بعث العميل من أجلها . إن أى معلومات مهما كانت قيمتها

وأهميتها تصبح عديمة القيمة والنفع ، اذا لم تصل فى الوقت المناسب الذى يمكن الانتفاع بها فيه .

ومن أجل هذا فإن منظمات الجاسوسية تعنى العناية كلها باعداد وسائل المواصلات ، على شريطة أن يصحب ذلك الترتيبات اللازمة لأمن هذه المواصلات وسلامتها .

أنواع الوسائل

ويستخدم العملاء وسائل عدة فى نقل معلوماتهم ، وتبعاً لغالبية أو كثرة استخدام هذه الأساليب يمكن ترتيبها فى الأسبقية التالية : —

« البريد — حاملو الرسائل — الراديو — التليفون — التلغراف — الحمام الزاجل — الطائرات — الكلاب — طلقات الإشارة — الصواريخ — اللهب » .

ويعد البريد بين هذه الوسائل كلها الوحيد الذى ما زال يستخدم حينما لا توجد رقابة على البريد ، أو عندما تكون الرقابة غير مشددة ، ولكنه يصعب استخدامه وقت الحرب حينما تفض كل رسالة وتمر على الرقيب الحربى ليفحصها .

ويستخدم العملاء وسائل كثيرة لخداع وتضليل الرقيب ، والعادة أنهم يكتبون رسائلهم بالشفرة أو بحبر سرى . ان التقدم الذى وصلت اليه عملية « الميكروفيلم » وتصغير الصفحات الفولسكاب إلى حجم النقطة سهل على العميل عملية الاخفاء ، ولقد شرحنا ذلك كله بالتفصيل فى الفصل السادس عشر من هذا الجزء .

ولا ترسل الرسائل مباشرة إلى منظمة من منظمات الجاسوسية ، وإنما ترسل إلى عنوان آخر لشخص يعمل كوسيط أو إلى صناديق بريد أو للحفظ

في شباك البريد ، وقد ترسل الرسائل السرية التى يبعث بها العملاء على مراحل حتى تصل أخيراً إلى المنظمة .

والعادة أن التعليمات تصدر للعملاء بأن يبعثوا برسائلهم من نسختين أو ثلاث نسخ إلى عنوانين أو ثلاثة عناوين فى بلاد مختلفة ، فإذا وصلت كل هذه الرسائل ، كان معنى ذلك أن الأعمال تسير فى أمن تام ، واذا لم تصل احداها أو أكثر كان معنى ذلك أن بعض الوسطاء قد أصبحوا معروفين للسلطات التى تعمل فى مقاومة الجاسوسية .

وتبعاً لذلك تصدر التعليمات بتجنب الارسال لهؤلاء الوسطاء ، ويتخير وسطاء جدد بدلاً منهم .

صندوق البريد

على أن هناك أسلوباً يستخدم منذ زمن بعيد ويطلق عليه فى المعنى الحرفى للجاسوسية « صندوق البريد » ، وهذا الأسلوب يستخدم لنقل المعلومات من العملاء إلى رئيس الشبكة .

ولا يعنى هذا الاسم معناه المتعارف عليه فى الحياة العامة ، بل هو مجرد تسمية فقد يكون عنوان صندوق البريد للمنظمة تحت اسم مستعار ، أو قد يكون حجراً غير ثابت فى جدار ، أو ساقاً فى جذع شجرة .

وفى أحيان أخرى قد يعمل أحد أفراد الشبكة كصندوق خطابات ، وذلك بأن يصل الخطاب باسمه الحقيقى وعلى عنوانه بمحل اقامته أو محل عمله فعلاً ، ولكن فى ذلك خطورة كبيرة .

ولقد برع السوفييت فى استخدام هذا الأسلوب ضمن وسائل أخرى ، كما استخدمه الامبراطور غليوم امبراطور ألمانيا عام ١٩١٢ .

ولكى نتفهم هذا الأسلوب سنحاول أن نذكر اسلوب كل منهما .

كان الامبراطور غليوم امبراطور ألمانيا يزور بريطانيا فى فترات متعددة ، وفى إحدى زياراته عام ١٩١٢ ، أى قبل إعلان الحرب العالمية الاولى بعامين اثنين ، رأى أحد ضباط الأمن المسئولين عن سلامة الامبراطور نقيباً بحرياً من بين مرافقى الامبراطور يذهب إلى حانوت حلاق فى « كلودنيان رود » بلندن .

ويعد « كلودنيان رود » من الأحياء التى لا يليق أن يرتادها مثل هذا النقيب البحرى الذى يحضر فى معية الامبراطور الألمانى . ولذلك سأل ضابط الأمن نفسه : لماذا يذهب هذا الرجل إلى محل الحلاق « كارل ارنست » الذى هو أبعد ما يكون عن أن يكون حلاقاً لرجل من الطبقة العليا ؟

وكان ارنست قد ولد فى بريطانيا ، ومع أن أبويه كانا ألمانيين ، فقد كان انجليزى بحكم مولده واقامته ، أو على الأقل هو من الرعايا البريطانيين .

وحينما ذهب النقيب الألمانى لزيارته ، كان ارنست يعمل فى حانوته هذا لست عشرة سنة ، وكان معروفاً أنه مواطن طيب لم تتصل به الشرطة لأى سبب ، ولهذا لم يكن يعرف عنه أى شىء ، ولولا هذه الزيارة من النقيب البحرى الأحمق ، لكان قد بقى يعمل دون أن يكتشف حقيقته أحد . ولكن حينما أثيرت ريبة منظمة مكافحة الجاسوسية ، بدأت المنظمة تبحث أمر ارنست ، وحينئذ بدأوا فى مراقبة بريده ، وسرعان ما اكتشفوا أن أرنست هو « صندوق البريد » الرئيسى لحلقة جاسوسية ألمانية تغطى كل أرض بريطانيا .

ولم يكن أرنست جاسوساً مدرباً ، بل كان كل دوره أن يستلم من رئاسة المخابرات الألمانية لفافات بها تعليمات داخل مظاريف معنونة ، وعليها طوابع البريد الانجليزية ، وكان كل ما يفعله أن يلقى بها فى صندوق البريد ، ثم يتسلم الرسائل المرسلة من الجواسيس ، فيضعها فى غلاف يكتب عليه عنواناً خاصاً فى ألمانيا ، وكان يتقاضى مقابل هذا العمل مرتباً ملكياً هو جنيه واحد كل شهر .

وفى وقت قصير اكتشفت منظمة مكافحة الجاسوسية البريطانية أسماء وعناوين الستة والعشرين عضواً فى الحلقة ، وبذلك كانوا يعرفون التعليمات المرسلة إلى الجواسيس قبل أن تصلهم ، وكانوا يعرفون المعلومات التى يبعثون بها قبل أن يعرفها الألمان .

والواقع أنه لا يوجد مثل آخر يوضح الأخطار التى تنجم عن استخدام « صندوق البريد » أحسن من هذه القضية .

واستخدم السوفييت قديماً هذا الأسلوب باقامة « صناديق البريد » فى بلاد صغيرة مثل هولندا أو الدنمارك ، حيث كانوا ينظرون إلى أنها بلاد ليس من المحتمل أن تتورط فى حرب تنشب بين دولتين كبيرتين .

واختيار « صناديق البريد » فى مثل هذه البلاد يعطى فرصة أفضل لأداء مهمتها دون أن يعكر عليها الجو أحد فى البلاد الحيادية التقليدية ، وهذا يشرح لنا السبب الذى جعل بلداً مثل سويسرا وكراً لنشاط الجاسوسية وللمكائد الدولية فى كل حرب كبيرة .

وليس لـ « صناديق البريد » هذه واجب عمليات مخابرات خاصة بها ، بل هى تعمل كمجرد مكان « لاسقاط الخطاب » وخدمة مراسلة لمسافات قصيرة . ويخدم صندوق البريد منظمات الجاسوسية المقيمة فى بلد أو أكثر من البلاد المجاورة ، حيث يمارس نشاط التجسس الحقيقى . ولا يزيد العاملون فى « صندوق البريد » عن واحد أو أكثر من المواطنين الوطنيين لبلد محايد .

ويكون عادة رجل وزوجته يخلصان ايدولوجيا للاتحاد السوفييتى ودون أن يعلنا ذلك .

ويكون واجب الأفراد هنا هو إعداد مخابىء تخصص للرسائل التى يتسلمونها لإرسالها بعد ذلك إلى الجهة المختصة . وهم لا يعلمون شيئاً عما يوجد داخل هذه الرسائل التى قد تكون لفائف ميكروفيلم مخبأة فى جلدة كتاب أو فى

علبة من علب زينة المرأة أو فى شيء يبدو عليه البراءة مثل العملات أو الجواهر أو حتى أزرار أكمام القميص .

وكقاعدة عامة لا يعرف العاملون فى محطة البريد شيئاً عن رؤساء الجاسوسية المقيمين أو الأعضاء فيها شخصيا ، فإذا كان لديهم ما يرسلونه ، فانهم يخطرون الأجهزة السرية المقيمة بالاتصال برقم تليفونى معيّن ، أو بإرسال برقية أو صورة كارت بوستال لعنوان معيّن ، ونوع الصورة أو طابعها قد يدل فى حد ذاته على رسالة خاصة ، فمنظر البحر قد يعنى شيئاً ما ، والجبال قد تعنى شيئاً آخر ، وأنواع مختلفة من الحيوانات أو الزهور قد تعنى أشياء مختلفة . وفى العادة يرسل الجهاز السرى المقيم رسولاً للمدينة التى يوجد بها محطة البريد لالتقاط الرسائل من موسكو ، أو لتسليم البريد لارساله إلى وزارة الداخلية ، ولكن فى بعض الأحيان تسليم المحطة البريد إلى الجهاز السرى المقيم عن طريق رسول .

حاملو الرسائل

ومن أشق الأعمال لضمان خطوط أو طرق الاتصال السرية اختيار « حاملى الرسائل » Courriers الذين يستطيعون تبرير الرحلات المتكررة إلى بلاد مختلفة ، والذين يكونون فى نفس الوقت أشخاصاً موثوقاً بهم .

وتختار منظمات المخابرات هؤلاء الناس من مصادر مختلفة ومن طبقات اجتماعية مختلفة . وغالباً ما تستخدم فى ذلك رجال البحرية التجارية والطيارين فى الخطوط الجوية التجارية والذين يقطعون العالم طولاً وعرضاً ، وكذا رجال الأعمال الذين يعملون كوكلاء حقيقيين أو وهميين لشركاتهم .

وتلعب النساء دوراً نشيطاً فى هذا المجال من النشاط ، ولقد جند عدد من النساء من المجتمع الشيوعى ، وكان من بينهن عدد قليل من الزوجات المطلقات من رجال من الشيوعيين كان لهم يوماً ما سلطة الأمر والنهى .

ولكنهم فى الوقت نفسه يستخدمون نساءاً من الغرب ، حيث يمكن التغلب على عملية الحصول على تأشيرة دخول البلاد الغربية ، لأن جوازات سفرهن لا تكون محل شك من رجال الأمن فى الدول الغربية .

وكقاعدة عامة ، يمر العملاء المكلفين بالاشراف على « صناديق البريد » – بدون علمهم – بعدد من الاختبارات قبل أن يعهد اليهم ببريد حقيقى ولذلك فانهم يتعاملون لفترة شهور مع « طرود وهمية » Dummy packages – أى طرود لا تحوى أى بريد – وتفحص هذه الطرود فيما بعد فى معمل لمعرفة ما اذا كان الأشخاص الذين تناقلوا هذه الطرود قد حاولوا فتحها لرؤية ما بداخلها . وأحياناً يحزم الطرد بشكل معين يجعله يبدو وكأنه حزمة متينة من أوراق الدولارات ، وهناك أمثلة قليلة أحس فيها البحارة بالإغراء لسرقة « المال » الذى لم يكن الطرد يحتوى على شىء منه ، وعندما أدرك البحارة أنهم خدعوا ووقعوا فى الفخ ، تواروا عن الأنظار وتخلوا عن عملهم بهدوء وصمت . وحاول بعضهم إصلاح ما فسد وذلك بمحاولة إعادة ربط الطرود وختمها بالشمع الأحمر كما كانت ، ولكن محاولاتهم الطائشة البدائية هذه لم تنقذهم من اكتشاف أمرهم . وفى الواقع فان الأموال الحقيقية ترسل أحياناً بنفس الطريقة .

وهناك طريق آخر للاتصال وضع خصيصاً لسد الاحتياجات الشاقة للمخابرات فى وقت الحرب على أرض العدو . وكما هو معروف فان عميل المخابرات الذى يعتقل فى مؤخرة صفوف العدو ، يعد أسير حرب ، اذ ليست هناك قوانين تحميه . هذا الطريق هو استخدام كل الوسائل بما فيها التعذيب وتحطيم مقاومة الأسير لاقتناص أسماء وأماكن الأعضاء الآخرين فى حلقة التجسس من العميل قصراً ، وتكون نهايته دائماً ، أن يعدم رمياً بالرصاص .

تأمين العميل

وقد توصل رؤساء مخابرات أمن الدولة فى موسكو إلى خطة أو مشروع لتأمين العميل يحتوى على المعالم الآتية : —

١) رسائل بالشفرة تحل مكان المحادثات الشخصية .

٢) مخابىء مثل تجويف فى شجرة أو شق عميق فى جدار مبنى أو حفرة حفرت فى نصب تذكارى عام . وتحل هذه المخابىء مكان عناوين البريد .

٣) نظام خاص من التعليمات يستخدم لتوجيه كل عميل فيما يتعلق بمخبأ معيّن حيث تنتظره رسالة ، وحيث يجب عليه أن يودع فيه معلومات تم جمعها . ويتكون التوجيه من رقم أو رمز مكتوب على جدار أو مقعد فى منتزه عام أو فى مكان ما داخل محطة السكة الحديد أو مكتب البريد أو كشك تليفون عمومى .

٤) ظهور العميل فى أيام معيّنة ، فى ساعة معيّنة ، فى كشك تليفون بالاجرة ، حيث يطلبه رئيسه ويصدر اليه تعليمات عامة .

وهكذا ، فطبقاً لهذه الخطة ، يتجول العميل فى المدينة ويفحص رقم المخبأ المكتوب على جدار حائط معيّن ثم يذهب إلى المخبأ . فاذا كان الجو خاليا ، يلتقط الرسالة ويضع المعلومات التى لديه فيه ، ثم يعود فيما بعد لمحو رقم المخبأ من الجدار ويضع مكان الرقم شكل صليب (+) مثلا لكى يبين أنه التقط الرسالة . وفى حالة اللبس أو التعقيد الذى لا يمكن توضيحه عن طريق تبادل الرسائل ، يوضح العميل الموقف فى محادثته القادمة مع رئيسه فى « كشك التليفون » .

ويوضع مع الرسائل أحياناً طرد أو حزمة تحتوى أموالاً للعميل .

هذا النظام كله – نظام التعاون الأعمى بين عملاء أشباح لا يرى الواحد منهم الآخر – أبعد ما يكون عن النظام المثالى .

فرسالة سرية تتضمن مؤامرة ، أو حزمة من المال تركت حتى يلتقطها عميل فى شق فى جدار أو تجويف شجرة ، قد يزيلها مطر متدفق ، أو يعبث بها أو يخرجها من مخبئها فأر أو قط ، واذا التقط العميل الرسالة أمام العامة أو المارة فانه قد يجتذب أنظار السلطات .

ودفن الأموال فى غابة أو الحفر لاخراجها ، أمر قد يراه أحد المتجولين صدفة ، بينما يكون جالساً وراء بعض الأشجار أو الأغصان . فاذا فحصنا مميزات وعيوب هذا النظام، لوصلنا إلى نتيجة هى أن هذا النظام قد يكون له محاسنه فى ظروف أيام الحرب ، ولكن بالنسبة لوقت السلم – وحالات استثنائية قليلة – فان الاتصالات الشخصية بين العملاء أمر ليس مفضلاً فحسب ، بل أمر لا غنى عنه .

إستخدام الراديو

على أن وسائل الاتصال بين العملاء ورئاستهم قد تغيرت كثيراً منذ اختراع الراديو الذى يعمل على الموجة القصيرة ، وكذا نتيجة الطاقة الفنية الكبيرة التى مكنت من صنع جهاز الإرسال والاستقبال بحجم صغير يمكن من وضعه فى علبة سجائر أو عصا يد .

والواقع أن جهاز الراديو الذى يعمل على الموجة القصيرة ، قد أحدث ثورة كبيرة فى عمليات الجاسوسية ، إذ إن حوالى ٩٩ ٪ من قيمة المعلومات تكمن فى أعطاف السرعة التى تصل فيها المعلومات إلى المنظمة الرئيسية .

ولقد أضاف الراديو قيمة أخرى لأعمال الجاسوسية ،ففى الماضى كان العميل بمجرد أن يخرج إلى ميدان عمله يكون بمنأى عن أى سيطرة عليه

بوساطة رؤسائه ، وحينما كان من الضرورى اصدار أوامر جديدة للعميل أو تعديل الأوامر المعطاة له ، كانت الرئاسة تواجه نفس مشكلة المواصلات التى يواجهها العميل حينما يحاول أن يبعث بما لديه من معلومات لرئاسته .

ولكن أصبح الآن فى إمكان رئاسة المنظمة أن تبقى أى عميل تابع لها تحت سيطرتها دائما ، وهذه السيطرة قد لا تكون دائما موضع ارتياح العميل نفسه .

وقد أوجد استخدام الراديو مخاطر جديدة ، كما أوجد طابعاً جديداً من العملاء ، فاستخدام الراديو يتطلب مهارة فنية قد لا تتوافر فى كل لون من العملاء ، كما أن أداء عملية الاستقبال والارسال خفية مع ضمان السرية تعد مسألة تتطلب درجة كبيرة من المهارة .

ولذا أصبح من الضرورى فى أغلب الأحوال الحاق عامل لاسلكى بالشبكة ، لا عمل له إلا تحويل الرسائل إلى شفرة ، أو حل الشفرة للرسائل الواردة ، ثم ارسالها أو استقبالها .

ويجب أن يكون لهذا الرجل مرونة ثقافية مع طاقة على العمل بسرعة ، وفى أوقات قد لا تبدو مريحة للأشخاص العاديين .

على أن المخاطر التى جاء بها استخدام الراديو — كوسيلة للمواصلات — تبرز بدرجة واضحة ، من حقيقة أن الأشخاص الذين تتوافر لهم الكفاية الفنية والمهارة العملية يكونون أحياناً أبعد الناس عن اتباع أوامر الأمن وملاحظتها بدقة .

ومن جهة أخرى فان التقدم الذى دخل على عملية الارسال والاستقبال قد جاء بتقدم مماثل عكسى ، وذلك بواسطة جهاز تحديد الاتجاه ، وهذا الأسلوب يمكنه كشف الأجهزة اللاسلكية ، وتحديد أماكنها كما تحدثنا عن ذلك فى الجزء الأول .

وسائل الفكاك من أجهزة تحديد الاتجاه

وبالرغم من أن جهاز تحديد الاتجاه يعد عملاً مضاداً للراديو ، إلا أن عامل الجهاز اللاسلكي لا تزال لديه عدة وسائل يستطيع بها الفكاك من هذه المراقبة التي لا تخطيء .

والواقع أن عامل اللاسلكي يجب أن يعمل وفي ذهنه أن العدو يعرف وجوده عن طريق مراقبته لموجات الارسال التي يرسلها ، كما أنه يعرف أن أجهزة تحديد الاتجاه دقيقة إلى الحد الذي يمكن ضبطه بمجرد بدء مراقبته ، ولهذا فانه لا يجوز له الارسال مرتين متتاليتين من مكان واحد .

فلو قدرنا مثلاً أنه قام بالإرسال مرة من المعادي ، فمن الضروري أن يقوم بالإرسال في المرة الثانية من الزمالك ، وفي المرة الثالثة من مصر الجديدة .. الخ أي أنه يجب أن يغير الأحياء في كل مرة من المرات .

هذا الإجراء هو الوسيلة الوحيدة الصحيحة للعمل ضد جهاز تحديد الاتجاه ولكن من سوء الحظ ليس الأمر بهذه السهولة التي يتصورها أي إنسان لا يعمل في هذا الميدان .

فمثلاً هناك مشكلة تتعلق بعملية الإرسال ، حيث تتطلب في العادة هوائياً خارجياً يوجه توجيهاً تقريبياً من الناحية الجغرافية نحو المحطة التي ستستقبل الرسالة . فاذا كان العميل مثلا مقيماً في فندق ، فانه ليس من السهل أن تتيسر له هذه الوسيلة .

وثمة مشكلة أخرى ستنشأ حينما يضع عامل اللاسلكي جهاز الارسال على أسلاك الكهرباء الرئيسية في المنزل ، اذ يؤثر مفتاح المورس الخاص بجهاز الارسال على الضوء تبعاً لحركة فتح وغلق الدائرة الكهربائية في المفتاح ، فيتأرجح الضوء بين اللمعان والانخفاض ، وسرعان ما يكون هذا ملحوظا ، بدرجة أن أي خبير سيدرك بسرعة السبب الحقيقي لاضطراب الاضاءة .

كما أن هناك مشكلة أخرى ، وهى أن حركة المفتاح يمكن أن تلتقط بواسطة أى جهاز استقبال على نفس الدائرة ، ولذا فانه خشية التعرض لمثل هذه المخاطر يحسن تجنب غرف الفنادق ، على أساس أن الأخطـــار أكثر احتمالا .

وتحاول منظمات مكافحة التجسس اعتقال العميل الذى يعمل على اللاسلكى حياً ، إذ بواسطته يمكن إبقاء العامل مستمراً فى عمله كأن شيئا لم يحدث ، وبهذا يمكن معرفة كل التعليمات المرسلة من رئاسة منظمة الجاسوسية إلى الشبكة كلها التى تخدمها .

ففى قضية الهولندى « مويس جود » ، قررنا بعد اعتقاله أن نستغله فى استمرار التراسل مع إسرائيل للاستفادة من المعلومات التى يمكن أن نصل اليها عن طريقه ، وللتعرف على العملاء الآخرين فى شبكته وكذا مقرهم .

واستجاب المتهم فوراً فوافق على الارسال والاستقبال ، واستمر فى اجراء العمليات اللاسلكية تحت رقابة رجالنا على نفس أجهزته ، وفى المواعيد السابق تحديدها له بواسطة مخابرات اسرائيل حتى لا تحس بوجود أى تغيير مطلقا .

ولم تحس المخابرات الاسرائيلية بأن عميلها قد اعتقل أو ضبط ، أو أن هناك طارئاً غير عادى .

وقد سجلت الإشارات التى أرسلها والتى استقبلها العميل فى خلال الفترة التى حددناها .

وتبين أن من بين الاشارات المرسلة من المخابرات الاسرائيلية احتياجات تطلب فيها من العميل موافاتها ببيانات عن التحركات العسكرية فى منطقة القنال وعن خصائص الشاطىء والمنشآت بها ، وعن القوات البحرية وسفن الأسطول والقوارب التجارية الملحقة بها لحراسة الشواطىء فى بورسعيد ،

وعن المدفعية الساحلية والدفاع الساحلى ومواقع محطات الحراسة الساحلية فى الطريق إلى بورسعيد والسويس ، ومواقع محطات الرادار ومعسكرات الجيش فى طريق السويس ، وعن العلامات المميزة والمعسكرات الحربية فى أماكن حددت له ، ومواقع الدفاع الساحلية فى ميناء الاسكندرية ، كما طلب منه ذكر المنشآت فى رئاسة القوات البحرية ، وتحديد مواقعها ، وهذا كله له دلالته فى حقيقة المعلومات التى يرسلها الجواسيس .

وبعد أن تمت المهمة أرسلنا رسالة إلى المخابرات الاسرائيلية إشارة على نفس الجهاز ، نشكرها على المعلومات القيمة ، ففهمت أن عميلها قد وقع فى الفخ .

وتتغلب منظمات التجسس على هذا المشكل — وهو وقوع العميل فى أيدى رجال مكافحة الجاسوسية — باعطائهم كودا لمراجعة الأمن حيث يمكن أن تفهم المنظمة إن وقع فى أيدى العدو .

والخلاصة أن عامل الراديو يعد أكثر أعضاء شبكات التجسس تعرضاً للخطر ، وبدونه يفقد العميل الصوت الذى ينقل كل ما يجمعه من معلومات .

إن هذا الفصل يعطى القارىء صورة عن أهمية المواصلات فى عملية التجسس ، وان كنا قد آثرنا أن نقصر الحديث عن الوسائل الهامة فى هذه العملية ، ولم نعرض للوسائل الاخرى ، حيث أصبح استخدام الراديو يلعب الدور الرئيسى فى وسائل اتصال العميل بمنظمته التى يعمل لحسابها .

* * *

الفصل السادس

تـدبيرات الأمـن للعميـل

الأمن دعامة حياة العميل

الأمن هو الدعامة الأولى لحياة العميل ، وقد يكون انعدام الأمن سبباً فى اعتقال العميل وانهيار كل جهوده ، مهما كانت هناك عوامل أخرى يمتاز بها .

وتعنى كلمة الأمن فى مجال الجاسوسية جميع التدبيرات التى توضع لحفظ سرية التنظيم المركزى وفروعه وعملائه الذين فى الميدان ، وكذلك إخفاء الوسائل المستخدمة فى جمع المعلومات ونقلها وتقدير قيمتها ، وكذلك اخفاء كل الموضوعات التى تملكها المنظمة أو تعنى بالحصول عليها ، وكذلك إخفاء الشفرة والكود ، وضمان وقاية الأفراد والحيلولة دون الكشف عن حقيقة أعمالهم وحقيقة المهام الموكولة اليهم .

إن ملاحظة الأمن أو دقة اتباع التعليمات التى يفرضها ، تتطلب من العميل دوام ملاحظة أدق التفاصيل وأبسطها ، وفحص كل شىء مهما صغر أمره ، أو بدا مظهره تافهاً ، مع التيقظ المستمر .

ويجب ملاحظة أن كل ناحية من نواحى الأمن قد تكون صغيرة ، أو قد تبدو لا أهمية لها ، ولكن اغفال أى منها قد يكون كافياً لفشل الجاسوس ووقوعه فى أهول الأخطار .

فمثلاً حدث فى عام ١٩٣٨ أن أرسل أحد ضباط المخابرات السوفييت – الذى كان يعمل متخفياً فى الولايات المتحدة – سرواله إلى محلات التنظيف ، وكان فى أحد جيوب السروال مجموعة من الوثائق سلمها له عميل كان يعمل فى مكتب المخابرات البحرية . ولم يكن من السهل كى السروال مع وجود هذه الوثائق فى الجيب ، فأخرجها العامل من الجيب وكانت النتيجة اكتشاف أكبر قضايا الجاسوسية السوفييتية فى التاريخ الأمريكى حتى ذلك الوقت .

كذلك كانت هذه الزلة مثلاً واضحاً للإهمال من جانب ضابط المخابرات المدرب ، وكان هذا الضابط هو « جورين » وقد أعيد بطبيعة الحال إلى الاتحاد السوفييتى وأغلب الظن أنه أعدم بسبب اهماله .

وثمة حالات كثيرة معروفة عن حقائب صغيرة تركها أصحابها فى سيارات الأجرة ، أو فى القطارات وما كان يجب أن يفعلوا ذلك . ان فترة نسيان فجائية تعترى الرجل، قد تكون ضربة قاضية تصيب رجل المخابرات، أو رجل الأمن المدرب . ولكن قد لا تكون الهفوة الخطيرة من صنع ضابط المخابرات . ففى الغالب تأتي من محايد أو حتى نتيجة حسن نية شخص خارجى ليست لديه أية فكرة عن عواقب ما يفعله ، وقد تكون نتيجة خطأ فنى أو نتيجة حادثة .

حدث مرة أن لاحظت صاحبة بنسيون يقطن فيه رجل أن حذاءه الثاني كان به ثقب فى النعل ، فأخذت الحذاء إلى حانوت الاسكافى دون أن يطلب ذلك منها أحد . واقترح الاسكافى أن يغير كعب الحذاء . ولكنه ما كاد

يخلع الكعب حتى وجد فى كل كعب تجويفاً كانت به بعض قصاصات ورق مكتوب .

تشقق درع العميل

واذا ما حدث تشقق فى درع أحد العملاء بأن يكتشف فجأة أنه مراقب أو متابع ، أو أن بريده قد عبثت به أيد خفية ، فانه يدرك على الفور أن وكالات الأمن الحكومية تلاحقه وانها فى أثره . وحينئذ يجب عليه أن يفكر سريعا ، ويقدر الموقف أو يقيمه ثم يتخذ قراراً فورياً خاصاً به لتأمين زملائه وأعضاء شبكة التجسس . فيقوم العميل بالغاء مواعيده أو التخلف عنها ، كذا يسرع بتدمير كل الأوراق والمستندات والآثار التى تدل على عمله التآمرى ، ويتخذ خطوات أخرى معدة خصيصاً للمواقف الطارئة .

وسواء اختفى العميل عن الأنظار مؤقتاً حتى ينجلى الموقف أو هرب من البلاد ، فإن أسئلة محيرة لا بد وأن تتوارد على ذهنه . ما الذى دفع رجال مقاومة التجسس إلى وضعه تحت الرقابة ؟ ما مدى ما يعرفه هؤلاء الرجال عنه ؟ هل من الممكن أن يكون هناك خائن داخل شبكة التجسس ؟

والواقع أن هناك أسئلة أخرى كثيرة تتطلب رداً فورياً ، ولن يتسنى اكتشاف نقطة الضعف الا اذا كان العاملون فى الجهاز السرى رجالاً على درجة عالية من الكفاءة ، رجالاً يراعون قواعد التآمر والتجسس وقوانين المخابرات مراعاة حازمة ، رجالاً يعملون بدقة وتوقيت مضبوط ، والا فان شبكة التجسس سوف يكون مآلها التفكك لوقت طويل بسبب المخاوف والشكوك التى تمتد فى كل اتجاه .

البحث عن الحلقة الضعيفة

ونستطيع أن نشبه عملية البحث عن « نقطة الضعف » أو عن « الحلقة

الضعيفة » فى تنظيم جهاز التجسس بعملية الفحص التى تجرى لاكتشاف خلل فى التوصيلة الكهربية فى عمارة شاهقة ، فكل عناصر أو مقومات المنظمة السرية بما فيها من شبكة واسعة من المبلغين ، يعاد فحصها بعناية وتحلل تحليلاً دقيقاً ، وتجرى عليها تجارب بصورة سرية ، وأحياناً لا يؤدى الفحص الدقيق إلى الكشف عن نقطة الضعف لسبب بسيط ، هو أن نقطة الضعف هذه قد تكون موجودة خارج منظمة المخابرات وعملياتها .

وقد يكون السبب خفياً كامناً فى الحياة الخاصة لضباط المخابرات وما فيها من نقط ضعف شخصية وخطايا أو مخالفات ، وهى أشياء قد توقعهم فى المتاعب فى الظروف غير الآمنة التى يزاولون فى ظلها نشاط التجسس .

ويعرف فى تاريخ مخابرات الأمن حالات عديدة وقع فيها ضابط المخابرات وهو يمارس عمله — فى أرض أجنبية — فى حب امرأة تجهل حقيقة شخصية حبيبها أو حرفته أو حتى جنسيته ، ثم تكتشف شخصيته اذا ما انتهت تلك الارتباطات العاطفية إلى الزواج أو إلى فشل الزواج أو انهيار زواج سابق .

وتميل الفتيات المفتونات أو المسلوبات العقل عند وقوعهن فى الحب إلى التعامى عن متناقضات غريبة شاذة فى تاريخ جياة الرجل الذى علقن بحبه وفى سلوكه . ولكن آباء تلك الفتيات يحسون بقلق على مستقبل بناتهم ، وعندما يرى الأب أن ابنته تورطت تورطاً خطيراً مع أجنبى فى حب عميق ، يتوق إلى أن يعرف الكثير عنه ، وأن يتأكد من أنه رجل شريف أو على خلق قويم ، وأنه قادر على أن يعول زوجته وعائلته . والآباء فى هذه الحالة ميالون أو مستعدون لبدء عملية تحريات واسعة النطاق يقومون بها هم أنفسهم أو بواسطة مخبر سرى فى بعض الأحيان ، وهذه هى النقطة التى أحياناً ما تنطلق فيها الصواريخ ، وتكشف شخصية العميل .

وثمة نقطة أخرى تكشف ضباط المخابرات السريين والعملاء نتيجة

رعونة وطيش غير مسموح بهما ، أو عدم مبالاة بالخطر الذى يهدد أمنهم .

ولذا فان من أهم الواجبات التى تشغل ضابط المخابرات أكثر من غيرها العمل على الا تنكشف شخصية العميل المزورة ، حيث يبذل جهداً كبيراً لاختيار جواز سفر مزور ، والحصول عليه لاعطائه للعميل ، وتستغل العبقرية والذكاء لاختراع سيرة حياة معينة ، ولاقامة عمل مضمون لكى يكون ستاراً يختفى وراءه العميل ، كما شرحنا ذلك بالتفصيل فى الفصل الخاص بالساتر .

وغالباً ما تستنفذ أعوام طويلة لكى تخلق من العميل رجلاً ماهراً ، ولكى تغرس فى نفسه أهمية اليقظة فى حرفة التآمر .

ومع ذلك فان كل هذا الحرص يذهب فجأة فى مهب الريح ، فى اللحظة التى يشترى فيها العميل سيارة خاصة ، حيث يلفت ذلك نظر رجال الأمن إلى كثير من البيانات التى قد تفضحه .

على ان هناك نقطة ضعف اخرى تكمن فى التكوين السيكولوجى للعميل الرئيسى وهى التى تدفعه إلى خرق القواعد الأساسية للأمن . وتنبع نقطة الضعف هذه من حياة الوحدة التى يحياها فى بيئة معادية على أرض اجنبية بعيداً عن عائلته وأصدقائه وبلاده .

وقد يدفع هذا التكوين العميل إلى تصرف يتسم بالنزق أو الطيش وهو يتولد عن الإحساس بالغربة والحنين إلى الوطن ، وتتمثل هذه الصورة فى عادة ضباط المخابرات والعملاء فى الاحتفاظ بالخطابات التى يتلقونها من عائلاتهم من أرض الوطن فترات طويلة من الزمن بدلاً من التخلص منها بعد قراءتها ، وعدد كبير من ضباط المخابرات يصعب عليه أن يفارق تلك الخطابات التذكارية ، وبخاصة لأن أطفالهم هم الذين كتبوها بأقلامهم ، وربما تكون هذه الأوراق كافية لادانتهم على نشاطهم التجسسى .

تدبيرات للعميل

وقد أفصح « ماكس كلوزن » عن التدبيرات الاحتياطية التى اعتبرها ضرورية ، والتى يجب أن يتبعها العميل السرى بكل دقة وهى :

— أن يكون لكل أفراد الشبكة أعمال قانونية بريئة المظهر لا صلة لها بأعمال الجاسوسية أو الاهتمام بجمع المعلومات .

— يجب تغيير شفرة الراديو باستخدام أرقام خاصة لكل رسالة ترسل .

— يجب فك جهاز الإرسال ووضعه فى الحقيبة ونقله إلى مكان آخر بعد كل عملية إرسال .

— يجب أن ترسل الرسائل من أماكن مختلفة ، ولا يجوز بحال ما استخدام منزل واحد للارسال لمدد طويلة .

— يجب الاتصال بالرسل والمندوبين الذين ينقلون المعلومات والرسائل فى سرية تامة ، ولا تذكر الأسماء الصحيحة سواء لهم أو للوسطاء الذين يتصلون بهم .

— يجب أن يكون لكل فرد فى الشبكة إسم كودى يخفى حقيقته .

— يجب عدم ذكر الأسماء الحقيقية ، لا فى الرسائل ولا فى المحادثات الشفوية .

— إخفاء أسماء الأماكن بوضع أسماء كودية لها .

— يجب إعدام الوثائق بمجرد أن ينتهى الغرض الذى من أجله تم الحصول عليها .

هفوات أمن

وقد انهارت شبكة « سورج » الشيوعية فى اليابان عام ١٩٤٢ ، نتيجة

عمل لم يستهدف تحقيق تدبيرات الأمن الكاملة ، بالرغم من أن الرجل الذى تسبب فى ذلك لم يكن يعرف شيئا عن سورج أو شبكته .

ففى أوائل عام ١٩٤١ بدأ اليابانيون يشتبهون فى اليابانيين الشيوعيين فى قيامهم بأعمال التجسس ، وكان أحد المقبوض عليهم هو « اينورينو » لا علاقة له قط بأعمال الجاسوسية ، ولكنه تظاهر برغبته فى معاونة الشرطة حينما كان يستجوب بمعرفتها ، فذكر عدة أسماء على أنها مشتبه فيها ، وان لم يكن بينهم مذنب واحد . ومن بين هذه الأسماء ذكر اسم مسز « كيتابایاشی » التى كانت شيوعية ثم نبذت المذهب عندما كانت تعيش فى الولايات المتحدة . وحينما عادت فى عام ١٩٣٦ إلى اليابان إتصل بها فى أحد الأيام فنان يابانى شيوعى يدعى مياجى كانت تعرفه فى الولايات المتحدة وكان أحد أعضاء عصابة سورج . وبدون سبب كشف مياجى عن نفسه لمسز كيتابایاشی ، لأنه لم يكن لها علم بأى معلومات تهم سورج ؛ إذ لم تكن تعدو أن تكون مدرسة حياكة ، ولم يكن « رينو » يعرف شيئا عن هذا البتة ، ولكنه أبلغ عن مسز كيتابایاشی بدافع الانتقام لأنها نبذت الشيوعية . وعندما قامت الشرطة بإلقاء القبض على مسز كيتابایاشی أعطتها اسم مياجى . وأرشد مياجى بدوره عن كل مصادر سورج وعلى رأسهم « اوزاكى » ، وهكذا استمرت العملية حتى تم القبض على العصابة جميعها .

ومما لا شك فيه أنه كلما كبرت الشبكة ، وكلما كثرت حلقاتها ، وكلما اشتدت الحاجة إلى اتصال أعضائها بعضهم بالبعض الآخر ، تهيأت الفرص لاكتشافها . ومع ذلك فلم يحدث قط من أى عضو من أعضاء سورج الكثيرين العديدين أن أثار انتباه الشرطة فى أى وقت من الأوقات . وكان الضباط الذين تحدثوا إلى مسز كيتابایاشی أكثر دهشة عندما أدت بهم هذه المناقشات — حلقة بعد حلقة — إلى الوصول إلى أكبر وأقوى شبكة جاسوسية . كان الاكتشاف نتيجة صدفة سيئة ، ومهما بلغت العناية بالتخطيط فما كان من

الممكن تحاشيه ، اللهم إلا احتياط واحد كان السوفييت كثيراً ما يغفلونه وهو : لا تستخدم فى الجاسوسية أى شخص كان معروفاً أنه كان عضواً فى حزب فى يوم من الأيام .

وقد يحدث أحياناً أن يكون المتسبب فى هفوات الأمن التى تكشف العميل هو جهاز المخابرات نفسه — لا الضابط الذى يوجه العميل — فقد يكون المتسبب هم الفنيين الذين يعدون للعميل الأدوات اللازمة لمهمته ، مثل قاع الحقيبة الزائف الذى ينكشف عندما يقوم ضابط الجمرك بتفتيش الحقيبة ، وقد يكون ذلك خطأ فى تركيب حبر الكتابة السرية ، وأكثر ما تكون الهفوات نتيجة الوثائق المزورة . وتقوم أجهزة المخابرات فى جميع أنحاء العالم بدراسة الوثائق الجديدة ورصد التغييرات التى يمكن أن يدخلوها على الوثائق القديمة ، حتى يمكن أن يزودوا العملاء بوثائق تبدو حقيقية وصحيحة فى كل تفصيل من تفصيلاتها . ولكن أحياناً ما تحدث هفوة ما كان يمكن تجنبها ، فقد يلاحظ أحد موظفى الحدود الذين يرون مئات الجوازات فى كل يوم أن رقم جواز أحد المسافرين المسلسل لا يتفق مع تاريخ اصدار الجواز ، أو أن التأشيرة المثبتة على الجواز موقع عليها من قنصل كان الموظف يعرف أنه مات منذ أسبوعين قبل تاريخ اصدار التأشيرة .

القدر في عملية الاكتشاف

ثم هناك القدر ، التدخل غير المنتظر من جانب قوى غير بشرية كالحوادث والكوارث الطبيعية والعقبات العارضة التى لم تكن موجودة منذ أسبوع ، أو سوء عمل آلة من الآلات . قد يسقط العميل الموفد فى مهمة ميتاً نتيجة سكتة قلبية ، أو قد تصدمه سيارة نقل أو قد يستقل طائرة تسقط وتتحطم ، فتنهى هذه الحادثة المهمة أو قد تؤدى إلى أكثر من ذلك .

ويعطى « ألين دالاس » فى كتابه « حرفة المخابرات » مثلاً لذلك حيث يقول :

« فى مارس ١٩٤١ حدث أن صدمت سيارة أجرة كابتن « لودفايج فون دير أوستن » الذى كان قد وصل إلى نيويورك ليتولى إدارة شبكة جواسيس ألمانية فى الولايات المتحدة عندما كان يعبر شارع برودواى عند الشارع الخامس والأربعين ، وكانت اصابته قاتلة ، ولكن بالرغم من أن شريكاً له كان سريع التفكير فاختطف حقيبة أوراقه وأسرع هارباً بها ، فقد وجدت إلى جانب الجثة مفكرة « فون دير أوستن » كما وجدت بعض أوراق فى حجرة فندقه تشير إلى أنه كان ألمانياً متنكراً كرجل اسبانى ومشتركاً فى عصابة جاسوسية ، وبعد الحادثة بقليل اكتشفت الرقابة البريدية فى برمود اشارة للحادثة فى احدى الخطابات المشتبه فيها ، والتى كانت تتبادل بانتظام بين الولايات المتحدة وبين اسبانيا . واستطاع مكتب المباحث الفيدرالى أن يتعقب عصابة الجاسوسية النازية التى كان يديرها « فون دير أوستن » وانتهى الأمر فى مارس من عام ١٩٤٢ بمحاكمة وادانة « كورت . ف . لودفيج » وثمانية من شركائه . وكان لودفيج هذا هو الشخص الذى كان مع أوستن عندما صدمته السيارة ، وكان هو الذى واصل الاتصال بمخابرات النازى عن طريق اسبانيا .

أثر العوامل الطبيعية

وهناك مثل آخر يوضح أثر العوامل الطبيعية على الأمن فى أعمال التجسس، فقد كان نفق برلين المشهور الذى يمتد بين برلين الشرقية وبرلين الغربية يستخدم للتجسس على خطوط المواصلات فى ألمانيا الشرقية ، وكان به نظام تدفئة نظراً لبرودة شتاء برلين . وعندما سقطت الثلوج لأول مرة ، أظهر التفتيش الروتينى أن الثلوج التى كانت فوق النفق كانت تذوب نتيجة للحرارة

الصادرة من أسفل ، وكانت دهشة المفتش بالغة حينما وجد أنه لن يمضى وقت طويل حتى يظهر طريق جميل يسير بين غرب برلين وشرقها ، فأسرع وأبلغ عما رآه . وفى الحال رفعت الحرارة وبدأت آلات التبريد تعمل من داخل النفق ، ولكن استمرت الثلوج فى السقوط وسرعان ما غطت الطريق بعد ذلك .

واكتشف السوفييت نفق برلين وحولوا نهايته فى برلين الشرقية إلى معرض عام ليثبتوا لأهالي ألمانيا الشرقية ما كان يذيعه السوفييت من أن الحلفاء كانوا يريدون السيطرة على برلين الغربية لأنها كانت مكاناً مناسباً يتجسسون منه على الشرق . وفتح السوفييت فى الهواء الطلق وفى مكان مجاور ، حانوتاً لبيع السجق والبيرة حتى يتمكن الألمان وعائلاتهم من قضاء بعد ظهر يوم الأحد فى زيارة للنفق . وبدلاً من أن يلوح الألمان بقبضتهم نحو الغرب ، كانوا يضحكون من السوفييت لأنهم كانوا يفخرون بخدعة جازت حيلتها عليهم . ولم يمض وقت طويل حتى ظهر سر حانوت السجق والبيرة .

ومهما تحدثنا عن موضوع تدبيرات الأمن ، فاننا لا يمكن أن نوفيه حقه ، إذ إن أمن العملاء عملية متشعبة تعتمد على الفكر والابتكار ، ولذا فان ما جاء بهذا الفصل عبارة عن دروس ونماذج للاسترشاد بها .

إن العميل فى الواقع يعمل وروحه فى يده ، وهو لا يستطيع أن يضمن سلامته إلا اذا سيطر على مشاعره وتصرفاته وعقل لسانه وفكر بحكمة ، وتصرف بروية فى كل لحظة من لحظات حياته اليومية .

ولو اتخذ العميل كل أنواع الحيطة التى يمكن أن تصبغ عليها صفة الأمن لاستطاع أن يعطى نفسه وقاية لدرجة كبيرة .

* * *

الفصل السابع

اسلوب تشغيل العمــلاء

مبدأ المعرفة بقدر الحاجة

الواقع أن الأفراد الذين يعملون فى العمليات السرية يشتركون معاً فى شىء واحد عام ، هو الشعور بأهداف أعمالهم ووظائفهم ، ولكنهم يختلفون بعد ذلك تبعاً لدرجاتهم وقيمة المعلومات التى يمكن لكل منهم أن يعرفها .

والمعترف به أن الرجل الذى فى القاعدة يعرف القليل ، على حين من فى القمة يعرف الكثير ، وهذا مبدأ فى حرفة المخابرات لا يعرف الجدل .

والفكرة فى هذا الترتيب الذى هو أقرب إلى تنظيم درجات « السلم الكهنوتى » هى أن هذه العمليات مع انها سرية فى توجيهها وطبيعتها إلا أنها عبارة عن تعامل أساسه المخلوقات البشرية ، وقد يستطيع العميل النابه بعد تجربة وخبرة أن يدرك حقائق وتفاصيل بعض العمليات السرية دون أن يكون مشتركاً فيها من الناحية العملية .

ولتلافى ذلك فان التنظير الجيد يعتمد على تقسيم النشاط إلى وحدات صغيرة

جداً ، كل منها منفرداً ، دون أن تعرف غيرها ، ويطبق هذا النظام فى كل الخدمات السرية فى العالم كله .

وفى عمليات الخدمة السرية يحدد النظام المثالى علاقة عميل بعميل آخر واحد أو اثنين على الأكثر ، ولهذا فائدته من ناحية أنه يقلل من تعرض سر العمل لخطورة الذيوع ، لأن الذين يضعون الخطة العامة قلة موجودة فى القمة ، ولكنها تعتمد على قاعدة واسعة منتشرة لا يعرف أفرادها الآخرين .

ومن ثم اذا شبهنا العمليات السرية بالاخطبوط ، فانه يكون تشبيهاً أقرب إلى الواقع ، فمثلاً لا يوجد فى أى ذراع من أذرع الاخطبوط العضو الذى يمكنه من معرفة ماذا تفعل الأعضاء الاخرى ، ومع ذلك فان أذرع الاخطبوط لا تعمل منفصلة عن غيرها ، فان عقلاً واحداً هو الذى يوجه حركات كل الأذرع ، وينسق بين عملها عن طريق الأعصاب والعضلات .

وعضلات أخطبوط العمليات السرية هو جوهر السيطرة على العلاقات البشرية للأفراد الذين يسهمون فى هذا النشاط ، فاذا كانت السيطرة غير مؤثرة ، فان معنى ذلك ان هناك عيوباً يجب البحث عنها وتلافيها .

وهناك تشابه بين تحرك الاخطبوط وتحرك العمليات السرية ، فالأول يتحرك بحثاً عن الغذاء ، والثانية تتحرك بحثاً عن المعلومات .

وفى تشبيه العمليات السرية بالاخطبوط يبدو بوضوح أن الأذرع هنا عبارة عن سلسلة من العلاقات البشرية تربط معاً كل العمليات من أعلى قمة المنظمة حتى أبعد عميل منعزل فى مكان سحيق .

العلاقة بين ضابط القضية والعميل

وفى كل العلاقات المذكورة عدة خدمات معاونة ، مثل الاتصال والادارة والتشغيل وهناك تنشأ علاقة حرجة هى التى تقرر فى أغلب الأحيان نجاح أو

فشل العملية . هذه العلاقة تعرف فى مصطلحات الحرفة بـ « العلاقة بين ضابط القضية Case officer ، والعميل » .

وضابط القضية أو الحالة هو الذى يوجه العميل حيث يعمل من داخل رئاسته بشكل غير مرئى أو غير مكشوف ، بينما يقوم العميل بنشاطه فى الميدان ، ويكون نشاطه معرضاً للخطر . والعلاقة بين الاثنين هى حقيقة دعامة كل العمليات السرية .

ودون أن يستطيع ضابط القضية السيطرة على العميل ونشاطه بدرجة معقولة ، فإن العملية لا يمكن أن تنجح . ولكن من جهة أخرى يجب ألا يحد ضابط القضية من حركة العميل إلى الدرجة التى يفقد فيها الثقة بمن يستخدمه ، أو يجعله يشعر بعدم الرغبة فى الاستمرار فى العمل .

فمثلاً إذا قطع ضابط القضية النقود عن العميل لارغامه على أن يخضع للنظام الذى فرضه ، أو استمر فى التعامل معه بطريقة جامدة ، فان ذلك غالبا ما يؤدى إلى فشل ذريع ، والعميل لا يربطه بالضابط إلا تعهد بعمل ما نظير ما يتقاضاه من أجر ، ويستطيع العميل أن يلجأ إلى المنظمة المعادية ، التى قد تدفع له أجرا أكبر أو توفر له شروطا أفضل .

التسلح بالمعرفة

والمعرفة التى يتسلح بها ضابط القضية ، والتى ستتوافر له من موارد المعلومات ، يجب أن يستغلها للسيطرة على العميل ، اذ إنه بدون هذه المعرفة لا يمكن للضابط أن يقدر مدى سير العمل فى الاتجاه الصحيح .

ومن ناحية أخرى يجب أن تقف اتصالات العميل بالمنظمة التى يعمل لحسابها عند ضابط القضية . وقد يكون ذلك متيسراً فى عمليات الجاسوسية ، لكن يصعب تنفيذ ذلك فى العمليات السياسية ، مثل عمليات التآمر والتخريب

أو العمليات السيكولوجية .

ومهما تكن الحاجة إلى سيطرة ضابط القضية على العميل ، فإن هناك عدة عوامل رئيسية تعوق هذه السيطرة ، فالعلاقة بين ضابط القضية والعميل ليست علاقة بين مستخدم وصاحب عمل، ولا هى علاقة بين رئيس ومرؤوس، ولكنها من الناحية النظرية البحتة علاقة بين السيد وخادمه .

فضابط القضية هو الذى يحدد الأهداف ، وما على العميل إلا أن يطيع دون أى جدل من جانبه ، وأن يضع مهارته كلها تحت تصرف الضابط ولخدمة تحقيق الأهداف التى حددها له .

ولكن هناك نقطة هامة تؤثر على العلاقة بين ضابط القضية والعميل ، وهى أن العميل هو الذى يعمل فى الميدان حرًّا طليقا ، فلا يستطيع ضابط القضية أن يتواجد ليسهم فى العملية التنفيذية ، أو حتى يقوم بالإشراف الفعلي فى ميدان العمل .

مشكلة ضعف الاتصال

وهنا تنشأ مشكلة ضعف الاتصال بينهما ، فقد تكون الفواصل الزمنية بين اجتماعهما معاً طويلة ، وقد لا تكون وسائل الاتصال بينهما أكثر من إشارات باللاسلكى .

وفى أغلب الأحوال ، فان الاتصال الشخصى بين ضابط الحالة والعميل ، إما أن يكون نادراً ، وإما أن يكون غير موجود ، وفى الحالة الأخيرة ، فإن الاتصال يتم بينهما عن طريق « الوسطاء » Cut-outs .

والوسيط هو شخص أو بعبارة مهنية عميل آخر ، يعمل كوسيط بين ضابط القضية وعميله ، ويقوم هؤلاء الوسطاء بتيسير الاتصال الشفهى بين ضابط القضية وبين العميل ، حينما يكون لقاءهما يهدده خطورة ، أو حينما

يكون غير مستحب تبادل المكاتبات بينهما لظروف الميدان الذى يعمل فيه العميل .

ويستخدم العملاء الوسطاء أيضاً فى المواقف التى تتطلب ألا يعرف العميل حقيقة ضابط القضية أو العميل الرئيسى ، وإن يندر استخدام هذا الأسلوب .

وحينما تسمح الظروف ، فان الوسيط قد يكون مكان اسقاط الرسائل وهى التى شرحناها فى الفصل الخامس .

وثمة وسيلة حديثة استخدمت بنجاح ، وهى أن ترسل تذكرة فى مسرح أو دار للسينما للعميل ، ويكون الجالس إلى جواره هو نفس ضابط القضية أو عميل آخر ، ولكن العادة أن الشخص الذى يكون فى المقعد المجاور هو « الوسيط » ويتم تبادل الرسائل فى الصالة المظلمة فى أثناء التمثيل أو العرض دون أن يتبادلا أى كلمات .

وحينما يكون هناك خطورة فى الاتصال الشخصى ، فإن أنسب وسيلة هى إيجاد « منزل أمين » Safe House ، وهو اصطلاح حرفى لمكان أمين يتقابل فيه العملاء .

وقد استخدم بعض ضباط المخابرات الأجانب فى القاهرة منازل بعض السكرتيرات اللاتى يعملن فى بعض المؤسسات الأجنبية كمنازل أمينة لمقابلة مندوبيهم . كما قام بعضهم بتأجير شقق مفروشة على أنها لاستخدام خاص .

الموازنة بين الاحتياجات ودوافع العميل

وهناك مشكلة أخرى تنشأ فى العلاقة بين ضابط القضية والعميل وهى مشكلة الاحتياجات فان ضابط القضية يتلقى الاحتياجات من سلطة أعلى ، وتكون عادة نواحى تخص السياسة القومية التى قد تكون عرضة للتغيير تبعاً

لتطور علاقة الدولة بدول المجتمع الدولي ، ولكن العميل من جهة أخرى يساهم بمجهوده فى الاحتياج على أساس تحقيق أهداف معينة ، حيث تتوافر له الموهبة الشخصية للقيام بها ، ولذا فان أى تغيير يربك العميل .

كما أن العميل حينما يختار لعملية خاصة ، غالباً ما يكون قادرا على إدراك احتياج ضابط القضية ، ولكن من النادر أن تكون الأسباب التى وافق العميل على القيام من أجلها بالعمل ، متماثلة تماماً مع الأسباب التى لدى ضابط القضية . ولكن من جهة أخرى يجب على ضابط القضية المحنك أن يدرك الأسباب والدوافع التى تجعل العميل لا يتوافق مع احتياجاته ، وذلك لدرء أى نزاع بينهما فى أية لحظة حرجة من لحظات التشغيل .

وكما سبق أن أوضحنا فى الجزء الأول مفصلاً الدوافع التى تدفع العميل للعمل لحساب منظمة مخابرات ، فان الغالب هو دافع حب المال أو الكسب الشخصى ، أو التهديد ، أو العقيدة الايديولوجية أو المغامرة ... الخ .

ولذا فان ضابط القضية عليه أن يوازن بين دوافع العميل المختلفة ، وبين الاحتياجات التى يطالب بها العميل ، أى بمعنى أوضح يجب أن يدرك تماماً أن ثمة مصلحة مشتركة فى هذه العلاقة البشرية .

فاذا ما أدرك ضابط القضية هذه الدوافع ، فانه يستطيع أن يسيطر على العميل . والضابط النابه الحكيم هو الذى يستطيع أن يحقق التوافق بين دوافع العميل وبين ما يكلف به من أعمال .

وهنا تكون دراسة تاريخ العميل وماضى حياته واتجاهاته فى الحياة ، والبيئة التى نشأ فيها ، والظروف العاطفية أو المعيشية التى يحياها لها أهميتها القصوى ، وهذه المعرفة الدقيقة بالاضافة إلى أنها تعاون ضابط القضية فى السيطرة على العميل ، فانها تعاونه أيضا فى تخطيط وتنفيذ العملية .

والواقع أن أى عميل ينغمر فى أعمال الخدمة السرية لا يرتبط فى هذا

العمل على سبيل اللهو والمرح ، إذ إنه يطالب بأعمال صارمة وموضوعات معقدة .

ويتورط كثير من الرجال والنساء كعملاء دون وعى أو إدراك ، إذ إن كثيراً من الأحداث قد توقعهم فى الشباك دون أى إدراك صحيح أو قرار إرادى ، ولكنهم عاجلاً أو آجلاً سيجدون أنفسهم فى موقف يدركون فيه تفهم طبيعة عملهم ، وعند هذه النقطة يجدون أنفسهم يقومون بمهمتهم إستجابة لأحد الدوافع التى سبق أن تحدثنا عنها .

وبالنسبة إلى الدوافع المتشعبة ، نجد أن السوفييت لا يترددون فى محاولة تجربة كل الدوافع التى ذكرناها ، ولكن من جهة أخرى يبحثون بقوة بين هذه الدوافع عما اذا كان العميل الذى يحثونه للعمل لحسابهم لديه دافع ايديولوجى .

ففى عام ١٩٤٥ أعطى السوفييت وعداً بالأمان لستة عشر زعيماً من زعماء المقاومة السرية غير الشيوعيين فى بولندا ، وذلك بقصد تشجيعهم على الذهاب إلى موسكو لإجراء مباحثات مع الحكومة السوفييتية .

وسافر هؤلاء الزعماء مستندين إلى هذا الوعد ، ولكن حينما وصلوا موسكو اعتقلوا ونقلوا إلى سجن « لوبيانكا » فى موسكو ، وفى النهاية حوكموا بتهمة القيام بنشاط مضاد للسوفييت .

وقبل أن يصدر القرار النهائى ببدء المحاكمة ، كانت هناك مراحل الاستجواب الطويلة ، ويوضح « زجيجنيف ستبلكوسكى » أحد زعماء الستة عشر فى الفقرة التالية من مذكراته عن الاستجواب ، خليط الدوافع المختلفة التى اقترحها الرجل الذى قام بالاستجواب :

قال زجيجنيف فى مذكراته : —

« أعتقد أن المستجوب كان يهدف فى المرحلة الاولى من الاستجواب

إلى ثلاثة أغراض . كان الأول أن يحصل منى على تفاصيل عن حياتى وحياة اسرتى ليحصل على معلومات كافية عنى ، ويعرف مواطن الضعف فىّ وما فى نفسى من مطامع ، ثم تقدير قوة عزيمتى .

« وكان الغرض الثانى أن يدخل فى عقلى فكرة أنَ أهم واجب على ، هو أن أدافع عن نفسى ، وأن أعمل لإطلاق سراحى بأى ثمن .

« أما الغرض الثالث فكان يهدف إلى تحطيم توازنى العقلى ، بأن يلقى بى بسرعة من وضع التفاؤل إلى وضع اليأس والقنوط ، ولقد عبر المستجوب عن أسفه عن أسرتى ، ولكنه أصر على أن يعرف مكان ابنى ، وحاول أن يقنعنى بأن واجبى كوالد صالح أن أبحث عنه وأنه سيساعدنى فى البحث عنه .

« وفى الساعة الرابعة صباح أول يوم ، تحدثنا عن كثب وقد حاول أن يسرى عنى وأن يهدىء من ثائرة نفسى ، وقد نجح فى هذا ثم أخذ بذراعى وحدق فى عينى وهو يقول :

« انى آسف من أجلك ....انى آسف جدا لأن أراك فى هذه الحالة السيئة تجلس هنا فى سجن لوبيانكا . ولكن يسرنى أن أخبرك بأن حكومتى لا مصلحة لها فى قطع رأسك ، أو فى أن تضعك فى أحد معسكرات العمل فى سيبريا ، بل على النقيض فنحن فى حاجة اليك ، لأن واجب روسيا التاريخى هو أن تحكم أوروبا كلها » .

وبالرغم من هذا الحديث الفج ، ومع أن هذه الوسيلة لم تنجح فى حالة مستر ستبلكوسكى إذ أصبح من أشهر زعماء بولنده المنفيين ، إلا أنها نجحت فى حالات عديدة أخرى .

إنهاء عمل العميل

ودوافع العميل ليست هامة فقط فى انشاء العلاقة بينه وبين ضابط القضية

والاحتفاظ بها ، بل إنها تلعب دورها فى استكمال أو إنهاء تلك العلاقة مع العميل « Termination of the Agent » .

ويوجد اعتقاد عام بأن من يعمل كعميل سرى يظل بصفة مستمرة مخصصاً لهذا العمل ، وهذا غير صحيح . فهناك أشخاص يستدعون من وقت إلى آخر للقيام بعمليات خاصة ، وهناك أشخاص ينتهى الانتفاع بهم بعد عملية خاصة معينة ، ولكن يجب فى هذه الحالة أن يوضع فى الاعتبار حالة العميل المالية التى قد تسبب ضرراً بالغاً بمسألة الأمن الخاص وبضابط القضية ، أو المنظمة التى تستخدمه .

ولذا فان عملية الإنهاء العادلة من أهم الأمور لاكتساب ثقة العملاء ، وفى بعض الأحيان قد يلجأ ضابط القضية إلى أسلوب لا إنسانى للتخلص منه ، وذلك عن طريق التشهير بالعميل .

ومن أمثلة ذلك ما حدث منذ بضع سنوات حينما اتهم عميل أمريكى ورث ثروة طائلة ، بأنه قد أنفق بعض ما أعطى له لنفقات العملية فى شراء سيارة خاصة له ، ودون أى بحث ودون التحقق من الثروة التى ورثها الرجل فانهم طردوه بطريقة مهينة .

ان المشاكسة بين ضابط القضية والعميل من أسوأ ما يواجه العلاقات البشرية فى تنظيم العمل السرى . كما أن مسئولية عدم التخلص من العميل فى هدوء لا تقع عليه ، بل هى مسئولية المنظمة التى تستخدمه .

العميل المزدوج

والجاسوسية — كأى ناحية أخرى من نواحى النشاط البشرى — لها جانب منحرف يمارسه — بنوع خاص — ذلك الشخص الذى يعرف فى حرفة المخابرات « بالعميل المزدوج »

هذا الشخص ينقصه التمييز بين الحسنات والسيئات لدرجة أنه يتحول من السير فى الطريق المستقيم لكى يرضى رئيسين مضادين فى وقت واحد .

وهنا يظهر دافع هذا العميل بوضوح وهو الكسب المادى ، فانه بالرغم من أن التجسس العادى يعد نشاطاً غير مرغوب فيه ، فان الجاسوس المزدوج يعد أشد سوءاً ويغدو جديراً بالاحتقار والمهانة . وهو عادة يتخذ هذا السبيل فى الجاسوسية لمجرد تحقيق الكسب المادى ، ومن ثم فهو يختار أقرب الطرق بأن يتجسس لناحيتين فى آن واحد .

وحينئذ يستطيع مضاعفة دخله ، ثم هو أيضاً رجل سيء التفكير فاسد الخلق ، أشد خيانة من الخائن ذاته ، ولذلك قد يكون لبقاً ساحراً فى حديثه إلى حد ما ، تتغلب فى نفسه نواحى الشر على الخير .

وتوضح القصة التالية كيف يعمل العميل المزدوج ... ففى مطعم الشرق الأقصى الصينى فى نيويورك ، جلس شخصان مساء ٢٢ من مارس عام ١٩٤٤ أحدهما يدعى « زوبلين » والآخر « موروس » ، وكانا يتحدثان باللغة الروسية .

وفى نهاية الحديث قال زوبلين لموروس أنه سيغادر الولايات المتحدة بعد يوم أو اثنين ، وانه يجب أن يعرفه بالشخص الذى سيحل محله فى السفارة ، أو على الأصح الرجل الذى سوف يتولى أعمالاً أكبر عما كان يقوم بها زوبلين .

وذهب الاثنان إلى « جاكوب سوبل » ، وكان موروس قد عمل مع سوبل حوالي اثنى عشر عاما كعميل ، ولكنه لم يخلص له كجاسوس روسى أكثر من ستة أشهر فقط ، وبعد ذلك كان اسم سوبل فى مكتب المباحث الفيدرالية تحت المراقبة باسم كودى أطلق عليه « سام » .

كان موروس منذ أن أفضى بقصته إلى مكتب المباحث الفيدرالية تحت

حراسة شديدة منها ، فقد كان هناك حارسان خاصان يحميان موروس وينقلان منه كل الوثائق الخطيرة التي يريد نقلها إلى السلطات الامريكية .

وكانت السلطات الأمريكية تمد موروس بمعلومات عسكرية تبدو خطيرة ، ولكنها كانت في الحقيقة إما معلومات قديمة وإما عديمة القيمة ، وهذه لعبة قديمة تعرفها كل أجهزة المخابرات مع العملاء المزدوجين ، وكان موروس ينقل هذه المعلومات إلى سوبل .

كان موروس يعمل — بعد تصفية شركة موروس الموسيقية — كحامل رسائل دائم التنقل وقد تبين بعد انتهاء العملية انه سافر ٦٨ مرة بين الولايات المتحده وأوروبا ، وزار مدناً عديدة وهي موسكو وباريس وفيينا وبرلين وزيورخ وجنيف ولوزان ، حيث كان يتسلم الوثائق ويأخذ التعليمات .

أما سوبل فنظراً لعمله في صناعة المكانس فقد كان أيضاً دائم الأسفار ، وفي مناسبة ما سافر إلى كندا ، حيث زار أحد أقاربه ويدعى « هازل شازن » في شركة « مكانس كندا ليمتد » ، كما سافرت عائلة سوبل إلى فرنسا مرة في الفترة بين عامي ١٩٥٠ ، ١٩٥٢ ، واستقرت فترة طويلة في باريس حيث تمت مقابلات هامة بين موروس وسوبل ، ثم التقيا بعد ذلك بزوج وزوجة هما « جورج وجين زلاتوفسكي » اللذان كان لهما دور كبير في نشاط التجسس .

كان جورج زلاتوفسكي يبلغ من العمر أربعين عاماً ، من مواليد كييف في أوكرانيا وقد وفد إلى الولايات المتحدة عام ١٩٢٢ مع والده « ميخائيل » ، واكتسب الجنسية الأمريكية ثم نشأ في مدينة وولوث حيث أتم دراساته في جامعتها .

أما جين زوجته فكانت سيدة شقراء من مواليد عام ١٩١٢ من أسرة أمريكية في كاليفورنيا ، وكان والدها طبيباً أمريكياً معروفاً في سان فرانسيسكو. وبعد أن أتمت دراستها في المدرسة العليا للبنات في اوكلاند بولاية كاليفورنيا ،

أصبحت بعد ذلك فنانة عام ١٩٣٥ . وفى عام ١٩٣٨ انضمت للحزب الشيوعى ، وتزوجت موظفاً هولندياً فى المستعمرات ، وسافرت إلى جزر الهند الشرقية الهولندية .

ولا يعرف أحد متى وكيف طلقت من زوجها الأول . ويقال إنه توفى ، كما لا يعرف أحد لماذا تزوجت جين جورج زلاتوفسكى مرتين ، المرة الأولى عام ١٩٤٣ ، والثانية عام ١٩٤٦ .

وكانت صداقة قديمة تربط « جين زلاتوفسكى » بـ « مارتا دود » ، فقد تعرفت جين بزوجها فى إحدى حفلات مارتا دود . والمرجح أن آل زلاتوفسكى قد تعرفا واتصلا بآل سوبل عن طريق مارتا دود ، وان ذلك قد حدث حينما كان زوبلين رئيساً للجاسوسية الروسية فى أمريكا .

ولا شك أن زوجة زوبلين كان لها دور فى هذه الاتصالات ، فقد كانت تجمع حفلات الكوكتيل السيدات مارتا شترن دود ، ليزا زوبلين ، ميرا سوبل ، جين زلاتوفسكى ، حيث يتبادلن الأحاديث المرتبطة بالوعى الشعبى .

وفى المنزل كانت كل زوجة تحادث زوجها فيما تناولته من أحاديث ، ولهذا فان السيدات كن العامل الدافع فى هذه الروابط ، وعلى الأخص مارتا وجين . أما كاترين موروس فانها لم تكن تعرف شيئاً على الاطلاق عن نشاط زوجها الذى سافر ٦٨ مرة خلال اثنى عشر عاماً .

وقد ذكر موروس فى تصريحاته ان السيدات أشد خطورة من الرجال فى عالم التجسس ، وخص بالذكر مارتا دود التى أصبحت عدوته اللدودة .

ولقد كان لكل من جورج وجين زلاتوفسكى موقف خاص فى حلقة الجاسوسية ذلك أنهما كانا فى خدمة المخابرات الأمريكية ، فقد كانت جين تعمل خلال الحرب الثانية فى مكتب الخدمات الاستراتيجية .

أما جورج فقد كان يعمل فى مخابرات الجيش منذ عام ١٩٤٣ كجندى ، وحينما سرح من الخدمة عام ١٩٤٨ كان برتبة ملازم أول ، بعد أن عمل فى خدمة المخابرات الأمريكية بفيينا فى الفترة ما بين ١٩٤٥ — ١٩٤٧ .

وقد اشتهر جورج وجين بالادمان على الشراب وقرر سوبل ضمهما إلى حلقة التجسس الروسية عام ١٩٤٥ ، وعرفا باسم « دكتور سلانج » وكانا يتقاضيان مبالغ منتظمة من السوفييت ، وفى آخر الأمر أصبح لهما مرتب شهرى .

أما موروس فقد ذكر أنه لم يقبض سنتاً واحداً لا من السوفييت ولا من الامريكيين ، وقد قال فى هذا المجال :

« لقد دفعت مليونى دولار من جيبى الخاص لخدمة وطنى وأصبحت الآن مفلساً تماماً » .

ومثل هذا التصريح الجرىء لا يمكن أن يعقب عليه ، فتاريخ الجاسوسية ملىء بمثل موروس الذين يدعون مثل هذا الادعاء . هل من المعقول أن يعمل إنسان عميلاً ثم يصرف من جيبه الخاص هذا المبلغ الضخم ؟

وقد قابل موروس أثناء خدمته المزدوجة عدداً من كبار المسئولين السوفييت فى المخابرات الروسية مثل « الكسندر كروتوكوف » رئيس قسم الشئون الخارجية فى المخابرات الروسية ، وقد قابله مرتين ، الاولى فى جنيف عام ١٩٤٨ والثانية فى لوزان عام ١٩٤٩ ، كذلك قابل الجنرال « فيدوتوف » أحد كبار المسئولين فى المخابرات الروسية ، وفى باريس قابل السفير السوفييتى « الكسندر بوجومولوف » .

وفى آخر مرة لعمله كجاسوس مزدوج كان موروس فى برلين ، وكان خط سيره برلين — ميونيخ — فيينا . وفى ٢٠ يناير من عام ١٩٥٧ كان على موروس أن يزور السفارة السوفييتية فى فيينا ، ولكنه قبل ذلك

بأيام قلائل كان فى برلين الغربية . والتقى بالصدفة بـ « فلاديمير بورتر » أحد معارفه القدامى من هوليود ، وكان يعمل فى وزارة التعليم فى برلين الشرقية منذ فترة كرئيس لتسلم الأفلام ، فدعا صديقه القديم بورتر إلى مطعم فى برلين الغربية .

وفى طريقه من غرفته بالفندق لكى يقابل صديقه فى المطعم ، تلقى موروس هاتفاً من زوجة بورتر ، تخبره فيه أن زوجها لن يحضر إلى العشاء ، ولم تذكر السبب .

وفى الحال تطرق الشك إلى موروس واعتقد ان السوفييت يشكون فيه ، وعلى الفور أرسل برقية إلى واشنطون يشرح الظروف ، ويسأل هل يغادر برلين إلى فيينا ، ثم استقل الطائرة إلى ميونخ .

وفى صبيحة يوم ١٩ يناير تلقى موروس فى فندقه فى ميونيخ برقية من واشنطون مكتوباً عليها « سنيراما » ، ولم يحتج موروس كتاب الشفرة ، فان هذه الكلمة كانت تعنى انه فى خطر ، فغادرها إلى الولايات المتحدة .

التسرب للداخل

ان التسرب للداخل هو الأسلوب المفضل لعمليات الجاسوسية المضادة ، وليس الموضوع هنا مقصوراً على بحث امكانية ادخال عميل إلى شبكة نشاط الخصم ، ولكن المسألة معقدة وأعمق من ذلك بكثير ، فهى عبارة عن الصعاب التى يجب تذليلها لتحقيق ذلك ، وكذا الصبر الطويل اللازم حتى يمكن زرع عميل فى منظمة سرية لدولة اخرى .

ومن ثم كانت الوسيلة التبادلية العادية للتسرب هى « تحويل » عميل من عملاء العدو ، وجعله يقتنع بأن يحول اتجاه خدمته للعدو لخدمة المنظمة الأخرى ، ونقطة الضعف فى هذه العملية هى أن ما يمكن حدوثه مرة قد لا يحدث مرتين ،

ونذكر المثال التالى ليوضح هذا الرأى .

كان فى ألمانيا عميل انجليزى يعمل على أراضيها فى خدمة بريطانيا ضد السوفييت ، وفكر السوفييت فى تحويله نحوهم ، فاتصلوا به ووافق الرجل على أن يخدم السوفييت وهكذا أصبح الرجل عميلاً مزدوجاً .

والملاحظ هنا أن العميل وان كان يعمل لجانبين متضادين ، فإن هذا كان معروفاً لجانب واحد هو الجانب السوفييتى ، وكان كل من الجانبين يعتقد انه يعمل مخلصاً من أجله ، ومع هذا فان الرجل فى إحدى عملياته فى خدمة السوفييت أخبر الانجليز باتصال السوفييت به ، ووافق أن يعمل عميلاً مزدوجاً للانجليز .

وهكذا وجه الرجل الاعتقاد فى الانجليز بأن يعمل عميلاً للسوفييت مع أنه فى الواقع كان يخدعهم . ومع هذا فان الرجل يعتبر عميلاً ثلاثياً Triple : فهو من وجهة نظر الانجليز عميل انجليزى وافق بالخداع أن يخدم السوفييت فهو اذن عميل مزدوج ، ولكنه من وجهة نظر السوفييت يعتبر عميلاً انجليزياً وافق أن يقوم بعمل حقيقى فى خدمة السوفييت ، ثم قام بتحويل كاذب مخادع ليغطى تحوله الأول إلى جانب السوفييت ، وكان هذا التقدير من جانب السوفييت هو التقدير الأصوب على ما اكتشف الانجليز فيما بعد .

وطوال قيام هذا العميل بدوره المزدوج ، تحول مرة تحولاً كاذباً على ما كان يظن الانجليز ، وبالرغم من ذلك فإنه كان ذا نفع وقيمة لهم ، أما قيمته بالنسبة للسوفييت فكانت فى الحقيقة تقدم على أنه عميل ثلاثى الاتجاه ، تحول مرتين أحدهما تحولاً أصيلاً أساسيا ، والآخر تحول مخادع كاذب .

ويكمن هنا تساؤل حاسم ... أى التحويلين كان أصيلاً ، وأيهما كان زائفاً كاذبا ؟

إن الرد على هذا السؤال هو واحد من المشكلات التى تجعل الجاسوسية

المضادة عملية من أعقد العمليات ، وتقرير أى التحويلين هو الصحيح ، وأيهما هو الزائف عملية تتطلب السيطرة على المعلومات اليقظة المستمرة من ضابط القضية ، مع القدرة فى نفس الوقت على التعمق فى النظر وفى التفاصيل .

العملاء المتعددون

وتتعقد المشكلة بوجود نوع آخر من العميل الثلاثى وربما يكون رباعى الاتجاه ، وهو العميل الذى يعمل من أجل ثلاث أو أربع هيئات للخدمة السرية فى وقت واحد ، وهؤلاء العملاء المتعددو الاتجاهات يكونون فى العادة عملاء يعملون وحدهم لمنفعتهم الخاصة وتكون مسألة تحول مثل هؤلاء العملاء من اتجاه لآخر مسألة منفعة بحتة ، ولا هدف لهم إلا أن يحصلوا على أكبر كمية من النقود من أطراف متعددة .

ولكن مثل هؤلاء العملاء من الصعب وجودهم فى الظروف الحالية ، وبخاصة بعد توافر المعرفة لرجل مقاومة التجسس ، ولا ينشأ مثل هؤلاء العملاء إلا فى ظروف خاصة ، كما حدث فى فيينا عقب الحرب العالمية الثانية ، حيث كانت تحتلها قوات أربع دول مختلفة ، مما هيأ الظروف لتواجد مثل هذا النوع من العملاء .

وعموماً فان العميل السرى فى علاقاته البشرية صنو للمجرم ، فأسلوبهما فى العمل متشابه من ناحية أن عمل كلٍّ منهما غير قانونى وضد المجتمع ، كما أنه من وجهة نظر المجتمع يتشابه عمله مع عمل الفنان الذى لا يتقبل كل منهما اسطورة المجتمع عن نفسه وان كان كل منهما يستغل عادات المجتمع وتقاليده، لتحقيق أغراض معينة .

على أن المجتمع ينظر إلى العميل بغير اطمئنان ، فهو يشعر أن شخصاً ما

مجهولاً يعرف أى معلومات ... هذه المعلومات تعدّ قوة فى أى نزاع بشرى مهما تكن طبيعته أو لونه .

إن القوة التى لشخص ما على شخص آخر نتيجة توافر معلومات أكبر ، لتمتد إلى ما وراء الموقف المحدد بارتكاب أخطاء أو بسلوك مشين ، بل إن هذه القوة هى عامل فعال فى كل موقف للنزاع أو التنافس البشرى .

• • •

الفصل الثامن

العملاء ذوو المنـــاصب

من أهم الأهداف التى تسعى اليها منظمات المخابرات ، محاولة تجنيد أولئك الذين يعملون فى المراكز الحكومية الهامة ، أو فى الأحزاب السياسية أو أعضاء المجالس النيابية .

وسنحاول فى هذا الفصل دراسة عدة حالات من التجسس كانت أرضها ألمانيا بشطريها وتشيكوسلوفاكيا ، حين كان هدف معركة الدهاء شخصيات لها نفوذها ومركزها .

وليس الهدف من هذا الفصل هو سرد أحداث تاريخية ، ولكن غرضنا إبراز الدروس المستفادة من هذه الحالات ، بالرغم من أننا آثرنا أن نضعه فى شكل قصصى بغية التشويق والتغلب على الملل .

المستشار الوزاري فالتر جرامش

استطاعت منظمة « جيلين » فى ألمانيا الغربية قبل تعيين « فولفيير » رئيساً

للمخابرات فى ألمانيا الشرقية عام ١٩٤٧ ، أن تكسب عضواً فى وكالة الوزارة لشئون الملاحة البحرية بألمانيا الديموقراطية .

ذلك أن المستشار الوزارى « فالتر جرامش » الذى يدعى « بروتوس » كاسم مستعار لعميل ، قد تمكن منذ عام ١٩٤٦ من الاتصال بـ « فولفيير » على زعم أنه خبير فى المواصلات .

ونتيجة اتصاله بفولفيير وعمله معه ، تمكن بروتوس من الوقوف على معلومات دقيقة جدا عن منظمة التخريب والجاسوسية التى قام فولفيير بانشائها فى الفترة من ١٩٤٧ إلى ١٩٥٣ .

وهذا الجهاز الذى ظل مستقلاً تماماً عن المخابرات السوفييتية ، كان فى خدمة مهمة خاصة للغاية .

وفى نهاية عام ١٩٤٧ وبداية عام ١٩٤٨ ظهرت تباشير الخلافات الشديدة بين دول الغرب وبين حلفائها السوفييت ، واندفعت العلاقات فى ذلك الوقت نحو الوقوع فى أزمة شديدة ، اعتقد الناس فى أثنائها أن حرباً جديدة واقعة لا محالة .

وفى نفس تلك الفترة كان العمل بمقتضى مشروع مارشال الأمريكى لانعاش اوروبا ، يهدف من وجهة نظر الولايات المتحدة إلى إعادة احياء القارة المخربة ، وكان العمل يجرى على قدم وساق .

غير ان « ستالين » كان ينظر إلى مشروع مارشال الضخم نظرة أخرى . ذلك انه كان يعتقد أن المواد التى تسلم بناء على المشروع الأمريكى المذكور ينبغى أن ينظر إليها على أنها مجرد تعمية للاستعداد للحرب . لذا قرر ستالين محاربة تسليم هذه المواد بكافة الوسائل .

ومن ثم اتجه التفكير إلى منظمة « فولفيير » استناداً على نشاطها الناجح ، لكى تجند خبير تخريب السفن لتدمير البواخر التى تحمل هذه المواد فى أثناء

سيرها فى أعالى البحار .

ولهذا الغرض أنشئت « مدرسة ملاحة بحرية » فى « فوستروف » على بحر الشمال دون أن يكون للدراسات الملاحية الغلبة على النشاط السرى أو الأعمال التخريبية أو أعمال الهدم .

وعلى الفور ظهرت أولى أعمال التخريب فى فرنسا وأسبانيا والمغرب . وكان من المحتمل جداً ، أن تفوق هذه الأعمال جميع الأعمال التى سبقتها والتى حقق فيها فولفيير نجاحاً كبيراً من قبل ، لولا أن وصل إلى الكرملين من التأكيدات والمعلومات ، ما جعل الروس يؤمنون بأن مشروع مارشال لا يخدم الا أغراضاً سلمية وحسب .

وكانت منطقة الاحتلال السوفييتى تعانى صعوبات اقتصادية عليها أن تكافحها ، كما كانت بقية دول الكتلة الشرقية تعانى نقصاً شديداً فى المواد الخام الاستراتيجية الهامة، والمنتجات نصف المصنوعة نتيجة الحصار الغربى.

ولما كان يجب ألا تصل السلع الضرورية عبر الحدود بطريقة مشروعة، فقد كان التهريب المنظم هو الحل الوحيد للتغلب على هذه الصعوبة . وعلى ذلك جند فولفيير أعوانه للقيام بهذه المهمة .

وبالرغم من عدم الوصول إلى نتائج ناجحة جداً فى هذا المضمار ، فان العملية كانت تتم على أساس اعتبارها احدى الخدمات التى تؤديها المخابرات .

هذا ومن الممكن القول ان تهريب السلاح إلى كوريا الشمالية وغيرها من الدول التى تستخدمه فى القيام بثوراتها وبحروبها الأهلية ، لم يتم إلا بواسطة نشاط فولفيير .

وإزاء هذا الموقف ، كان الوصول إلى تجنيد أحد الثقاة من بين هؤلاء المحيطين بفولفيير ، يعد نجاحاً مؤزراً لا يمكن لأحد أن يبخس قدره . ذلك

ان المعلومات التى يفضى بها هذا الشخص ، سوف تكون ذات أهمية بالغة بالنسبة للاخصائيين الذين يعملون فى منظمة جيلين .

وحينما تمكنت إدارة أمن الدولة فى ألمانيا الشرقية من كسب العميل « جاير » كان لا بد لمنظمة جيلين من وقف نشاط « جرامش » من وقت لآخر . وفى النهاية تمكن جرامش وأسرته من الانتقال إلى برلين الغربية فى أمان .

سكرتيرة الرئيس جروتفول

غير أنه قبل أن ينتقل جرامش إلى برلين الغربية تمكنت منظمة جيلين من بث ألغام بشرية جديدة فى مراكز الحكومة فى منطقة الاحتلال السوفييتى . فقد تمكنت منظمة جيلين من كسب سيدة تعمل سكرتيرة لرئيس الحكومة « اوتوجروتفول » .

ومن المهم جداً أن نحكى قصة « ايلى باركزاتيس » التى تناقلها الناس بعد شنقها فى برلين الشرقية . ففى الوقت الذى أعقب شنقها مباشرة ، لم يكن ثمة من يجرؤ على مجرد الاشارة إلى السبب الحقيقى للحكم عليها بالاعدام .

ومن الناحية الرسمية لم تكن هناك إشارة إلى أنها كانت عميلة لمنظمة جيلين ، ولكن هذه السيدة كانت عضواً نشيطاً فى منظمة جيلين ، الأمر الذى أدى بها إلى الموت .

وقد يكون مشوقاً أن نسرد قصة « ايلى باركزاتيس » كما ترددت على الألسنة فى منطقة الاحتلال السوفييتى .

إتسم عام ١٩٥٥ بطابع الخلافات الداخلية العنيفة فى نطاق ادارة أمن الدولة بمنطقة الاحتلال السوفييتى .

وفى الوقت الذى انضمت فيه منظمة جيلين للحكومة الاتحادية كاحدى

أجهزتها الادارية ، أضعفت المؤامرات والصراع الداخلى على السلطة فى ادارة أمن الدولة ببرلين من قوتها الضاربة .

وازاء هذه المؤامرات وذلك الصراع على السلطة ، شعر ارنست فولفيير بقلق بالغ على مركزه . وفى مقدمة الأمور كلها كان ينظر إلى جروتفول على أنه خصمه القوى القادر على كل شىء . ولما كان لا يستطيع أن يلحق أذى بجروتفول ، فقد ظل دائماً يوجه الشوكة إلى سكرتيرة جروتفول « ايلى باركزاتيس » وصديقها « كارل لورينز » .

ففى الصباح الباكر ذات يوم من أيام الربيع استدعيت ايلى باركزاتيس لمقابلة الرئيس جروتفول . وقد دهشت ايلى باركزاتيس لذلك ، اذ إن الرئيس لا يطلبها فى العادة قبل الساعة الحادية عشرة .

سارت ايلى إلى المكتب الذى يجلس اليه رئيس الحكومة الذى بدا فى تلك الساعة المبكرة من الصباح عصبياً ، وقد تكاثرت أمامه أكوام من الملفات .

وحينما دخلت على الرئيس ألقت ايلى باركزاتيس تحية الصباح . رفع جروتفول رأسه لحظة ثم عاد لينظر إلى الأوراق التى أمامه وقال بصوت هادىء : —

« يسر زوجتى أن تدعوك هذا المساء . هل هناك ما يشغلك عن الحضور ؟ » .

حقيقة كان هناك ما يشغلها ، فهى تريد أن تقابل كارل لورينز مثل كل مساء ، غير أنها لا تستطيع رفض هذه الدعوة بالرغم من دهشتها من أن رئيس الوزراء نفسه هو الذى حملها لها ، فقد جرت العادة من قبل على أن زوجة جروتفول هى التى تتصل بها تليفونياً لدعوتها .

وعلى كل حال فقد شكرت ايلى باركزاتيس الرئيس جروتفول ووعدته بأن تلبى الدعوة .

وعادت إلى غرفتها واتصلت بكارل لورينز لتفهمه أنها لن تتمكن من

الحضور فى الموعد المتفق عليه ، وطلبت منه أن يمر عليها بمسكنها قبل موعد الدعوة .

وتعذر على ايلى باركزاتيس أن تركز ذهنها فى عملها طيلة ساعات العمل ، فقد كانت نفسها تحدثها بأن هناك سبباً خاصاً وراء هذه الدعوة . وبعد ثلاث ساعات من موعد انتهاء العمل كان هناك رجلان بملابس عمال التليفونات يقفان على سطح المنزل الذى تقطنه ايلى باركزاتيس .

وتحت ستار الزعم بأنهما يقومان بفحص توصيلات التليفونات ، قاما بتركيب علبة صغيرة إلى جانب العوازل الخزفية ، ولم تكن هذه العلبة سوى كشف عظيم توصلت اليه معامل الأبحاث التابعة لادارة أمن الدولة ، اذ إنه بواسطة هذه العلبة يمكن سماع المحادثات التليفونية ، بل يمكن سماع الأحاديث التى تدور فى الغرفة الموجود بها التليفون . ذلك أن بوق السماعة يستخدم فى هذه الحالة كميكروفون على أن يوضع فيه ملف صغير يجعله دائماً يعمل دون انقطاع . ولقد أطلق على هذا الجهاز اسم « الملاك المميت » .

وكانت نية فولفيير تتجه إلى الانتقام من رئيس الحكومة فى شخص أحد الأعضاء المحيطين به والمقربين إليه . وعلى ذلك اتجه إلى ايلى باركزاتيس التى أحبت رجلاً سبق أن طرد من الحزب .

هذا وقد سبق أن حذر فولفيير رئيس الوزراء من سكرتيرته ايلى ، على ان الأول كان يشعر بالارتياح إزاء العلاقات الودية القائمة فيما بين ايلى وبين جروتفول وزوجته ، لأن هذه العلاقات تتمشى مع فكرته ، التى تقضى بأن يدع جروتفول وزوجته يزيدان من ثقتهما بايلى وخطيبها ، وبعد ذلك يستطيع فولفيير أن يبين لرئيس الوزراء أين تقع حدود سلطته .

ولم يتجه ذهن ايلى باركزاتيس إلى التفكير فى خطة فولفيير الشيطانية .

سرت ايلى بموافقة أسرة جروتفول على مشروع زواجها . لذا اتصلت

بكارل تليفونياً ثم قابلته فى مسكنها وقام جهاز « الملاك المميت » بنقل جميع ما دار بينهما من حديث إلى جهاز التسجيل فى ادارة أمن الدولة .

والواقع أنه من الممكن توليف التسجيلات على أشرطة التسجيل ، وذلك بقصها وتركيب الجمل من جديد . ولا شك فى أن أى عامل فنى فى التسجيل فى أى محطة اذاعة فى العالم يستطيع القيام بمثل هذا العمل .

وكان هناك فى ادارة أمن الدولة أخصائيون وفنيون ممتازون ، قاموا بقص أشرطة التسجيل وتركيبها ، بحيث يعتقد من يسمعها بعد ذلك أن ايلى وكارل قد وضعا مخطط مؤامرة ضخمة .

وكان فولفيير يعلق أملاً كبيراً على هذه اللعبة ، وفى هذه المرة كان يريد أن يمضى فى مخططه وهو مأمون الجانب .

ولما كان من المستطاع تخفيف نطاق الحماية حول مكتب رئيس الحكومة من الخلف ، فقد أرجأ فولفيير اتخاذ الخطوة الحاسمة عدة مرات . وفى كل يوم كانت تؤخذ أشرطة تسجيل جديدة ويجرى قصها وتركيبها كالمعتاد ، بحيث يخلق من العبارات والجمل البريئة حواراً يدور حول القيام بثورة .

وفى مساء الثالث من شهر مارس من عام ١٩٥٥ شعر فولفيير أخيراً بالرضى ، ولذا أعطى موافقته على العملية . وكان تفكيره يدور حول اما أن يجعل كبار موظفى الدولة يرتجفون من نفوذه وقوته فى المستقبل القريب ، وبذلك يتمكن من الاستمرار فى رئاسته لادارة أمن الدولة فى طمأنينة ، واما أن يكون مصيره فى ذلك المستقبل القريب غياهب سجن « باوتسن » .

وفى الرابع من شهر مارس الساعة التاسعة بعد النصف صباحاً ، وصل موظفان من ادارة أمن الدولة إلى مسكن كارل لاورينز ، الذى كان على وشك مغادرته لتسليم ترجمة إلى وزارة الاقتصاد .

وما أن رآه الرجلان حتى أمراه برفع يديه إلى كتفيه قائلين : — « ادارة

أمن الدولة .. لا مقاومة .. تعال معنا » .

وبعد نصف ساعة كان كارل لاورينز يجلس فى غرفة استماع فى ادارة أمن الدولة ليستمع إلى الأشرطة التى ركبت على جهاز التسجيل ، وبعد ذلك سأله أحد المحققين :

ـ أتعرف هذه الأصوات ؟

ـ الصوت النسائى نعم . انه صوت ايلى باركزاتيس !

ـ صحيح .. ومن يكون الرجل الذى يتحدث معها ؟

ـ ليس لدى اشتباه فى أحد .

ـ ولكن .. يا سيد لاورينز انه كلامك .

ـ نعم .. انه يتفق معه ، ولكن ..

ـ شكراً ... وقع هنا !

وقدم له المحقق ورقة معدة من قبل مكتوباً عليها : « ان الأصوات المسجلة على الشريط تأكدت بحرية تامة أنها صوتى وصوت الآنسة ايلى باركزاتيس » .

ووقع كارل لاورينز .

وقضت احدى سكرتيرات ادارة أمن الدولة ساعة كاملة فى نقل هذا التحقيق كتابة من شريط التسجيل ، وأرفقت بهذه الأوراق أصل الاقرار الذى وقعه كارل لاورينز .

وفى الساعة الرابعة والدقيقة خمسة وأربعين مساءً ، ذهب موظفان آخران ومعهما هذه الأوراق وكذلك أمر اعتقال إلى مقر الحكومة .

وكان رئيس الحكومة مشغولاً فى اجتماع ، وما أن وصل هذان الموظفان

حتى استقبلتهما ايلى باركزاتيس وسألتهما عما يريدان .

عندئذ أخرج أحدهما أمر الاعتقال من جيبه وقال لها بلهجة الأمر : « تعالى معنا » .

ولم يعلم جروتفول بأمر اعتقال سكرتيرته إلا فى المساء ، وعندئذ اتصل بفولفبير تليفونياً وطلب منه أن يوضح له بسرعة حقيقة ما حدث .

وأبدى فولفبير أسفه ، وقال ان لديه مادة الدليل على ما حدث ، وعرض ارسال الأوراق المنقولة من جهاز التسجيل فى الصباح التالى .

وقفل جروتفول التليفون وهو ثائر .

عندئذ أدرك فولفبير أنه كسب الجولة الأولى .

وفى الصباح التالي قرأ جروتفول الأوراق التى وصلته . وما ان انتهى منها حتى اتصل بفولفبير تليفونياً ، وسأله عما اذا كان ما جاء بها يتفق مع الواقع .

فرد فولفبير على الفور : « فى استطاعتكم سماع شريط التسجيل الان ، إن شئتم ذلك » .

وفى المساء اتصلت أسرة ايلى باركزاتيس بمكتب رئيس الحكومة ، وتكررت هذه الاتصالات لمعرفة جلية الامر ، وبعد أن ضاق جروتفول ذرعاً بهذه الاتصالات ، رد أخيراً يقول انى شديد الأسف ، اذ إن مثل هذه الامور بعيدة عن نطاق سلطتى ، وعليه لا أستطيع أن أفعل شيئاً حتى ولو أردت » .

وبذلك يكون فولفبير قد كسب الجولة الثانية .

كان لاعتقال ايلى باركزاتيس وقع القنبلة بالنسبة لكبار موظفى الحكومة ، فقد أخذ هؤلاء يتهامسون فيما بينهم : « لقد كنا نستهتر بفولفبير » . وشاع

القلق فيما بين هؤلاء الموظفين الكبار وسيطر عليهم الخوف من احتمال وقوعهم تحت رحمة رجل مطلق اليد .

ان الاجراءات التى تبعت اعتقال ايلى باركزاتيس روتينية خالصة بالنسبة لفولفيير فقد كتب التقرير النهائى وسلم السجينين للعدالة مع حاشية ختم بها تقريره هذا جاء بها :

« ان من رأيه تطبيق أقصى العقوبات التى نص عليها القانون لتكون هذه الحالة عبرة للمستقبل » .

وهكذا أحنت العدالة رأسها أمام نصيحة فولفيير . غير أن المحكمة صرفت النظر عن تناول القضية بطريقة استعراضية ، الأمر الذى لم يكن فولفيير ينتظره ، وذلك حرصاً على المصلحة العليا . وعليه أصدرت المحكمة حكمها ويقضى باعدام ايلى باركزاتيس وكارل لاورينز .

وفى الحقيقة ظلت ايلى باركزاتيس عدة سنوات مصدراً من أكثر مصادر المعلومات أهمية ، تلك المصادر التى كانت تعمل لجيلين فى دوائر القيادة لدى حكومة منطقة الاحتلال السوفييتى .

والواقع أن التصرفات التى قام بها فولفيير لاظهار قوته ونفوذه لجروتفول ، لم تكن أكثر من مؤامرة حزبية داخلية ، ذلك أن فولفيير لم يلحظ إلا مؤخراً فقط ، الدور الخطير الذى تقوم به ايلى باركزاتيس وخطيبها ، ذلك الدور الذى أدى بهما إلى الموت .

غير أن إعدامهما لم يعف فولفيير مما وجه اليه من نقد ، اذ إنه لم يتمكن من كشف النقاب عن عملية لمنظمة جيلين تمارس نشاطها فى مكتب أعلى مناصب الدولة لعدة سنوات .

وبينما كان فولفيير يبذل الجهد لتطويع ادارة أمن الدولة لكى تصبح رهن اشارته ، كان عملاء جيلين يتغلغلون بعيداً فى دول الكتلة الشرقية

عبر جمهورية ألمانيا الديموقراطية .

وبظهور المخابرات السوفييتية كخصم خطير سيطرت على الغرب جمهرة من العملاء ، وكان العمل على القضاء على هذه الشبكات من العملاء ، من أهم الواجبات التى كانت ملقاة على عاتق جيلين ، حتى من قبل أن تصبح منظمته احدى الجهات الادارية التابعة للحكومة الاتحادية .

وكان ينبغى على فولفيير أن يدرك أنه خسر معركة ضد جيلين ، فلقد وقف أحد رجال ادارة أمن الدولة فى برلين الشرقية على تفكير السوفييت فى الجنرال السابق جيلين من أحد رجال المخابرات السوفييت ، وذلك فى أثناء جلوسهما معا يشربان الفودكا فى منزل الألمانى ، فقد قال ضابط المخابرات الروسى : « ان الفضل فى استحالة ضرب جيلين والقضاء عليه يرجع إلى الأبله الكبير فولفيير ، فأينما ولينا وجوهنا شاهدنا عملاء جيلين : فى جيش الشعب وفى كل وزارة وفى الشرطة ، ولذا لا أدهش اذا عرفت أنّ فى هذا المكان أيضاً يوجد أحد عملاء جيلين » .

وما أن انتهى الروسى من كلامه ، حتى وقف وأخذ يفتش بدقة فى غرفة المعيشة ، فنظر تحت الأريكة وخلف الدولاب وتحت الكراسى ، وفجأة عثر على سلك يمتد من خلف لوحة معلقة على الحائط إلى المدخنة .

وحينما أجرى تحقيق فى الموضوع ، اتضح أن الميكروفون المركب لا شأن لمنظمة جيلين به ، وانما خاص بجهاز « الملاك المميت » الذى يقوم بتركيبه رجال فولفيير .

وازاء هذه التصرفات المترتبة على الفشل ، وكذلك ازاء الخوف الذى سيطر على الجميع نتيجة جنون الاضطهاد الذى تملك فولفيير ، ذلك الجنون الذى أصبح موجهاً ضد صفوف نفس رجاله وأعوانه ، ازاء ذلك بدأ كبار رجال ادارة أمن الدولة يتمردون على رئيسهم .

وهكذا بدأ عرش فولفيير يهتز . وكان أشد خصومه حنقاً عليه من بين صفوف رجاله هو المقدم « أريش ملكى » .

واريش ملكى هذا رفيق كفاح منذ أيام الحركة السرية والمساعد الأول لـ « فيلهلم تسايسر » ، الذى تولى ادارة أمن الدولة فى بداية إنشائها .

ولقد عمل أريش ملكى على تجميع الشخصيات القوية حوله ، وأنشأ منهم مركزاً خاصاً يقوم بالعمل على الحصول على المعلومات ، وذلك داخل نطاق وكالة الوزارة .

هذا وقد كان الوقت الذى قضاه فولفيير فى تدعيم مركزه ونفوذه ، وكذلك الوقت الذى استنفذه فى التغلب على المؤامرات الداخلية ... كان هذا الوقت وذاك كافيين للغرب لكى يقوم بإنشاء ميدان العمليات وتأمينه .

ولقد أعطى قيام المخابرات السوفييتية بوظائف إدارة أمن الدولة فى ألمانيا الشرقية لفترة من الوقت فرصة سانحة لجيلين استغلها فى ارسال عملائه من داخل منطقة الاحتلال السوفييتى إلى ادارة أمن الدولة السوفييتية نفسها .

والأمر الجدير بالملاحظة أن هذه الاتصالات وذلك النشاط ما زالا مستمرين حتى الآن ، بل لقد أصبح من أكثر أسرار المخابرات الاتحادية جدية وحرصاً على الحفاظ عليها .

هذا وقد التزم الجميع بالصمت فى تحديد ذلك اليوم الذى أصبحت فيه منظمة جيلين ادارة مخابرات خارجية رسمية تابعة للجمهورية الاتحادية .

ولا ريب فى أن من دلائل نجاح جيلين أن الرأى العام لا يسمع شيئاً عن هذا النجاح كما لا يعرف شيئاً عن رجال جيلين . فالمعروف أنه طالما تردد اسم أى مخابرات على الألسن وتناقل الناس أخبارها فان هذه المخابرات تصبح عديمة الفائدة .

فرنزل عضو البوندستاج

فى اكتوبر عام ١٩٦٠ أماطت حكومة ألمانيا الغربية اللثام عن شبكة جاسوسية تعمل لحساب المخابرات التشيكوسلوفاكية ، والمهم فى هذه الحالة هو أن هذه القضية كشفت النقاب عن صورة من صور الجاسوسية الكلاسيكية ذات منهاج رفيع .

لقد استطاعت المخابرات التشيكوسلوفاكية أن تصل إلى أعلى المستويات حيث تمكنت من تجنيد « الفريد فرنزل » عضو البوندستاج * ومجموعة العملاء المتعاونين معه .

وقد يكون فى دراسة حالة فرنزل فائدة كبرى فى استخلاص كثير من الدروس ، وخاصة إبراز تلك الدوافع التى تجعل رجلاً ذا مركز بارز يخون بلاده ، كما أنها توضح أهمية مراقبة حملة الأسرار فى كل قطاعات الدولة ، وخاصة فى تلك الأمور التى تتعلق بالأمن القومى للدولة .

لقد استمر « الفريد فرنزل » ، أربع سنوات ونصف السنة يفشى أسرار جمهورية ألمانيا الاتحادية للمخابرات التشيكوسلوفاكية ، تلك الأسرار التى لا يمكن التغاضى عن أهميتها .

ولقد قام بهذا العمل بالرغم من أن حزبه ، وهو الحزب الاشتراكى الألمانى لألمانيا الغربية ، اختاره مرتين عضواً فى البوندستاج ، وكان يتمتع بثقة الجميع الأمر الذى جعله ينتخب عضواً فى لجنة الدفاع بالبوندستاج .

وقد نتساءل عن الدوافع التى جعلت فرنزل يسلك هذا السبيل ؟

هل كان شخصاً مأجوراً ؟ أم كان متطوعاً بفكرة فلسفية مثل الألمانى « كلاوزفوكس » والانجليزى « بلاك » ، اللذين وضعا نفسيهما فى خدمة

---

* البرلمان الألمانى .

المخابرات الشرقية لأسباب فلسفية ! ! . أم أن التشيكوسلوفاكيين مارسوا ضغطاً شديداً ضد فرنزل بسبب تلك « النقاط السوداء » التى يعرفونها عن ماضيه ! ! .

الواقع أنه ليس سهلاً أن نجد إجابة محددة لهذه الأسئلة .

ذلك أنه لم تكن واحدة من هذه الدوافع الثلاث تكفى لاقترافه جريمة الخيانة ، انما تكاتفت هذه الدوافع جميعها لكى تجعله يعمل لمصلحة المخابرات التشيكية سنوات طويلة ، وينقل اليها أسرار جمهورية ألمانيا الاتحادية السياسية والاقتصادية والعسكرية .

ومن المهم جداً أن نقف على تاريخ حياة فرنزل حتى تلك النقطة الحاسمة فى حياته ، تلك النقطة التى قرر عندها العمل لمصلحة المخابرات التشيكوسلوفاكية .

كانت الظروف المحيطة هى التى حددت معالم السنوات الأولى فى حياة الفريد فرنزل ، الذى ولد عام ١٨٩٩ فى مدينة يوزيفشتال باقليم السوديت الألمانى .

لقد أرغمته هذه الظروف على أن يصبح واحداً فى طبقة البروليتاريا بمعناها الماركسى وبالتالي أحد خصوم « المستغلين الرأسماليين » .

وكان واقعاً حتى سن الرابعة عشرة من حياته تحت جبروت زوج أمه المستبد ، ولهذا فما أن بلغ هذه السن حتى هجر هذا المنزل البغيض فى سن الصبى ، وعمل فى مخبز لتوصيل الطلبات للمنازل فى أول الأمر ، ثم فى مصنع للزجاج حيث كان ينفخ الزجاج .

ومن ثم ليس عجيباً أن تجد الأفكار الاشتراكية والشيوعية أذناً صاغية لدى الصبى ، إذ أصبح منذ ذلك الحين حتى سن الثلاثين ينتمى إلى اليسار المتطرف .

ولا ريب فى أن هذه « المرحلة الشيوعية » فى حياة فرنزل كانت ذات

أثر بعيد فى اتخاذ قراره المصيرى فيما بعد ، ذلك القرار الذى حدا به أن يعمل كعميل لنظام كان ينظر سطحياً اليه فى شبابه اليافع كنظام مثالى .

كانت أول مادة سياسية تقع فى يد فرنزل الشاب هى « البيان الشيوعى » ولقد تكاتف هذا البيان مع الكساد الاقتصادى الذى حدث فى تشيكوسلوفاكيا عقب الحرب العالمية الأولى ، وكذلك مع سوء حالته المالية ، تكاتفت هذه جميعاً على أن ينضم إلى الحزب الشيوعى عام ١٩٢١ كواحد من المتحمسين له .

وكانت عضويته هذه ذات أثر عميق فى حياته كلها حتى النهاية المحزنة التى انتهت بها حياته ، فقد أثبت أنه عضو مهم فى الحزب لا يمكن الاستغناء عنه لاخلاصه وكفاءته ، مما جعله محط ثقة رفقاء الحزب .

ولقد غير هذا الوضع من حالته المالية إلى حد ما ، وزاد من شعوره بذاته وثقته بنفسه . وكان فى ذلك الوقت يعمل فى وطنه كموظف صغير ، فى جمعية تعاونية استهلاكية ، وظل على هذه الحال إلى أن استحوذ على قلوب رؤسائه ، وكان هذا الرضى يشير إلى أنه سوف يشغل وظيفة أكبر .

غير أنه لم يلبث أن وقعت له حادثة مفجعة كان الابلال من آثارها يقتضى مرور زمن طويل ، فحينما كان على وشك مغادرة فرع الجمعية ليشغل منصباً جديداً سبق أن وعدوه به ، اعتقد خطأ أنه اكتشف عجزاً فى الخزينة ، وخشى أن يكشف الامر ويفقد الوظيفة الجديدة وعليه قام بتزوير الدفاتر لتغطية هذا العجز .

ولقد بدا فقدان الثقة فى فرنزل فى نظر رؤساء الجمعية التعاونية الاستهلاكية الشيوعيين من الامور التى يصعب اعلانها نظراً لما يتمتع به من سمعة طيبة ، لذا اكتفى الحزب الشيوعى بضرورة فصله من الحزب الشيوعى . وعندئذ قام فرنزل بهذه الخطوة قبل أن يفصله الحزب .

كانت هذه الحادثة ذات أهمية خاصة بالنسبة لفرنزل لسببين : أولهما ،

أنه أرغم على ترك حزب يشعر هو كأنه مرتبط به تماماً من ناحية الأهداف السياسية ومن ناحية الأفكار . وثانيهما ، أنها وضعت النقطة السوداء المشهورة فى تاريخ حياته ، تلك النقطة التى كان المفروض أن لا تعرضه لمتاعب جديدة ، مع أنها كانت ذات أثر فى انهيار كيانه كمواطن .

وكان انهيار نشاطه السياسى وتأثير ذلك على شعوره بالثقة فى نفسه ، دافعا لابتعاده عن أى نشاط سياسى بعد أن فصل من الحزب الشيوعى .

غير أنه لم يلبث أن اختار حزباً اشتراكياً كمسرح جديد لنشاطه ، فقد انضم للحزب الديموقراطى الاشتراكى الألمانى فى تشيكوسلوفاكيا عام ١٩٣٣ .

ولقد بدأت حالة فرنزل المالية تتحسن ، اذ عمل مندوب اعلانات لجريدة يصدرها الحزب الديموقراطى الاشتراكى فى رايشنبرج .

وهكذا قضى فرنزل سبعة وثلاثين عاماً من حياته فى فقر مدقع .

وبدأ فرنزل يرقى فى سلم وظائف الحزب حتى أصبحت دائرته رايشنبرج تنظر إليه على أنه رجل المستقبل .

غير أن بوادر تطور جديد بدأت تتجمع فى الأفق السياسى ، ثم وصلت غايتها حينما غزت القوات الألمانية اقليم السوديت فى سبتمبر عام ١٩٣٨ . وانتهت بوادر هذا التطور الجديد باحتلال تشيكوسلوفاكيا فى ربيع عام ١٩٢٩ .

وعلى أثر ذلك ازداد الحزب فى اقليم السوديت الألمانى قوة ، اذ انضم اليه السكان الألمان ، وبذلك أصبح الحزب الديموقراطى الاشتراكى ذا نفوذ واسع النطاق .

وعليه انتهت المرحلة التى كان فيها الحزب يكافح من أجل بقائه ، وذلك بالأحداث التى اكتشفتها أزمة سبتمبر عام ١٩٣٨ .

وعندما وجد فرنزل نفسه مهدداً من جانب رجال الحزب فى السوديت قرر أن يستفيد من عرض سبق أن قدمه له مركز الحزب فى براغ ، وعلى ذلك قام فرنزل بأول عملية التجاء من نوعها فى ذاك الوقت ، فلجأ إلى انجلترا عن طريق براغ وبولندا .

وفى انجلترا كون المهاجرون التشيك ثلاث مجموعات :

ــ المجموعة الاولى تسمى مجموعة التشيك الوطنيين برئاسة « بنيش » ولم تكن على استعداد لحل مشكلة الأقلية الألمانية فى تشيكوسلوفاكيا بالطرق المعقولة .

ــ المجموعة الثانية تكونت من معظم الديموقراطيين الاشتراكيين الألمان برئاسة « فينسل ياكش » وكانت على خلاف شديد مع مجموعة بنيش .

ــ المجموعة الثالثة هى مجموعة ديموقراطية اشتراكية ألمانية منشقة ، وكانت ترى ضرورة إعادة الوئام مع مجموعة بنيش بأى ثمن .

وهناك من شواهد الأمور ما يشير إلى أن فرنزل كان يتجسس على أصدقائه الديموقراطيين الاشتراكيين لمصلحة مجموعة بنيش ، وبذلك قام بأعمال تجسسية لأول مرة ، ومع ذلك لم يكن هناك من الأدلة والبراهين على صدق هذه الشائعات .

وعلى كل حال فما أن هرب فرنزل إلى انجلترا ، حتى اندلعت نيران الحرب العالمية الثانية . وبمجرد نشوب الحرب كونت مجموعة التشيك الوطنيين قوة حربية ، وأطلق عليها الفرقة التشيكية التى حاربت إلى جانب قوات حلفاء الغرب .

وتطوع فرنزل فى هذه الفرقة ضد رغبة فينسل ياكش . ولقد ذكر فرنزل معللاً خروجه على خط الحزب ما يأتى :

« بعد عشرين سنة على هذه الواقعة أصبحت خصماً نشيطاً للاشتراكية

الوطنية وكنت أريد محاربة النازيين بطريقتى الخاصة » .

على كل حال لم تدم هذه الحرب طويلا ، اذ بدأ فرنزل يشكو من ألم فى أذنه بعد أن أقام فى فرنسا شهرين . لهذا عاد مرة أخرى إلى انجلترا .

ومع ذلك كانت الأعمال الحربية تدفعه لممارسة نشاطه من جديد ، فقدم نفسه للسلاح الجوى الملكى البريطانى .

وفى هذا السلاح كانت قدرته الادارية أمراً معروفاً عنه ، لذلك فقد عمل حتى نهاية الحرب فى ادارة المطابخ برتبة صف ضابط ، ثم عمل فى ادارة المشتريات فى ميس للضباط ، واستمر يؤدى خدمته للسلاح الجوى الملكى البريطانى حتى رقى إلى رتبة مساعد .

ومن المحتمل جداً أن تكون هذه الحقيقة ذات أثر فى حياة فرنزل فيما بعد ، ذلك أنه لم يتمكن من الدفاع عن أفكاره بقوة السلاح ، الأمر الذى أدى به إلى عدم شعوره بالمرارة التى يحسها الجندى حينما يشعر بأن رجال السياسة يخونونه ويبيعونه للغير .

وبمجرد أن انتهت الحرب عاد فرنزل فوراً إلى براغ ، وهناك رأى زوجته التى ابتعد عنها قرابة سبع سنوات ، كما رأى ابنته المريضة التى توفيت بعد عام من عودته .

على أن نشاطه حال دون تمتعه بفترة من الراحة ، فقد سارع إلى ممارسة نشاطه فى حزبه ، حيث لم يتمكن الا من القيام بخدمة ورعاية مستعمرة تجمع مواطنيه المطرودين من وطنهم .

وكان أثناء خدمته فى هذه المستعمرة يعنى بتوفير الظروف الجيدة للمناهضين للفاشية .

والجدير بالذكر أن عمله هذا قد نأى به عن اعتباره من المواطنين الألمان

المطرودين، لذا فقد غادر براغ واتجه إلى بافاريا مخلفاً وراءه ابنة زوجته، تلك الابنة التي تزوجت هناك .

وما أن وصل فرنزل إلى بافاريا حتى بدأ في ممارسة نشاطه السياسي من جديد فقد أسرع بتقديم نفسه للحزب الاشتراكي في « شفابرنشن » بالقرب من « أوجوسبورج » ، ولقد أثبت قدرة فائقة ونشاطاً منقطع النظير .

وبعد ثلاث سنوات شهد له أصدقاؤه في الحزب في خطاب تهنئة بعيد ميلاده الستين بكفاءته فقالوا :

« إنه عظيم حتى في العمل الصغير ، ولا يوجد طريق بعيد عنه أو طويل عليه ، ولا توجد قرية نائية بالنسبة له ، ولا يعرف قضاء عطلة أسبوعية جميلة ، كما لا يحسب لليل نهاية ، كل ذلك لغرض خدمة الحزب والتفاني فيه » ..

ولقد وجد هذا الشخص الذى برز من أفقر طبقة في الشعب أن فيما اكتسبه من نفوذ سياسي وانتهى به إلى مقعد البوندستاج ، قد حقق أحلامه التى طالما راودته في صباه ، ففي عام ١٩٤٩ رشحه الحزب لعضوية البوندستاج ووجد نفسه — وقد تحقق ذلك الأمل الكبير الذى كان يساوره طيلة حياته — يفقد العزم على أن لا يذعن لأية قوة تنتزعه من مكانته هذه التى وصل اليها ، بعد أن كانت مجرد أمل راوده فيما مضى من أيام .

هذا وقد انتخب فرنزل في أثناء اجتماع عام عقده الحزب مرشحاً عنه في انتخابات البوندستاج عام ١٩٥٣ .

غير أنه حدث في اليوم السابق للانتخابات في ذلك العام المشار اليه ، أن وزع خصمه السياسي في الدائرة المتنازع عليها منشوراً ، ذكر فيه أن مرشح الحزب الاشتراكي أصيب برصاصة قاتلة . أعاد المنشور إلى الذاكرة تلك الظروف التى اقتضت من فرنزل الاستقالة من الحزب الشيوعي التشيكي ، وكذلك تلك التى جعلته يمارس نشاطه في السلاح الجوى الملكي البريطاني ،

ذلك النشاط الذى زعم أنه كفاح ، ومن ثم أثار ذلك الحنق عليه .

والواقع أنه لولا المساعدة التى بذلها مواطنوه السوديت لمنى فرنزل بهزيمة محققة فى هذه الانتخابات .

وهكذا نجح فرنزل فى الانتخابات العامة وأصبح عضواً فى البوندستاج للمرة الثانية ، غير أن أصدقاءه فى الحزب حثوه على أن يرفع دعوى على خصمه السياسى شياندل الذى وزع المنشور المعادى أثناء الانتخابات .

على أنه حدث أن تمكن محامى الخصم من أن يتخذ اجراء ادارياً ، استطاع بمقتضاه أن يحول المدعى إلى شاهد .

وفى شهر مايو عام ١٩٥٤ بدأ نظر الدعوى . ورفع فرنزل يده ليقسم على أن ما جاء بالمنشور غير صحيح . وما أن انتهى من ذلك حتى طلب سماع أقوال شاهدة كانت شهادتها هى أيضاً زائفة .

وهكذا استمع فرنزل إلى الحكم الذى صدر على شياندل بالحبس أربعة شهور دون أن تهتز خلجاته .

ولم يكن ثمة أدنى شك فى أن قسم فرنزل كان قسماً زائفاً ، وذلك حرصاً منه على أن لا تهتز مكانته السياسية وأن لا يقضى على ذلك النفوذ وتلك الشهرة اللذين كانا الأساس فى نجاحه فى انتخابات البوندستاج . على أنه لم يتبادر إلى ذهن فرنزل أن هذا القسم الزائف سوف يدفعه يوماً ما إلى قاع هوة سحيقة من الخزى والعار والاحتقار .

ففى أول الأمر بدا له أن الحظ ما زال حليفه ، ذلك أن نشاطه وكفاءته جعلاه فى نظر الحزب عضواً لا غنى عنه فى البوندستاج . يضاف إلى ذلك أنه أصبح رئيس لجنة التعويضات ، ثم عضواً فى لجنة الدفاع بالبوندستاج . ولا ريب فى أنه بحكم عضويته للجنة الأخيرة أصبح واحداً من أهم من يحملون أسرار جمهورية ألمانيا الاتحادية .

وفى ربيع عام ١٩٥٦ وقعت حادثة ذات أهمية فى ظاهرها ، غير أنها أدّت إلى حدوث تطوّر كان من مقتضاه أن أصبح فرنزل أحد الجواسيس الناجحين ، الذين يعملون لمصلحة احدى المخابرات الشرقية فى ألمانيا الاتحادية .

فقد توجهت زوجة فرنزل إلى البعثة العسكرية التشيكية فى برلين ، للحصول منها على التصريح اللازم لزيارة ابنتها التى تعيش فى تشيكوسلوفاكيا ، ولما مضت مدة طويلة دون أن تظفر بهذا التصريح قام فرنزل بنفسه بهذه المهمة ، فكتب لهذه البعثة التشيكية المذكورة رسالة على احدى الخطابات المطبوعة يحثها على الاسراع فى منح التصريح لزوجته .

ولقد كان من الممكن أن تمنح زوجة فرنزل هذا التصريح فوراً وبدون عقبات إذا لم يلق المختصون التشيك نظرة على محفوظات المخابرات التشيكية ، ذلك أنه كان أمراً يسيراً أن يطلع أعضاء المخابرات التشيكية على محفوظات الادارة، ومن ثم تمكنوا من الوقوف على ماضى الفريد فرنزل، هذا فضلاً عن أن الأمر لم يتطلب مزيداً من البحث الطويل حتى يقف أعضاء المخابرات التشيكية على النشاط الذى قام به « فرنزل » منذ مغادرته أرض تشيكوسلوفاكيا .

وازاء هذه المعلومات ، لم يشأ ضباط المخابرات أن يعرضوا أنفسهم للاتهام بأنهم حاولوا التعريض بهذا الرجل المهم بالنسبة لهم ، مع أن جميع الافتراضات كانت متوفرة لدى هذا الرجل لتجعل منه عميلاً ناجحاً .

فهو يمتلك المدخل إلى أسرار الدولة التى تعد ذات أهمية كبرى بالنسبة لأى مخابرات فى العالم ، كما أنه يتمتع بالحصانة ضد فرض أى رقابة عليه ، فضلاً عن كونه بعيداً عن أى شك يمكن أن يثيره رجال حماية الدستور حول أى شخص ، وبذلك كان فرنزل يتمتع بتعمية مثالية .

وعلى ذلك كان هذا الرجل صيداً طيباً لوضعه تحت الضغط الشديد .

ويكفى خوف فرنزل عن كشف أمر القسم الكاذب ، وبالتالى ضياع مركزه

ومكانته وعودته إلى العدم مرة أخرى ... يكفى هذا الخوف وحده ليجعله طوع ارادة المخابرات التشيكية ورغبتها .

ولقد ثبت أن هذه الأفكار التى تبادرت إلى ذهن المخابرات التشيكية صحيحة ، ففى بداية الأمر حصلت زوجة فرنزل على التصريح بالسفر إلى تشيكوسلوفاكيا ، ومضت بعد ذلك بضعة أسابيع دون أن تقع أية أحداث يمكن أن ترى . ويبدو أن هذه الفترة انقضت فى استكمال المستندات التى تملكها المخابرات التشيكية ضد فرنزل واستيفائها .

والواقع أن كل ما حدث بعد ذلك كان مستخرجاً من كتاب دراسى كلاسيكى لعملاء الجاسوسية . ذلك أن كل خطوة كانت تستتبع أخرى بالضرورة ، دون ثمة تفكير فى العاقبة . تلك العاقبة التى ينبغى على العملاء الناجحين تقبلها بسرور ، والتى انتهت بها أكبر حادثة تجسس فى الجمهورية الاتحادية . ومع ذلك ليس هناك ما يؤكد ما إذا كان فرنزل وشركاؤه يجلسون الآن خلف القضبان .

بدأت المخابرات التشيكية بارسال شخص يدعى « الفريد هوفمان » إلى مسكن فرنزل فى بون . وقام هوفمان بهذه الزيارة فى التاسع من شهر ابريل ١٩٥٦ . وما أن التقى مع فرنزل حتى أخذ يعيد إلى الذاكرة تلك الأيام التى قضياها معاً فى العمل فى رايشنبرج . وبدا هوفمان عندئذ فى نظر فرنزل على أنه ضيف عزيز .

وظل الرجلان يتذكران تلك الأيام ، وينقلان من موضوع إلى آخر إلى أن ألمح هوفمان إلى بعض أمور جعلت فرنزل ـ لشدة دهشته ـ يدرك أن الصديق القديم يعرف نقاطاً سوداء معينة فى ماضيه .

وفجأة وصل هوفمان إلى الحديث عن الغرض الرئيسى من زيارته هذه .

ولقد قال فرنزل عن ذلك فى اعترافه خلال التحقيق :

« لقد أخبرنى أن ممثلاً للحكومة التشيكية فى فيينا يريد التحدث إلى ، وكان المفروض أن يتناول الحديث موضوعات سياسية عامة . وعندما رفضت بشدة أكد لى هوفمان أنه لا بد من قبول الدعوة لمصلحة مستقبلى السياسى . والواقع أن التشيك كانوا على علم تام بماضىّ ، ومن المحتمل جداً أن يستغلوا علمهم هذا ضدى إذا ما رفضت » .

ومضى فرنزل يقول فى اعترافه :

« ومنذ تلك اللحظة لم يتركنى القلق لأستريح . ولعل الامكانية الوحيدة لى هى قطع علاقاتى بالمخابرات التشيكية فى هذه المرحلة ، وبالتالى التخلص من مطالبهم التى فرضوا علىّ تنفيذها ، وربما كانت هذه الامكانية تكمن فى ابتعادى عن السياسة . غير أننى كنت قد وصلت بنشاطى السياسى إلى درجة كبيرة من النجاح » .

والمعروف أنه من النادر جدا أن يتضح الدافع الأصلى للخيانة ، ومع ذلك كان الغالب فى هذه الحادثة الكبرى أسلوب الضغط القديم وضعف الخوف القديم أيضا .

ومن الممكن أن يكون القلق أحد أسباب مجموعة كبيرة من الدوافع التى حركت فرنزل ومن بين مجموعة الدوافع هذه كان ارتباط فرنزل بالتشيك عن طريق قرابة الدم وميوله القديمة للايديولوجية الشيوعية ، وأخيراً رضاؤه عن المكافآت المالية التى حصل عليها من المخابرات التشيكية ، وان كانت هذه الأخيرة أقلها وأضعفها على العموم .

ومهما يكن من أمر الدوافع إلى الخيانة ، فقد أذعن فرنزل للتهديد وسافر إلى فيينا ، وهناك التقى بموظف مزعوم فى الحكومة التشيكية لم يعرف اسمه ، وتم اللقاء فى فندق « اوروبا » . وفى ذلك اللقاء أدرك فرنزل من التلميحات أن المنتظر منه أن يقوم بخدمات لمصلحة المخابرات التشيكية . وفى لقاء جديد آخر عقد فى « رورشاخ » فى سويسرا ، تسلم مبلغ ثلاثة

آلاف مارك تعويضاً له عن النفقات التى يتكبدها ، وعلى ذلك أصبح يدرك تماماً كنه الطريق الذى ينتهجه .

فالواقع أن هذه المكافآت مكافأة نموذجية بالنسبة لأولئك الذين يعملون لمصلحة المخابرات الشرقية . والمفروض أن كل من يقبل العمل كعميل ، مهما تكن الدوافع لذلك ، لا بد أن يقبل مالاً فى مقابل نشاطه ، فإذا ما قبل النقود أصبح طريق الرجعة مقطوعاً عليه فى أغلب الأحيان ، كما يسود الاعتقاد بذلك .

وليس من شك فى أنه لو كانت الريبة تساور فرنزل قبل لقاء « رورشاخ » لكان فى استطاعته تجنبه ، ذلك أن صديق فيينا فاتحه منذ البداية ولو تلميحاً بأنه سوف يعمل لمصلحة المخابرات التشيكية ، وإلا استغلت النقط السوداء فى ماضيه ضده .

ومع ذلك طالما أن فرنزل قد قرر أن يعمل متطوعاً فعليه تقع المسئولية ، فقد وقع فرنزل على إقرار التزامه بالعمل بالمخابرات التشيكية .

وبعد أن وقّع فرنزل هذا الإقرار ، صحبه صديقه إلى مقهى حيث التقيا بشخص آخر ، كان يبدو أنه ينتظر نتيجة تطورات الأمور . ولقد قدم هذا الشخص نفسه لفرنزل باسم « مولنار » ، وظل مولنار هذا رئيس فرنزل حتى نهاية العملية .

فعن طريق مولنار كانت تجرى العلاقات فيما بين فرنزل وبين المخابرات التشيكية ، ومن مولنار كان فرنزل يتلقى الأوامر والتعليمات الخاصة بالمهام التى كان عليه القيام بها ، وكان فرنزل يسلم المواد المطلوبة إلى مولنار . ولقد أثبتت المخابرات التشيكية عن طريق فرنزل أنها كانت عطشى للمعلومات ، لا يطفأ ظمؤها أبدا .

ذلك أن مولنار دأب على طلب مواد « عسكرية وسياسية واقتصادية » ،

وعلى استخراج معلومات مما تنشره الصحافة اليومية والدورية ، الأمر الذى تمشى مع منهاج العمل المفضل لدى المخابرات الشرقية .

ويشير قيام الجاسوس الجديد بتسليم المواد المطلوبة فى أماكن خارجة عن نطاق منطقة جمهورية ألمانيا الاتحادية ، مثل « رورشاخ » و « انزبروك » و « سالزبورج » إلى أن المخابرات التشيكية قد أدخلت تعديلاً على طريقتها فى استقصاء المعلومات منذ خريف ١٩٥٩ ، بيد أنه كان يبدو فى نظر فرنزل أن التردد على الدول الأجنبية باستمرار يحمل فى طياته مخاطرة كبرى ، لذا قام مولنار بوضع شخص يدعى « ألتمان » تحت أمر فرنزل ، ولهذا السبب كلف هذا الشخص بالاقامة فى بون .

ومن حسن حظ فرنزل أن حرس البوندستاج لم يقبض على ألتمان حينما تقدم يطلب مقابلته فى أمر هام يتعلق بشئون التعويضات .

ولقد بدا لضابط المخابرات التشيكية — بعد تعاون دام ثلاث سنوات بلا أى احتكاكات مع فرنزل البعيد عن الشبهات — أن العمل يسير فى مأمن من أي ريبة الأمر الذي دعاهم الى الاستغناء تماماً عن إجراءات الأمن المشددة، وعلى ذلك كان فرنزل يخرج حاملاً المواد الخطيرة فى جريدة داخل حقيبة أوراقه . وكان ذلك الإجراء خطيراً للغاية ، اذ كان محتملاً تعريض فرنزل ورجل الاتصال الذى يعمل معه إلى أخطار كبيرة إذا ما وقعت هذه الحقيبة فى يد أى شخص . هذا ومن الملاحظ أن المخابرات التشيكية لم تستخدم فى علاقاتها مع فرنزل طريقة « صناديق البريد » على الاطلاق خلال قيامه بمهمة .

وعلى العكس من ذلك كانت المخابرات التشيكية تتوخى الحرص والحذر الشديدين فى نقل المواد التى تحصل عليها من فرنزل إلى تشيكوسلوفاكيا . فقد استخدمت لنقل الأفلام الدقيقة التى تصور الملفات السرية بطارية طويلة وعلبة بودرة وتمثال فتاة عارية كصناديق سرية . وكانت هذه الصناديق

السرية مزودة بجهاز تفجير يعمل لحرق محتوياتها من الأفلام والمواد بمجرد فتح الصندوق عنوة بيد غير مختصة . والواقع أنه لو نسى تزويد هذه الأشياء بجهاز التفجير هذا فى لحظة حاسمة ، لكان ذلك خطأً جميلاً يؤدى إلى كشف النقاب عن فرنزل الجاسوس .

ظل فرنزل أربع سنوات الخادم المخلص الأمين لسادته الشغوفين بحب الاستطلاع ، فقد سلم اليهم طيلة هذه المدة كل ما طلبوه منه وأحياناً كانوا يبدون عدم رضاهم عنه ، لذا كانوا يمارسون ضغطاً خفيفاً عليه فيعود كما كان العهد به مخلصاً أمينا .

ولقد كانت المخابرات التشيكية تعد فرنزل بمنزل جميل على سفوح الجبال التشيكية ، حينما يصل إلى سن المعاش . كذلك دأبت هذه المخابرات على ارسال الهدايا له من وقت لآخر .

وفى خلال هذه السنوات الأربع قام فرنزل بتسليم المخابرات التشيكية كمية ضخمة من أسرار الدولة . ومن هذه الأسرار برنامج الدفاع الجوى عن ألمانيا الاتحادية فى المدى الطويل ، ومخططات دفاعية هامة ومستندات خطيرة تتعلق باجراءات توزيع القوات الجوية والبرية ، ومخططات بحرية سرية للغاية وميزانية الدفاع الخاصة بألمانيا الاتحادية . وهذه الأخيرة هى التى وقعت فى يد الادارة الاتحادية لحماية الدستور ، قبل أن تصل إلى يد المخابرات التشيكية .

وفى المرحلة الأخيرة تلقى فرنزل أمراً من مولنار كلّفه فيه بالاشتراك فى مؤتمر البرلمانيين فى دول حلف شمال الأطلنطى ، الذى ينعقد فى باريس خلال شهر نوفمبر سنة ١٩٦٠ ، وعندئذ وجد فرنزل أن هناك صعوبة كبيرة فى التنفيذ ، ذلك أن الحزب كان قد كلفه بالاشتراك فى مؤتمره الذى يعقده فى هانوفر فى نفس وقت انعقاد مؤتمر البرلمانيين المشار اليه ، لذلك لم

يعرف فرنزل كيف يوفق بين حضوره مؤتمر الحزب فى هانوفر ومؤتمر البرلمانيين فى باريس .

ومن المهم جداً لرجل مثل فرنزل أن يقف موقفاً حاسماً من طلب التشيك ، ذلك أنهم طالبوه بموافاتهم بمعلومات تفصيلية عن بعض أعضاء البوندستاج ، وعن أحد العاملين فى محفوظات البوندستاج . ولم يساور فرنزل أدنى شك فى أن المخابرات التشيكية سوف تضع هؤلاء الذين تطلب معلومات عنهم تحت ظروف قاسية لترغمهم على العمل لمصلحتها .

وبالرغم من ذلك فقد قام فرنزل بموافاة التشيك بمعلومات عن أحد هؤلاء المطلوبين ، وكان هذا الشخص له أقارب فى منطقة الاحتلال السوفييتى ، وبذلك هيأ فرنزل للمخابرات التشيكية امكانية ممارسة مناورة ضغط جديدة ضد ذلك الشخص .

هذه الحقيقة كانت كافية لأن تثبت أن فرنزل لم يكن مجبراً على قيامه بهذا النشاط التجسسى فحسب ، بل كان أيضاً يقوم بهذا النشاط فى مقابل المال ، ذلك أن من الثابت أنه حصل على مبلغ ٢٥٦٠٠ مارك خلال السنوات الأربع التى قضاها فى نشاطه هذا .

المفهوم أنه بعد كشف النقاب عن فرنزل انقضت فترة قصيرة من الزمن خالية من أى معلومات عن الكيفية التى أثير بمقتضاها الشك حول فرنزل ، كذلك كانت كيفية مراقبته ثم كشف أمره غير معروفة خلال تلك الفترة . ومع ذلك هناك من شواهد الأمور ما يدل على وجود حقيقة لا يمكن إنكارها ، ألا وهى أن افشاء أسرار هامة للدولة إلى مخابرات شرقية ، كان أمراً معروفاً للادارة الاتحادية لحماية الدستور قبل القاء القبض على فرنزل بوقت كاف .

والمعروف أن القسم الرابع فى الادارة الاتحادية لحماية الدستور بالمانيا

الغربية ، هو القسم المختص بمتابعة أولئك الذين يحملون أسرار الدولة . ولا مراء فى أن وجود أحد أعضاء البوندستاج فى نطاق مجموعة المشتبه فيهم من الأمور التى تحيطها الصعوبات ، ذلك أن قيام هذه الادارة الاتحادية لحماية الدستور بمراقبة البرلمانيين ، ربما يؤدى إلى تطورات سياسية بغيضة . وبالرغم من ذلك تمكنت هذه الادارة المذكورة من الوصول إلى معرفة أن مصدر المعلومات عن الإجراءات الدفاعية الخاصة بألمانيا الاتحادية التى ترسل إلى الكتلة الشرقية هى بلجنة الدفاع بالبوندستاج .

وفى ٢٨ أبريل عام ١٩٦١ حكمت الدائرة الثانية فى المحكمة الاتحادية « بكارلسروه » على الفريد فرنزل بالسجن خمسة عشر عاماً بسبب خيانة الدولة ، واقامة علاقات خيانة ، والقسم الزائف ، وبذلك تكون هذه المحكمة العليا قد حكمت بأقصى عقوبة لخيانة الدولة فى تاريخ ألمانيا الغربية .

* * *

الفصل التاسع

الايديولوجية والتجسس

العقيدة اليابانية

ليس اليابانيون حديثى عهد بالجاسوسية ، فبعد أربعمائة وخمسين عاماً فى حروب أهلية مدمرة ، استولت على الحكم سنة ١٦٠٠ أسرة « توكرجاوا » واستطاع اليابانيون بعد خمس عشرة سنة من القتال ضد خصومهم ومنافسيهم أن يعيدوا الهدوء والسلام إلى البلاد .

وأصبح الامبراطور أبو السماء مجرد دمية فى راحة يد « الشوجان » الحكام الحقيقيين للبلاد ، واستطاع الشوجان أن يحافظوا على بقائهم الداخلى باستخدام نظام بوليسى سرى رهيب ، ولكن فشل هذا النظام حينما خرجوا ببلادهم إلى المسرح العالمى .

وكان امبراطور اليابان — منذ أن نصب جيمو نفسه امبراطوراً عام ٦٦٠ ق . م . — يضعهم الشعب فى مراتب مقدسة حيث كان الامبراطور حسب عقيدة الشعب عقد الدين القومى وهو « الشنتيوزم » وتعنى طريق الآلهة .

وكان المبدأ الأساسى لهذه الديانة هو عبادة الأسلاف والطبيعة ، وقد تعمقت عقيدة الشنتيوزم فى قلوب الجماهير حتى أنه حينما جاء الرسل الكوزيون إلى اليابان بالعقيدة البوذية فى القرن السادس بعد الميلاد ، وعملوا على اجتذاب اليابانيين إلى عقيدتهم بأن أدمجوا الشنتيوزم فى البوذية بدلاً من محاولة إحلالها مكانها ، كان هذا تحركاً جميلاً ، ذلك لأنه بعد قرنين من الزمان حدث أكبر تحول دينى جماعى فى التاريخ ، فقد تحول البلاط اليابانى وأغلب الشعب إلى البوذية وان كانوا قد استمروا يمارسون طقوس الشنتيوزم .

وكان انعاش واحياء الشنتيوزم من أهم العوامل لاسقاط « الشوجان » ، ذلك لأنه لا سبيل إلى حشد كل ولاء الجماهير للامبراطور والحكومة أفضل من دين يكون قديماً قدم الجنس نفسه ، كما أن فلسفته نفسها تمكن من تحقيق ذلك .

ولكن النظام الجديد وجد أنه من الأصلح له فصل الشنتيوزم عن غايتها من العقيدة البوذية ، ولكن ثبت فى الواقع أن العقيدتين ترتبطان معاً فى الفكر اليابانى العادى بالقدر الذى كان من الضرورى معه اغفال هذه المحاولة ، والا أصيبت عقيدة الشنتيوزم بضرر جسيم .

على أن السلطات المسئولة بدأت بدلاً من محاولة إنشاء دين جديد للدولة ، قامت بإبراز قدسية الامبراطور بدرجة أكبر مما عرف من قبل . وكانت المحاولة ناجحة لدرجة أن الدين الجديد الذى عرف باسم « شنتيوزم الدولة » ، كان له فى مدى نصف قرن خمسة آلاف راهب ، ومائة ألف معبد .

الشنتيوزم والجاسوسية

وكان لشنتيوزم الدولة ثلاثة مبادىء أساسية ، وثالثهما هو الذى يوضح الحاجة للجاسوسية . فطبقاً للمبدأين الأولين فان الامبراطور المقدس يمتلك كل القوى الروحية والجسدية التى لآلهة الشمس ، ولما كانت الآلهة ترعى

اليابان بحمايتها الخاصة ، ومن ثم فإنها تجعل الشعب اليابانى فى أعلى درجة من كل الشعوب فى أراضى العالم كلها . وهكذا فانها أوصلت إلى اليابان واجباً مقدساً بجمع العالم كله تحت سقف واحد ، وبذلك يكون لكل البشرية أنصبتها من النفع الذى تناله نتيجة حكم الامبراطور المقدس لها .

وفى هذه الكلمات نجد السبب وراء اتجاه السياسة الخارجية اليابانية حتى نهاية الحرب فى الباسفيك عام ١٩٤٥ إلى استكمال هذا الغرض . وكان الاتجاه اليابانى لاداء الرسالة المقدسة بجمع العالم كله تحت سقف واحد لا بد أن يمر أولا بأرض الصين ومن ثم كانت أرض الصين الواسعة هى الهدف الطبيعى للتوسع اليابانى .

ولكن التنفيذ عن طريق هجوم عسكرى قد يكون كثير النفقات باهظ الثمن حتى ولو كانت القوة العسكرية لليابان على استعداد للقيام به ، ومن ثم مهدت الجاسوسية الطريق باشاعة الفوضى والرشوة والامداد بالمخدرات والتشجيع على الثورات .

استخدام الجنس والمخدرات

لقد كانت الاتصالات الجنسية والمخدرات السلاحين الأساسيين اللذين استخدمهما اليابانيون فى عملياتهم للجاسوسية فى الأراضى الآسيوية ، وقد حطموا معنويات الناس إلى حد أن البناء الاجتماعى للصين كان ينهار بسرعة تحت تأثيرهم ، وما لم تقض عليه المخدرات والجنس أكملت الرشوة تحطيمه .

ولما قررت اليابان إعداد منظمة كاملة للجاسوسية ، انشأت معاهد لتدريب الجواسيس فى أرض اليابان وفى أرض الصين وفى كوريا

وظهرت هذه المنظمات على أنها معاهد للثقافة الرياضية ، ومعاهد للمصارعة اليابانية وما شابه ذلك من المنشآت .

الوصية الثالثة للشنتيوزم :

على أنه كان لليابانيين وكالات أخرى للجاسوسية إلى جانب الهيئات الحكومية التى تتولى ذلك ، وكانت الوكالات غير الرسمية تقدم معاونة فعالة ، ففى عام ١٨٩٠ ألهبت الوصية الثالثة من وصايا عقيدة الشنتيوزم أطماع كل الدوائر القومية التى تتولى الزعامة فى اليابان ، فقامت بانشاء عدة منظمات وطنية لها طابع خاص .

كان أول هذه المنظمات جمعية « المحيط الأسود » التى كونها « متسورى تویاما » ، الذى وجد فى العمل لتنفيذ الوصية الثالثة عملاً قومياً ، إلى جانب كونها كسباً شخصياً لزيادة ثروته ومكانته .

وحينما جمع « تویاما » حوله عدداً من الأصدقاء ذوى النفوذ شرح لهم آراءه ونذكر منها ما يلى :

— انها رغبة الآلهة فى أن ننقل نفع امبراطورنا المقدس ، وكذلك طريقتنا المثلى فى الحياة لكل الشعوب .. ولكن لكى ننفذ هذا سنحتاج إلى الوقت الطويل . وسيكون الكفاح صعباً ذلك لأن أعداءنا سيقاومون بكل ما يتوفر لهم من قوة ، ومن ثم يجب أن نبدأ منذ اليوم فى استخدام كل جهد لنعد أنفسنا للاشتراك فى المعركة .

— ولهذا يجب أولاً أن نكون أقوياء أثرياء ، وسنفعل ذلك بأن نبنى صناعتنا وجيشنا وأسطولنا ، ولكن ونحن نفعل هذا يجب أن نعرف كل ما نستطيع معرفته عن أعدائنا .

— إن كل يابانية وكل يابانى يجب أن يوجه فى سبيل تنفيذ هذا الواجب ، فكل يابانية يجب أن تلد وأن تنشىء كل طفل يمكن أن تحمل به من زوجها ، وبهذا نستطيع أن نوفر القوى البشرية لمصانعنا ولجيوشنا .

— ان كل رجل يجب أن يوجه كل مواهبه وامكانياته لمساعدة الوطن ...

ان الوضع بالنسبة لنا يعتبر وضعاً خاصاً والحاجة تتطلب منا الكثير من الجهد ، والمساهمة التى نستطيع أن نقوم بها فى هذا الشأن تكون أصلح وأقوى لو عقدنا أيدينا معاً .

واجب جمعيات المحيط الأسود :

وهكذا جاءت إلى الوجود جمعيات « المحيط الأسود » و « الجمعية الثقافية لشرق آسيا » و « جمعية إيقاظ آسيا الكبرى » و « الذئب الأبيض » .

كان الواجب الرئيسى لهذه الجمعيات هو التجسس والعمل لاخضاع العدو ، ولهذا فانه حينما حان الوقت فى منتصف الحقبة الرابعة من القرن العشرين لتنفيذ الوصية الثالثة للعقيدة جدياً ، كانت الكلمات تسير مسار النار فى الهشيم .

إن كل فرد يستطيع أن يتجسس ، وكل فرد يجب أن يكون جاسوساً ، ومن ثم خلق كل يابانى ويابانية من نفسهما جاسوساً وجاسوسة أو جنداً للخدمة فى أعمال مقاومة التجسس .

وقد استحدث اليابانيون الكثير من الوسائل والأساليب فى نشاطهم السرى التخريبى ومنذ أوائل هذا القرن ، كان اليابانيون أول من استخدموا جماعات المخربين وراء خطوط العدو على أساس منظم ، وكوّنوا هذه الجماعات من عميلين أو ثلاثة على دراية عالية بأعمال المتفجرات لنسف الخطوط الحديدية ومحطات القوى الكهربائية وغيرها من المنشآت ذات الأهمية الاستراتيجية ؛ ولكن كان أهم ما استحدثوه هو موقفهم من الجواسيس والجاسوسية .

البوشيـــدو :

فهم منذ البداية قد وضعوا الجاسوسية فى نطاق « البوشيدو » .

أى فى نطاق قانون المعنويات والأخلاق . والجاسوسية فى سبيل خدمة الوطن تعد — على حد قولهم — عملاً عادلاً مشرفاً لما تتطلبه من شجاعة وجرأة، والشجاعة والجرأة من الفضائل التى امتدحها الساموراى وهم المحاربون اليابانيون القدامى .

وقد مدوا هذا القانون إلى أعدائهم ، فحينما أمسكوا بجندى روسى فى ثياب صينى وقررت المحكمة ادانته فى أعمال الجاسوسية وحكمت باعدامه ، تأثر اليابانيون لشجاعته واخلاصه المثالى ، حتى انهم بعثوا فيما بعد للروس خطاباً يمتدحون فيه شجاعته فى افاضة .

وهذه النظرة إلى الجاسوسية وجعلها من صور خدمة الوطن ودلالته على الولاء له ، شجعت الكثيرين ممن ينقصهم حب المغامرة على القيام بأعمال التجسس فى أى مكان وفى أى وقت ، وقد ضاعف ذلك من خطورة اليابانيين فى ميدان الجاسوسية .

الايديولوجية تتخطى القومية :

وكان الجواسيس فى الماضى يحصلون على الأسرار العسكرية والعلمية من مواطنى الدول التى يقومون فيها بنشاطهم ، وكان من الصعب فى تلك الأيام الحصول على خونة يستعدون للادلاء بهذه الأسرار التى قد تؤدى إلى كوارث رهيبة لوطنهم .

إلا أنه فى هذا العصر تتجه النظريات ، وينفسح أمامها المجال إلى تخطى نطاق الوطنية والكبرياء القومى .

فمثلاً هناك الرجل الأمريكى الذى قد يضيق ذرعاً بالنظريات الرأسمالية فيتجه نحو معتقدات الشيوعية المادية ، أو بالعكس قد يكفر رجل من المعسكر الشرقى بأساليب النظم الجماعية ، حيث يؤمن بالديموقراطيات الغربية ويكون

ذلك دافعاً لكل منهما لخيانة وطنه .

ويقول « رونالد سميث » فى كتابه « الجاسوسية على المشرحة » :

« إنى أود أن ألفت أنظار العلماء فى الميادين الصناعية إلى التهديد الذى تشكله الجاسوسية فى ميادين العلم فى هذه الأيام منذ عام ١٩٦٠ ، حيث بلغت المنافسة الشديدة أقصى درجاتها .. كما أقترح أنه كما تبذل عناية كبيرة فى فرض الستار حول أولئك المسئولين عن أوجه النشاط السرية لتصدير المصنوعات الحيوية ، كذلك يجب أن تبذل الجهود لإخفاء أولئك الذين يعملون فى تطوير الأسلحة النووية ، اذ إن معظم الدول — وعلى الأخص الولايات المتحدة — تعتمد على دخلها من الصادرات لحفظ الاقتصاديات القومية على مستوى مناسب على الاقل . ولا بد لمعظم الدول من تصدير محصولاتها أو تختل ميزانيتها .

« وتلك حقيقة تحتم أن تكون التطورات فى ميادين العلم والصناعة تحت حراسة سرية قوية من جميع النواحى كما لو كانت اختراعاً لسلاح نووى جديد » .

والواقع أن هذا القول صحيح للغاية وخاصة فى عالم وصل فيه الصراع الايديولوجى بين الغرب والشرق إلى درجة تهدد بحرب نووية قد تودى بالبشرية جمعاء .

الأيديولوجية والخيانة الوطنية :

لقد استطاعت الأيديولوجية أن تلعب دوراً كبيراً فى تحويل بعض العلماء إلى خيانة وطنهم نتيجة اعتناقهم الشيوعية وإيمانهم بها .

ومن أمثلـــة ذلك « ألان نون ماى » ، ودكتور كلاوز نوخس ، وبرونو بونتكورفو .

ومن حيث المبادىء الأساسية ، فلم يكن ثمة فرق بين نون ماى وبين

الآخرين ، إذ إنه بينما كان الأول مواطناً انجليزياً فان كلاً من فوخس وبونتكورفو يتساويان فى ذلك حيث يدين كل منهما بالولاء إلى انجلترا بسبب تجنسهما بالجنسية الانجليزية وترحيب انجلترا بهما للاقامة بها ، واعطائهما فرصة الحياة الكريمة بين مواطنيها .

وكان العالم الغربى فى وهم من اخلاص السوفييت لهم فى فترة الحرب العالمية الثانية ، فقد حاربا جنباً إلى جنب للقضاء على طغيان هتلر وأطماعه التوسعية .

ولكن فى الخامس من شهر سبتمبر من عام ١٩٤٥ بدأ موظف الشفرة فى السفارة السوفييتية فى اوتاوه يبدد هذا الوهم ، ففى ذلك اليوم كشف « ايجور جوزينكو » النقاب عن نشاط المخابرات الروسية فى أثناء الحرب .

ذلك أنه فى عام ١٩٤٢ بدأ السوفييت بانشاء شبكة تجسس فى كندا ، وحتى قبل اعتراف الكنديين بروسيا السوفييتية دبلوماسياً ، كان للروس بعثة تجارية برئاسة الميجور زوكولوف ، الذى كان يشغل منصب سكرتير من الناحية الرسمية . ولقد بدأ زوكولوف هذا ينسج الخيوط الاولى فى شبكة التجسس ،اذ بدأ بالاستعانة بالعملاء السريين المدربين فى تكوين نواة منظمة جاسوسية ضارية .

ولقد أصبح لهذه المنظمة قوتها بعد أن استطاعت كسب الزعيم الشيوعى الكندى « فرد روز » إلى صفها .

وفى صيف عام ١٩٤٣ وصل إلى اوتاوه الملحق العسكرى السوفييتى الجنرال « نيكولاى تيسابوتين » ، لينضم إلى أعضاء السفارة السوفييتية التى كانت قد أنشئت حديثاً فى ذلك الوقت برئاسة زاروبين .

وصل « تيسابوتين » ومعه أوامر من موسكو تنص على أنه ينبغى عليه أن يرأس منظمة الجاسوسية العسكرية ، التى أنشأها زوكولوف وذلك إلى جانب

واجباته الدبلوماسية كملحق عسكرى .

ولقد حضر تيسابوتين ومعه عدد من المعاونين بينهم موظف الشفرة الملازم ايجور جوزينكو .

والمعروف أن موظف الشفرة يقف ـ بحكم عمله ـ على كافة الأوامر التى تبعث بها مراكز المخابرات فى موسكو ، وعلى كافة التقارير التى يبعث بها الملحق العسكرى السوفييتى إلى موسكو . ولهذا كان جوزينكو على قدر كبير من المعرفة لا يستطيع أن يصل اليه السفير نفسه .

وفى نهاية شهر أغسطس قررت موسكو استدعاء جوزينكو بمناسبة انتهاء خدمته في كندا ، ولا مراء فى أن هذا الاستدعاء كان أمراً طبيعياً معروفاً بالنسبة للذين يقيمون فى الخارج مدة طويلة . غير أن جوزينكو هرب من السفارة بمجرد سماعه نبأ استدعائه ، وطلب من حكومة كندا منحه حق الإلتجاء السياسى .

واتضح عندما قدم نفسه وزوجته وأولاده الصغار للسلطات الكندية ، أنه لم يأت خاوى الوفاض ، ذلك أنه كان لزاماً عليه أن يقدم لهذه السلطات المادة التى تثبت أهميتها بالنسبة لحكومة كندا ، لئلا ترده هذه الحكومة وتعيده إلى الحكومة الصديقة كأحد رعاياها .

وكان لدى جوزينكو المادة الكافية ، فقد سبق لجوزينكو قبل أن يصله نبأ استدعائه إلى موسكو ان وضع خطة هربه ، وفكر فى طبيعة المستندات والوثائق التى ينبغى أن يحملها عند التنفيذ .

وهكذا مكن لنفسه من الحصول على الأوراق السرية الخاصة بالملحق العسكرى « تيسابوتين » وعلى المحادثات اللاسلكية التى دارت بين موسكو ومراكز الجاسوسية السوفييتية فى اوتاوه ، وكذلك على المستندات والملفات

الخاصة بشبكة التجسس ، وذلك فى الأيام الأخيرة السابقة لقيامه بالخطوة الحاسمة التى دبر لها الخطة .

وعلى ذلك هرب جوزينكو من السفارة ، غير أنه لم يكن هناك من أعضاء السفارة السوفييتية من يرغب فى معرفة إلى أين اتجه هذا الروسى الهارب ولا ما هى الأوراق التى أخذها معه .

فقد ظل جوزينكو يحمل الوثائق والمستندات ، التى ظل خبراء مخابرات العالم الغربي يفحصونها خلال عدة أسابيع وقد عقدت الدهشة ألسنتهم ، ظل يحمل هذه الوثائق والمستندات طيلة يومين كاملين إلى أن سلم نفسه للبوليس وأصبح فى حمايته .

وكانت أهم الآثار التى لمستها المخابرات البريطانية والأمريكية لما قدمه جوزينكو من معلومات ، هى تلك التى تمثلت فى حالة عالم الطبيعة الذرية البريطانى « الان نون ماى » ، فقد وصل هذا العالم البريطانى ضمن جماعة من العلماء البريطانيين إلى كندا فى شهر يناير ١٩٤٣ . وبالرغم من أن العالم « ماى » لم يشترك بصفة مباشرة فى انتاج القنبلة الذرية ، الا أنه كان يعلم الكثير عن الخطوات المتقدمة فى هذا المضمار نتيجة كثرة أسفاره لزيارة مراكز الأبحاث فى الولايات المتحدة وكندا . ولقد أدت كثرة أسفاره هذه إلى أن أصبح من أحسن العلماء معرفة بهذا المجال من الأبحاث .

ولقد كان أكبر نجاح حققه « تيسابوتين » فى حياته حينما تنبه إلى « ماى » ، وتمكن من كسبه إلى صف الجاسوسية العسكرية التى يمارسها الاتحاد السوفييتى .

وتمكن ماى قبل إسقاط القنبلة الذرية على هيروشيما من سرقة عينة من اليورانيوم المشع من معامل مونتريال ، وقام بتسليمها إلى تيسابوتين مع تفاصيل خاصة بالقنبلة الذرية ذات أهمية بالغة لا يمكن الوصول إلى تقديرها .

وعندما ألقى القبض على ماى فى مارس عام ١٩٤٦ أدى التحقيق الطويل

الذى أجزى معه إلى كشف النقاب عن جاسوس الذرة « دكتور كلاوز فوخس » .

كان ينبغي أن تمر عدة شهور على هرب جوزينكو قبل أن يعلم الرأى العام فى الولايات المتحدة وبريطانيا أن المخابرات الروسية قد تغلغلت فى داخل مراكز السلطات الادارية وصناعة التسليح ، بعد أن قامت بعمليات واسعة النطاق منذ زمن طويل فى هذا الشأن .

ولقد مرت سنوات طويلة إلى أن أمكن اكتشاف شبكة الجاسوسية السوفييتية الضخمة ، ولكن بعد أن وصل الاتحاد السوفييتى إلى حيازة سر هو فى نظر الأمريكيين وقف على الحكومتين الأمريكية والبريطانية ويجب أن يظل كذلك ، ولم يكن ذلك السر إلا سر القنبلة الذرية .

والأمر الذى لا شك فيه هو أن المخابرات الأمريكية كانت تعلم طرفاً من تلك المواد التى سلمها ايجور جوزينكو إلى الحكومة الكندية ، وذلك قبل انتهاء المباحثات مع الجنرال جيلين رئيس المخابرات الألمانية فيما بعد غير أن ذلك الطرف لم يكن كافياً لاظهار الخطر الذى يشكله الشرق ، فقد كان مجرد سبب لإثارة الشكوك . ومع ذلك كانت هذه الشكوك هى التى لعبت الدور الهام فى اتخاذ قرار بشأن انشاء مخابرات ألمانية فى خدمة الأمريكيين ، أى تقوم بدور غربى محض .

والواقع أن المخابرات الأمريكية وجدت نفسها فجأة أمام خصم له من الأهداف والأساليب ما لا يمكن أن يخطر على فكر أحد .

لذا لم يكن أمام الأمريكيين غير ذلك الشخص الوحيد ، الذى كافح المخابرات الروسية سنوات طويلة من قبل ، والذى استطاع نتيجة هذا الكفاح أن يدرس تفاصيل نشاط هذه المخابرات ويتصل بمن مارسوه ، وهو الجنرال جيلين .

ومن ثم كان رفض العرض الذى قدمه جيلين ، وعدم الاستفادة بخبراته فى هذا المجال يعنى ضياعاً لا يمكن لأى رئيس مخابرات أن يجرؤ على تحمل مسئوليته .

ومن ثم كان ينبغى فى الولايات المتحدة أن لا تعلم اليد اليمنى ما فعلته اليد اليسرى ، كذلك كان ينبغى أن لا يعرف رجال السياسة بصفة رسمية ، أن رؤساء المخابرات الأمريكية قد عقدوا اتفاقاً مع جيلين .

ولو كان قد عرف اتجاه الروس ونواياهم ، لما كان عقد مؤتمر بوتسدام للتشاور فى أمر ألمانيا المهزومة . هذا المؤتمر الذى بدا بعد انعقاده أن الصداقة التى تربط الشرق والغرب ستكون صداقة أبديه .

ومع ذلك ففى تلك الأيام ألقى مشهد محزن وسافر ضوءاً ساطعاً على الموقف فيما بين الحلفاء . ولقد صور وزير الخارجية الأمريكية الأسبق « برنز » هذا المشهد فى مذكراته على الوجه التالى :

« كان الود والصداقة يسودان المؤتمر ، كما كان الشأن فى المؤتمرات السابقة ، وكان ترومان هو أكثر المشتركين فى المؤتمر مرحاً وسروراً ، وذلك أنه سبق أن تلقى نبأ يقول إن التجارب التى ابتلعت ملايين الدولارات قد كللت بالنجاح ، فقد كان الكشف الذى ربما يغير وجه العالم والذى أمكن الوصول إليه ، يقف على أهبة الاستعداد لاستخدامه ، ولم يكن ذلك الكشف الخطير الذى يغير وجه العالم سوى القنبلة الذرية » .

ولقد كان ترومان مقتنعاً إقتناعاً تاماً بأن إلقاء القنبلة على اليابان سوف ينهى الحرب فى بضعة أيام . وهكذا كان أمر السلام مضموناً فى فترة زمنية محدودة .

كما كان ترومان مقتنعاً أيضاً بأن الدولة التى تملك فى يدها التفوق المضمون فى السلاح بامتلاكها القنبلة الذرية ، هى التى تستطيع أن تقرر متى ينبغى

فرض السلام . ومعنى ذلك ، بكلمات أخرى ، أنه يجب أن تظل أسرار القنبلة الذرية فى حيازة البريطانيين والامريكيين فقط .

وبهذا الاقتناع ، وبذلك الشعور ذهب ترومان إلى مائدة المؤتمر ، وجلس إلى جانب ستالين . ولم يكن يدور بخلد ترومان إمكان إفشاء سر من أسرار الدولة .

فما أن التقى ترومان بستالين حتى تحدث إليه يقول أن الأمريكيين يملكون فى الوقت الحاضر قنبلة لها قوة تخريب خيالية . وأضاف إلى ذلك يقول أن أمريكا سوف تلقى هذه القنبلة على اليابان لانهاء الحرب ، هذا فضلاً عن أن ترومان ذكر لستالين بعض التفاصيل المتعلقة بهذا السلاح المخيف .

وانتظر ترومان وقد توترت أعصابه ، لكى يرى رد الفعل على وجه ستالين ازاء سماعه نبأ هذا السلاح الجديد الذى اهتزت أرجاء العالم لسماعه .

غير أن ثعلب الكرملين العجوز لم يفعل سوى أن هز رأسه قائلاً « يسعدنى أن أسمع هذا » ، ثم لم يلق أية أسئلة أخرى بعد ذلك ، كما لم يطلب أية معلومات إضافية . فقد بدا عندئذ أن هذا النبأ لم يثر اهتمامه على الإطلاق .

خاب أمل ترومان ومستشاريه حينذاك ، ذلك أنهم لم يكونوا على علم بأن الرئيس الروسى لديه من المعلومات فى هذا المجال ما يمكن أن يصل به إلى امتلاك مثل هذه القنبلة .

غير أن مستشارى ترومان إستعدوا فى اليوم التالى للافضاء بأية معلومات مطلوبة اخلاصاً منهم للحليف ستالين . ومع ذلك ظهر أنه لا يوجد من بين الروس من تدفعه الرغبة الأكيدة لمعرفة أى شىء عن هذه القنبلة الذرية .

عند ذاك أدلى وزير الخارجية الأمريكية برأى الرئيس الأمريكى ، اذ قال أن ستالين يقف موقفاً متحفظاً لأن لديه أسراراً عسكرية يخشى أن يعرضها للخطر لو أزاح الستار عنها .

والواقع أن وزير الخارجية الأمريكية كان غير صادق فيما قال ، ذلك أن الحقيقة التى كانت بعيدة عن أذهان الأمريكيين هى أن السبب فى أن ستالين لم يكن فى حاجة إلى القاء أسئلة بشأن القنبلة الذرية ، يرجع إلى أنه كان يعلم كل شيء عن أشد أسرار المشروعات الأمريكية خطراً .

فمنذ سنوات تمكن جهاز جاسوسية ليس له مثيل ، من التسلل إلى محطات تجارب التسليح الذرى فى انجلترا وكندا والولايات المتحدة .

وكان أعضاء هذا الجهاز يعرفون عن أسرار القنبلة الذرية أكثر مما يعرف ترومان وبيرنز فى الوقت الذى عقد فيه مؤتمر بوتسدام .

كان الخوف من سطوة منظمة الجاسوسية الروسية فى العالم الجديد يثير رعباً كبيراً ، جعل الساسة الأمريكيون يرفضون الايمان بالحقيقة المرة التى يفرضها وجود هذه المنظمة ، وذلك عندما قدم جوزينكو أداته الدامغة فى خريف ١٩٤٥ .

وقد ذكر « نون ماى » الأسباب التى أدت إلى خيانته حيث قال : —

« لقد كنت حريصاً اشد الحرص حينما ادخلت فى اعتبارى اننى على يقين من انّ النشاط الذرى يجب الا يكون مقصوراً على الولايات المتحدة الأمريكية ، واتخذت ذلك القرار الذى آلمنى اشد الألم وهو التزامى بنقل معلومات عامة عن النشاط الذرى وتأكدت من أن ذلك كان جهداً صادقاً وبصورة جدية » .

وقد اتضح أنه لم يفعل ذلك ابتغاء الحصول على مكاسب مادية ، ولكن لأسباب مثالية ترجع إلى عقيدته ، اذ إن كل ما حصل عليه ثمناً لهذه المعلومات كان مبلغ سبعمائة دولار وزجاجتين من الويسكى .

ولم يتمكن الأمريكيون حتى عام ١٩٤٩ من ان يلفتوا نظر البريطانيين الى مراقبة « فوخس » حيث وضع بعد ذلك تحت ملاحظة دقيقة ، ولكنه مثل

« نون ماى » لم يكشف عن حقيقته حتى المحاكمة ، حيث حكم عليه بالسجن أربعة عشر عاماً .

وكان الرجل الثالث فى هذا الثلاثى الخطير أسعد حظاً ، فقد كان « برونو بونتكورفو » من مواطنى ايطاليا ، كما كان تلميذاً للعالم الشيوعى الشهير « انريكو جرمى » الحائز على جائزة نوبل ، وفى عام ١٩٢٧ غادر ايطاليا إلى فرنسا للعمل تحت مباشرة رجلين من أشهر العلماء الشيوعيين هما « لوجفين » ، « جوليو كوريه » ، وهما الآن فى عداد الأموات . وفى فرنسا التحق بمجموعة من المتطرفين اليساريين من اللاجئين الايطاليين .

وعندما اقترب غزو الألمان لفرنسا هرب « بونتكورفو » الى أمريكا حيث وصلها فى صيف عام ١٩٤٠ ، وفى أوائل عام ١٩٤٣ أوفد الى كندا للعمل فى المشروعات الذرية هناك . وبعد نهاية الحرب ظل مقيماً فى الولايات المتحدة حتى عام ١٩٤٩ حيث عهد اليه بالعمل فى انجلترا .

وفى عام ١٩٤٩ أبلغ السلطات الأمريكية بنشاط صديق له ممن تحولوا عن الشيوعية وقدم اليهم بياناً شاملاً عن تصرفاته وعلاقاته .

ولم تتخذ الولايات المتحدة إجراءات أكثر من تحذيرها البريطانيين ، وهؤلاء بدورهم — ولأسباب غامضة — لم يحركوا ساكناً

وبعد مضى سنتين ، وبينما كان لا يزال يؤدى مهمة سرية فى هارول ، حيث كان ينقل المعلومات بانتظام إلى شبكة السوفييت فى بريطانيا ، طلب التصريح له بأخذ أسرته معه إلى القارة لقضاء اجازة هناك .

وسافرت العائلة بالسيارة عن طريق فرنسا إلى روما حيث استقلت طائرة عادية إلى هلسنكى ، ثم التقوا بالموظفين السوفييت وشقوا طريقهم إلى روسيا .

وكان اختفاء بونتكورفو سبباً فى اثارة التكهنات على نطاق واسع ، فقد اعتقد البعض أن الرجل لم يكن سليم العقل ، بينما ظن البعض الآخر أن

السوفييت دبروا أمر اختطافه هو وعائلته .

وظل الأمر على ما هو عليه طيلة ثلاث سنوات حتى ظهر فى صحيفة البرافدا مقال كتبه بنفسه ، وأعلن فيه أنه طلب الالتجاء السياسى إلى روسيا حيث تمت الموافقة على ذلك ، وأصبح من مواطنى السوفييت .

ولا بد أن هؤلاء الرجال الثلاثة يقتسمون فيما بينهم قسطاً كبيراً من المسئولية من حيث تفوق السوفييت فى ميدان الطبيعة النووية ، إذ كانت قبل ذلك متأخرة فى أبحاثها بما يقدر بنحو عشر سنوات .

وربما كان التوتر الذى ساد المعسكرين فى فترة طويلة سببه نشاط كل من نون ماى وفوخس وبنتكورفو .

* * *

الفصل العاشر

الجاسوسية والجنس

مخدع الرجل مقر أسراره :

هناك عبارة شائعة ومعروفة هى : إن أفضل مكان لاستخراج أسرار الرجل هو مخدعه حينما يكون بين أحضان المرأة .

والواقع أن هذه العبارة صحيحة إلى حد كبير ، إذ يبدو أن الرجال تحت التأثير المباشر للعلاقات الجنسية يفقدون القدرة على الواقعية والحكمة ، وتطغى هنا قوة عاطفية توحى بالثقة بالمرأة وهى ثقة ليست فى محلها ، اذ أثبتت حوادث التاريخ أنها اصطناعية .

إن أغلب القصص التى جاءت عن استخدام النساء العميلات فى الجاسوسية تثبت أن معظمهن كان خطراً إلى أقصى حد ضد أمن الرجال .

ومن التاريخ القديم يصدق هذا القول ، ففى قصة شمشون ودليلة يبرز درس قديم وهو أن العلاقات الجنسية حينما تستخدم كسلاح فى الجاسوسية

بواسطة امرأة ، فانها تكون سلاحاً قاتلاً بأكثر مما يكون عندما يستخدمه الرجل » .

فمع كل قوة شمشون ودهائه كانت تكمن نقطة ضعف ، حينما كانت دليلة تضمه إلى صدرها وتهمس فى أذنيه بكلماتها ، وحينما اطمأن لها فتح لها قلبه وذكر لها سر قوته ، وكان فى افشائه هذا السر هلاكه .

لا حياء في العلم :

ويقول المعلق الفنى الأمريكى « كليمنت ريد » فى دراسة له عن الدوافع الجنسية وراء اقبال المصورين على رسم الصور العارية : « إن الجسم البشرى هو أبدع ما صور فى الطبيعة ، فالبحار والجبال والأشجار والأزهار وحتى الحيوانات المستأنسة والضارية لها جمالها وروعتها ، ولكن ليس لها التناسق بين الأجزاء كما للجسم البشرى ، وخاصة جسم المرأة ، والجسم الكامل للمرأة الجميلة يسترعى انتباه الرجال ، كما يسترعى أضواء الشموع الفراش الذى يطير حوله » .

على أننا نود أن نوضح أن الغرض من هذا الفصل هو أن ينظر إليه من زاوية علمية وليس من زاوية مادته القصصية .

والحديث عن العلاقات الجنسية فى الطابع العلمى لم يعد اليوم حديثاً يخدش الحياء ، فالكتب الطبية عن أمراض النساء والتشريح تعرض لموضوعات وتقدم رسوماً وصوراً تكشف عن أدق أجزاء الجسم البشرى للرجل والمرأة .

ولقد آثرنا أن نذكر الدروس المستفادة من استخدام الجنس مع كل حالة حتى تعلق بذهن القارىء ، وحتى تكون الافادة سهلة من حيث البحث أو التطبيق العلمى .

الجنس والسيطرة قديماً :

والحق أن الانتفاع بالمؤثرات الجنسية للسيطرة على الأفراد فكرة قديمة قدم المرأة والرجل ، والتاريخ مليء بقصص النساء اللاتى سيطرن على كثير من الحكام والملوك ، بل حكمن الأمم والشعوب ، وكانت العلاقة الجنسية هى الوسيلة الأساسية لهذه السيطرة .

وأبرز الأمثلة الواضحة نجده فى « ميسالينا » امبراطورة روما ، التى كانت تقتل كل من يصل إلى فراشها ، ومع ذلك كانت تجد دائماً من يريد المتعة على أن يفقد حياته بعد أن يكون قد أخلص فى خدمة الامبراطورة فى مخدعها .

ومثل آخر يمكن أن نستخلصه من تاريخ اليهود . ففى قصة موسى التى تحدثنا عنها فى الفصل الأول من الجزء الأول نجد أن « يوشع بن نون » خليفة موسى كان من حسن طالعه أن وهبته الظروف عميلاً جيدا لم يكن سوى امرأة تدعى « رحاب » .

فحينما أرسل يوشع باثنين من الشبان ليتجسسا على « اريحا » قبل أن يقود بنى إسرائيل عبر الاردن إلى أرض كنعان ، لم يحسن الاختيار ، كما يبدو أن العملاء فى ذلك الوقت كانوا يعملون بدافع الفطرة أكثر من اعتمادهم على التدريب .

وبدلا من أن يكرس الشابان جهودهما لجمع المعلومات المطلوبة توجها إلى إحدى المواخير التى تديرها رحاب ، وفى أثناء وجودهما سمع حديثهما مواطن من أهل المدينة ، وكانت لهجة حديث الجاسوسين كافية وحدها للكشف عن حقيقتهما بين جمع من الناس يختلفون عنهما فى اللهجة ، وأسرع المواطن فأخبر الملك بوجودهما وجاء ضباط الأمن وطرقوا باب رحاب مطالبين بتسليم الجاسوسين ، ولكنها كانت قد اتفقت معهما على اخفائهما نظير أن تعطى

الحماية هى وكل من فى منزلها حينما يهاجم اليهود أريحا .

وخدعت رحاب رجال الأمن ، وذكرت لهما أن الجاسوسين غادرا المنزل ، فأسرع الرجال باللحاق بالجاسوسين دون أن يعنوا بتفتيش المنزل .

وعاد الرجلان إلى يوشع بعد أن أعطيا الأمان لرحاب ، واتفقا معها على وسيلة لتوضيح منزلها فى أثناء الهجوم ، إذ طلبا منها أن تسدل قطعة من القماش القرمزى اللون من النافذة .

ولم يعد الرجلان دون الحصول على المعلومات المطلوبة ، وقد أعطتهما رحاب معلومات كثيرة عن دفاعات المدينة ووسائل حراستها ، وكانت بحكم عملها تعرف الكثير من المعلومات من المواطنين الذين يرتادون ماخورتها .

ويعد هذا الحادث واحداً من الحوادث النادرة فى التاريخ التى تعتبر فيها العلاقات الجنسية مجزية .

استخدام الجنس في التاريخ المعاصر :

وفى التاريخ المعاصر استخدم الجنس كسلاح فى الجاسوسية ، ولكن نظر إليه كوسيلة للاستخدام العادى ، ولم يطبق إلا فى الحالات حينما يصبح هذا الاستخدام هو الوسيلة الوحيدة لامكان تحقيق الهدف على أساس أن « الغاية تبرر الوسيلة » .

على أن النتائج التى يحققها هذا الاستخدام ، تتوقف إلى حد كبير على عقلية وتفكير المجتمع الذى يمارس فيه هذا الاستخدام .

فبينما ينظر المجتمع الشرقى إلى العلاقات الجنسية على أنها وظيفة طبيعية وهامة كأى وظيفة من وظائف الجسم البشرى ، ينظر اليها المجتمع الغربى على أنها سلوك عادى من أنواع السلوك التى تبقى الحياة تتابع سيرها العادى ،

أو بمعنى آخر فان الرجل الغربى ينظر إلى الاتصال الجنسى على أنها متعة اضافية ، بينما ينظر اليها الرجل الشرقى على أنها متعة لازمة ضرورية .

وتلعب العاطفة دوراً كبيراً فى أعمال الجاسوسية ، بل تعد عملاً له خطورته . وغالباً ما تسبب مشكلات كثيرة لأجهزة المخابرات التى تستخدم هذا الأسلوب ، بل إن رئاسات الأجهزة لا يهدأ بالها حتى تنتهى مهمة العميلة سواء بالنجاح أو الفشل .

وبالرغم من ذلك فان الجنس استخدم فى أعمال الجاسوسية ، سواء فى الغرب أو الشرق ، ولكن بأشكال متباينة .

استخدام الجنس في أعلى المستويات :

ففى تاريخ الجاسوسية فى الغرب نذكر قصتين ، كانت بطلتاهما امرأتين استخدمتا العلاقات الجنسية فى أقوى صورها ، ومع أعلى المستويات .

وكانت القصة الأولى بطلتها « لويز دى كورياللى » ، عميلة لويس الرابع عشر ملك فرنسا ، وعشيقة شارل الثانى ملك انجلترا ، وهذا قد يجعلنا ننظر إلى استخدام العلاقات الجنسية على أنها عملية مجزية .

وقد نستطيع أن ندرك أهمية هذا الأسلوب من ادراك مدى الغيرة التى أثارتها لويز فى قلب منافستها « نيل جوين » على الفراش الملكى ، ففى أحد الأيام أرادت نيل أن تصحح خطأ جماهير الشعب فى لندن ، حينما أحدقوا بعربتها ظناً منهم أنها لويز ، اذ أخرجت رأسها من نافذة العربة وصاحت : « لست هى أيها الشعب الطيب !! اننى العشيقة البروتستانت !! .. اننى العشيقة الانجليزية !! .. » .

وقد نزلت لويز دى كورياللى بريطانيا لا لتتجسس ، بل لتحث شارل

ملك انجلترا على أن يبيع شعبه وملكه للملك الفرنسى ، وكذلك لتحثه على أن يتحول إلى الكثلكة .

وكان شارل غارقاً فى الديون منذ أن عرف الحياة ، ومع ذلك فإنه لم يعرف قيمة المال ، وكان ينظر إلى خزانة بريطانيا كأنها كيس نقود أرملة لا ينفذ . فوصل بالخزينة إلى حد الإفلاس .

وفى الوقت الذى أدرك فيه الملك حقيقة إسرافه ، ظهرت لويز دى كوريالى على مسرح الأحداث . كان لويس الرابع عشر زوج شقيقة شارل الثانى ، وكان يعرف موقفه المالى ، ولما كان المال متوفراً لدى لويس ، فقد ظن أن بإمكانه أن ينتفع بجزء مما يملك، ليحقق ما قد لا يستطيع أن يحققه بوسيلة أخرى .

ولهذا بعث بزوجته « هنريت» شقيقة شارل، سراً إلى إنجلترا لتعرض الأمر على شقيقها ، واصطحبت معها الآنسة دى كوريالى كوصيفة لها .

بينما كان شارل ينصت إلى كلمات شقيقته ، كانت عيناه تحدقان طويلاً فى الوصيفة الحسناء ، وكانت شقيقته تحدثه عن عرض لويس الذى يقترح فيه أن يدفع لشارل ثلاثة ملايين من الفرنكات .

وقبل أن تعود « هنريت » إلى فرنسا ، كانت الوصيفة الحسناء قد عرفت الطريق إلى الفراش الملكى وتأثر بها تأثيراً واضحاً ، وأخبر جواسيس لويس الرابع عشر ملكهم بما شاهدوه ، وبعد شهور قليلة عادت لويز دى كوريالى إلى لندن ثانية ، وكانت هذه المرة المبعوثة الرئيسية .

كانت التعليمات التى تلقتها واضحة ، فقد كان عليها أن تبذل غاية جهدها لتجعل شارل يتقبل ما عرضه عليه لويس الرابع عشر .

ولتحقيق ذلك استخدمت أنوثتها ونفوذها الطاغى حتى جعلت شارل لا يستطيع أن يرفض لها طلباً . كانت تطالبه باستمرار بالنقود، ولكنه لما كان

قد حرم من كل موارده الأولى ، فإنه اضطر إلى أن يوقع معاهدة دوفر السرية التى ضمنت له منحة مئوية مقدارها ثلاثة ملايين من الفرنكات ، مع وعد بمعاونة الجيش الفرنسى لو ثار عليه رعاياه الإنجليز ، وفى مقابل هذا كان على شارل الثانى أن ينسحب من الحلف الثلاثى ضد فرنسا ، وأن ينضم إلى لويس الرابع عشر فى حملة الأراضى الواطئة ، وبذلك حققت لويز دى كوريالى الشق الأول من مهمتها .

على أن الشق الثانى الخاص بتحويل شارل إلى الكثلكة كانت تتطلب وقتاً طويلاً ، ولم يكن هذا ليهمها ما دام الجزء الأكبر من الثلاثة ملايين فرنك يذهب إلى خزانتها وجيوشها ، وقد نجحت فيما بعد إلى تحويل شارل إلى الكثلكة .

وقد كرهها الإنجليز كرهاً مقيتاً بسبب كثلكتها وبسبب نفوذها الطاغى على الملك كما أنهم كانوا على يقين من أنها السبب فى عقد معاهدة دوفر .

وبالرغم من أنهم كانوا يسبونها فى كل مناسبة ، إلا أنه لم يكـــن فى استطاعتهم الإعتداء عليها طول حياة الملك ، وحينما مات الملك عادت إلى فرنسا وماتت فى باريس عام ١٩٣٤ فى الخامسة والثمانين من عمرها .

أما القصة الثانية فقد كان محركها « ولهلم ستيير » رئيس المخابرات الألمانية فى عهد بسمارك .

كان الجنرال « دى سيسى » الفرنسى ، قد أسر فى الحرب الألمانية الفرنسية ، ونظراً لمكانته فقد عومل معاملة لائقة ، ومنح مكاناً هادئاً لسكنه حيث وجد فيه الحسناء البارونة « دى كوالا » وسيلة للتسلية فى وحدة الأسر ، ولما انتهت الحرب أطلق سراح الجنرال دى سيسى ، وعاد إلى باريس حيث عين بعد قليل وزيراً للحربية . وفى عام ١٨٧٥ ، بدأت فرنسا تفكـــر فى الإنتقام بعد إعادة تنظيم القوات الفرنسية استعداداً لحملة ضد ألمانيا .

وعرف « ستيير » ذلك فاستدعى البارونة دى كوالا للقائــه ، وأوضح لها رغبته فى أن تجدد علاقاتها مع الجنرال دى سيسى ، وأفهمها أنها ستنال كسباً مادياً مقابل هذه الخدمة التى تؤديها له ، وكانت البارونة من المهارة لتدرك أن عرض ستيير الذى قدم لها فى صورة رجاء إنما هو أمر فرضخت له.

وفى أسابيع قليلة قدمت البارونة إلى باريس محملة بالمال واستأجرت طابقاً جميلاً ، ثم اتصلت بالوزير دى سيسى الذى سرعان ما وصل إلى منزلها ، واعتاد أن يسرع كل مساء بعد انتهاء عمله ليقضى بعض ساعات عندها .

وكان الرجل يصل إليها عادة مجهداً من عمله يشغله التفكير في الخطط والمشكلات التى تتطلب الحلول الصحيحة ،فكانت البارونة تستقبله بترحاب وتنزع عنه معطفه، وتضع قدميه على مقعد صغير، ثم تحضر له كأساً من الشراب وتجلس في مقعد عند موطىء قدميه وهى تمد يدها على جبينه الملتهب ، وعندئذ يقوم الرجل بمناقشة مشاكله ومشاكل فرنسا معها .

ولكن من سوء حظ العشيقين أن هيئة مكافحة التجسس في « المكتب الثانى» الفرنسى بحثت أمر البارونة واكتشفت مقابلاتها مع ستيير .

كانت هذه المقابلات كافية للشك فى أمرها ، ومنعاً لإثارة أى فضيحة لوزير الحربية أبعدت البارونة إلى بروسيا بسرعة ، ولكن المكتب الثاني فى الواقع كان بطيئاً فى عمله إذ إن البارونة كانت قد حققت نجاحاً كبيراً قبل إبعادها ، وكانت قد أرسلت « لستيير » بكل ما يحتاجه من معلومات .

إستخدام الألمان للجنس زمن الحرب :

واستخدم الألمان الجنس فى الحرب العالمية الثانية داخل معسكرات أسرى الحرب مستغلين الظروف القاسية التى يعيشها الأسرى ، والحرمان الجنسى

الذي يعانونه للسيطرة عليهم وتحويلهم إلى عملاء .

كان هناك كوخ صغير خارج معسكر أسرى الحرب في « لامدروف » بسيليزيا حيث كان يعيش فيه بين أناس كثيرين رجلان كنديان أحدهما يسمى « أدوين مارتن » والثاني يدعى « جون جالاهر » ، وكان هذان الشخصان من أسرى الحرب ، كما ضم الكوخ إنجليزياً يدعى « جون هوايت » كان قد تم أسره في دنكرك .

وتصادف أن أرسل هوايت خارج المعسكر للعمل فى نشر الأخشاب فى منطقة ريفية ، ولم يكن فى هذا العمل أى مثـــار للدهشة ، إذ إنه طبقاً لاتفاقيات جنيف يسمح باستخدام أسرى الحرب عدا الضباط فى أية أعمال يدوية ، بشرط ألا يكون العمل فى مصانع الذخيرة أو صناعات الحرب .

وفى أحد الأيام جاءت لهوايت فتاة ألمانية اسمها « مارتا » وهى إبنة عامل فى المنطقة ، وبدأت تستثيره ثم عرضت عليه نفسها وبعد مقاومة رضخ هوايت .

ولم تمض ساعات قليلة حتى كان هوايت يقف أمام ضابط المخابرات الألمانى ، الذى أخبره بأنه طبقاً للقانون الذى أصدره هتلر فى بداية الحرب، فمن الممكن إعدامه رمياً بالرصاص للجريمة التى ارتكبها مع فتاة ألمانية، ولكن من الممكن إعفاءه من هذه الجريمة لو وافق على أن يكون عميلاً للألمان وذلك عن طريق القيام بسؤال الأسرى الوافدين عن حقيقة الأحوال فى بريطانيا ، وكذا معرفة معلومات معينة عن الوحدات التى تقاتل ، ثم عليه أن ينقل هذه المعلومات بعد ذلك للألمان .

ولا شك أن هوايت لم يكن تواقاً للموت ، ومن ثم فقد وافق على خدمة الألمان ، فنقل بعد ذلك إلى منزل فى قرية مجاورة حيث عاش مع « ستشابر » ضابط المخابرات الألمانى فى غرفة واحدة ،وعندما أمسى الليل ودلف كل منهما

إلى فراشه ، جاءت مارتا وأرادت أن ترقد مع هوايت فى فراشه ، ولكنه كان قد تعلم درساً مما حدث له ، ولما رفض رقدت الفتاة مع ستشابر فى فراش واحد على مرأى منه ، واستمر المصباح مضاءاً طوال الليل .

وفى الصباح التالي جاءت مارتا ومعها فتاة أخرى ، ومع أن هوايت أفلح فى إبعاد مارتا عنه ، إلا أنه أرغم على البقاء ليشهد ما يدور بين ضابط المخابرات والفتاة الأخرى على مرأى منه .

وأعيد هوايت إلى الكوخ الذى كان يقيم فيه مارتن وجالاهر ، وقص هوايت على زميليه كل ما حدث ولاماه لتمنعه حينما سنحت له الفرصة ، ثم راحا بتشجيع ضابط المخابرات يسخران من هوايت ، وكان الألمان قد درسا الرجلين وأدركا مدى حاجة جالاهر إلى النساء .

ولم يتردد مارتن عندما عرض عليه الأمر أن يوافق بدوره وهكذا تورط الرجال الثلاثة فى خيانة وطنهم من أجـــل العلاقات الجنسية ، ولكنهم أدركوا فيما بعد أنه من الضرورى أن يخوضوا هذه العلاقات التى تقودهم من سيء إلى أسوأ .

وبالرغم من أن هوايت قد انزلقت به قدمه أثر ارتكابه للجريمة مرة واحدة ، إلا أنه دفع ثمن ذلك عشر سنوات في السجن ، ثم اطلق سراحه فيما بعد وأعفى من باقى مدة السجن ، أما جالاهر فقد حكمت عليه محكمة كندية بالسجن مدى الحياة ، أما مارتن فكان نصيبه السجن لخمسة وعشرين عاماً .

المنزل الأخضر :

وثمة صورة أخرى فى استخدام الجنس حينما أقام ولهلهم شتيير البروسى ، الذى كان يوماً ما فى ذروة حياته رئيساً للمخابرات البروسية مؤسسة فى

برلين عرفت باسم « المنزل الأخضر » ، حيث يتيسر ممارسة كل نوع من أنواع الإتصال الجنسى ، وحينما كان يريد أن يرغم رجلاً ذا مركز كبيرفى الحكومة ، أو له أهمية فى المجتمع ليكون كآلة لمخابراته ، فإنه يدعوه إلى البيت الأخضر ، فإذا كان الرجل تواقاً إلى هذه الإتصالات يقدم له كل ما يريد ، وكل ما تصبو إليه نفسه ، ثم تستغل هذه الإتصالات لتهديده مستقبلاً وإرغامه على تنفيذ كل ما يطلب منه ، فإذا كان الرجل عزوفاً عن هذا ، استخدم شتيير دهاءه ، وانتفع بالمخدرات والخمر ليصل إلى نفس النتائج ومن ثم تنزلق قدم الرجل .

صالة الملذات والسرور :

ونقل اليابانيون إمكانيات البيت الأخضر ، ونفذوا هذا المشروع فى ضوء احتياجاتهم الخاصة، فانشأوا مثل هذه المؤسسة فى « هاتكو » بالصين، وأطلقوا عليها أسماء أكثر رومانتيكية ، إذ كانوا يسمونه « صالة الملذات والسرور » .

كان الهدف من إقامة هذه الصالة ، هو الحصول على معلومات عن طريق الإغتصاب والتهديد للنبلاء الصينيين ، كما لتكون مقراً يجتمع فيه الذين يعملون فى « سنكياج » وأواسط آسيا الروسية .

فإذا ما أراد العملاء تسليم تقاريرهم ، كانوا يتوجهون إلى هذا المنزل حيث يتخيرون امرأة من نساء الدار ، فإذا ما اختلى بها فى غرفتها سلمها التقرير .

والواقع أن الإتصالات الجنسية والمخدرات كانتا السلاحين الأساسين اللذين استخدمهما اليابانيون فى عملياتهم الجاسوسية فى الأراض الأسيوية ، وقد استطاعوا عن هذا الطريق تحطيم معنويات الناس ، إلى حد أن البناء

الإجتماعى للصين كان ينهار بسرعة، وبالإضافة إلى هذه الوسائل استخدموا الرشوة بشكل واسع .

خطورة المرأة التي تلهيها أنوثتها

على أن استخدام النساء كعميلات غالباً ما يحتوى على كثير من المخاطر، وخاصة إذا كانت من تعمل فى الجاسوسية تهمها أنوثتها أكثر من عملها كمحترفة للجاسوسية ، فإن هذا النوع من النساء غالباً ما ينسين مهمتهن إذا اتصل الأمر بعواطفهن القلبية .

وخير مثال لذلك هى الجاسوسة « سبيل ديلكور » التى أمسك بها طاقم من رجال المخابرات الأمريكية عند كولون فى ليلة ١٣ من مارس عام ١٩٤٥ .

كانت قد عبرت نهر الرين سباحة إلى الجانب الأمريكى عند « مولهيم » وادعت فى الإستجواب أن اسمها « هلواز بوكرتفيل » وأنها نقلت من موطنها فى بريتانى بفرنسا إلى ألمانيا للعمل بها عام ١٩٤٢ ، كما ادعت أنها قامت بأكثر من محاولة للوصول إلى الخطوط الأمريكية حتى نجحت هذه المرة ، وطلبت نقلها إلى أسرتها فى فرنسا .

واستمر استجوابها وهى تنكر حقيقتها ، وعجز المستجوبون عن اكتشاف حقيقتها بالرغم من أنه كان فى ملفاتهم معلومات عنها وصور قديمة .

ولذلك كان من الصعب التعرف عليها ، وكان معروفاً أن « سبيل » عشيقة « فيرز كرامر » كبير ضباط المخابرات لفرق الصاعقة . وكان هتلر قد منحه وساماً لنجاحه فى اختطاف الكثيرين عبر خطوط الحلفاء ، وفى أثناء استجواب الفتاة ، كان يشك أحد ضباط المخابرات فى أن هلواز ما هى إلا « سبيل » وأنه يمكنه بواسطتها اقتناص عشيقها كرامر .

وانتهى المستجوبون إلى أنه لا حيلة مع هذه المرأة الصغيرة السن العنيدة الهادئة ، وفشلت كل محاولاتهم سواء بالرشوة أو الإغراء أو التهديد ، إذ بقيت الفتاة تصر على أنها « هلواز بوكر تفيل » .

ولكنها وقعت أخيراً في الشرك نتيجة حيلة من أحد ضباط المخابرات الذين يتحدثون الألمانية بطلاقة ، وذلك حينما وصمها بأنها لا تعدو أن تكون عميلة من عميلات « فيرزكرامر » .

وبدون وعي صاحت :

« أنا لست عميلة ... إن كرامر يحبني ! ! » .

وحينئذ خاطبها ضابط المخابرات :

« إذن فأنت سبيل ديلكور ... هذا ملفك عندنا » .

وعندئذ أحست بأنها وقعت في الفخ فردّت في هدوء : « إذن لقد سقطت في الفخ .. على أية حال متى يمكن أن أواجه جماعة الإعدام ... إنني على استعداد للموت فلقد كنت أعرف دائماً أن هناك فرصة واحدة للنهاية إثر الفشل » .

ربما كانت شخصية سبيل ، بقدر ما ساعدتها في عملها . كانت سبباً في وقوعها في الفخ ، فقد كشف سجلها عن انفصام في شخصيتها ، إذ كانت بجانب اتصافها بهدوء الأعصاب والتقدير السليم فإنها كانت مؤججة العاطفة كاملة الأنوثة ، ولكنها كانت تعرف كيف تسيطر على نفسها في الوقت الذي كانت فيه مستعدة لارتكاب جناية قتل لو أثيرت بشكل معين .

الحاضنات

وهناك نوع من العميلات يطلق عليهن في حرفة المخابرات إصطلاح « الحاضنات » ، وهؤلاء قد يبقين منتظرات شهوراً بل ربما سنوات بلا عمل

انتظاراً للخطة الحاسمة ، فإذا ما سنحت الفرصة يقمن فجأة لتنفيذ خطة جيدة الاعداد صالحة للتنفيذ .

العميلات المغامرات اللاتي تستهويهن الشهرة والمال

وغالباً ما تكون شخصية النساء اللاتى تستهويهن أعمال التجسس من هذا النوع الذى تستثيرهن روح المغامرة وحب المال والشهرة ولا يهتممن بحياة الأسرة الوادعة والاستقرار، بل لا يتورعن عن ارتكاب أية جريمة ما دام ذلك يحقق أهدافهن .

ففى قصة الكونتيسة « مارجريت داندريان » نجد أنه لا يوجد سوى القليل من الجاسوسات فى القرن العشرين لهن سجل أكثر سواداً من سجل الكونتيسة .

كانت امرأة لا تعرف الخوف ، سريعة البديهة ، لا ضمير لها فضلاً عن أنها لا تعرف أي معنى لكلمة الرحمة ، وإذا عشقت شخصاً فعلاً ، فلن يكون الشخص سوى نفسها . .

وقد قيل إن مارجريت أسرّت لعشيق لها قائلة « إننى عصبية أكثر مما يجب وأنفعل لأية إثارة ولا أصلح أن أكون مجرمة عاتية ، إذ إننى أشعر بالسأم بسهولة من جراء التفاهات التى يتسلى بها الآخرون من الناس، فلا أشبع نهمى إلا بمشاهدة رجل يموت تدريجياً ، ولا أجد سلوى حقيقية إلا فى التغلب على الآخرين » .

وفى عام ١٩١٤ كانت الكونتيسة وزوجها يجوبان شمال أفريقيا ، ووجدا فى مصر حينما نشبت الحرب العالمية الأولى . وفى غضون عام قدمت الكونتيسة وزوجها فى حفل استقبال دبلوماسى فى القاهرة إلى ضابط مخابرات انجليزي دمث الخلق اسمه « ت . لورانس » أو « لورانس العرب » كما عرف بذلك فيما بعد .

ولا يمكن ذكر مدى التحريات التى أجراها لورانس عن الكونتيسة وزوجها لأنهما كانا فرنسيين ، فلا بد وأنه اعتبرهما حليفين طبيعيين. وفى أثناء ثالث مقابلة للورانس مع مارجريت انتحى بها جانباً ، وفى فندق شبرد سألها عما إذا كانت تريد العمل معه ، وحذرها من مخاطر الجاسوسية ، وقال أنه ستصادفها بدون شك ظروف قد تضطرها إلى الإنفصال عن زوجها ، ثم عقب فى النهاية قائلاً لها : « وجزاؤك الوحيد هو شعورك بأنك تقدمين خدمات لبلادك ولبريطانيا » .

وكانت إجابة مارجريت عبارة عن صدى لرغبتها فى الأيام السابقة قبل أن تصبح زوجة للكونت داندريان. وسألت: لقد أحببت الإثارة طول حياتى ، كنت أشعر مؤخراً بالسأم والملل من حياتي وربما اقتراحك ما أحس بأنه ينقصنى ، فماذا تريد منى القيام به ؟

وأعطى لورانس لها مهمتها وهى التعرف على كبار المصريين وكذا تنمية صداقاتها بهم والاستحواز على ثقتهم ، حتى تستطيع أن تعرف أي معلومات عن نشاطهم المناوىء لبريطانيا .

وقد تمخض نشاط مارجريت عن نتائج ، فقد أدى نشاطها وعلاقتها مع بعض الزعماء المصريين إلى أحداث جسيمة ، ابتدأت باقتحام العملاء البريطانيين والشرطة المصرية التي كانت تحت إشراف الإنجليز فى شهر مايو عام ١٩١٦ فيلا فى أطراف بور سعيد ، وعثروا بها على مستودع ضخم من الأسلحة ووثائق خاصة بمنظمة سرية،منها خطة لسد قناة السويس فى نقط استراتيجية ، وكان هذا الحادث لطمة قوية لآمال الوطنيين المصريين ، وانتهى بنفى سعد زغلول واثنين من أصحابه إلى جزيرة مالطة .

ولعبت الرقابة على الصحف . فمنعت نشر أى خبر عن اتهام الكونتيسة بتوصيل المعلومات إلى السلطات البريطانية ، وصدر أمر بمنع ذكر اسم الكونتيسة وذلك لأسباب تتعلق بالأمن العام .

وفى عام ١٩١٧ أرسل لورانس الكونتيسة إلى الجزيرة العربية ، وقد نجحت الكونتيسة في مهمتها السياسية إلى حد كبير ، ولكنها لم توفق إلى النهاية .

وفى عام ١٩٣٢ سأمت الكونتيسة زوجها ، فطلقته بعد أن اعتنقت الدين الإسلامي وتزوجت وهى فى سن السابعة والثلاثين عربياً يدعى بن سليمان يصغرها بعشر سنوات .

وقد دفعت فى سبيل ذلك ثلاثين ألف فرنك فرنسى وكان هدفها أن تتمكن من الحج إلى مكة . إذ كانت تحمل فى نفسها الرغبة فى حاجتها إلى إثارات جديدة .

ولكن القدر لم يحقق لها النجاح فى هذه المرة ، فقد احتجزت فى السجن هى وزوجها بمجرد وصولهما، وأصيب زوجها العربى بمرض خطير فى السجن وأخذ يتلوى من الألم ، وفى النهاية مات أثر نوبة من النوبات ، ويقال أنه قتل بالسم .

وقدمت مارجريت للمحاكمة أمام محكمة قبلية ، واستمع القضاء فى صمت لأقوالها حيث ذكرت أنها مخلصة فى اعتناقها الدين الإسلامى ، إلا أن المحكمة لم تقتنع فاتهمت « النجسة » بدس السم لزوجها ، وبأن جريمة غريبة بشعة قد ارتكبت ضد واحد من أبناء عقيدتهم ، وأصدرت المحكمة الحكم على مارجريت برجمها بالأحجار حتى الموت . ولكنها أفلتت من هذا المصير إذ نجحت فى الإتصال بالقنصل الفرنسى الذى توسط لدى السلطات للإفراج عنها .

ولكن بالرغم من ذلك فقد قاست صاحبة المغامرات ساعات أليمة طويلة قبل أن تخرج من سجنها فى الجبال .

واستمرت الكونتيسة فى مغامراتها فى الحرب العالمية الثانية ، تارة تعمل مع النازى وتارة أخرى تعرض خدماتها على المخابرات البريطانية والفرنسية. بل حاولت أن تتصل بالروس فاستقلت يختاً تملكه متجهة نحو البحر الأسود .

وفى طريقها إلى الروس رسا اليخت « جيلان » الذي كانت تستقله فى خليج طنجة، وبعد ثلاثة أيام عثر على جثتها وقد لفظتها الأمواج إلى الساحل مع ما لفظته مياه المحيط من بقايا وحطام ، وبذلك انتهت حياة شخصية من أقدر الجاسوسيات .

وقد يكون من المناسب أن نذكر ما كتبه ابنها « جاك داندريان » الصحفى عن أمه ، والذى كان لا يحس إلا بقدر ضئيل من العطف تجاه المرأة التى طالما أهملته للبحث عن مغامراتها وحوادثها المثيرة .

لقد كتب قصصاً مثيرة للغاية عن حياة أمه، ولم يتردد فى جذب الانتباه إلى حقيقة هامة ، وهى إنها اشتركت فى اثنين وعشرين جريمة عجز البوليس عجزاً تاماً عن اثباتها .

وكان ابن مارجريت هو الذى سماها : « أعظم عقلية إجرامية فى زمانها » .

مآساة بيرل هاربور

واستخدم الألمان أيضاً فى الحرب العالمية الثانية عديداً من النساء الخائنات لدولهم المحتلة كعميلات ، ومن أولئك النساء فتاة تدعى « روث كوهين» كان لها دور بارز فى مأساة بيرل هاربور .

وبالرغم من أن هذه الفتاة لم تستخدم أنوثتها كسلاح فى أعمال التجسس، إلا أنها أصبحت محظية الدكتور جوبلز الذى كان يتميز بعواطف جامحة .

وحينما أراد أن يتخلص من ثقل عبء روث كمحظية ، وكذا من شعوره بالحرج أمام الفوهرر ، دبر لعائلة كوهين فرصة الرحيل إلى هاواى .

وفى هذا الوقت كان قد سمع بأن اليابانيين طلبوا من الجنرال هوز هوفر صاحب نظرية الجيوبوليتكس ، أن يرسل عدداً من الألمان ليعلموا كجواسيس لهم فى الجزر الواقعة تحت سيطرة الأمريكيين فى الباسفيك .

وعرض جوبلز عائلة كوهين على هوز هوفر ، فرحب بالفكرة ، وهكذا نزل آل كوهين جميعاً على ساحل هاواى ، باستثناء الإبن الأكبر ليوبولد الذى كان سكرتيراً خاصاً لجوبلز .

واتخذت العائلة ستاراً بأن زعم الدكتور كوهين اهتمامه باللغة اليابانية وبالتاريخ القديم لجزر هاواى . كما اتخذت العائلة مظهر الأسرة الشيتوتونية المثالية التى يعيش أفرادها على وفاق تام .

وبالرغم من التجارب القاسية التى تلقتها على أيدى جوبلز ، فقد كانت روث تتميز بمظهر جذاب يأخذ الألباب . وكانت تهوى السباحة ولعب كرة اليد كما كانت تجيد الرقص .

وسرعان ما أصبحت تتلقى الدعوة إلى كل حفلة اجتماعية ، وأدى معظم هذه الحفلات إلى اتصالها بضباط البحرية الأمريكية ، الذين كانوا يشعرون برغبة جامحة لمصاحبة النساء لغيابهم عن وطنهم .

وكانت هذه الصلات سبباً فى حصولها على معلومات بالغة الأهمية أفضى بها — دون قصد — كل من كان يسعى للتقرب إليها . وفى أوائل عام ١٩٣٩ انتقل آل كوهين من هونولولو إلى بيرل هاربور حيث كان الجو أقرب إلى الهدوء ، وحيث افتتحت روث « صالوناً للتجميل » لزوجات ضباط البحرية الأمريكية ، وكانت هذه المغامرة الجديدة بمثابة تحديد لاتساع نطاق الجاسوسية اليابانية فى جنوب الباسفيك .

وسرعان ما حقق الصالون نجاحاً ملحوظاً سواء من ناحية العمل ، أو كمصدر للمعلومات التى كانت تحصل عليها من ثرثرة زوجات ضباط البحرية .

وكانت مهمة آل كوهين هى تزويد اليابانيين بمعلومات دقيقة عن عدد القوات البحرية التابعة للولايات المتحدة فى الباسفيك ، وعن مواقعها بالضبط ،

وكذا مواعيد وصولها إلى أى مكان ، أو رحيلها منه ، وخاصة ما يتعلق ببيرل هاربور .

وأعدوا لذلك شفرة بسيطة ونظام إشارات ضوئية ، يستطيعون بواسطته نقل معلوماتهم من نافذة عليا فى منزل صغير ، استؤجر فوق ميناء بيرل هابور فى مواجهة أحد عملاء اليابان .

وتمت أول تجربة لهذا النظام فى الثانى من ديسمبر عام ١٩٤١ حيث حقق نجاحاً تاماً . وجاء أوكيدو قنصل اليابان فى هونولولو إلى بيرل هاربور بنفسه، وقد تمكن من أن ينقل إلى مخابرات البحرية اليابانية بواسطة اللاسلكى جميع مواقع السفن الحربية الأمريكية فى ميناء جزر هاواى .

وحينما كان آل كوهين يراقبون ميناء بيرل هاربور ، وهى تمتلىء بالسفن خلال الأيام القليلة التالية ، كانوا يجدون صعوبة كبيرة فى الاحتفاظ بمشاعرهم التى كانت تفيض حماساً .

واستطاع قائد البحرية اليابانية أن يقدم لرؤسائه تهنئة بحظهم السعيد .

وحينما كانت موجات قاذفات القنابـــل اليابانية تهاجم بيرل هاربور صباح ٧ من ديسمبر ، كان آل كوهين فى نافذتهم العليا يستطيعون مشاهدة السفن الأمريكية الضخمة فى مراسيها . وأثناء سير المعركة كانوا يرسلون إشارات ضوئية تدل على نجاح قاذفات القنابل أو إخفاقها .

وبينما كانوا يؤدون مهمتهم هذه فاجأهم ضابط من المخابرات الأمريكية .

وقدم آل كوهين فى النهاية إلى المحاكمة ، حيث حكم على رب العائلة بالإعدام ، ولكنه أنقذ حياته ، حين أدلى بكل ما يعلم إلى الأمريكيين ، وحكم على زوجته وابنته روث بالسجن .

ومن هذه القصة يبرز درس هام ، وهو أن امرأة تضطلع بمسئولية القيام بمثل هذا العمل لم يعد شيئاً خيالياً .

وحقيقة فإن الجنس لعب دوراً هاماً فى جهود هتلر للحرب ، ونجحت العلاقات الجنسية إلى حد بعيد يثير الدهشة .

ولكن يا ترى هل سيكون لأولئك النساء دور فى الحرب القادمة التى ستقوم على أساس الضغط على أزرار خفية ، فتنطلق أثرها صواريخ مدمرة تودى بالبشرية والحياة .

إننا نعتقد أن هذا السلاح الرهيب وهو استخدام الجنس لن يكون له مكان فى حرب نووية ، ولكن من جهة أخرى لن تتوانى الدول فى استخدامهن وقت السلم وفى فترة الحرب الباردة أو الحروب المحلية .

مخاطر استخدام السكرتيرات

وفى قصة « أرمجارد شميدت » عميلة « إرنست فولفيير » رئيس خدمة الجاسوسية فى ألمانيا الشرقية دروس قيمة ، وخاصة بالنسبة لاستخدام السكرتيرات دون التحرى الدقيق ، وكذا بالنسبة لتعرض المعلومات للتسرب نتيجة تورط افراد المخابرات فى علاقات عاطفية مع عميلات يعملن لحساب منظمة معادية .

ففى شهر مايو من عام ١٩٥٣ دخلت « أرمجارد شميدت » رئاسة المخابرات الأمريكية فى برلين مدفوعة من « فولفيير » ، ونجحت فى التغلغل فى جهاز المخابرات الأمريكية بلباقتها وذكائها وأنوثتها ، واستطاعت أن تحصل على وظيفة سكرتيرة خاصة للمقدم « ويلبور ريتشارد» رئيس مركز المخابرات الأمريكى .

وفى أحد الأيام لاحظت على رئيسها علامات الكآبة والحزن والاضطراب ، وبغريزة المرأة التى لا تخطىء عرفت السبب وأيقنت أن لحظتها الكبرى قد حانت .

ومثلت أمامه قصة مأساة فتاة ضائعة تمثيلاً بارعاً، وأخذت تنتحب مخفية رأسها بين يديها ، فنهض « ريتشارد » من على مكتبه واحتضنها ، وربت على شعرها فرفعت شفتيها إلى شفتيه .

وبالرغم من أن الرجل كان من النوع الذى يكرس حياته لعمله وأسرته ، فقد استطاعت أن توقعه فى الفخ باستخدامها لعبة القط والفأر معه لمدة أسابيع عديدة .

وحينما شعرت « أرمجارد » بأنها مثلت دور المرأة الفاضلة فترة كافية لإقناع رئيسها بخلقها القويم ، منحته نفسها فى خجل وتردد ، وحينما نهضت بعد ذلك من فراشها أحست أنها تشع بنور أنوثتها عليه .

وبذلك استطاعت « أرمجارد » أن تزرع نفسها وترسل إلى « فولفيير » كثيراً من المعلومات، لدرجةأن رئاسة المخابرات المركزية أحست بتسرب كثير من المعلومات من مركز المخابرات الأمريكية فى برلين إلى ألمانيا الشرقية . وقد اعتمدت فى تقديرها لأسباب هذا التسرب على الشك فى استخدام أى شخص من ألمانيا الشرقية ، ولا سيما إذا كان هذا الشخص له علاقات سابقة مع الشيوعيين .

وقد صحت تقديرات المخابرات الأمريكية إذ انتهت هذه القصة بالقبض على « أرمجارد شميدت » ، وحوكمت فى ٣٠ من ديسمبر عام ١٩٥٤ أمام المحكمة العليا فى برلين وثبت عليها تهمة توصيل معلومات عسكرية إلى السوفييت ولمنطقة « فولفيير » فى برلين الشرقية ، وحكم عليها بالسجن خمس سنوات .

نشاط فولفيير فى القطاعين الانجليزى والأمريكى بألمانيا

على أن فولفيبر استخدم وسائل عديدة فى هذا المجال ، فقد أنشأ فى

« فيلمرزدروف » فى القطاع الإنجليزى وفى جوار القطاع الأمريكى مباشرة ، داراً للمتعة تحت إشراف عميلة حسناء تبلغ الخامسة والأربعين من عمرها اسمها « فراو جيزيل» . وسرعان ما صار منزل مدام جيزيل مكاناً ذا شهرة كبيرة في أوروبا بأكملها ، كان يحوى هذا المنزل عشرات الفتيات من مختلف شعوب أوروبا ، فمنهن الألمانية والنمساوية والسويدية والفرنسية ويتشابهن كلهن فى الجمال الأخاذ الذى يمكن ابتياعه بالمال .

وكانت مدام جيزيل نفسها سيدة خبيرة بالمتعة فى غرف النوم،ومن ثم فقد درّبت فتياتها على كل الوسائل الجنسية التى تستهوى الرجال ، والتى تجتذبهم ، كما علمتهم كيف يستخلصن بذكاء كل المعلومات من الرجال الذين يقعون فى الفخ .

وكان منزل مدام جيزيل من وجهة نظر فولفيير مدرسة لإعداد الفتيات للقيام بمهام داخل نطاق شبكة الشرطة السرية لألمانيا الشرقية .

وكان فولفيير هو الذى يقدر مدى نجاح العميلة فى عملها ، فعندما تقرر مدام جيزيل أن إحدى فتياتها قد أصبحت صالحة وأعدت للعمل كعميلة، فإنها تقدمها للهرفردريك شميدت على أنه أحد كبار حكومة بون ويمكن استخلاص معلومات منه .

ولم يكن الهر فردريك شميدت سوى فولفيير نفسه الذى يقضى الليلة عند مدام جيزيل لاختبار كفاية الفتاة ، فإذا ما أثبتت الفتاة نجاحها أخذها معه إلى فيلته ، فى « لهينتز » لتتلقى تدريباً أهم .

ولكن إذا لم تحقق الفتاة المستوى الذى يطلبه ، فإنه يدفع لها أجرها كأى عميل عادى ، وعندئذ تستخدمها مدام جيزيل لأيام فقط ثم تفصلها من العمل على أساس أن العملاء يطلبون وجهاً جديداً .

وبعد أن تستكمل الفتيات تدريبهن فى فيلا لهينتز ، فإنهن ينغمرن فى

خضم العملاء السريين للشرطة السرية .

وقد نجح فولفيير فى أن ينشىء مركز تصنت للشرطة السرية لألمانيا الشرقية فى فندق « همز » ببون ، وكان يدير هذا الفندق تابعة له تدعى « شارلوت ولبروخ » ، وهى أرملة فى الخامسة والستين من عمرها ، وكان يرتاد الفندق سفراء ومبعوثون سياسيون من أمم مختلفة .

ولمدة ثلاثة أسابيع فى أوائل عام ١٩٥٢ ، كان العملاء يشعرون بالضيق لأن فندقهم المفضل كان مغلقاً للإصلاحات والتجديد . وفى هذه الأسابيع الثلاثة بتوجيه من فولفيير انتزع عملاء من ألمانيا الشرقية أرضيات كل الغرف ، ووضعت أرضيات جديدة بها ميكروفونات حساسة ، لأن فولفيير لا يغامر بوضع هذه المعدات فى جدران أو فى أثاث الغرف ، وكانت الأسلاك تتجمع كلها فى غرفة تحت سقف المنزل حيث توجد أجهزة تسجيل متصلة بهذه الميكروفونات لتسجيل أى محادثة حال وقوعها .

وفى أثناء النهار ينصت عملاء البوليس السرى لألمانيا الشرقية ، ولكن أثناء الليل يحدث التسجيل طبقاً لنظام آخر ، ذلك أن العمل ليلاً يكون وقفاً على الإنصات لما يجرى فى غرفة خاصة معينة .

ولم يكن فولفيير يجازف بأن يرسل إلى بون بأكثر من عميلة واحدة من فتياته الحسان وهو يبعثها بأوراق مزورة كسائحة ، وتذهب الحسناء للإقامة فى فندق همز ، ثم تبدأ محاولاتها لاصطياد الضحية كما حددها فولفيير .

وكان على الحسناء أن تقتاد الرجل إلى غرفتها ، أو أن تذهب معه إلى غرفته ، فالأمر سيان ، إذ إن كل الغرف تتصل بأجهزة الإنصات .

والعميلة لا ترسل أى رسائل إلى فولفيير ، فإن ذلك يقوم به العملاء الذين يقيمون فى غرفة التسجيل ، والذين يرسلون بكل أشرطة التسجيل إلى مكتبه ببرلين الشرقية .

ولقد استطاعت منظمة جيلين فى المانيا الغربية أن تقضى على عملاء فولفيير ، واكتشفت سر فندق همز مما جعل فولفيير يثور ويعلن أنه وضع ٢٥٠ ألف دولار ثمناً لرأس الليفتنانت جنرال جيلين رئيس مخابرات ألمانيا الغربية .

ورد جيلين على ذلك متحدياً بأنه وضع مليون دولار ثمناً لرأس فولفيير .

إن الطابع البارز فى أعمال ارنست فولفيير هو أن « الغاية تبرر الوسيلة » ، وأنه يجب العمل بكل وسيلة للحصول على المعلومات ولو بالانتفاع بالضعف البشرى إزاء الحسناوات من فتيات الهوى ، كذا تدريب أولئك الفتيات على استخدام العلاقات الجنسية كوسيلة لحل عقدة الألسنة التى يعقلهـا أصحابها فى حياتهم العادية ، ولكنهم لا يملكون أى سيطرة على ألسنتهم فى الضوء الخافت بإزاء الفراش الوثير الذى يحوى جسد امرأة لعوب .

التهديد والجنس

وقد يصحب استخدام الجنس أعمال التهديد ، فقد استغل رجال وزارة الأمن فى موسكو فتاة حسناء اسمها « تانيا افسيفتش » لا يتجاوز عمرها العشرين عاماً ، وهددت بأن والديها سيعدمان لاتهامهما بعدائهما للدولة ، ما لم تنفذ ما يطلب منها .

وتحت ضغط التهديد قبلت تانيا ، وأرسلت إلى مدرسة الحسناوات التابعة لشرطة أمن الدولة فى فيلا صغيرة مريحة فى جزء منعزل فى حديقة اسمها « بلوتو » ، حيث دربت على استخدام جسمها الجميل كسلاح للحصول على أية معلومات سياسية أو عسكرية أو تجارية يمكن أن تعاون قضية السوفييت .

ودربت على كيفية السلوك مع أكثر الرجال تزمتاً وصمتاً ، وكيف تتصيد هؤلاء الرجال من منتديات الليل الخاصة بالأجانب ... وكيف تنتقل من مأدبة العشاء إلى الفراش .

ومع أن تانيا كانت بريئة النفس نقية عنى أبواها بتربيتها ، فقد دربت على الحيل التى يمكن بها اقتناص الرجال وفتح الشفاه المغلقة ، ودربت على كل فنون الحب المحرمة ، وبعد ثلاثة شهور كانت معدة للقيام بأول مهمة لها .

كان الرجل الذى وجهت لاصطياده شاباً صغير السن جميل الوجه يعمل ملحقاً عسكرياً فى إحدى سفارات الغرب ، وكان قد عمل قائداً لسرية دبابات فى الحرب الكورية ، وكان من المتواتر أن هذه السرية مزودة بأحدث أنواع الدبابات التى صنعتها بلاد العالم الحر ، كما أنه كان من الشائع أن الأجهزة التى كانت فى مدافع هذه الدبابات كانت من نوع يفوق ما لدى الجيش الأحمر ، وكانت هذه الأجهزة هى التى وجهت « تانيا » للحصول على معلومات عنها .

كان الإتصال بالشاب اليافع أيسر مما توقعت ، فقد تصادف أن اصطدمت به فى بهو الفندق الذى يقيم فيه ، وكانت هذه الفرصة هى التى مهدت له لدعوتها للعشاء ثم التوجه إلى المكان الذى يقيم فيه بالفندق .

كان كل ما يعنى الشاب أن يحتويها بين ذراعيه . وشعرت وهى بين أحضانه بقلق عصبي بتفكيرها فى الوسيلة التى تسأله بها عن مدافع الدبابات فى سريته.

ولكنها لم تكن فى حاجة لهذا ، فبعد أن قضى بعض الوقت فى الفراش ، راح الشاب يتحدث عن نفسه ... عن الحرب ... عن الدبابات التى كان يتولى قيادتها .

وجاءت المعلومات التى تطلبها وحدها ، وحينما قصت على الكولونيل « توبلحين » كل ما وعته من أحاديث الشاب اليافع ، تمكن الكولونيل من جمع النقاط من هنا وهناك ليحصل على كل ما يريد معرفته .

على أن « تانيا » كانت قد حصلت بدورها على كل ما يذهب الشكوك عمن تعمل على تصيدهم ... ذلك لأنها كانت عذراء حتى ليلتها الأولى هذه .

وكانت مهمتها الثانية أعقد ، فقد وجهت للحصول على معلومات من أمريكى من رجال الأعمال يزور موسكو لعقد صفقات تجارية ، وكان الرجل قد زار موسكو وعدداً من البلاد ، وقيل أن هناك اتفاقيات أو اتفاقات تجارية بين هذه البلاد وبين الولايات المتحدة ، وكانت حكومة موسكو تواقة لأن تعرف فحوى هذه الإتفاقات .

ولبعض الوقت ظنت الفتاة أنها تخطو للأمام وئيداً ، وبدأت تستعمل كل ما أوتيت من ذكاء ، ولكنها كانت فى الواقع تواجه رجلاً صلب الرأس وليس شاباً مراهقاً وحينما بدأت تضغط على الرجل ، وثب من الفراش نحو ملابسه وهو يصيح : —

« لقد فقدت الصواب أيتها الفتاة ! لقد كنت أجد فيك شيئاً غامضاً منذ أول لحظة ... لست أدرى لماذا تفعلين هذا ولحساب من ؟ وإن كنت استطيع أن أفكر قليلاً فيمن يحتمل أن يكونوا وراءك ... انصتى لى جيداً ، لقد كنت أستطيع أن أقدم لك معلومات كاذبة ومضللة ، ولكن هــذه ولا شك تسبب لك بعض المتاعب ، ولهذا اذهبى إلى أولئك الذين دفعوك وأخطريهم بأنهم قد أساءوا الظن فى كفاية الرجل الذى بعثوك لاصطياده » .

وأكمل الرجل ارتداء ثيابه ... ثم انصرف .

وأخذت « تانيا » تنفذ أوامر جهاز أمن الدولة ، ولكنها عرفت أن أبويها قد قتلهما الكولونيل توبلجين ، الرجل الذى يتولى رئاسة القسم الذى تعمل فيه هى وعشرات النساء غيرها .

وقررت الإنتقام منه ، ففى إحدى الليالى دعاها توبلجين ليقضى معها سهرة حمراء، واستخدمت أنوثتها فى التغرير به ومساعدتها للفرار من الستار الحديدى، وبعد أن نفذ لها الإجراءات قتلته وهو مخمور ، وهربت إلى ألمانيا الغربية حيث طلبت اللجوء إلى الولايات المتحدة .

تقـــويم

وبعد هذا السرد القصصى والتحليل نستطيع أن نقول أن استخدام العلاقات الجنسية كسلاح فى الجاسوسية ، قد يرتد إلى من يستخدمه ، ومن ثم يجب العناية تماماً بأسلوب الإستخدام .

ولهذا السبب فإن الرجال الذين يمكن الوثوق بقدرتهم على تجنب الوقوع فى حبائل النساء والعميلات ، قد أثبتوا أنهم عملاء ناجحون .

أى أن العلاقات الجنسية يمكن أن تستخدم فى أعمال الجسوسية بالنفع أو الضرر ، وللكسب أو الخسارة ، فهى سلاح تبادلى حينما تفشل كل الوسائل الأخرى .

كما أن استخدام العلاقات الجنسية يتطلب أموراً يجب أن تكون واضحة ويمكن أن نذكر أهمها وهى :

أولاً : ضمان الإستجابة من جانب الشخص الذى تحاول العلاقات الجنسية إغراؤه واصطياده . فقد يقاوم الرجل ، وأبرز مثل لذلك قصة الأمريكى من رجال الأعمال الذى تحدثنا عنه ، فإنه لم يتردد فى الوثوب من فراشه ، حينما بدأت الفتاة التى كانت بجانبه توجه له سؤالاً فهم مرماه . لقد ارتدى ملابسه فوراً وصاح فى وجهها بالابتعاد من طريقه . وأن تخبر من أرسلوها بأنهم قد أخطأوا فى تحرياتهم عنه

ثانياً: يجب إعداد المرأة اللعوب إعداداً دقيقاً وتدريبها على الإغراء بعد التأكد من توافر صفات معينة فيها ، مثل سرعة البديهة والذكاء الحاد ، واللياقة وبذلك يمكنها أن تصل فى ساعات النشوة إلى الحصول على ما تسعى إليه من معلومات دون إثارة ارتياب للرجل .

ثالثاً: يجب إعداد الضحية والوصول بالرجل إلى الدرجة التى تكون رغبته

عندها للإتصال الجنسى مساوية لاستعداده فى أن يقدم ما هو مطلوب منه من معلومات .

على أنه سواء كان استخدام الجنس كوسيلة « لغسيل المخ »* على مثال ما فعله الصينيون مع أسرى الحرب الكورية من العسكريين الأمريكيين ، أو الحصول على معلومات على مثال ما فعلت الدول الأخرى ، فإن هذا السلاح سيظل عاملاً فى ميدان الجاسوسية ومكافحتها ، ويجب أن يكون دائماً موضع البحث والدراسة .

ولكن من ناحية أخرى فإن المرأة التى تفرط فى عفافها من أجل الحصول على معلومات بأجر تعد امرأة غير ثابتة ويتعذر الاطمئنان إليها ، بل قد تكون خطراً كبيراً على الأمن ، إذ كان هدفها إشباع رغبة مادية أو مغامرة شيقة ، أو بحثاً عن عمليات الإستثارة والشهرة .

كما أنه من وجهة أخرى ، فإن الرجل أقدر من المرأة على التظاهر بالحب والتوله دون أن يكون حقيقياً ، وهذا كفيل بأن ينقذه من الخطر الذى قد تتعرض له المرأة إذا سلكت نفس السبيل .

(*) الحرب النفسية — الجزء الثانى — صلاح نصر — الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة عام ١٩٦٧ .

الفصل الحادي عشر

الجاسوسية المضادة أو مقاومة التجسس

طبيعة الجاسوسية المضادة

تعد مقاومة الجاسوسية الجانب الإيجابى من المخابرات الوقائية ، ويمكن تعريفها بأنها المعرفة والتنظيم والتحليل والنشاط الذى تستخدمه مخابرات الدول لشل نشاط المخابرات المعادية .

ويوجه نشاط مقاومة الجاسوسية ضد جهود الجاسوسية الأجنبية ، ومهمتها الأساسية هى التعرف على نقاط عملاء العـدو السريين ، واستغلاله والسيطرة عليه .

إن الهدف الشامل من تلك الجهود ، هو وقاية أمن الدولة وسلامتها ، وكذا منع تسلل عملاء العدو داخل المراكز الحساسة بها . وهى فى هذا المجال تحاول وتصل عن طريق المعرفة، إلى إزاحة القناع عن نشاط منظمات العدو ، وكشف خططه ونواياه .

وفى عالم اليوم الذى يتسم بالوعى الجاسوسى ، تحاول كل دولة أن تضع

العراقيل أمام خصومها لمنعهم من الحصول على المعلومات ، وذلك باتخاذها إجراءات الأمن اللازمة لحماية البيانات والمنشآت الحيوية والأفراد من تسلل العدو إليها ، ولكن هذه الإجراءات وإن كانت ضماناً أساسياً لا غنى عنه لأمن الدولة ، إلا أنها فى النهاية تتحدى الفنيين الذين يعملون فى النهاية فى مخابرات الخصم كى يبتكروا طرقاً أصعب لتخطى هذه العقبات .

ويجب على كل دولة تريد أن تحمى نفسها من الإعتداءات التى لا تهدأ من جانب أجهزة المخابرات المعادية ألا تكتفى بمراقبة المسافرين الأجانب الذين يعبرون حدودها ، أو تكتفى بوضع حراس على المناطق الحساسة بها ، أو التأكد من إخلاص موظفيها الذين يشغلون مناصب سياسية بل يجب أن تكشف أيضاً عما تبحث عنه أجهزة مخابرات الدول المعادية ، وكيف يفعلون ذلك ، وما طبيعة الناس الذين يستخدمونهم كعملاء ، ومن هم هؤلاء الناس .

إن العمليات التى لها هذا الهدف المميز تنتمي إلى ميدان الجاسوسية المضادة ، والمعلومات التى تحصل عليها عن هذا الطريق هى ما يطلق عليه إسم المخابرات المضادة .

والواقع أن الجاسوسية المضادة هى عملية إيجابية ووقائية فى نفس الوقت ، وغرضها الأول إحباط أعمال الجاسوسية الموجهة ضد البلاد ، ولكنها فى نفس الوقت مفيدة جداً فى الكشف عن التسرب العدائى وعن المؤامرات التى تحاك ضد الدولة .

وإذا نظرنا إلى طبيعة أهداف الجاسوسية المضادة ، لقلنا أن الجاسوسية المضادة من جانبنا توجه مباشرة لكشف أعمال العدوان والتآمر والإثارة والتخريب التى تقوم بها أجهزة أى دولة معادية . وبالرغم من أن مثل هذه المعلومات ليس مثل المعلومات الإيجابية فى أنها تفيد الحكومة فى تشكيل سياستها ، فهى فى الغالب تنبه حكومتنا إلى طبيعة الطعنات التى يوجهها إليها خصومها ، كما أنها تفضح النشاط التآمرى وأعمال التخريب التى توجه إلينا ،

ولذا يمكننا أن نقول أنها بمثابة الدرع الذى يحمى الجمهورية من طعنات أى خصوم ، فحينما أعلنت جمهورية مصر اكتشافها لصفقة الأسلحة التى عقدتها ألمانيا الغربية مع إسرائيل بدافع من الولايات المتحدة عام ١٩٦٥ ، كان ذلك بمثابة تنبيه لنا لما ستتبعه مستقبلاً كل من الولايات المتحدة وألمانيا الغربية . وفعلاً قامت ألمانيا الغربية بممارسة ضغط إقتصادى علينا بشكل واضح ، وهددت بقطع معوناتها عن جمهورية مصر العربية ، وأثارت عواطف جامحة محاولة إلغاء أو تأجيل زيارة رئيس جمهورية ألمانيا الديموقراطية إلى القاهرة ، ولما لم تجد أثراً لهذا التهديد فى مصر ، أعلنت وقف مساعدتها الإقتصادية ، ولم تحدد موعد تنفيذ القرار حتى تدهورت العلاقات بيننا وبين ألمانيا الغربية ، ووصلت إلى قطع علاقاتنا السياسية معها بسبب موقفها السافر من العرب ، ومساندتها إسرائيل التى أعطتها السلاح هدية للإستمرار فى عدوانها علينا . أما الولايات المتحدة فموقفها واضح ومعروف من ناحية استمرار ضغوطها الإقتصادية وتقديم المعونات السخية لإسرائيل فى جل الميادين ، إلى أن غيرت من موقفها بعد ٦ أكتوبر من عام ١٩٧٣ .

هذا مثل بارز يوضح لنا أن المعلومات التى تحصل عليها المخابرات المضادة ، لا تمثل فقط الناحية الوقائية ، بل إنها تعطى إنذاراً لما يتوقع أن تتخذه الدولة نتيجة كشف أعمال التآمر والتخريب أو الاثارة .

منظمة الجاسوسية المضادة

والواقع أنه يجب أن تكون فى مقابل كل منظمة للجاسوسية منظمة للجاسوسية المضادة ، على أن هذا لم يكن الحال دائماً ، فلقد كانت هناك أوقات نظم فيها دفاع مضاد للخدمات السرية التى كانت تعمل فى ميدان طليق لها ، وجاء وقت كانت هناك منظمات مضادة تهملها الحكومات إلى الحد الذى يجعلها عاجزة من أن تقوم بواجباتها ، كما أن حل الحكومات

وتغيرها كثيراً ما كان هو السبب فى هذا ، كما أن هذا العجز والقسوة قد يرجعان إلى الصلف والكبرياء وتجسيم الثقة بالنفس من جانب القائمين بالأعمال المضادة

وفى نفس الوقت كانت هناك حوادث فذة للجاسوسية المضادة منظمة على نطاق واسع وإذ يحدث هذا فإنه فى الغالب يكون نتيجة للطغوائية التعسفية، التى تعتمد على قوة الشرطة السرية ، كأعين وآذان سرية فى كل مدينة وكل ضاحية وكل طريق وكل مسكن جماعى ، ويتطلب هذا استخدام عدد كبير جداً من العملاء ، وينسق هؤلاء تبعاً لدرجة الوحشية والقسوة التى تفرض بها السلطة الطغوائية حكمها .

إنها خطوة قصيرة بين جهاز الشرطة السرية وجهاز مقاومة التجسس ، ذلك لأنه فى مقاومة الطغيان يقوم الذين يعملون سراً من أجل الحرية بالكثير من الأعمال والأساليب التى يتبعها الجواسيس .

وفى مثل هذه الظروف تكون منظمة مقاومة التجسس جزءا من الشرطة السرية . ونتيجة لذلك تصطدم مقاومة التجسس فى عملها بالعراقيل بسبب نقص التنسيق والتعاون بينها وبين المنظمة الخاصة بالجاسوسية ولقد قاست المنظمات الثلاث التى اشتهرت فى التاريخ الحديث بأعمالها فى ميدان الشرطة السرية — « الجستابو » الألمانى و « الأوفرا » الإيطالية و « الكمتاى » اليابانية — وقاست ثلاثتها الأمرين بسبب نقص التعاون بينها وبين المنظمات العاملة فى ميدان الجاسوسية ، وقد نتج إخفاقها النسبى فى دورها فى الجاسوسية المضادة من خطأ التنظيم . كما يرجع هذا الإخفاق أيضاً بدرجة كبيرة إلى الغيرة والمؤامرات الداخلية ، بقصد الحصول على السلطة والاستئثار بها .

أما فى البلاد الديمقراطية حيث تتوافر للناس الحرية السياسية ، فإن ذلك يقلل الحاجة إلى إيجاد قوة شرطة سرية فى الطابع الذى كانت فيه قوة الجستابو ، ومن ثم فإن كل قوات الشرطة السرية إنما توجه لغرض واحد هو اكتشاف

النشاط الإجرامى ، ومن ثم فإن الكشف عن الجواسيس يترك لمنظمة يكون واجبها الوحيد الكشف عن الجواسيس .

وتبعاً لطابع منظمة الجاسوسيه فإن منظمة مكافحة الجاسوسية ، إما أن تكون مركزية تعمل فى كل ميادين الكشف عن الجواسيس، وإما أن تكون من منظمة أكبر للمخابرات ، تلعب هيئاتها الأخرى دوراً هاماً فيها . وفى هذه الحال الأخيرة ليس هناك ما يمنع الخدمات والاسلحة من أن تكون لها إداراتها التى تتخصص فى الكشف عن الجواسيس ، كل منها فى الميدان الذى تعمل فيه .

العلاقة بين الجاسوسية ومقاومة التجسس

على أن العلاقة بين الجاسوسية ومقاومة التجسس تختلف تبعاً لاختلاف طبيعة الدول ، وكذا تبعاً لأشكال الحكم ومنظمات الأمن الموجودة بها . ولقد كانت الرسالة التى قدمها « رودلف هيس » للحصول على إجازته العلمية من جامعة ميونخ مثالاً لصورة من صور الإلتصاق التام بين العملين المختلفى الطبيعة .

والواقع أن الرسالة التى كتبها هيس عن الجاسوسية اليابانية تعتبر أحسن ما كتب عن الموضوع . ومع أن الجاسوسية اليابانية قد تطورت بسرعة فى الحقبة الرابعة من القرن العشرين ، إلا أن الوسائل والأغراض بقيت كما هى ، وكان بين الأشياء التى اجتذبت انتباهه بقوة هي الإهتمام الذى يبذله رجل الشارع بأمر الجاسوسية .

كتب هيس يقول : يعد كل يابانى نفسه جاسوساً عندما يخرج خارج اليابان ، فإذا ما كان فى أرض اليابان عمل كما يعمل صياد الجواسيس ، وعندى أن هذا الانشغال بالجاسوسية ومكافحتها ، ينغمر فى أعماق حياة

اليابانيين بسبب بقائهم لسنوات طوال فى ظلَ حكم « الشوجران »* والشرطة السرية ، التى كان واجبها الرئيسى المحافظة على « الشوجران » والقضاء على كل المؤامرات التى تدبر ضد أرواحهم وضد نظام حكمهم .

وهنا نجد أن الجاسوسية ومكافحتها ترتبطان معاً فى طابع لم نره قط من قبل فى أى نظام آخر من أنظمة الحكم ، ولما كان كل يابانى يشجع على أن يكون جاسوساً ، فإنه يشجع أيضاً بنفس القدر ليكون صياداً للجواسيس ، ولما كان الأمر كذلك كان من الضرورى أن المنظمة التى تعنى باصطياد الجواسيس ، يجب أن تكون بدورها كبيرة العدد ، وأن تشجع أيضاً بوساطة المجموعة الأخرى التى تعمل مثل عملها ، وهذا شىء لم يغب عن « الكمبتاى » أن تفعله .

منظمة الكمبتاى اليابانية

وكان تقدير الكمبتاى أن كل أجنبى يزور البلاد إنما هو جاسوس ، وأى سائح يحمل آلة تصوير يعد كما لو كان يدعو الشرطة لاعتقاله ، ولكن تبعاً لنفس التقدير ، فإن أى يابانى له اتصالات تجارية أو اجتماعية مع أجانب فهو بدوره موضع الشك ، وقد أثارت السلطات نفوس الشعب بالقدر الذى لم يوجد معه يابانى واحد لم يقاسى الأمرين من جنون وهوس الجاسوسية هذه .

وفى عام ١٩٣١ أصدر مجلس « الدايت » أى البرلمان اليابانى قانوناً جديداً مضاداً للجاسوسية ، ينص على حكم الإعدام لعدد كبير من الجرائم ، وفى نفس الوقت حدث اتساع كبير للخدمات المضادة للجاسوسية . وأعدت هيئة « الكمبتاى » معارض كثيرة لبيان ما يعتقد اليابانيون بأنه وسائل وأساليب نشاط الجواسيس الأجانب ، وغطت جدران الشوارع مئات الملصقات ونظمت

(*) راجع — صلاح نصر — فى الحرب النفسية — معركة الكلمة والمعتقد ٢ . ٢٢٩ .

أسابيع مكافحة الجاسوسية ، وكانت الصحف والإذاعات وحتى خطب المسئولين تهيب بالبالغين من الذكور والإناث بل وحتى بالأطفال ، بضرورة التبليغ عن أى حادث أو شخص يشير أى شك فى نفوسهم .

كانت « الكمبتاى » كالجستابو النازى أقوى المنظمات اليابانية ، وأبشع ما يكرهه اليابانيون ، وقد استمدت قوتها من المركز شبه المستقل الذى كان لها داخل نطاق الجيش . وبالرغم من أنها كانت منظمة كسلاح قاتل من أسلحة الجيش فقد كان يتولى قيادتها مدير إدارة نائب الاحكام ، وكان مسئولاً مباشرة أمام وزير الحرب ، إلا أن وزيرى الداخلية والقضاء كان لهما سلطة عارضة للإشراف من بعيد .

وكان كل أفراد منظمة الكمبتاى متطوعين أحسن اختيارهم ، وفى وقت السلم يجب أن يكون الفرد قد أتم خدمة عسكرية لمدة ست سنوات حتى يكون صالحاً للإختيار وكانت مستويات الذكاء والتعليم والدراية باللغات مع اللياقة البدنية والصلاحية الصحيحة عالية جداً ، وكان التدريب يقتضى سنة كاملة ، وكانت موضوعات التدريب هى : القانون ، اللغات ، وسائل الجاسوسية مكافحتها ، المبارزة ، الفروسية ، القتال بلا أسلحة .

وأينما كان رجل الكمبتاى ، فإن أهم واجباته هى مكافحة الجاسوسية والعمل ضدها ، ولأداء هذا الواجب . فإن أفراد الكمبتاى يجوبون باستمرار كل الفنادق ومكاتب البريد ومحطات السكك الحديدية وكل المحلات العامة ، ويسيطرون سيطرة تامة على كل الحوانيت التى تبيع أدوات للتصوير والمقاهى والمواخير والحانات والمسارح ودور السينما ، بل وحتى مما يثير الدهشة أنك تجد رجال الكمبتاى فى الحوانيت التى تبيع الحلوى ، كما نظموا بيع الأجزاء الإحتياطية للآلات الكهربائية والأسلحة والمفرقعات والمواد الكيميائية والمكيفات وأصبحوا ظلاً دائماً على كل أجنبى يدخل البلاد من ساعة وصوله إلى لحظة رحيله ، حتى أنهم ليفخرون بأنك لو سألت عن تحركات أى أجنبى فى يوم

ما حتى عدد المرات الذى ذهب فيها إلى «الحمام» لأمكنهم أن يذكروا لك هذا على التحقيق ، وكانت لهم رقابة على الصحف والإذاعة والمطبوعات والمسرحيات.

ومن الطبيعى أن كل ألوان النشاط هذه تتطلب عدداً كبيراً جداً من العملاء ولقد قدرت المخابرات الأمريكية عملاء « الكمبتاى » فى اليابان والمناطق المحتلة بسبعين ألف رجــل ، منهم ٢٤٠٠٠ ضابط ، وكل الضباط والجنود يابانيين بالمولد .

ومع كل هذا العدد فإن النجاح الذى حققته منظمة « الكمبتاى » يعد قليلاً بل أقل من القليل ، وذلك بسبب تعدد واجباتها وبسبب العدد الكبير من الأفراد بها .

وقد ثبت أنه بالرغم من التدريب الذى كانت المنظمة تعده لعملائها فإنها لم تصل بهم إلى مستوى من الكفاءة أكبر من المستوى العلمى العادى ، وقد نستطيع إدراك هذا من ملاحظة أن « ريتشارد سورج » قد بقى يعمل بشبكته لست سنوات كاملة ، دون أن تكتشف الكمبتاى حقيقته .

أهمية التنسيق

إن الاعتدال — كما فى كل الأشياء الأخرى — يعد العامل أو المبدأ الأساسى لضمان نجاح مكافحة الجاسوسية .

والعمل الناجح يتوقف على التنسيق بين الأجهزة المختلفة وعلى سرعة إرسال البيانات الخاصة بالمختبرات المضادة من جهاز إلى جهاز آخر .

ولقد كان من نتيجة هذا المجهود المتناسق أن اعتقلت السلطات الأمريكية الجاسوس السوفييتى كولونيل رودلف أبيل . ففى مايو عام ١٩٥٧ كان رينو هايهــانين — وهو زميل ورفيق كولونيل أبيل فى الولايات المتحدة — فى طريقه عائداً إلى الإتحاد السوفييتى ليقدم تقريره . وعند وصوله إلى غرب

أوروبا ، قرر أن يهرب فاتصل بالمخابرات الأمريكيه مظهراً جواز سفر كان قد حصل عليه على أساس شهادة ميلاد مزيفة . وكانت قصة هايهانين الخياليـــة تتضمن تفاصيل عن استلام مبالغ سرية ، وعن اتصال العملاء بعضهم ببعض فى شبكة الجاسوسية وبعض تفاصيل أخرى عن كولونيل أبيل . وقد أرسلت كل هذه البيانات على الفور إلى واشنطون ، ومنها إلى مكتب المباحث الفيدرالى للتحقق منها . واتضح صدق القصة من كل ناحية ، وحضر هايهانين بمحض إرادته إلى الولايات المتحدة ، وأصبح الشاهد الأول عند محاكمة أبيل .

و [illegible] إلى هايهانين إلى شواطىء الولايات المتحدة ، تولى مسئوليته ب [illegible] الفيدرالى ، بينما استمرت وكالة المخابرات المركزية تتناول الزاوية الأجنبية منه .

وبالرغم من أهمية الأهداف التى تسعى إليها أجهزة مقاومة الجاسوسية والمخابرات المضادة ، إلا أن تحديد الغرض يسبق دائماً تحديد الأهداف . وللدراسة الدقيقة والتحليل الشامل أهمية كبيرة فى تقدير قيمة الهدف وأهميته.

مجالات المقاومة الأساسية

ويهتم رجال مقاومة الجاسوسية بصفة عامة ، بأربعة مجالات أساسية لها أهمية كبيرة فى تحديد المعلومات الإيجابية اللازمة لخدمة مقاومة التجسس كما أن هذه المجالات تسهم أيضاً فى المعلومات الإيجابية الهامة للمخابرات وهى التى تبنى عليها خطة العمل والتنفيذ .

أول هذه المجالات ، الأفراد الذين يعملون فى أجهزة المخابرات المعادية وعملائهم ، وخاصة الذين يعملون فى الدول التى تعد هدفاً للجاسوسية . إن اكتشاف وفحص الأشخاص الذين يشك أنهم عملاء للعدو يعد واجباً يتطلب وقتاً كافياً ، كما يستدعى الدقة ، إذ غالباً مـــا يكون اتصال رجال مقاومة

التجسس مع منظمات العدو عن طريق هؤلاء العملاء ، لذا يجب أن توجه عناية كبيرة لفحص هؤلاء العملاء ، ومحاولة الحصول على معلومات تفصيلية شاملة عن نشاطهم وأسرارهم ومعارفهم وأصدقائهم كما يجب إفساد عملهم .

وتتخذ العملية الأخيرة أشكالاً متعددة ، ففى معظم الدول يمكن طبقاً للقانون تقديم الجاسوس المقبوض عليه إلى المحاكمة ، وبالمثل بالنسبة لضابط المخابرات الأجنبى إذا ضبط متلبساً بالجريمة ما لم يكن متمتعاً بالحصانة الدبلوماسية ، فإذا كانت عنده هذه الحصانة فإنه فى العادة يطرد من البلاد .

وأفضل مثال لتوضيح ذلك حالة الجاسوس فيكتور يواقيم الذى تم ضبط شبكته عام ١٩٦١ . فقد نتج من دراساتنا لأسلوب المخابرات الأمريكية من ١٩٥٨ حتى ١٩٦٢ أن معظم مقابلاتهم السرية لعملائهم تتم فى منازل أمينة وأنهم يختارون معظم عملائهم من المتمصرين أو المصريين الذين يتميزون بنقط ضعف معينة ، وعن طريق متابعة هذا الأسلوب تم ضبط فيكتور يواقيم وهو يقوم بإجراء مقابلته السرية مع ضابط المخابرات الأمريكية وخلفه ضابط مخابرات آخر بشقة خاصة يستأجرها العميل .

ولقد تمكنت المخابرات المصرية بمجهوداتها بالكشف عن عملاء هذه الشبكة ، وقدموا للمحاكمة واعدم فيكتور يواقيم ، وحكم على باقى الشبكة بالأشغال الشاقة لمدد مختلفة . كما طرد ضابط المخابرات الأمريكى لتمتعه بالحصانة الدبلوماسية .

وثمة طرق أخرى لإفساد نشاط العميل الأجنبى ، وأفضل هذه الطرق كشف العميل أو التهديد بكشفه . فالعميل الذى ينكشف اسمه ويعرف وجهه وتنشر قصته فى الصحف لا يعود له فائدة كعميل .

أما المجال الثانى لنشاط مكافحة التجسس ، فهو اكتشاف خطط المخابرات المعادية وهى فى مراحلها الأولى لا بعد أن تبدأ فى أعمالها الضارة ، وحتى يمكنها تحقيق ذلك فإنها تحاول أن تتسلل إلى الدوائر الداخلية لأجهزة الأعداء

على أعلى مستوى ممكن ، حيث ترسم الخطط ويختار العملاء ويدربون ، وإذا أمكن فإنها تحاول أن تكسب إلى جانبها عملاء من الداخل أى من المعسكر الآخر . ومن أشهر حالات التسلل الناجح على مستوى عال بالنسبة لأجهزة المخابرات ما ذكره « ألين دالاس » عن قضية الفريد ريدل الذى عمل فى المدة من عام ١٩٠١ إلى عام ١٩٠٥ رئيساً للمخابرات المضادة فى جهاز المخابرات العسكرى فى امبراطورية النمسا والمجر ، والذى أصبح بعد ذلك ممثلاً له فى براغ . ولقد ظهر من الأدلة أنه فى عام ١٩٠٢ حتى تم القبض عليه عام ١٩١٣ كان عميلاً سرياً للروس بعد أن أوقعوه فى بدء حياته بالمخابرات فى شرك مستغلين فى ذلك نقطتى ضعف : الأولى شذوذه الجنسى ، والثانية اندفاعه فى مسائل الرشوة . كما كان يتاجر بنفس السلع فى نفس الوقت مع الإيطاليين والفرنسيين ولكن لم يكن هذا كل شيء ، فكضابط كبير فى المخابرات العسكرية كان « ريدل » عضوا فى مجلس أركان حرب الجيش النمسوى المجرى ، وبذلك كان يطلع على خطط الحرب التى كان يعطيها إلى الروس .

وبالرغم من أن ريدل كان قد قبض عليه قبيل الحرب إلا أن انتحاره تم بناء على دعوة كبار ضباطه عقب اكتشاف خيانته مباشرة . لمنع استجوابه وتحديد مدى الضرر الذى سببه . وكان أكثر ما يهم النمساويين منع انتشار الفضيحة ، لدرجة أن الأمبراطور نفسه لم يبلغه الخبر فى أول الأمر .

ومن سخرية القدر أن المتسبب فى القبض على ريدل كان إجراءات الجاسوسية المضادة — الرقابة البريدية — التى كان ريدل قد طورها ووصل بها إلى مستوى عال من الكفاية عندما كان رئيساً للمخابرات المضادة ، وكان قد وقع فى يد الرقابة خطابان يحتويان على مبالغ طائلة على شكل أوراق البنكنوت ولم يكن بالخطابين سوى ذلك . كان وصولهما إلى مكتب بريد

فبينا العام ولما كان الخطابان مرسلان من مدينـــة فى شرق بروسيا على الحدود إلى عنوان غريب فقد أثارا الشك ، وانتظرت الشرطة النمسوية قرابة شهرين حتى يحضر من يتسلمهما . وأخيراً جاء ريدل ، وأما بقية القصة فقد أصبحت تاريخاً . ومع ذلك فما زال أخصائيو المخابرات المضادة الذين يدرسون القضية اليوم فى حيرة ودهشة من أن يلجأ الروس فى عملية ذات حجم كبير كهذه إلى هذه الأساليب التى تتسم بعدم الحيطة فى إرسال نقود إلى عميلهم ، وبخاصة وأن الرقابة البريدية كانت إحدى وسائل الأوكرانا فى عمليات الجاسوسية المضادة .

وبطبيعة الحال ليس من الضرورى تجنيد الرئيس ، على ما فى حال ريدل ، إذ يمكن تجنيد سكرتيره — إذا كان له سكرتير — للقيام بهذه المهمة . والحقيقة أن حجم جهاز المخابرات الأساسى من الكبر اليوم بحيث يستحيل على الرئيس أن يعنى بكل التفاصيل الخاصة بالعمليات التى يرغب فى معرفتها عن الجهاز الخصيم ، ولا يقف الأمر عند هذا الحد ، بل أن المقر الرئيسى لجهاز المخابرات يصعب أو يستحيل التسلل إليه ، ونتيجة لذلك تستهدف الجاسوسية المضادة الأهداف التى يمكن الوصول إليها والتى تكمل بها نقط ضعف وكذا المتعلقة بالعمليات الميدانية . هذه الأهداف عبارة عن المكاتب والوحدات التى تديرها أجهزة المخابرات فى الخارج . وكما هو معروف توجد معظم هذه المكاتب فى السفارات والقنصليات وغرف التجارة والمراكز الثقافية التى قد تعطى ضابط المخابرات حماية الحصانة الدبلوماسية كما تكون نوعاً من الستار يعمل خلفه .

ولكن كيف يمكن لعميل الجاسوسية المضادة أن يتسلل إلى هدفه ؟ وما الوسائل التى يستطيع بها أن يصل إلى العاملين فى جهاز مخابرات أخرى ؟ . من بين هذه الطرق أن يحضر وهو مزود بمعلومات مغرية يعرضها على أجهزة الخصوم .

ومثال ذلك الشاويش الإنجليزى الذى تقدم إلى الملحق العسكرى المصرى بلندن يعرض عليه معلومات هامة ، ولما كانت معظم المعلومات الهامة فى التاريخ الحديث قد وصلت عن طريق أناس ظهروا فجأة ، فليس هناك جهاز مخابرات يفكر فى أن يرفض تقبل معلومات تعرض عليه . ومما لا شك فيه أن الشك وعدم الثقة بالغرباء يشكلان صعوبة كبيرة لرجال المخابرات المضادة للتحقق من مدى صحة المعلومات وكذلك الهدف من وراء تقديمها .

وهنا تعترض المخابرات المشكلة الخاصة بالتفرقة بين العروض التى يتقدم بها المتطوع طواعية ، والعروض التى يتقدم بها العميل الموفد من الجانب الآخر ، وهذه عملية ليست بالهينة .

وإذا نجحت الجاسوسية المضادة فى زرع عميلها فى جهاز العدو ، فإن العمليات التى تسند إليه تكون من العمليات ذات الحساسية الشديدة . ويقوم العميل بالتبليغ عنها إلى الجهاز الذى يدير عملية التسلسل .

ومن الأعمال الناجحة لرجال مقاومة التجسس فى مصر ، تلك المجهودات التى بذلت لاكتشاف خطط مخابرات إسرائيل والإستعمار فى مراحلها المبكرة.

وعلى سبيل المثال كانت إسرائيل تتبع اتجاها فى دفع بعض عملائها لإبلاغ المخابرات المصرية أن المخابرات الإسرائيلية قد جندتهم ، ويدعون أنهم يبلغون عن ذلك بدافع من وطنيتهم .

ولكن رجال مقاومة التجسس استطاعوا أن يدركوا حقيقة هؤلاء العملاء الذين دفعت بهم إسرائيل لتحقق أغراضاً عديدة ، منها تأمين العميل ، وتسهيل حرية حركته ، ودراسة أسلوب تعامل المخابرات المصرية مع العملاء المزدوجين ، كذا تضليل المخابرات المصرية عن الأسلوب الفعلى لتشغيل عملاء المخابرات الإسرائيلية ، ومحاولة تضليلها عن الإحتياجات الفعلية المطلوبة . وأخيراً كان الهدف من خطط إسرائيل شغل رجال مقاومة التجسس بعملاء غير مهمين ، وإبعاد أنظارهم بعيداً عن عملائها الحقيقيين .

وكانت نتيجة مجهودات رجال مقاومة التجسس أن كشفت المخابرات المصرية عن خطط المخابرات الإسرائيلية ومراكز عملها المتقدمة ، كما كشفت عن البلاد التى استخدمت بها عناوين مختلفة للتراسل بها ، وقد أدى ذلك إلى إرباك المخابرات الإسرائيلية وإجبارها على تغيير خططها مما ألقى عليها جهداً كبيراً لم تستطع أن تنكر أثره على عرقلة نشاطها

ومن بين العملاء الذين دفعت بهم إسرائيل لتحقيق هذا الهدف العميل سمير خليل جرجس ، الذى استغلت وجوده فى الخارج بدون عمل ، وقد حوكم عام ١٩٦٢ وقضى عليه بالإعدام ، كما هناك العميل عمر الفاروق زيان وهو بدون عمل أيضاً وقد تم ضبطه عام ١٩٦١ وتمت محاكمته أمام القضاء وسجن.

والمجال الثالث الذى يبحث فيه رجال مقاومة الجاسوسية ، وهو مركز حشد قوات العدو ، وكذا طبيعة المعلومات التى تحظى باهتمامه الخاص ، والبحث عن أى الميادين يصلح للإثارة أو النشاط الهدام ، ومدى الإستجابة المتوقعة . وينبغى أن تغطى المعلومات عن هذه الأهداف كل ما يختص بالأماكن والمواقع ، كما تشتمل كل ما يختص بالأفراد .

والمجال الرابع والأخير الذى يهتم به رجال مقاومة التجسس هو الأغراض والنوايا القريبة والبعيدة لمنظمات التجسس .

هذه المعلومات قد لا يمكن الوصول إليها بطريق مباشر ، ولكن الدراسة والتحليل للأهداف المعروفة لمنظمات التجسس ، وكذا درجة كفاءة هذه المنظمات ، ومدى تطبيق تعليمات الأمن فى الدولة الهدف ، يساعد رجال مقاومة التجسس على التكهن بالأهداف التى تسعى هذه المنظمات لاختراقها ، كما تنير الطريق أمامهم .

* * *

هذه المجالات الأربعة التى يهتم بها رجال مقاومة التجسس لا يمكن

اعتبارها أهدافاً أو أغراضاً ، لأنها هي الميادين الأساسية التي يهتمون بها للحصول على المعلومات التي تساعدهم في تنفيذ مهام عملهم ووضع خطتهم وتنفيذها .

وإلى جانب هذا يهتم ضابط مقاومة التجسس بنوع التدريب الذى يتلقاه عملاء العدو ، إذ يحدد ذلك لدرجة كبيرة مدى كفاءة جهاز التجسس ، كما يهتمون أيضاً بطريقة التمويل ودفع المرتبات وطريقة إرسال هذه الأموال للدولة الهدف ، حيث تعتبر هذه خيوطاً أساسية تساعد مقاومة التجسس فى اكتشاف شباك العدو .

الأهداف الرئيسية

أما وقد تحدثنا عن الميادين التي يبحث فيها رجال مقاومة التجسس عن المعلومات اللازمة لعملياتهم ، ننتقل إلى نقطة ثانية وهى كيفية الوصول إلى هذه المعلومات . وهناك أربعة أهداف رئيسية يمكن أن توجه العمليات ضدها : وكل هدف من هذه الأهداف قد يزود رجال مقاومة التجسس بجزء من المعلومات ، وإن كان لكل هدف طبيعته الخاصة التي تحدد إمكانية اختراقه ، أو الحصول على معلومات منه .

أول هذه الأهداف وأصعبها هو مركز رئاسة المنظمة المعادية .

ولا شك أن اختراق مثل هذا الهدف يمكننا من الحصول على معلومات صحيحة وعلى قدر كبير من الأهمية . ولكن هذا الهدف عادة يكون من الصعب الوصول إليه بالنسبة لإجراءات الأمن الشديدة التي تحيط به ، وقد يكون مجرد التفكير فى الوصول إليه تفكيراً عقيماً عديم الجدوى .

والهدف الثانى الذى يسعى إليه رجال مقاومة التجسس هو أفراد منظمة المخابرات المعادية ، الذين يعيشون فى الدولة الهدف إقامة قانونية تحت ساتر معين كالبعثات الدبلوماسية أو التجارية .

وأما الهدف الثالث فهو العملاء المساعدون أو ما يعرف فى علم المخابرات « بعملاء تغطية الساتر » Support Avents ، وهم يختلفون عن « عملاء العمليات » Action Agents الذين يعملون فى ميــدان التجسس الفعلى ، وقد ينجح رجال مقاومة التجسس فى الحصول على المعلومات عن هؤلاء الأفراد ، ويستطيع هؤلاء الأشخاص بحكم اتصالهم امداد رجال مقاومة التجسس بمعلومات تساعد على توجيه عمليات المقاومة ، كما يهيئون الفرصة لأجهزة المقاومة لمتابعة نشاط الشبكات والقبض على أفرادها .

والهدف الرابع لرجال مقاومة التجسس هو العملاء السريون الذين يتوافر لهم ساتر قانونى ، وهؤلاء عادة ما يكونون محور اهتمام رجال المقاومة لأنهم أكثر أعضاء الشبكات تعرضاً ، ومن الطبيعى أن تواجه رجال المقاومة صعوبات فى متابعتهم للعملاء السريين ، ولكن النتيجة والفوائد التى تتحقق من وراء ذلك ، هى التى تحم الاهتمام بهذا النوع من العمليات ، وتوجب اعطاء الأسبقية على باقى الأهداف السابق ذكرها .

تشغيل العملاء المزدوجين

والعميل « المزدوج » هو الاداة المميزة لعمليات الجاسوسية المضادة ، وهو يعمل تحت أشكال عدة ، ففى أغلب بلاد العالم قد يحدث أن يقبض على بعض عملاء العدو ، أو قد يسلم أحدهم نفسه لأنه عثر على صديقة ويريد أن يبقى معها ، أو لأنه وجد الحياة فى البلد الآخر أكثر جاذبية . هؤلاء الأشخاص يصبحون عملاء مزدوجين عندما يطلب منهم الإستمرار فى ادعائهم بأنهم يعملون لحساب الجانب الآخر تحت إشراف مخابرات الدولة التى وجدوا بها ، ويوافق على ذلك العملاء الذين يقبض عليهم ، لأن هذا العمل أفضل من قضاء بضعة أعوام فى السجن .

والهدف هنا بقاء العميل وذلك بالسماح له بتوصيل بعض المعلومات التى

لا ضرر منها للجانب الآخر ، كما أن الأمل هنا معقود على أن يعمد الخصم إلى إعطائه بيانات وتوجيهات يستطيع الجانب الآخر أن يعرف منها ماذا يريد أن يعرفه الخصم ، وطريقته فى الحصول على البيانات .

ويحدث أحياناً أن يتمكن هذا الجانب عن طريق مثل هذا العميل اجتذاب عميل آخر أو حتى ضابط مخابرات كى ينضم إليه . فإذا ما تم ذلك يكون له الإختيار اما أن يرقب بعناية تحركات هذا الزائر آملاً فى أن يوصله إلى عملاء آخرين مختفيين فى أراضيه ، وإما أن يلقى القبض عليه ، وفى هذه الحالة الأخيرة يعتبر أن العملية قد انتهت ، ولكنها نجحت فى إحباط عمل شخص آخر كان يعمل من أجل الجانب المعارض .

وهناك ثمة عميل مزدوج آخر أكثر قيمة ، وهو الرجل العربى الذى يتصل به جهاز مخابرات العدو للقيام بمهمة لهم فيتصل بالمسئولين فى بلاده بكل هدوء. والمزايا التى يحققها هذا العميل واضحة ، فإذا حاول الأعداء مثلاً أن يجندوا عربياً فلا بد أن يكون لديهم شىء خطير يفكرون فيه ، وثانياً أن قيام الشخص العربى الذى اتصل به الأعداء بالتبليغ بمحض اختياره عن هذا الحادث يشير إلى أنه جدير بالثقة . عند ذلك يقوم المسئولون فى جهاز مخابرات بلاده بإقناعه بقبول عرض الخصم متظاهراً بالتعاون ، وفى نفس الوقت يقوم بالإبلاغ عن كل النشاطات التى يكلفه بها الخصم . كما يزود أيضاً ببعض المعلومات التى يريد رؤساؤه أن يعرفها الخصم ، وتستمر هذه اللعبة حتى يبدأ الخصم فى الشك فى عميلهم ، أو حتى تصبح أعصاب العميل غير قادرة على الإستمرار فى العمل .

ومن هذا النوع قصة محمود عز الدين نعيمو البحار المصرى الذى جندته المخابرات الإسرائيلية خلال عام ١٩٥٩ ، وكان هدفها استمراره فى تصوير مدخل بوغاز الاسكندرية لتحديد نشاط السفن الحربية ، وكان نعيمو قد جنده مندوب المخابرات الإسرائيلية بألمانيا الغربية ، ومن خلال تشغيلنا له كعميل

مزدوج ، قبض على العميل الهولندى مويس جود سوارد الذى كان قد حضر للبلاد تحت ساتر عالم آثار .

الرقـــابـــة

و « الرقابة » كلمة فنية . وهى كغيرها من أعمال الجاسوسية المضادة يجب أن تتم بمنتهى الحرص حتى لا يشعر بها « الهدف » ، فالمجرم الذى يشعر أو يعرف أن هناك من يقتفى أثره تكون الإمكانيات المتاحة له محدودة . وأفضل ما يمكن أن يؤمل فيه هو أن يهرب من هذه الرقابة فترة تسمح له أن يعثر على مكان يختبىء فيه ، أو يحس عميل المخابرات أنه موضوع تحت المراقبة فيتخذ الخطوات لمغادرة البلاد .

ففى قضية جان ليون توماس العميل الرئيسى للمخابرات الاسرائيلية ، حققت المراقبة كشف بعض عملائه مثل جريس يعقوب تانيليان المصور ، وجورج شفيق دهاقيان التاجر ، وبوليدور بابا زوغلو التاجر ، وجورج استماتيو اليونانى والموظف بمحلات جروبى ، وكان الأخير يشرف على حفلات العشاء التى كانت تقيمها رئاسة الجمهورية .

وبالرغم من أنه تم القبض على الشبكة بأكملها ، إلا أننا نود أن نشير إلى أن اكتشاف جان ليون لإحدى المراقبات جعلته يتخذ عدة إجراءات ، منها عدم اتصاله برجاله المهمين مثل محمد أحمد حسن الموظف بمدرسة المدفعية الذى كان مكلفاً بجمع معلومات عسكرية ، والضابط أديب حنا كيرولس بالقوات المسلحة والذى كان قد بلغنا من قبل اتصال المخابرات الإسرائيلية به.

وقد أوقف جان توماس تردده على المنزل الأمين الذى كان يقوم فيه بتصوير المستندات وتحميض الأفلام وإخفائها ، وقام بترحيل زوجته الأجنبية التى كانت تساعده فى القيام بالعمل االسرى قبل القبض عليه ، كما حاول استخراج جواز سفر مزور لمغادرة البلاد .

وغرض الرقابة في عملية الجاسوسية المضادة مزدوج ، فإذا كان الآمر مقصوراً على مجرد الإشتباه فى عميل معادى ، فقد تؤدى الرقابة المحكمة على أعماله لفترة من الزمن إلى الكشف عن حقائق أخرى تؤكد هذا الإشتباه ، كما توفر التفاصيل الخاصة بمهمة العميل وكيفية تنفيذه للعملية ، ولكن نادراً ما يعمل لحساب نفسه . ولذلك فإنه بطريقة أو بأخرى يتصل بمعاونيه وبمصادره وبالأفراد الذين يتلقى منهم الأوامر . وكذا فإن الرقابة الناجحة تكشف الشبكة التى ينتمى إليها ، والطرق التى يوصل بها تقاريره .

الرقابة على البريد

والرقابة على البريد إجراءات لازمة تتخذها الدول فى زمن الحرب ، لدرجة أنها أصبحت قضية عملهم بها ، فمتى نشبت الحرب انعزل تواكل الفريق عن الآخر ، كما تتوقف جميع وسائل المواصلات باستثناء الدعاية عن طريق الراديو . ولكن هناك — بطبيعة الحال — دول محايدة لا تشترك فى الصراع ، ومن الممكن الإتصال بهذه الدول بما فى ذلك وسائل البريد العادية ، ولو تجاوزنا عن مراقبة البريد فإنه ليس أمام الجواسيس طريقة أفضل للإتصال برؤسائهم إلا عن طريق دول محايدة .

ولكن هناك أيضاً حاجة أخرى للرقابة على البريد ، إذ إن الأشخاص العاديين من الرجال والنساء ممن لا يرقى الشك إلى وطنيتهم لا يقدرون كثيراً قيمة الأوامر المشددة للمحافظة على الأمن ، والتى تستلزمها ظروف الحرب من كل فرد فى البلاد . ولا يرجع ذلك إلى أنهم يتمتعون بقدر كاف من الذكاء ، بل لأنهم لا يستطيعون تقدير مدى أهمية ما تتناقله الألسن من أحاديث عابرة وأثر ذلك فى محيط الصراع بصورة عامة .

ولذا فإن الرقابة على البريد أمر لا بد منه فى مجال الحروب الحديثة ، وهى تحتل مكاناً هاماً فى منظمات المخابرات فى معظم الدول إذ تؤدى

وظيفتين أخريين بجانب العمل على منع الأحاديث التافهة . فهى تعتبر أداة للجاسوسية ومعاون للجاسوسية المضادة .

وفى التاريخ القديم نجد إيضاحاً قد يعد نوعاً ما للرقابة على البريد ، ففى سنة ٣٣٤ ق م. عندما كان الإسكندر الأكبر يحاصر جيش الفرس بقيادة الجنرال سنون فى « هاليسارناسوس » ، لاحظ أن هناك ما يدل على مظاهر التردد والعصيان بين جنوده . وكان هذا أمراً بالغ الخطورة ، لأنــه — بهؤلاء الجند — كان يأمل فى احتلال فارس .

وأدرك الإسكندر أنه إذا كان لا بد له من القضاء على هذا التهديد فإن ذلك يتطلب أن يكتشف الأسباب التى أدت إلى ذلك لكى يقوم بدراستها دراسة عميقة ثم يبحث عن القادة الذين يدبرون حركة الثرثرة والتذمر ، ولكى يتم له ذلك كان عليه أن يجرى أبحاثه بطريقة سرية ، لأنه إذا اتضح معرفته بالموقف ، فإن القادة سيلجأون إلى العمل من وراء ستار .

وبعد أن فكر طويلاً سنحت له فكرة صمم على تنفيذها . كان من عادته أثناء غزواته أن يتخذ الإحتياطات اللازمة للأمن ، ومنها أن يحرم على الضباط والجنود أن يكتبوا رسائل لعائلاتهم وأصدقائهم ، فأصدر أمراً برفع هذا الحظر ، وبطبيعة الحال انتهز كل رجل فى الجيش هذه الفرصة لاستغلالها. وفى مدى يومين أو ثلاثة جمع حملة الرسائل جميع الخطابات وشقوا طريقهم نحو أرض الوطن .

وأخذ الرجال سبيلهم حتى إذا أصبحوا على مسافة عشرين ميلاً من المعسكر ، قابلهم الإسكندر بنفسه ومعه — من أعضاء أركان حربه — من يثق بهم » وفى الحال فتحت الرسائل واطلع الإسكندر على محتوياتها .

وكان محررو الرسائل — الذين لم يخطر ببالهم مطلقاً أن القائد سيطلع على محتوياتها — قد ذكروا كل ما يشكون منه فى صدق وبكل صراحة ، وبذلك

استطاع معرفة أسباب الشكوى ، وما لبث أن وضع حداً للهمس والثرثرة في الخفاء .

ويعدّ هذا نوعاً من الجاسوسية المضادة ، ولكن ليس ثمة ما يدل على أن الإسكندر كان يستخدم الرقابة على البريد كسلاح من أسلحة الجاسوسية .

وسيراً على منواله ، لجأت منظمات الجاسوسية المضادة في معظم الدول في استخدام الرقابة على البريد كوسيلة لحماية الحكومات ضد المؤامرات الداخلية . كذلك استخدمها آل بوربون على نطاق واسع ، فكانت مدام بمبادور محظية لويس الخامس عشر لديها منظمة تابعة لها يدير شئونها أحد رجال حاشيتها يدعى « بيربير » ، الذى كان مديناً لها بوظيفته كقائد للشرطة ، فكان يرسل إليها كل يوم بيانات بالأحداث التى كانت تدور فى باريس من وراء الستار . وكانت هذه هى الخطوة الأولى إلى تكوين ما كان يطلق عليها « الغرفة السوداء » ، وهى قسم فى إدارة البريد الفرنسية من شأنه الإطلاع على محتويات كل خطاب يمر فى إدارة البريد . وكذلك كان لدى قياصرة الروس مثل هذه الغرفة السوداء ، التى كان يدير شئونها قبل نشوب حرب القيصر بما يقرب من خمسين عاماً رجل اشتهر بالتفوق والعناية والحذر فى ذلك العهد ، وكان يدعى « كارل زيفرت » الذى كان من قبل جاسوساً من ألمان النمسا

أجهزة تحديد الاتجاه

وللمخابرات المضادة — كمعظم فروع المخابرات — موارد فنية كثيرة ، وأحد هذه الموارد كان المتسبب فى كشف عدد من شبكات المخابرات الخفية. هذا المورد هو تحديد مكان أجهزة الأرسال غير القانونية ويطلقون على ذلك بالإنجليزية رمزاً مختصراً هو «DF» أى جهاز تحديد الإتجاه ، والمخابرات المضادة تستخدم أجهزة قياس الكترونية حساسة تثبت على أجهزة استقبال متنقلة فى سيارة ركوب أو سيارة نقل . وتستطيع هذه الأجهزة أن تتبع الاشارة

اللاسلكية وتحدد مكانها عن طريق قوة وضعف الإشارة فى أثناء تحرك السيارة فى أنحاء المدينة ، فى المكان الذى يشتبه فيه وجود جهاز ارسال غير قانونى .

وفى معظم البلاد كان لكل جهاز إرسال قانونى سواء كان تابعاً لهيئة تجارية أو تابعاً لهواة — مرخصاً به ومسجلاً فى هيئة مسئولة تعمل فى جميع الأوقات على مراقبة الموجات الهوائية تطبيقاً للقانون . وهذا يؤدى إلى الكشف عن العاملين فى مجال اللاسلكى الذين لم يهتموا باستخراج الترخيص ، كما يؤدى كذلك إلى اكتشاف أجهزة الارسال غير القانونية . ويمكن التعرف دائماً على الأجهزة ، لأن رسائلها تكون بالشفرة ولأنها تستخدم إشارة مميزة مسجلة .

وقد تؤدى مراقبة إشارة تحوطها الشكوك إلى اكتشاف أن عامل اللاسلكى يعمل على الهواء طبقاً لجدول زمنى ، ومعنى هذا دون شك أنه يقوم بإرسال معلومات إلى جهة أجنبية طبقاً لتنظيم سابق ، وهنا تبدأ عملية تحديد الإتجا والصعوبة الجوهرية التى تعترض عملية كشف عامل اللاسلكى غير القانونى ، وهى أنه لأسباب تتعلق بأمنه يظل على الهواء فترة قصيرة . ففى الوقت الذى يبدأ فيه الخبراء فى تتبع إشارته فى مدينة كبيرة مزدحمة بالإشارات الأخرى ، يتوقف عمله على الهواء فجأة وعند ذلك لا يستطيع الخبراء أن يعملوا شيئاً إلا بعد أن يظهر مرة أخرى ، وقد يكون ذلك بعد أيام أو بعد أسابيع .

وفى أثناء الحرب العالمية الثانية ، كان لكفاءة تحديد أجهزة الإتجاه من كلا الجانبين الفضل الكبير فى أعمال المخابرات المضادة الضخمة . ففى أثناء عملية « القطب الشمالى » الشهيرة كانت المخابرات البريطانية فى لندن على اتصال بالحركة الهولندية السرية باللاسلكى . وكان المركز الهولندى يرسل باللاسلكى معلومات عن الشئون الألمانية العسكرية إلى لندن ، كما أجرى المركز كذلك تنظيمات مع لندن لترسل له المؤونة لهولندا وعدداً من العاملين بواسطة الطائرات . وطوال الفترة من عام ١٩٤٢ إلى عام ١٩٤٤ ظل البريطانيون — طبقاً للطلبات

والتنظيمات المقترحة بواسطة أجهزة الارسال الهولندية السرية — يسقطون كميات ضخمة من الأسلحة والمؤن على مناطق متفق عليها فى هولندا . ولكن عدداً كبيراً من قاذفات القنابل التى كانت تحمل الرجال والمؤن كانت تسقط عقب أن تتم إنزال الأشخاص والمؤن . وكانت الفكرة السائدة من بريطانيا أن الشحنة ذات القيمة قد وصلت الى من يحتاجون إليها على الأقل . والحقيقة أن وحدات المخابرات المضادة الألمانية فى أواخر عام ١٩٤١ وأوائل عام ١٩٤٢ الموجودة فى هولندا ، كانت قد نجحت بمعاونة جهاز تحديد الإتجاه فى تحديد مكان عدد من أجهزة الإرسال غير القانونية الخاصة بالحركة الهولندية السرية ، كما نجحت فى إلقاء القبض على عدد من عمال اللاسلكى . وبالتدريج أحل الألمان عمالهم محل المقبوض عليهم بعد أن أبلغوا لندن أن قدامى العمال لم يكونوا على ما يرام ، وأن الحركة السرية قد أحلت عمالاً جدداً محلهم . كانت هذه عملية من أمكر عمليات المخابرات المضادة ، وعن طريق أداء دور الحركة الألمانية السرية ، تمكن النازى من أن يفتكوا بعدد كبير من المتطوعين ، وأن يحصلوا على كميات ضخمة من المعدات المزمع استخدامها وبهذه الطريقة أفسدوا جزءاً من مجهود الحركة السرية . هذا يبرر كيف أن قاذفات القنابل كانت تسقط بعد أن تفرغ شحناتها لا قبل ذلك ، ولكن انتهت سيطرة النازى على عملية القطب الشمالى ، عندما نجح اثنان من العملاء المقبوض عليهم فى الهرب والوصول إلى إنجلترا .

وهناك ميدان هام يدخل فى مجال أعمال المخابرات المضادة ، وهو محاولة اكتشاف ميادين الإثارة والهدم ومصادر الشائعات .

وسنعطى مثلاً لذلك فى قضية الصحفى مصطفى أمين الذى كان يمد ضابط المخابرات الأمريكى بروس تايلور بمعلومات غير صحيحة يهدف من ورائها الى استعداء أمريكا على مصر ، فلقد كان مصطفى أمين فى هذه القضية معول هدم كبير للعلاقات بيننا وبين الولايات المتحدة ، كما كان

من جهة أخرى عميلاً أمريكياً يمد المخابرات الأمريكية بمعلومات لها صفة السرية .

ومن بين المعلومات غير الصحيحة التى اختلقها مصطفى أمين وقدمها لضابط المخابرات الأمريكى : ضبط سيارة بها ديناميت فى طريق الإسماعيلية كانت معدة لنسف سفينة أمريكية محملة ببترول ، أو تهريب أسلحة إلى فيتنام عن طريق قناة السويس ، كما أخبره أن المصريين قاموا بتفجير آبار البترول فى ليبيا وغير ذلك من الشائعات التى تثير الجانب الآخر .

خلاصة

إن التحليل النهائى لعملية مقاومة الجاسوسية يقودنا إلى أنها نشاط له كل الصفات والخواص الهجومية والدفاعية ، فواجبها الدفاعى هو الحد من نشاط المنظمات المعادية ومنعها من اختراق الأهداف الحيوية للدولة ، كما أن واجبها الهجومى هو مهاجمة هذه المنظمات لشل نشاطها ، مما يسهل مسئولياتها الدفاعية ، ويتيح لها فرصة الحصول على المعلومات الضرورية لعملياتها بصفة خاصة ، ولأجهزة المخابرات بصفة عامة .

ومسئولية رجل مقاومة التجسس الحقيقية هي مواصلة جمع المعلومات عن نوايا المنظمات المعادية فى المستقبل وكذا أهدافها وإمكانياتها ، إذ إن نشاط العدو الحالى يعد معروفاً ومكشوفاً لخدمة مقاومة التجسس ... هذه التنبؤات والدراسة هى الوسيلة الفعالة لرجل مقاومة التجسس ، لكى يستطيع أن يشارك فى تحقيق أمن وطنه .

الفصل الثاني عشر

الإخضاع والتدريب

التخريب جزء من نشاط الجاسوسية

من المعروف منذ أمد بعيد ، أن أية أمة يمكن أن تعد لإخضاعها فى سهولة ويسر بوساطة إضعاف معنوياتها ، واضطراب استقرارها الإقتصادى، وإثارة الإضطراب السياسى ، ويبدو أن هذا العمل لا دور له فى التعريف الشعبي للجاسوسية ، ومع هذا فإن هذه العملية تعد جزءاً من نشاط الجاسوسية مثلها مثل جمع المعلومات العسكرية .

وهناك فى العصر الحديث مثلان بارزان للنشاط فى هذا الميدان ، أولهما دور القنصل الالمانى فى فارس — ايران فيما بعد — « وازمس » ، والثانى ما قام به اليابانيون فى البلاد الإسلامية فى غرب آسيا .

دور القنصل الألمانى فى فارس

فعندما بدأت الحرب العالمية الأولى فى أغسطس سنة ١٩١٤ ، كان الموقف

في فارس مضطرباً الى حد ما ، فقد قام صراع بين الألمان والإنجليز من أجل هذا الكسب الخاطف لامتيازات بترول فارس . وفى هذا الصراع لعب « وازمس » دوراً هاماً ، وعندما تسلم غيره من الموظفين الألمـــان جوازات سفرهم عندما بدأ العمليات الحربية وعادوا لبلادهم ، قرر هو البقـــاء حيث هو .

كانت تتوافر لوازمس عبقرية مثل عبقرية لورانس. كان يتكلم عدة لهجات عربية ، وكان يفهم العقلية العربية ، وقد تخير سلاح الذهب للتأثير على الناس، وبناء على تعليمات الأمبراطور الألمانى كان امداده بالذهب لا يقف عند حد .

كانت فارس بناءً على اتفاقيات دولية سابقة تحميها قوة محايدة مكونة فى غالبيتها من جنود سويديين ، واكتشفت بريطانيا بسرعة أن وازمس بذهنه سيستطيع أن يضع كل هؤلاء فى جيبه ، ودون أى تردد أرسلت بريطانيا حملة تولت الأمر فى جنوب فارس،وهذه القوة هى التى كان على وازمس محاربتها .

وقد أخذ وازمس معه الى ملجئه فى الجبال ١٤٠ ألف مارك ذهب ، حيث كانت نفحاته وهباته السابقة قد هيأت له أصدقاء أقوياء بين الزعماء المحليين . وبدأ الرجل يعمل لإتمام رسالته التى يمكن إجمالها فى الإشراف على الدعاية الألمانية وتوجيهها فى الخليج الفارسى العربى ، كذا تعطيل تنفيذ امتيازات الإنجليز للحصول على البترول ، وإخضاع جنوب فارس للنفوذ الألمانى ، وأخيراً ابقاء القبائل التى تعيش فى الجبال تناصر قضية ألمانيا ، وبذلك يمكن ضمان مواجهة أى تحرك عن طريق المقاومة .

وقد حقق الكثير من هذا بالمال ، ولكن الواقع أن عبقريته كانت أقوى من المال ، حتى أن الإنجليز كانوا يقدرونه بفيلقين من الألمان ، وقد وطد الرجل أقدامه بزواجه من ابنة أحد الزعماء الكبار كدليل على الحلف بين ألمانيا وفارس .

وقد احتفل بزواجه احتفالاً ظلوا لسنوات طوال يتحدثون عنه، فدعا للحفل كل رجل له قدرة فى فارس ، فضلاً عن عدد لا حصر له من الفلاحين والرعاة وصائدى الأسماك ، ثم جند فى هذا اليوم عدداً كبيراً لخدمة الجاسوسية الألمانية وكان الرجل يستطيع أن يحصل على كل ما يريد ، وكان كرمه مضرب الأمثال، واستطاع بالمال أن يصل بنفوذه حتى أفغانستان حيث أثار ثورة وطنية، وقد ضايق ذلك الإنجليز لدرجة أنهم أعلنوا عن منحة قدرها ثلاثة آلاف جنيه لمن يجيء به حياً أو ميتاً ثم رفعوها إلى أربعة عشر ألف روبية . وبالرغم من أن نشاط الحلفاء منع وصول الأموال إليه ، إلا أنه استطاع أن يبقى الرأى العام فى إيران إلى جانبه ، حتى أنه أثناء معركة السوم كان الناس فى فارس يصدقون قوله أن الجيوش الألمانية تغزو انجلترا ، وأن الملك جورج الخامس أعدم علانية.

وعندما نضب معينه انقلب عليه أصدقاؤه ، ولكنه منحهم الوعود ثم كتب لهم الصكوك ، واستطاع أن يبقيهم على حالهم إلى جانبه حتى جاءت الهدنة فأفلح فى الفرار خلسة .

النشاط اليابانى

وكان ميدان النشاط اليابانى أوسع مدى من نشاط « وازمس » ، ولما كان المشروع اليابانى يرمى إلى جعل كل آسيا تحت سيطرة اليابان ، فإن بلاد آسيا الإسلامية بالتبعية ضمن المشروع ، ولكن كان من الواضح أن اليابان يجب أن تسلك سبيلاً يختلف عن ذلك الذى تتبعه فى الصين ، فالمسلمون هناك لا يستطيبون الأفيون الذى كان السلاح الحاسم فى الصين .

كانت فى ميدان غربى آسيا عدة جمعيات وطنية تعضد اليابان ، إلا أن وزارة الخارجية اليابانية لعبت دوراً بارزاً ، إذ كانت المفوضات اليابانية فى البلاد الإسلامية قواعد للدعاية وجمع المعلومات ، كما بعث اليابانيون عدداً من جواسيسهم بين رجال السلك الدبلوماسى فى البلاد الإسلامية .

وبالإضافة لذلك فقد أنشأ اليابانيون مدرسة لتدريب العمـــلاء المسلمين ، ولكن كان العملاء فى الغالبية من اليابانيين .

وفى سنة ١٩٣٢ قررت بعض الهيئات اليابانية القومية ــ لا الحكومية ــ أن السياسة اليابانية الإسلامية يجب أن تنشط فى ميدانى الشرقين الأدنى والأوسط .

وكنتيجة لهذا بدأ رجلان هما « وكابيشى و « كاناكا » من رجال « مستورى تویاما » الرجل الذى أنشأ جماعة « المحيط الأسود » ، و« ربوهى أوشيدا » منشىء جمعية « الدراجون الأسود » أو « التنين الأسود » العمل ، فجندا الجنرال « أراكى » والجنرال « اسوجاى » اللذين كانا قد أسلما ، وتعلم الجميع لغات بعض الجماعات الإسلامية المختلفة ثم راحوا يحجون سنوياً إلى مكة ، ويضربون خيامهم بين خيام الحجاج المسلمين الذين يتكلمون لغاتهم ، وقد استطاعوا أن يحصلوا على معلومات قيمة وأن ينشروا بينهم دعاية واسعة ، ولكن قضت على كل هذه الجهود هزيمة عام ١٩٤٥ .

واستخدم اليابانيون نظاماً للإثارة فى جزر الهند الشرقية التى كانت اليابان تهتم بما فيها من مواد خام .

وقد عمل العملاء اليابانيون لإثارة الفقراء وحثهم على الانقضاض على الطغاة الهولنديين ، الذين يسلبون الجزر من ثرواتها .

وبدأت أعمال التخريب ، وكانت السلطات الحكومية تعرف أن الأهالى يدفعون دفعاً لهذا ، ولكنها لم تعرف أن اليابانيين وراء هذا كله .

وحقق اليابانيون انتصاراً كبيراً حتى فى ساعة محنتهم وهزيمتهم ، ذلك لأن أولئك الذين قاموا بتدريبهم ، كانوا هم الذين خرجوا على الهولنديين عندما انتهت الحرب العالمية الثانية .

متطلبات التخريب والتآمر

إن نجاح عمليات التخريب والتآمر يتطلب عدداً كبيراً من العملاء ، كما

يتطلب انفاق الكثير من المال ، ثم إنها عمليات تتطلب الوقت الطويل ، ولكن عندما لا يكون الوقت عاملاً ملحاً ، ويكون الإهتمام منصرفاً إلى النتائج ، فإن هذه الأعمال تكون ذات أثر فعال فى القضاء على العدو .

ومن ثم فإن التخريب يستخدم عنوة وعلى نطاق واسع فى الحروب كسلاح فتاك . والواقع أنه يعتبر بدعة استخدمها اليابانيون فى غزواتهم ضد روسيا فى بداية القرن الحالى . وبطبيعة الحال ادعت الدول الغربية فى ذاك الوقت أنه ليس ثمة ما يدعوها لاستخدامه بالرغم من النجاح الذى حققه اليابانيون فى هذه الناحية .

وكان الغرب يدعى أن التخريب شيء لا يتفق مع الروح الرياضية بالرغم من أنها وجهة نظر غير منطقية ، لأن هذا السلاح إذا تجرد من كل ما يغرى على استخدامه ،وتكشفت حقيقته العارية من حيث أنه يقوم على وسائل الغش والخداع ، فإن الجاسوسية بدورها مع أنها لا تساير الروح الرياضية يمارسها الغرب ويعد أهلها من أوائل من ينتهجونها .

ونحن وإن نكن نعتقد أن التخريب أحد الوسائل المساعدة لمجهودات الحرب إلا أن استخدامها وقت السلم يؤدى أغلب الأحيان إلى أن يقاسى السكان المدنيين من هذه الأعمال ، وكثيراً ما يفقد المدنيون أرواحهم للسبب ذاته . وفى الواقع ليس هناك سبب من الناحية الأدبية أو المنطقية — يدعو إلى عدم استخدام التخريب كسلاح من أسلحة الحرب . وليس هناك فرق بين الطريقة التى يتبعها كل من المخرب والجاسوس ، فيما عدا أن نتيجة المهمة التى يؤديها المخرب تكشف عن وجوده ولو أنه يأمل فى إخفاء شخصيته ، ثم عليه أن يطبق جميع الأوامر التى تنطبق على الجاسوس كمراقبة تعليمات الأمن ، وسرية الإنتقال من مكان إلى آخر وجمع المعلومات التى يصادفها ، وقبول الأخطار والعقوبات التى تواجه الجاسوس فى حالة إلقاء القبض عليه .

أهمية أعمال التخريب فى الحروب

ولكي نوضح أهمية أعمال التخريب فى الحروب نعطى مثلا من الحرب العالمية الأولى ، فقد تأكد الألمان من أهمية التخريب فى مساعدة المجهود الحربى وقاموا بتجنيد الكثير من المخربين ، وكان من بينهم رجل يعد من طليعة المخربين فى تاريخ الحروب الحديثة فى نصف الكرة الغربى — وهو كابتن فريتز غون رينتلين — .

كانت الولايات المتحدة الأمريكية قد احتفظت بحيادها فى الحرب العالمية الأولى فترة أطول بكثير مما فعلت فى الحرب العالمية الثانية ، ولكن ظلت مساعدتها للحلفاء على مستواها ، ولكن الألمان سرعان ما أدركوا قيمة المساعدة التى كانت تقدمها الولايات المتحدة إلى أعدائهم ، حتى إذا ما تأكدوا من ذلك، بادروا بإرسال أحد العملاء إلى الولايات المتحدة ، للعمل على منع أى مساعدة أمريكية من أن تصل إلى الحلفاء وذلك بأى وسيلة ممكنة ، واختاروا فون رينتلين للقيام بهذا العمل .

كان رينتلين قد التحق بالبحرية الألمانية فى سنة ١٩٠٣ وهو فى العشرين من عمره ، وكان من أفراد البحرية فى برلين عندما بدأت الأعمال العدوانية، فدفعه حب الوطن إلى قبول المهمة التى عهدت إليه ، ولدى وصوله إلى نيويورك فى أوائل سنة ١٩١٥ بدأ يمارس نشاطه ، واستمر على ذلك لمدة عامين حتى تعرض للخطر نتيجة أخطاء الملحق العسكرى الألمانى فى واشنطن ؟ « فرانز فون بابن » ، الذى أدت به تصرفاته فيما بعد إلى الوقوف أمام مجلس القضاء الأعلى فى ألمانيا ، ثم إلى قفص الاتهام أثناء محاكمات جرائم الحرب فى نورنبرج .

وأخذ فون رينتلين ينظم أعمال التخريب بكل جرأة ومهارة فائقة وتحقق له النجاح فى مهمته بسهولة كبيرة نتيجة قصور فى الجاسوسية المضادة الأمريكية فى ذلك الحين ، وبدا فى الولايات المتحدة أن ليس ثمة من يساوره

أدنى شك فى أن الانفجارات السرية على سطح السفن حاملة المؤن والذخائر وكذلك الحرائق التى كانت تشعل بطريقة خفية ، يمكن أن تكون بتدبير ذلك الرجل الذى تميز بالود والمحبة ، والذى كان عضواً فى أحد الأندية الخاصة ويتناول طعامه مع كثير من الشخصيات البارزة .

وبالرغم من أوجه نشاط وذكاء رينتلين وشبكته فلم يكن لذلك سوى أثر بسيط على تدفق المواد الحربية على أوروبا . ولكن — طبقاً لمبدأ أن لكل شيء قيمته مهما كان صغيراً — لم تذهب جهوده سدى على الإطلاق . فمن المؤكد أنه لولا تهاون فون بابن لما كان هناك سبيل لاكتشاف أمرهم .

لم يكن الملحق العسكرى الألمانى حريصاً بما فيه الكفاية عندما أخطر برلين المكاسب التى حققها رينتلين ، واستخدم لذلك شفرة سهلة لدرجة أنها كادت تقرب من اللغة المعتادة ، كما استخدم نفس الشفرة عندما أنبأ برلين بعودة رينتلين إلى ألمانيا مؤقتاً ، وتمكنت المخابرات البريطانية من التقاط هذه الإشارة الأخيرة ، وعند دخول باخرة الركاب الهولندية نوردام إلى القنال الإنجليزى صدرت الأوامر بإيقافها وتفتيشها . وبالرغم من احتجاج الرجل بأنه كان على ظهر سفينة محايدة ، فقد ألقى القبض عليه وكل ما استطاع البريطانيون أن يفعلوه هو وضعه فى السجن . ولكن عندما اشتركت الولايات المتحدة فى الحرب طلبت الولايات المتحدة إعادته إلى بلادها ، ثم كانت النتيجة أن قدم للمحاكمة حيث حكم عليه بالسجن لمدة أربع سنوات قضاها فى سجن اتلانتا ، حتى إذا ما أتم فترة الحكم كانت الحرب قد وضعت أوزارها وبدلاً من أن يعود إلى ألمانيا أقام فى إنجلترا حيث اعتقل مرة أخرى فى بداية الحرب العالمية الثانية ، وكان يعزى نفسه — بطبيعة الحال — بأنه إذا كان قد واصل نشاطه بعد دخول الولايات المتحدة فى الحرب لكان مصيره المحتوم — هو الإعدام رمياً بالرصاص .

ولقـــد قام الحلفاء من جانب آخر فى الحرب العالمية الثانية باغفال جميع الإعتبارات والتقاليد التى تكاد تمس الناحية الأخلاقية فيما يتعلق بمباشرة أعمال التخريب ، فقد قامت طائراتهم برد العدوان والانتقام ، وفى هذا المجال قد نتساءل ماذا يهم لو قام المخربون الألمان بنسف محطة للقوى الكهربائية وأضروا ببضع مئات من المدنيين فى أثناء قيامهم بتخريب مصنع للذخيرة تابع للعدو ؟ وماذا يعنى أن يقوموا بنسف قطار أو خطوط حديدية وبذلك يعطلون المدنيين من الانتقال من مكان إلى أخر ، أو يمنعون المواد الغذائية من الوصول إليهم ، أو حتى قتل بضعة أفراد منهم أثناء هذه العمليات ؟ فى الحقيقة كانت خسارة المدنيين فى الغرب بسبب التخريب تقل كثيراً لما تحدثه القنابل الفوسفورية التى كان يلقيها سلاح الطيران البريطانى ، الأمر الذى أثار الأمهات وحملهن على القاء أطفالهن المحترقين فى مجارى الأنهار والقنوات لكى يتخلصوا من العذاب والشقاء . فإذا قورنت أعمال التخريب بهـــذه الاجراءات فانها تعتبر أخف وطأة بكثير .

وهكذا أصبح التخريب سلاحاً معروفاً من أسلحة الحرب ، وأخذت منظمات المخابرات تعمل على تدريب المخربين والعملاء جنباً إلى جنب . وفى الحق كان الجواسيس يجمعون بين الجاسوسية وأعمال التخريب فى بعض الأحيان .

كما أن مقدار التخريب الذى حدث فى الدول المحتلة أثناء الحرب العالمية الثانية يعتبر خيالياً لدرجة أنه فى مجموعه لا يمكن أن يقع تحت الحصر ، كما كان الألمان يشعرون بالتهديد لدرجة أنهم اتخذوا أشد الاجراءات فى محاولات يائسة للتخفيف من حدته ، وكان المخربون إذا وقعوا فى الأسر يعدمون فى الحال رمياً بالرصاص حتى إذا تمكنوا من الهرب كان الألمان يأخذون قوماً أبرياء ويقتلونهم بدلاً منهم .

ومن ثم نجد أن التخريب صورة من صور « الحرب المدمرة » ، وهو عادة يهدف إلى إتلاف وتدمير النظام ، أو التنظيم العسكرى والاقتصادى للعدو . وهو عمل مضاد لإدارة العدو وإنتاجه الصناعى والغذائى وقوته المسلحة وخطوط مواصلاته ، بل وفى الجملة ضد أى شىء يعاون المجهود الحربى للعدو .

صور التخريب

ويجىء التخريب فى عدة صور مختلفة متباينة ، وليس من الضرورة أن تجىء كلها عنيفة ، فهناك عمليات مباشرة أى عمليات تخريب نشطة عنيفة فجائية ضد الأغراض والأهداف الرئيسية ، وهناك أعمال غير مباشرة أى سلبية ضد معنويات العدو وضد موارده المادية فى أسلوب وبوسائل غير عنيفة ، وهناك صورة تسمى « التدريب السيكولوجى » الغرض منه تكوين اتجاه لرأى عام وسط الجماهير ، للقيام بالإضراب أو لنشر الذعر والفوضى والاضطراب .

وتنفذ الأعمال المباشرة بعدة وسائل وعلى مستويات مختلفة ، وقد توجه ضد أغراض وأهداف أساسية رئيسية كالمصانع فى المناطق التى تتوافر للعدو فيها مؤسسات هامة ، وتنفذ مثل هذه العمليات عادة بوساطة عدد من الأفراد قد يصل أحيانا إلى المئات ، ويقال لهؤلاء الأفراد « جنود التخريب » ، ويسمون فى بريطانيا « الكوماندوز » وفى الولايات المتحدة « المغيريين Rangers » وفى ألمانيا « فرق براندنبرج Brandenburg » وفى الإتحاد السوفييتى « الأنصار Partisans » .

وقد توجه أعمال التخريب ضد أهداف صغيرة كغرفة المراجع فى أحد المصانع ، أو ضد كشك تحويلة على الخط الحديدى . وتنفذ هذه العمليات المحدودة جماعات قليلة العدد . فقد تتم بواسطة رجلين أو ثلاثة رجال ، وقد يقوم بها رجل واحد .

ويعد إشعال الحرائق والتدمير وإلقاء المتفجرات وتعطيل الآلات أو نسفها الصورة العادية لأعمال التخريب المباشرة ، وقد يمكن إشعال الحرائق بالوسائل العادية أو بغيرها عن طريق إلقاء السوائل والمركبات الحارقة التى لا تتطاير ، أو بزيادة إجهاد الآلات فى المصانع التى لها أهمية خاصة للإنتاج مما يسبب اشتعال النار فى محركاتها .

وتستخدم المفرقعات بما فيها القنابل والمحركات الزمنية التى تسبب الانفجار فى أوقات محددة ضد طرق مواصلات العدو ومؤسساته الاقتصادية ، كمراكز القيادة والإدارات الحكومية ومستودعات الذخيرة ، وخطوط البرق ومحطات الرادار وما إليها .

وهناك غير هذا من الوسائل المباشرة نجده فى تدمير الآلات بوضع « تراب الصنفرة » فى أجزاء دقيقة من الآلة ، أو بوضع مزاليج « ترابيس » أى أشياء تسبب انسداد المحركات ومولدات الكهرباء : أو بسد الأجزاء التى تقذف بالصلب العادم الذى يتبقى من آلات الخرط ، أو حتى ما هو أيسر من هذا مثل إلقاء بعض المفاتيح العادية داخل المحركات . وقد توجه العمليات المباشرة ضد الأفراد ، كأن يقتل الحراس أو تخطف بعض الأفراد الذين لهم أهمية خاصة أو أن يغتالوا .

أما التخريب غير المباشر فيأخذ شكل عمليات فردية تهدف إلى تنفيذ أعمال ما بدون عنف واضح ، والصورة المألوفة لهذا هى التشجيع على تخفيض مستوى الإنتاج ، أو إبطاء اتمام الأعمال الإنشائية ، فترك العامل عمله بدعوى اصابته بالبرد قد يؤثر فى مستوى الإنتاج ، وإغفال عامل واحد لتزييت المحركات وتشحيمها ، قد يؤدى إلى حدوث كسر أو شرخ فى الأجزاء المتحركة من الآلة ، وبذلك تتعطل لأيام أو ساعات فيتعطل بالتبعية الإنتاج . والعادة أن توضع الأجزاء الاحتياطية فى غير أماكنها ، وبذلك لا يسهل الوصول إليها عند الحاجة ، ويتطلب البحث عنها ساعات تبعاً لتعدد أماكن

حفظ الأجزاء الاحتياطية، فتتعطل لهذا الآلة التى تكون تحت الإصلاح. وتسبب هذه الأعمال غير المباشرة فى جملتها تأثيراً كبيراً عندما تتجمع معاً، وفى ربيع سنة ١٩٤٩ استخدم ربع مليون عامل فى إيطاليا مثل هذه الأساليب السلبية غير الواضحة فى مصانع المعادن ، فكانت نتيجة ذلك هبوط مستوى الإنتاج بنسبة ١٦ ٪ .

ويعد السلب المنظم لمستودعات العدو صورة أخرى من صور التخريب، والهدف هو حرمان العدو من المواد الخام ، ومن الأجزاء الاحتياطية التى يحتاجها للإبقاء على الإنتاج المستمر الذى لا يتعطل .

ويهدف التخريب السيكولوجى إلى القيام بالإضراب أو نشر الذعر والفوضى أو إقلاق وإزعاج العدو فى مقر داره أو فى المناطق التى تحتلها قواته المسلحة ، وعندما كان الصبيان فى الصين أثناء الحرب العالمية الثانية يلقون السوائل الكريهة الرائحة على الضباط اليابانيين ، كانوا يقومون بذلك بلون من ألوان « التخريب السيكولوجى » . وفى تشيكوسلوفاكيا كانت الجماهير أثناء الإحتلال الألمانى لها توجه بوساطة جماعة المقاومة السرية لكى لا تبتاع الصحف فى أيام محدودة .

وقد يسبب « التخريب السيكولوجى » نتائج خطيرة ، كأن يطلب مخرب أحد المصانع تليفونيا ويخبر عامل التحويلة بأن ثمة قنبلة وشيكة الإنفجار فى داخل المصنع . وقد استخدم المخربون الألمان هذه الطريقة عدة مرات فى الولايات المتحدة أثناء الحرب العالمية الثانية ، والعادة أنه بحدوث هذا الإتصال التليفونى، يتوقف العمل ويترك العمال أماكنهم بسرعة ، ويبدأ البوليس والحراس البحث عن القنبلة ، ولن يتم التأكد من خلو المكان تماماً من أى متفجرات قبل مرور وقت طويل ، وهكذا دون استخدام أى هدف ودون إحداث أى ضرر مادى، يتعطـــل العمل وينخفض الإنتاج الذى ربما كانت الحاجة ملحة إليه .

والتخريب البحرى من أدق أنواع الحرب الخفية ، ويهدف دائماً إلى العمل ضد السفن والمنشآت البحرية وطرق الملاحة ، ويمكن أن يضطرب عمل البوصلة بإدخالها فى مجالات مغناطيسية . وتشتعل الحرائق فى السفن بسكب كازولين على الفحم وعلى الأخص فى الجو الحار ، وكذلك يسكب سائل الكيروسين على اللحوم والمواد الغذائية التى تحملها السفن لإتلافها . وقد تتجه هذه الأعمال إلى إغراق السفن بواسطة فتح صمامات الغلق الموجودة أسفل السفينة وبذلك تمتلىء بالماء ، ومن أعمال التخريب التى توجه ضد السفن عندما تكون وسط البحر أو عندما تكون فى الميناء ، القيام بقطع الكابلات الكهربائية ، إذ إن اصلاحها يتطلب وقتاً طويلاً ويعطل هذا من رحيل السفن .

وغالباً ما تتجه أعمال التخريب فى الموانىء إلى تعطيل آلات الرفع ، وبذلك تتعطل عمليات الشحن والتفريغ ، أو قد تغير العلامات الموضوعة على صناديق البضائع مما يعطل تسليمها أو يربك أماكن إنزالها ، فتوجه إلى مناطق غير المقصود تسليمها فيها والتى تحتاجها فعلاً ، وقد يعطل هذا من تصحيح توجيهها لشهور ، وقد يعمل المخربون الذين يقومون بإثارة العمال إلى نشر بذور الاضراب فى صفوف العمال ، وحتى ولو امتنع عن العمل فقط عمال آلات الرفع وحدها ، فإن الميناء كله تجمد حركته .

تخريب موارد العدو فى الحرب

إن التخريب أو التدمير المعنى به والموجه ضد الموارد المادية الهامة للعدو وضد منشآته الصناعية ، هو فى الواقع من بين أحدث وسائل وأساليب الحرب ، وقد أدرك الأمريكيون قيمته نتيجة ما حدث للألمان فى سنة ١٩١٦. فقد حدث أن انفجر مستودع ذخائر للألمان عند « اسبينكورت » فى فرنسا ، ولم يعرف أى فرد كيف ولماذا حدث هذا الانفجار ، ولكن ما حدث هو أن ٤٥٠,٠٠٠ طن من القنابل انفجرت كلها ، وبذلك لم يستطع الألمان أن يمدوا

مدفعيتهم بحاجتها من الذخائر أثناء معركة فردون ، وقد عاونت هذه الحادثة في إنقاذ « فردون » .

على أنه إذا كانت عمليات التخريب قد لعبت دوراً صغيراً غير هام طوال الحرب العالمية الأولى فقد قامت بدور واسع المدى فى الحرب العالمية الثانية ، وقد اعتبرها الألمان سلاحاً حاسماً أعدوا العدة له قبل الحرب العالمية الثانية بوقت طويل ، ودربوا عدداً كبيراً من المخربين . والواقع أن أدولف هتلر قد بدأ عملياته الإعتدائية عام ١٩٣٩ بعملية تخريب مزورة ، إذ قام ستة من المخربين الألمان فى ثياب الجنود غير النظاميين البولنديين بمهاجمة محطة ألمانية للراديو فى داخل أراضى ألمانية ، وهكذا كان من الواضح أن من حق هتلر أن يقوم برد هذا الاعتداء ، فبعث بالجيوش الألمانية لغزو بولندة ، وبذلك عمد هتلر إلى أن يضع المعتدى عليه فى صورة المعتدى كى يموه على التاريخ .

وكانت لهتلر سابقة مماثلة ، ففى ١٨ أبريل سنة ١٩٣٨ نظم هتلر عملية اغتيال المبعوث الألمانى فى براج بواسطة أحد رجاله المقربين منه ، وبذلك برر عملية هجومه الاستراتيجى على تشيكوسلوفاكيا .

ولم تنفذ خطة سنة ١٩٣٩ فى ذات الصورة التى نظمت بها عملية الإغتيال التشيكية سنة ١٩٣٨ . ويدلنا التقرير الذى حرره رجل يدعى « ألفريد هيلموت نوجوكى » من جنود العاصمة أنه أمر بتدبير هجوم على محطة الراديو قرب « جليوتيز » على الحدود المشتركة بين بولندا وألمانيا ، وأعطيت هذه العملية الاسم الكودى « كاندجودز » أى بضائع محفوظة وكانت الفكرة تكمن فى الاحتفاظ بالمحطة إلى أكبر وقت ممكن » ، حتى يستطيع بولندى يتكلم الألمانية أن يقوم بتوجيه إذاعة بالألمانية يهاجم فيها ألمانيا الهتلرية ، وقد نفذت الخطة بوساطة خمسة من جنود العاصفة الألمانية يعملون فى خدمة البوليس السرى الألمانى ويرأسهم نوجوكى نفسه، وترك هؤلاء وراءهم في جوار المحطة

سجيناً كان من معسكرات الإعتقال ، ووضعت معه أوراق بولندية فوراً لإثبات أن البولنديين هم الذين قاموا بهذه الإغارة الغادرة .

وقد نفذت الخطة فى الساعة الثامنة مساء الحادى والثلاثين من أغسطس سنة ١٩٣٩ طبقاً للتدبير المعد لها من البداية ، وكان هذا قبل الوقت الذى اجتازت فيه الجيوش الألمانية حدود بولندة بتسع ساعات ، وأرسل الجستابو رجالهم إلى محطة الراديو فوجدوا هذا الأسير الذى نقل من معسكرات للإعتقال مغمى عليه وفى النزاع الأخير بتأثير حقنة أعطاها له طبيب من الجستابو ، وقد احتل المخربون الألمان المحطة لمدة ٤ دقائق أذيعت فيها الخطة التى كانت مسجلة من قبل ، وقد أطلقوا عدة طلقات ورحلوا تاركين وراءهم « البولندى » المزعوم عند باب محطة الراديو وحصل بذلك هتلر على ما يبرر عمليته الإعتدائية التى أطلق عليها « الهجوم المضاد مع المطاردة » .

ولم تستطع جماعات التخريب الألمانية التدخل تدخلا ناجحاً ضد الحلفاء ، ويرجع هذا جزئياً إلى أن قادة المخابرات الحربية الألمانية والذين كانوا يتولون المسئولية من أعمال التخريب ، قد اعترضوا على هذه العملية على أساس أنها غير مؤثرة ، ولكن عندما أزيح هؤلاء من الطريق ، جاء بدلهم بعض زعماء النازية وعلى رأسهم جندى نمسوى من المتطلعين إلى الكسب اسمه « ارتو سكورزيني » ولكن لم يتوافر لهؤلاء الوقت الكافى ليقوموا بأعمال التخريب الخطرة إذ كانت الحرب قد انتهت .

ولكن إذا كان الألمان قد أخفقوا فى أعمال التخريب ، فقد نجح الحلفاء نجاحاً باهراً ، وقد تقبل الحلفاء عمليات التخريب على أنها عمليات قانونية تنطبق على قانون الحرب وذلك تبعاً للتأثير الكبير الذى تفرضه ، وعلى أساس أن الحلفاء مرغمين على القيام بهذه الصورة من صور الحرب فى أوروبا وآسيا طوال المدة من سنة ١٩٤٠ إلى سنة ١٩٤٤ ، وقد أمكن التغلب على كل صور الاعتراض القديمة التى كانت ماثلة للأذهان .

وقد كتب بروث مارشال يقول : « إن عمليات التخريب أدق وأكثر رحمة من التدمير الجوى ، فإن إرسال عميل مدرب إلى داخل أحد المصانع يمكنه من إتلاف قطعة ضرورية من آلات المصنع فى سهولة ويسر ودون أية خسائر فى الأرواح ، وبذلك يتعطل المصنع تعطيلا تاماً ، ولا يستطيع سرب كامل من قاذفات القنابل أن يحدث هذا التعطيل إلا بمحض الصدفة » .

وقد وضحت قيمة عمليات التخريب عندما ثبت أن الأمر تطلب اسقاط ١٧٥٠٠٠ قنبلة حارقة بوساطة قاذفات القنابل ، لكى يمكن الوصول إلى إتلاف يعادل ما فعله المخربون الألمان سنة ١٩١٦ فى ميناء نيويورك وحدها ، إذ فشلت سبع غارات جوية متتالية فى تدمير أحد الجسور فى فرنسا ، ثم أمكن فيما بعد تدمير هذا الجسر بوساطة اثنين من المخربين وضعا بعض مفرقعات أسفل الجسر فى ظلمة الليل ، ثم أشعلا فتيل النسف وانصرفا فى هدوء دون أن يبصر بهما أحد . واستطاعت جماعة واحدة من المخربين الروس فى ستة وعشرين شهراً أثناء الحرب العالمية الثانية أن تدمر ٥٢ قطاراً من قطارات السكك الحديدية ، وأن تنسف ٢٥٦ جسراً و ٩٦ مستودعاً من مستودعات الذخيرة ومصنعين من مصانع تكرير البترول و ١٥٠ ميلاً من طرق المطارات و ٢٠ دبابة ، كما قتلت أكثر من ١٠٠٠ جندى ألمانى ، وغطت هذه الجماعة وغيرها من جماعات المخربين لمسافة تقرب من ستمائة ميل وراء خطوط الألمان .

على أنه ليس من السهل الإشارة إلى دولة من الدول المحتلة دون القول بأن « هذه الدول ضربت الرقم القياسى فى التخريب » . ففى النروج والدانمارك وهولندا وفرنسا كانت حركة المقاومة على أشدها ، لدرجة أنه تم تدمير أهداف معينة على نطاق واسع لا يصدقه العقل .

وفى الفترة بين يونيه وأكتوبر سنة ١٩٤٤ قام المخربون النروجيون بتدمير مصنع لحامض الكبريتيك اللازم للمتفجرات الألمانية ، وخمسة وعشرين من الطائرات المقاتلة مسرشمدت ومائة وخمسين من محركات الطائرات

ومستودع للزيوت يحتوى على خمسين ألف جالون من الوقود الخام . وفى المدة بين يوليو سنة ١٩٤٤ ومايو سنة ١٩٤٥ قامت حركة المقاومة فى الدانمارك بإخراج ١١٩ قطاراً عن خطوطها ، وقامت بتدمير ٩٢ قرية و ٥٨ قاطرة و ١١ رافعة و ١٤ صهريجاً للميـــاه و ٢٥ من أكشاك الإشارة وثمانية جسور وثمانية من حظائر القطارات و ٩ من أجهزة تحويل القطارات و ٢١ من أماكن ملتقى الخطوط الحديدية و ٤٠٨ من القضبان المتحركة لتغيير اتجاه القطارات كما شن أفراد الحركة ٧٥١٢ هجوماً على الطريق الرئيسى ، وكل هذا كان ميداناً واحداً للتخريب . وكان الهجوم يعد بنظام ويزداد شدة كلما استمرت الحرب ، كما شمل الهجوم المصانع التى كانت تعمل لصالح الألمان ، ومصانع القوى الكهربائية ، كذا السفن الحربية التابعة للعدو ، ومستودعات الزيوت والأسلحة والذخيرة والسيارات واللوريات وغيرها .

ولعل أهم أعمال التخريب التى حدثت خلال فترة الحرب هى تدمير مصنع المياه الثقيلة فى « رزوكان » فى النرويج بمعرفة « كنوت هوكليد » ، لأن هذا النوع من التخريب كان سبباً فى حرمان الألمان من التفوق فى ميدان تطور القنابل الذرية ، ذلك لأنه قبل الحرب كانت « نورسك هيـــدر Norsk Hydre » وهى المنظمة الرسمية للكهرباء الهيدروليكية قد أقيمت فى واد بالقرب من رزوكان فى « هاردنجر فيدا » وهى منطقة جبلية قحلاء بها عدد قليل من السكان تقع جنوب خط « أوسلوبيرجن » ، وكان قد أنشأ بهذه المنطقة مصنع لإنتاج المياه الثقيلة، وكان الإنتاج قليلا لأنها كانت عملية معقدة تحتاج لسنة كاملة لإنتاجها .

وعندما وردت الأنباء إلى إنجلترا فى مستهل مايو سنة ١٩٤٠ بأن الألمان أصدروا الأوامر إلى منظمة « نورسك هيدر » بزيادة إنتاجها إلى ثلاثة آلاف من الأرطال سنوياً أصبح مصنع « رزوكان » محط أنظار شبكة الجاسوسية البريطانية التى كانت تمارس نشاطها فى جنوب النرويج ، ولم يصل الموقف إلى درجة الخطورة حتى بداية سنة ١٩٤٢ ، عندما زادت مطالب الألمان إلى

عشرة آلاف رطل سنوياً ، وحينئذ كان لا بد من صنع أى شيء .

وبذلت محاولة لإلقاء القنابل ولكنها فشلت ، وكذلك أرسلت طائرات الجلايدر ولكنها أصيبت بكارثة لدى هبوطها ، ومن ثم بدا أن الحل الوحيد هو الهجوم بقوة خاصة تسير على البر .

وعلى ذلك تقرر إجراء عملية تخريب ، ووضعت الخطة لعملية أطلق عليها « جانرسايد Gunner Side » وكان قائدها كابتن « كنوت هوكليد » الذى كان عليه فيما بعد أن يضع خطة وينفذ إحدى العمليات ضد « رزوكان » .

وكان الألمان يرون أن خمسة عشر رجلاً تعد قوة كافية لحماية المصنع لأنه كان بعيد المنال . وكان فريق « هوكليد » يكون من تسعة أفراد مقسمين إلى قسمين . أحدهما يتولى وضع المتفجرات ، ويقوم الآخر بحمايته ، وكانت حركه قد دبرت بعناية من قبل ، كما كان كل رجل يعرف واجبه بالضبط .

وبالرغم من أنه لم تكن هناك مشقة فى التغلب على الحراس ، إلا أن أفراد فريق التدمير واجهوا صعوبات أشد مما كانوا يتوقعون . وهنا يقول هوكليد: « عندما حدث الانفجار أخيراً بدا بسيطاً ولم تكن له قيمة كبيرة مما يبعث على الدهشة ، ومع ذلك فإن هذا الانفجار البسيط فى « فيرمورك » أوقف حركة تلك التركيبات المركزة وهذا ما دلت عليه التقارير الأولى » .

وباستثناء هوكليد وأحد رفاقه عادت مجموعة المخربين إلى السويد ، وخلال المدة الباقية من شتاء سنة ١٩٤٢ أخذ هوكليد يعمل مع منظمة المقاومة العسكرية ، حتى إذا حل صيف ١٩٤٣ ، اتضح أن الهجوم لم يحقق بما كان متوقعاً له من نجاح ، وبعد مجهود شاق لمدة أربعة أشهر أو خمسة تمكن الألمان من إعادة المصنع للإنتاج مرة أخرى .

وازداد عدد الإغارات الجوية على المصنع ولكن لم يكن لها أثر يذكر ، وأخيراً قرر الالمان نقله إلى ألمانيا .

وطلبت لندن إعداد هجوم آخر ، ولكن الألمان كانوا قد ذهبوا فى إجراءاتهم شوطاً بعيداً ، ولم يكن هناك من الوقت ما يكفى لإعداد هجوم يحقق الغرض منه ، فاقترح هوكليد أن أفضل حل هو الانتظار حتى توضع أوعية المياه الثقيلة فى زورق ببحيرة « تنسجى » ووافقت لندن على هذا الإقتراح».

وكانت بحيرة « تنسجى » قريبة من « رزوكان » من ناحية الشرق ، كما كان هناك خط حديدى يربط بين « رزوكان » وشمال البحيرة ، كذا قطار يصل بين شمال البحيرة والخط الحديدى الموصل إلى البحر .

وارتدى هوكليد ملابس العمال وتعرف على الزورق ورسم خطته ، وكان يوم الأحد ٢٠ من فبراير سنة ١٩٤٤ هو اليوم الذى اختاره الألمان لنقل المياه الثقيلة .

وفى أثناء الليل صعد هوكليد ورفيقه إلى سطح الزورق ، وتمكنا من إقناع حارس الليل لكى يخفيهما باعتبارهما من الهاربين ، حتى إذا ما أعد لهما مكاناً فى جوف الزورق بدآ فى الحال فى وضع كمية من المتفجرات لنسف أحد عشر قدماً مربعاً من جانب الزورق مما يجعل إغراقه أمراً محققاً ، ثم قاما بإعداد المفرقعات لكى تنفجر فى الساعة الحادية عشرة من صباح يوم الأحد حيث يصبح الزورق — إذا سارت الأمور على ما يرام — فى أعماق البحيرة . بعد ذلك انسحب كل منهما واعتذرا للحارس بأنهما نسيا شيئاً فى « رزوكان » على قدر كبير من الأهمية بحيث لا بد لهما من المخاطرة لكى يعودا لإحضاره .

وتم كل شىء طبقاً للخطة المرسومة ، وغرق الزورق بحمولته من تلك المياه الثقيلة ذات القيمة الكبيرة وهى كل ما تبقى من كميات فى النرويج ، كما غرق أربعة من الألمان وأربعة عشر من النرويجيين الأبرياء . وبهذه المناسبة أخذ هوكليد يعزى نفسه بتفكيره فى أن الحلفاء قد ضحوا بستة وخمسين من الأرواح ، منها أربعة وثلاثين فى عمليات الطائرات الزاحفة واثنان وعشرين أثناء الغارات الجوية .

ولا شك أن الهجوم الذى دبره هوكليد على المياه الثقيلة فى النرويج ، كان سبباً فى إنتاج القنبلة الذريه .

ومن هذا البيان القصير لما قام به هوكليد من أعمال باهرة ، يتضح الارتباط الوثيق بين عمليات كل من الجاسوس والمخرب . وفى الحق يمكن تسمية المخرب بالجاسوس المسئول عن التنفيذ . ومن المسلم به حقاً أن المخرب سوف يكون له دور يعادل — من حيث نشاطه وقيمته — ما يقوم به الجاسوس فى المستقبل من جمع العمليات الحربية التى تدور من وراء الستار .

وعمليات التخريب تعتبر من العمليات المعقدة حتى لو استخدم فيها عميل واحد فقط كما أنها كأعمال المخابرات تتطلب تحضيرات عسكرية واقتصادية وفنية وسيكولوجية ، كما يجب أن تكون لها خطة استراتيجية عامة ، وأن توضع توجيهات تكنيكية للعمليات الفردية . وتتطلب عمليات التخريب تنظيمات جيدة سواء فى مراكز الرياسة أو فى الميدان ، كذا فى أرض الوطن أو فى الخارج ، كما يجب أن توفر لها خطوط مواصلاتها وتموينها الخاصة ، وأن تستخدم بأفراد يختارون ويدربون خصيصاً لهذه العمليات .

إن المشروع الخاص بالتخريب يجب أن يجمع بين كل هذه العوامل المختلفة ، ومن هذا يجب أن يعنى بدراسة هذه العوامل كل على حدة .

خطة التخريب

يجب أن يدرك منذ البداية أن كل شىء يتوقف على شجاعة المخرب ويقظته وقوة ابتكاره ، وعملية التخريب تبدأ من خطة عامة توضع فى مستوى استراتيجى ثم تنقسم إلى توجيهات تكتيكية لعمليات فردية .

وتعد خطة « التخريب » فى مراكز الرياسة على أساس المطالب والاحتياجات العسكرية ، كما يجب أن تستند إلى أدق العمليات التفصيلية للمخابرات ، وفى

هذه الخطة تقدر وتقيم كل امكانيات العدو التى يمكن القيام بتخريبها وإتلافها وتتضمن هذه الإمكانيات المواد الخام وموارد قوة للصناعات الإسلامية والقوات العسكرية والأغذية وموارد المياه والصناعات الاحتياطية وخطوط المواصلات ووسائل النقل .

ويمكن الحصول على المعلومات الخاصة بهذه كلها بواسطة « الإستكشاف العام » وتوجه عمليات الإستكشاف هذه إلى تحديد الأهمية العسكرية والاقتصادية التى للمناطق الصناعية فى بلاد العدو وتحديد أماكن المصانع المختلفة داخل هذه المناطق . وتبدأ بعد هذا عمليات « الإستكشاف الخاص » ، أى العمليات التى توجه للحصول على المعلومات اللازمة للعمليات الفنية التكتيكية للتخريب .

ويجب عند إعداد خطة التخريب أن يقدر منذ البداية المدى الذى يجب أن تصل إليه عمليات التخريب ، ويجب أن تعد كل هذه الخطوط على أسس بعيدة المدى ، كما يجب أن يضع الأفراد الذين يعدون خطط التخريب هذه فى أذهانهم أن للعمليات غير المحدودة تأثيراً كبيراً له خطره فى مرحلة إعادة التعمير بعد الحرب ، بل ولها أثرها أيضاً فى عمليات قواتهم نفسها أثناء الحرب عندما تصل إلى هذه المناطق الخربة ، والقائد العسكرى المحنك لا يقوم بعملية تخريب على نطاق واسع فى مناطق يتوقع أن يحتلها بعد وقت قصير ، ذلك لأنه ربما يجد عندما يصل إلى هذه المناطق المخربة أن تدمير الجسور وتخريب خطوط المواصلات يعطل تقدمه أو تقهقره أكثر مما تعطله عمليات العدو .

وقد أمر هتلر فى غمرة غضبه الذى أعماه بتدمير واسع النطاق ضد وارسو عاصمة بولندا ، بالرغم من أنه كان واثقاً من أن المدينة ستسقط فى أيدى قواته بعد أيام قليلة ، وقد ثبت أن هذا التدمير الذى قام به الألمان كان خسارة لهم ، وأن وارسو بدلاً من أن تكون عوناً لهتلر كانت عبئاً على قواته .

وعند إعداد خطة التخريب يجب أن ينظر إلى كل هدف على حدة ، أى فى صورة أقرب ما تكون إلى الصورة التى كانت تنظر فيها القوات الجوية الى أغراضها وأهدافها .

ويتم اختيار الغرض ونعنى به المنطقة أو المصنع أو المنشأة التى تعد العدة لتخريبها من البداية ، وتوضع كل المعلومات الخاصة بها فى ملفات يُقال لها « ملفات الأغراض » ، ويحتوى كل ملف على تعليمات الحربية ، كما يحتوى على الخرائط وتقارير المخابرات الخاصة وتقدير القيمة الصناعية أو الاقتصادية لهذا « الغرض » ، وكذا التقريرات الخاصة بترتيبات الوقاية والأمن فى ذلك الغرض على أن تكون هذه المعلومات غاية فى الدقة وأن تكون كاملة التفاصيل .

كما يحتوى الملف أيضاً على كل تقديرات الموقف وعلى درجة الأهمية التى للغرض وعلى أهميته النسبية نحو عمليات الفرد نفسه ، فضلاً عن أهميته بالنسبة للعدو وعلى أهميته بالنسبة للاقتصاد القومى فى أرض العدو .

تنظيم منظمات التخريب

وتعد أعمال التخريب — بالنسبة للحركات السرية — واحدة من الأنواع الثلاثة الرئيسية التى تتطلب خلايا وأطقما خاصة لمزاولتها . والنوعان الآخران هما « المخابرات » و « الدعايـــة » . وتسمى أعمال التخريب أحيـــاناً « أعمال الخلايا » وتنظم فى جماعات للمناطق والأقسام والنواحى ، وتتولى كل جماعة تبعاً لمسرح أو ميدان عملها تنفيذ أعمال التخريب بواسطة أفراد من المواطنين ، والعادة ان تعد خلايا خاصة لتلقى المواد التى تهرب إلى داخل الدولة ، وتنظم هذه الخلايا فى الأسلوب نفسه أى فى مناطق ، وتتولى الخلية الخاصة بكل منطقة حل كل مشكلات تموينها بنفسها ، وهى التى تتولى الأعمال الخاصة بالإستقبال والتوزيع للمواد والعتاد فى داخل منطقة عملها .

وتتولى منظمات التخريب عادة صيانة وسائل النقل التى تستخدمها ، كما أن لها وسائل المواصلات الخاصة بها ، وتتكون وسائل النقل من القوارب السريعة والغواصات والطائرات الصغيرة ، وتستخدم هذه لإنزال الأفراد إلى أراضى العدو ، كما أن لها الطائ ات الكبيرة التى تمكنها من إنزال الأفراد بالمظلات وراء خطوط العدو . وفى أوائل أيام الحرب العالمية الثانية كانت منظمات التخريب تعتمد على الأساطيل البحرية والجوية للدول لإمدادها بوسائل النقل ، ولكن عندما اتضح عدم إمكان الاعتماد اعتماداً كلياً على القوات النظامية سواء البحرية أو الجوية حصلت منظمات التخريب على وسائل النقل الخاصة بها .

وتتكون شبكات المواصلات من الرسل وعمال اللاسلكى وغير هذا من أفراد ووسائل المواصلات التى تستخدم فى أعمال المخابرات ، وقسم المواصلات فى مركز رئاسة أعمال التخريب هو عضو منظمة التخريب ، وتعمل بالتعاون معه — نقط المواصلات التحويلية فى مسرح العمليات — وذلك لضمان استمرار الاتصال بين مختلف الجماعات داخل منطقة عمل المنظمة . وفى عمليات التخريب يعد الراديو خير وسيلة للاتصال ، ومع هذا هناك وسائل أخرى تستخدم لضمان الاتصال الشخصى ولنقل الرسائل بوسائل غير مباشرة .

التنظيم والمعرفة الخارجية والتوجيه

عندما تستخدم أعمال التخريب على نطاق واسع ، أو عندما تصحب بصدام مسلح . أو عندما تستخدم فى الحرب الباردة ، يستحيل أن تكون منظمات التخريب مستقلة فى عملها أو أن تكون مسئولة وحدها عن حل مشكلاتها ، حتى ولو تكونت وشكلت من مواطنى الدولة التى سيُشن الهجوم عليها ، لأنه لا يمكن أن تعيش هذه المنظمات لو تركت لنفسها .

ولكى يكون عمل هذه المنظمات مؤثراً ، فمن الضرورى أن تنظم وأن تمون من الخارج وللمعاونة المادية أهميتها الحاسمة ، ولكن التوجيه السياسى والتوجيه الدبلوماسى (*) ضروريان أيضاً ، وبالتبعية يعد الاتصال بين كل منظمات جماعات التخريب فى الميدان وكذلك إمدادها بحاجتها من امدادات وأدوات ، بل وإمدادها بالتوجيهات السياسية والاستراتيجية والارشادات التكتيكية أمراً ضرورياً .

وعمليات التخريب تعد سلاحاً رئيسياً من أسلحة الحرب النفسية ، وهى كأعمال المخابرات تتطلب تحضيرات عسكرية ، واقتصادية وفنية ، وسيكولوجية وتعتمد فى خطتها أساساً على المعلومات التى توفرها أجهزة المخابرات الإيجابية وغالباً ما يقوم بتنفيذها عملاء من رعايا الدولة نفسها التى تتم فيها الحوادث .

ومن أجل هذا تقوم المخابرات الوقائية بإجراء الاحتياطات المضادة عن طريق تأمين المنشآت والمصالح والمرافق الحيوية ، وذلك بعد دراسة دقيقة للموقع ونظام العمل وطبيعته والأفراد الذين يعملون فيه ، وهذا ما يسمى بمشروع الأمن .

على أن أسلوب مقاومة التخريب يجب أن يهدف إلى مقاومة الأعمال التخريبية فى جميع أشكالها وصورها ، مادية أو معنوية ، مباشرة ، أو غير مباشرة . وتعتمد مقاومة التخريب على الدراسة العلمية لاحتمالات التخريب

(*) في الأصل Political and Diplomatic وقد تعنى الكلمتان شيئاً واحداً عند النظر اليهما فى بساطة ، ولكن في الواقع أن كلمة Diplomatic تعنى الكياسة فى التعامل بين الدول وبعضها البعض فى العلاقات التى تربط بينها ، أما كلمة Political فتعنى الاتجاه الذى تتبعه حكومة ما فى الشئون الخاصة بها ، والمصالح التى تعنى بتحقيقها لرعاياها جملة وأفراداً (راجع معجم وبستر ص ١١٣٢/٤١٣) .

والأماكن المعرضة له ، وعموماً تعتمد على العناصر الآتية :

١ ــ إعتماد الدراسة والمعرفة فى توجيه الأعمال التنفيذية .

٢ ــ إعتقال المخرب قبل أن يبدأ عملياته. ومن الأمثلة التى مارستها مخابراتنا فى هذا المجال قضية العميل الإسرائيلى « وولف جانج لوتز » الذى كلفته المخابرات الإسرائيلية بما يلى :

ــ جمع معلومات عن المجهود الحربى .

ــ جمع معلومات عن الخبراء الأجانب الذين يعملون فى تطوير المجهود الحربى بغرض مباشرة عمليات التخريب المادى والقيام بأعمال التدمير والاغتيال وكذا مباشرة تعليمات التخريب المعنوى بإرسال خطابات التهديد لهم وتوزيع المنشورات المعادية التى تهدف إلى التفرقة والانقسام .

ومن ذلك يتضح فى هذه الحالة أنه لا يمكن أن نفرق بين مقاومة التجسس ومقاومة التخريب .

أهمية اختيار الأفراد

ومنظمة الجاسوسية مثلها مثل أعمال المخابرات تنجح أو تفشل بسبب أفرادها العاملين فيها ، والواقع أن مسألة الأفراد أكثر أهمية فى عمليات التخريب عنه فى الجاسوسية نتيجة تعقد طبيعة هذه العمليات ، وبسبب حقيقة احتياجها إلى استخدام أفراد بعدد أكبر مما يستخدمون فى عمليات الجاسوسية ، ولهذا فإن منظمات التخريب تثير عادة أعقد مشاكل الأفراد فى خدمة المخابرات .

وتنظيم عضوية هذه المنظمات تبعاً لطبيعة الأعمال التى ينتظر قيامهم بها ، وتجمع هذه المنظمات بين أولئك الذين يتولون الإدارة والذين يتولون التخطيط وبين العملاء والرسل والمرشدين ومعلمى الأسلحة والأخصائيين ،

كما يوجد بين أعضائها أيضاً العديد من الفنيين ، أى من عمال اللاسلكى والطيارين والبحريين ورجال الإشارة وغيرهم . ومع أن كل فرد يعين لعمل خاص ، فمن الضرورى أن يعرف أشياء من أعمال الآخرين ، وأن يكون قادراً على تنسيق عمله مع أعمال المجموعة كلها . ومن النادر أن نجد من جماعات التخريب بالميدان تحديداً للأعمال ، أى تحديداً أشبه ما يكون بالجداول المنظمة التى توضح اختصاصات كل فرد . وقد يجد الفرد الذى يخرج لعمله — وهو فرد عادى — نفسه فجأة وقد أضحى يتولى القيادة ، أو يضطر إخصائى عادى أرسل للعمل على جهاز راديو سرى لأن يعمل فى مزج المفرقعات أو بث الألغام .

وفى مجال الحديث عن « الجاسوس المثالى » فان « المخرب المثالى » أى « المخرب الكامل » هو صورة من محض الخيال ، ومع هذا فإن كل منظمات التخريب تعمل لاختيار أفراد تتوافر لهم صفات خاصة وتعدهم للقيام بالمهام على اختلاف صورها وألوانها .

وقد يتوارد فى ذهن الكثير بعض التساؤلات وذلك حينما ينظرون إلى هؤلاء الأفراد الذين يرسلون للقيام بأعمال التدمير . هل هم أشخاص غير متزنى القوى العقلية إلى الحد الذى يجعل أعمال التدمير والتخريب غريزة تتملك كل مشاعرهم ؟ . هل حرموا من كل المشاعر التى تجعلهم ينظرون نظرة تقدير إلى التحديدات التى أوجدتها الإنسانية للحد من الإسراف فى التخريب أو التقتيل فى الحرب ؟ . هل هم من طبقات الجماهير ؟ . أو هل هم من المعتوهين الحمقى الذين يتجهون للشر والعنف بدوافع داخلية تكمن فى أعماقهم .

أسئلة كثيرة يمكن أن تخطر لنا ، ولكن الواقع أن التاريخ يحدثنا بأن معظم الذين يقومون بأكبر أعمال التخريب والإتلاف كانوا يتمتعون بمكانة طيبة فى المجتمع ، وكان لهم ماضيهم الحسن ، فلقد كان الألمانى الذى تولى

أعمال التخريب فى الولايات المتحدة سنة ١٩١٦ الكابتن « فرانز فون رينتلن » من النبلاء الألمان القدامى ، وارتبط تاريخ اسرته بتاريخ الرايخ . وكان أهم المخربين الإيطاليين فى الحرب العالمية الثانية ضابط بحرى إيطالى كان يتسرب إلى داخل الموانىء الانجليزية فى قارب صغير يصير أسفل سطح الماء فيهاجم البوارج وسفن النقل الكبيرة ويخربها وحده ، وكان هذا الضابط البحرى الإيطالى أميراً ينتهى نسبه إلى « بورجياس » ، وكان قائد الكوماندور « لورد لويس مونتباتن » من أحفاد الملكة فكتوريا ، وكان أكفأ معاونيه « سيمون كرستوفر جوزيف فرازر » اللور د الخامس عشر للوردية « لوفات » التى أسست دوقيته سنة ١٤٨٥ . وارتبطت أسرته منذ تلك السنة بتاريخ بريطانيا . وكان « العقل المدبر » وراء كل أعمال التخريب التى تولتها بريطانيا «ناثنيال ميرفكتور » البارون الثالث لبارونية روتشيلد .

وفى هذا يقول الكولونيل ف . ميكشه الذى كان رئيس العمليات فى الخدمة السرية للجنرال ديجول أثناء الحرب العالمية الثانية :

إنها ليست مسألة القدرة العسكرية ، لأن كل المعرفة الفنية المطلوبة هى فى الواقع صغيرة نسبياً . إن الأمر يتطلب غريزة سيكولوجية مع مهارة سياسية وأن الذين يقومون بأعمال التخريب يكونون عادة أقل مهارة فى المسائل العسكرية ، على أن تتوافر لهم المهارة فى زعامة الجماهير .

وقد أضاف ميكشه فى حديث عن أولئك الذين يتولون أعمال التخريب بقوله :

« يجب أن يكونوا قد نشأوا فى صفوف جماهير الشعب وأن يكونوا معتادين على الحياة البسيطة ، ويستطيعون تبعاً لتوافر الصفات التى تميزهم فى أعين زملائهم أن يحصلوا على ثقة هؤلاء الزملاء الذين يتبعونهم . إن أحسن تدريب لزعماء وقادة حرب العصابات أو بمعنى آخر لقيادات أطقم وجماعات التخريب ، هو التعود على الحياة القاسية .

الفصل الثالث عشر

وقائع التجسس

واقعة ممارسة التجسس

نستطيع بعد شرحنا لطبيعة ومجال وأبعاد الجاسوسية أن نقول :

« إن نشاط أعمال التجسس يهدف إلى الحصول على المعلومات التى تحوى أسرار الدولة الأجنبية .

ولهذا تحاول الدول جميعها حماية أسرارها بقدر الإمكان . ومن بين ما تتخذه من اجراءات فى هذا الشأن أن تكلف جميع حملة أسرارها بمهمة الحفاظ على هذه الأسرار وتعد أية مخالفة لهذا الواجب موجبة لتوقيع العقوبات التى يتحتم توقيعها فى حالة الخيانة العظمى .

على أنه ينبغى أن يلاحظ أن التفريط فى هذا الواجب بعيد كل البعد عن « اختلاق أسرار للدولة » وعن إفشاء أسرار من الخارج ذلك أن مثل هذا العمل يقترن بمكافحة الجاسوسية .

ولذا فإن نشاط الجاسوسية طبقاً لما تقدم هى تلك الوقائع التى يحاول نشاط المخابرات السرى إحداثها بصفة منتظمة .

وتحت ظروف معينة ولا سيما فى منطقة عمليات الأطراف المتحاربة ، توصف مكافحة الجاسوسية بـ « الجاسوسية » وعلى ذلك فإن الجاسوسية هى أيضاً مكافحة التجسس العسكرى فى وقت الحرب ، وهذه الواقعة نظمها القانون الدولى فى المادة ٢٩ من لائحة لاهاى الخاصة بالحرب البرية .

غير أنه بالنسبة لواقعة ممارسة التجسس على أسرار الدولة خارج نطاق قانون الحرب ، فإن القانون الدولى لم يضع لها أى تنظيم . ذلك أن القانون الدولى قد ترك للدول فى داخل نطاق رقعة سيادتها أمر اعتبار محاولة التجسس على أسرار الدولة واقعة من الوقائع التى ينطبق عليها قانون عقوبتها الداخلى .

يقول « يارايس » إذن ، طالما أصبح قانوننا الدولى على هذه الصورة ، فإنه يجب أن يسمح للدولة بأن تكون حرة فى تشريعاتها ، مالم يوجد من ناحية القانون الدولى نص يحد من هذه الحرية(*) ، ذلك أن أى حظر لا بد أن يكون مستنداً إلى اتفاق دولى على وجه الخصوص .

والمثل على ذلك هو تحديد واقعة التجسس التى اتفقت عليها الدول التى اشتركت فى مؤتمر السلام بلاهاى عام ١٩٠٧ ، وأصبحت بالنسبة لها قانوناً دولياً معمولاً به . وبمقتضى هذه الاتفاقية لا يمكن لأى دولة أن تتوسع فى الواقعة ، مثل توقيع عقوبة على الجاسوس دون ثمة إجراءات قضائية سابقة .

بيد أنه لا يوجد هناك ما يحول دون أن تعمل دولة على تضييق الواقعة ، وفى هذه الحالة تكون الدولة قد تغاضت عن إحدى المنافع التى تحققها المجالات التى يهيئها لها القانون الدولى .

ولا تعنى حالة ما ، وجود وقائع جوهرية متفق عليها فيما بين الدول

(*) يارإيس Jahreiss ـ الكتاب السنوى للقانون الدولى العام عام ١٩٤٩ صفحة ٦٦١ .

وتضمنها قوانين العقوبات ، ذلك أن تشابه القوانين فيما بين الدول لا يعنى سوى وجود « قانون متشابه دولياً » دون وجود « قانون دولى » .

على أن التطور الحديث فى الوقت الحاضر يسير على الطريق المؤدى إلى إدخال المبادىء القانونية العامة المعترف بها فيما بين الدول جميعها على القانون الدولى* .

لائحة لاهاى

وتنص المادة ٢٩ من لائحة لاهاى للحرب البرية على الآتى :

« يعد جاسوساً ذلك الذى يعمل سراً أو من وراء ستار زائف للحصول على معلومات فى منطقة العمليات بنية تبليغها للفريق الخصم ، وطبقاً لذلك فإن العسكريين بزيهم الرسمى الذين يتسللون إلى منطقة عمليات جيش العدو بغية الحصول على معلومات لا يعدون جواسيس . كذلك لا يعد جواسيس أولئك العسكريون الذين يكلفون علناً بالقيام بمهمة تسليم مكاتبات إلى جيشهم أو إلى جيش العدو . ويدخل ضمن هؤلاء الأشخاص الذين تنقلهم السفن الجوية بغية تسليم مكاتبات ، أو بغية المحافظة على الاتصالات فيما بين الأجزاء المختلفة من جيش أو منطقة .

وطبقاً لما تقدم مما تضمنه النص فإن الواقعة هى « الحصول على معلومات » وينضوى تحت كلمة « معلومات » مثل تلك الحقائق التى يمكن توصيلها ، والتى يجهلها الفريق المحارب الذى يعمل الجاسوس لمصلحته ، كما ينضوى تحتها أيضاً مثل تلك الحقائق التى يجب احتجازها وحجبها .

وعلى سبيل المثال حينما قام مندوبو المعبد البوذى فى الحرب العالمية الثانية

(*) Principles Généraux de droit reconnus par les Nations civilisées.

بمحاولة سرية للوقوف على علاج إخوانهم فى العقيدة بواسطة الألمان ، مخترقين منطقة الحرب داخل السافانا وقد وفدوا من آسيا ، لم تنظر القيادة الألمانية إلى هذا العمل على أنه عمل من أعمال الجاسوسية .

ذلك أن الألمان كانوا يرون أنه لا ضير من نشر معلومات عن العلاج الجيد الذى يحصل عليه البوذيون بواسطة الألمان سواء للرأى العام الدولى أو للعدو .

ومن هنا فإن المعلومات التى يتم الحصول عليها بناء على النص سالف الذكر هى تلك التى ينبغى الاحتفاظ بها سراً نتيجة طابعها الخاص بها وأهميتها ، والتى تعد من الأسرار العسكرية وما شاكلها المتعلقة بالدولة ، حتى وإن لم تتفق فكرة الأطراف المتحاربة مع فكرة الدولة فى حد ذاتها ، ففى هذه الحالة يمكن أن تصبح القوات المسلحة الخاصة بحكومة غير معترف بها طرفاً متحارباً* (١) .

هذا ويجب أن يتم الحصول على المعلومات بطريقة سرية أو من وراء ستار زائف .

إختلاف الشراح

يقول ميريه Merrer فى كتابه « قانون الحرب المتفق عليه فى مؤتمر السلام » بلاهاى « كما جاء فى صفحة ٧٥ » : إن هذه العبارة تتضمن شرحاً لإحدى طرق الخداع وذلك حينما يريد شخص أن يظهر بشخصية أخرى تختلف عن شخصيته الحقيقية التى ينبغى أن يعرف بها .

على أن الأهم من هذا الشرح هو ما جاء على لسان « فانذيلوف » Vanselow

---

(*) المادة ٤ فقرة / ٢ من اتفاقية جنيف بشأن معاملة أسرى الحرب المبرمة فى ١٢ من أغسطس عام ١٩٤٩ .

ذلك أنه فسر كلمة « سراً » : بأنه إخفاء للنية والغرض دون الالتجاء لخداع إيجابى كما أنه فسر كلمة « من وراء ستار زائف » : بأنها إخفاء للنية والغرض خلف خداع متعمد .

وعلى ذلك فإن من يقوم بتزويد الجيش بمواد التموين ، ويسمح له بهذه الصفة ولهذا الغرض الدخول فى منطقة العمليات ، ثم يحاول أن يعمل على الحصول على معلومات بجانب عمله الأصلى بغية نقلها إلى الفريق الخصم ، يكون قد ارتكب عملاً من أعمال الجاسوسية بالرغم من أنه لم يظهر بشخصية تختلف عن شخصيته الحقيقية ، لأنه فى هذه الحالة يكون قد غير من نيته وغرضه بالقيام بأعمال تجسس ، مع أنه يقوم بها سراً لا من وراء ستار زائف .

ولكى يمكن اعتبار الفعل عملاً من أعمال الجاسوسية ينبغى أن يرتكب فى منطقة عمليات العدو .

والواقع أن هذا التفسير الضيق لفكرة « منطقة العمليات » قد تغير بتطور إدارة الحرب فى كلا الحربين العالميتين .

ذلك أنه فى الوقت الحاضر حيث تتصف الحرب بالشمول ، تعد المنطقة كلها التى توجد فيها الحالة الاستثنائية التى يفرضها قانون الحرب منطقة عمليات .

ومن ثم يجب أن يدخل فى الاعتبار أن فكرة الحرب البرية تتضمن أيضاً تلك العمليات التى تقوم بها القوات الجوية والبحرية والتى تكون أهدافها موجودة على الأرض .

وعليه فإن المطارات والموانىء الحربية ومصانع السلاح ومواقع الدفاع الجوى والتحصينات الساحلية وكذلك منطقة المعركة التى تتجمع فيها فرق الجيش كلها تدخل ضمن منطقة العمليات .

إن واقعة التجسس تستلزم الفعل المقصود ، كما تتطلب وجود نية توصيل المعلومات التى تم الحصول عليها إلى الفريق المتحارب الآخر .

ولقد كتب « ميريه » يقول : « إن من يتابع دراساته العلمية فقط بأبحاثه أو يريد إشباع نهمــه العلمى ليس بجاسوس . غير أن عليه تقع مسئولية إقامة الدليل على ذلك ، كما تعود عليه النتائج التى يسفر عنها هذا الدليل » .

إستثناءات من لائحة لاهاى

وطبقاً للمادة ٢٩ الفقرة الثانية من لائحة لاهاى للحرب البرية ، هناك تصرفات معينة استثنيت من واقعة التجسس ، ومن هذه التصرفات المعينة المستثناة ، جميع أعمال الاستطلاع التى تقوم بها القوات النظامية .

وعلى ذلك فإن أية قوة استطلاع تتسلل إلى مواقع العدو بهدوء دون أن تحدث صوتاً ، متسترة بالظلام بغية تحديد الأماكن التى يحتلها هذا العدو لا تقوم بعمل من أعمال الجاسوسية .

وحتى إذا ارتدى جنود قوة الاستطلاع هذه ملابس تعمية ، مثل قمصان مناطق الجليد أو معاطف وعباءات تتلاءم مع المنطقة المراد استطلاعها ، فإن هؤلاء الجنود يعدون أشخاصاً عسكريين فى زى رسمى عسكرى . ذلك أن ملابس التعمية التى يلبسها جنود إحدى الوحدات الذين يحملون سلاحهم علناً ، تندرج ايضاً تحت لفظ زى عسكرى فى الوقت الحاضر .

حقيقة أن فكرة الزى العسكرى قد أصبح تفسيرها واسعاً جداً ، إذ يكفى لإطلاق لفظ الزى العسكرى على علامة يمكن رؤيتها ومعرفتها من بعيد ، حول شريط يلتف حول الذراع أو غطاء رأس موحد* .

وأكثر من هذا لا يعد ما تقوم به الطائرات العسكرية من أفعال استطلاع واقعة لفعل من أفعال التجسس .

(*) يقول لورنس Laurence فى كتابه «القانون الدولى: على الجنود فى المعركة أن يضعوا علامة مميزة لتميزهم عن الجنود الآخرين الذين يهاجمونهم» .

كذلك لا يدخل فى نطاق الجواسيس أفراد طاقم الطائرة الحربية التى تدخل لمسافات بعيدة فى المجال الجوى لمناطق العدو متسترة بالظلام بغية إنزال عملاء المخابرات السرية فى الأراضى الخلفية للعدو ، أو أولئك الذين يزودون هذه الأراضى بمواد علاجية .

ذلك أن أفراد طاقم هذا الطائرة جنود نظاميون تحمل طائرتهم علامة القوات المسلحة كما أنهم مسلحون، هذا فضلاً عن أنه بالنسبة لطاقم الطائرة لا فرق فيما بين قيامهم بإسقاط القنابل على جبهة العدو وبين قيامهم بإنزال عملاء للمخابرات فى أراضى العدو . فالمجال الجوى جميعه فوق أراضى العدو منطقة قتال للقوات الجوية ، ولذا فإنه ليس هناك اختلاف بين الطائرات المقاتلة وبين القاذفات وبين تلك التى تحمل عملاء للمخابرات ، طالما أنها جميعاً تحمل نفس العلامة المميزة للفريق المتحارب ، وحسب ما هو معروف ، اعترفت جميع الأطراف المتحاربة فى أثناء الحرب العالمية الثانية بهذه الحقيقة .

الاتصالات العسكرية والدبلوماسية

على أنه ليس للاتصالات العسكرية والدبلوماسية أية علاقة بالجاسوسية . كما أن الأمر ليس فى حاجة إلى أن يقوم أشخاص من العسكريين بهذه الاتصالات ، ففى ألمانيا الأمبراطورية كان يقوم بهذه الاتصالات العسكرية والدبلوماسية مبعوثون من قبل الامبراطور . .

ويجب أن يقوم مثل هؤلاء الرسل بمهمتهم علناً بيد أن ذلك لا يعنى أنه ينبغى على هؤلاء أن يحملوا من العلامات ما يميز شخصيتهم ، ذلك أن الأمر الذى ينبغى إدراكه هو أن مهمة هؤلاء المبعوثين ليست مهمة سرية .

وعلى هذا الأساس لا يدخل ضمن المبعوثين أولئك الذين يقومون بالمحافظة على الاتصالات بين العملاء وبين الثقاة فى دولة العدو ، أو بين

العملاء وبين مراكز المخابرات فى الدولة الوطن .

ذلك أن هؤلاء لا يتمتعون فى هذه الحالة بالحماية التى فرضتها الفقرة الثانية من المادة ٢٩ من لائحة لاهاى للحرب البرية على اعتبار أنهم جواسيس .

ونفس هذا القول ينطبق على الأشخاص الذين يخدمون فى محطات الراديو السرية التى تقوم بإنشائها مخابرات العدو لنقل المعلومات وتوصيلها لثقاتها .

والمثل الأمثل على ذلك هو قضية الماجور البريطانى « أندريه » فى حرب الإستقلال الأمريكية .

فقد قام الجنرال البريطانى السير « هنرى كلينتون » بإرسال أندريه لإجراء مفاوضات مع الجنرال الأمريكى « بنديكت أرنولد » فى استحكامات « ويست بوينت » فى « نورث ريفر » ذلك أن أرنولد كان يرغب فى تسليم موقعه للبريطانيين بعد أن انحاز لهم .

ولما كان الطريق المائى الذى كان على أندريه اتخاذه فى عودته متعذراً عبوره فقد طلب أندريه من أرنولد أن يغطيه تصريح مرور أمريكى باسم « جون اندرسون » كنوع من التعمية أثناء عودته عن طريق البر حاملاً نتائج المفاوضات .

وفى أثناء عودته وقع فى أيدى القوات الأمريكية ، وقدم لمحكمة عسكرية كان من بين اعضائها الجنرالان « ستوبين » و « لافاييت ». ولقد اجريت هذه المحاكمة على أساس أن أندريه جاسوس ، وعبثاً حاولت بريطانيا أن تتدخل

وعلى أثر ذلك صدق الرئيس واشنطون على الحكم وأعدم اندريه شنقاً فى ٢ من يوليو عام ١٧٨٠ ، والأمر الذى ينبغى ملاحظته هو أن الجنرال ارنولد كان خائناً لوطنه بلا جدال .

ولا شك فى أن المسألة التى تحتاج إلى تفسير ، هى ما إذا كان ينبغى اعتبار اندريه مبعوثاً أم مفوضاً ، ذلك أن اندريه جاء إلى أرض العمليات الأمريكية بالاتفاق مع الجنرال ارنولد القائد الأمريكى للمنطقة التى دخلها اندريه بنية مغادرتها بعد حصوله على التعليمات والمعلومات من الجنرال أرنولد الأمريكى .

والمبعوث أو المفاوض يفقد حصانته إذا ما استغل مركزه فى الخيانة . كذلك إذا أساء المفاوض لمهمته وحاول الحصول على معلومات بطرق سرية وفى هذه الحالة يصبح من الممكن احتجازه احتجازاً مؤقتاً .

وطبقاً لهذه المبادىء حوكم اندريه ولقى جزاءه ، ولقد تضمنت المادتان ٣٣ فقرة ٢ و ٣٤ من لائحة لاهاى للحرب البرية هذه المبادىء .

وضع القوات الفدائية

ولنشاط القوات الفدائية الذى زاولته هذه القوات فى الحرب العالمية الثانية مشكلة خاصة ، فقد مارس النشاط كلا الطرفين الحلفاء والمحور .

ومهمة قوات الفدائيين هذه تدخل فى نطاق الاستطلاع تارة ، وفى نطاق التخريب تارة أخرى وفى نطاق القتال المفاجىء وجهاً لوجه تارة ثالثة وتتكون قوات الفدائيين هذه من أفراد مدربين ومنتقين ، كما أنها — أى قوات الفدائيين — تعد قوات هجومية مدربة ومختارة . وتعمل هذه القوات على الاقتراب من الأهداف التى تصدر بها أوامر ، وعلى التسلل إلى أراضى العدو والتغلغل فيها وقد ارتدى أفرادها ملابس تعمية هى فى الوقت نفسه الزى العسكرى للعدو .

ولقد أصبح واضحاً فى الوقت الحاضر إلى أى مدى يمكن أن يسمح لاستخدام الزى العسكرى للعدو ، كما اتضح جلياً أيضاً فى القانون الدولى موقف أفراد قوات الفدائيين الذين يستخدمون الزى العسكرى للعدو .

ولقد وضعت المخابرات الألمانية أثناء الحرب العالمية الثانية الإعتبارات القانونية الآتية عند تشكيل وحدات « براند نبورج » . وهى وحدات الفدائيين :

أولاً — إن مهمة قوات الفدائيين ليست فى القيام بهجوم وقد ارتدى أفرادها الزى العسكرى للعدو ، وإنما مهمتها احتلال الأهداف الهامة مثل الجسور والممرات ومعامل تكرير البترول الواقعة خلف العدو إحتلالاً بدون قتال ، ثم حماية هذه الأهداف ضد أى هجوم من جانب العدو لتخريبها .

ثانياً — إن على الفدائيين لبس الزى العسكرى للعدو لغرض التسلل والتغلغل فى الأراضى الخلقية المعادية بلا قتال مستهدفين الاقتراب من الأغراض الصادر بها الأوامر . وإذا ما اقتضى الأمر الدخول فى قتال فإن عليهم قبل إطلاق نيرانهم أن يظهروا شخصياتهم على أنهم جنود ألمان .

ثالثاً — إن الفدائيين الذين يلتزمون بهذه المبادىء والأسس لا يرتكبون ثمة مخالفة للقانون الدولى من ناحية تصرفاتهم .

وهناك اتجاه مشابه فى قانون الحرب البحرية ، ذلك أنه لا يعد خرقاً لأسس هـــذا القانون أن تقوم سفينة حربية بإخفاء جنسيتها بواسطة رفع علم زائف ، ثم تقوم قبل إطلاق النيران مباشرة برفع علمها الأصلى .

ولقد ورد فى البند الثالث والأربعين من كتيب الميدان الأمريكى الذى أصدرته وزارة الحرب خصيصاً للجيش الأمريكى بتاريخ الفاتح من أكتوبر عام ١٩٤٠ الآتى :

« من الأمور المسموح بها من الناحية العملية « الاستفادة من الأعلام الوطنية والعلامات والأزياء العسكرية فى الخدمات . ذلك أن القاعدة المعمول بها بمادة ٢٢ من لائحة لاهاى للحرب البرية — لا تمنع من استخدام هذه الأعلام والعلامات والأزياء العسكرية ، غير أنها تحرم استغلالها استغلالاً سيئاً . فالأمر

المحرم تحريماً شديداً هو استخدامها فى أثناء المعركة ، إذ إنه ينبغى قبل بدء فتح النار على العدو وقف استخدام هذه الأعلام والعلامات والأزياء العسكرية .

ورد أيضاً في « دليل الجندى الأمريكى » American Soldier's Handbook نصاً يشابه ما تقدم .

هذا وقد تحدث كتاب القانون الدولى من أمثال « مارتينز » Martens و « ريفير » Rivier و لورنس » Laurence و « هال » Hall ، وحديثاً فيردروس Verdross ، تحدثوا فى هذا الموضوع فقالوا إنه لا يعد إجراماً حربياً إستعمال علامات العدو وزيه العسكرى تحت ظروف معينة .

ويعد الفدائى بالزى العسكرى الخاص بالعدو جاسوساً ، إذا ما قام وهو بهذا الزى بأعمال استطلاع ، أو بمعنى آخر إذا ما قام بالعمل على الحصول على معلومات .

وإذا ما دخل الفدائى فى قتال ، مثل إطلاق النار ، وهو بهذا الزى العسكرى الخاص بالعدو ، فإنه يكون فى هذه الحالة ارتكب عملاً من أعمال جرائم الحرب(*) ، أما إذا كان الغرض من ارتداء الزى العسكرى الخاص بالعدو هو الاقتراب من الأهداف التى صدرت بشأنها أوامر بذلك ، دون أن يكون غرض هذا الفدائى القيام بأعمال استطلاعية أو بقتال فإنه فى هذه الحالة يعامل معاملة أسرى الحرب إذا وقع فى قبضة الطرف الآخر وفى أرضه .

هذا وليس مسموحاً أن يعدم أحد الأسرى من وحدات الفدائيين رمياً بالرصاص بدون محاكمة ، أو أن يرفض العفو عنه .

(*) حاكمت احدى المحاكم العسكرية الأمريكية أحد أفراد قوات الفدائيين التابعة لفرقة العاصفة الألمانية على أساس ارتكابه جريمة حرب وهو بالزى العسكرى الأمريكى أطلق النار على أحد رجال الشرطة العسكرية الأمريكية ، ولقد رفضت هذه المحكمة الحكم عليه كجاسوس .

لذلك فإن « الأمر الخاص بالفدائيين » الذى صدر فى عهد هتلر بتاريخ السابع عشر من اكتوبر عام ١٩٤٢ كان مخالفاً للقانون الدولى (١)

ولقد اعترض رئيس المخابرات الألمانية ، « ادميرال كاناريس » فى الحادى عشر من نوفمبر عام ١٩٤٢ على هذا الأمر ، وطالب بأن لا يقتل من الفدائيين إلا من يكون فى قتال أو من يحاول الهرب . وأضاف كاناريس إلى ذلك أنه إذا وقع فدائى فى أيدى الألمان خارج نطاق العمليات العسكرية الخاصة بمعركة ما ، فإنه ينبغى تقديمه فوراً لأحد الضباط الذى عليه محاكمته عرفياً

(١) ينص البند الثانى من هذا الأمر على الآتى : ولهذا ينبغى فى المستقبل قتل جميع من يسمون بالفدائيين فى أوربا وفى أفريقيا حتى وان كانوا جنوداً بملابسهم العسكرية أو قوات تخريب مسلحة أو غير مسلحة فى أثناء قتال أو فى طريقهم للهروب يبغى قتل هؤلاء حتى آخر رجل ، وحتى إذا طلب هؤلاء لدى اكتشافهم أن يسلموا أنفسهم كأسرى ، فانه يجب رفض أى عفو بصفة أساسية .

الفصل الرابع عشر

نظرة القانون الدولى للجاسوسية

إن تحريم القانون الدولى لأمر من الأمور ، والسماح به إنما هما رهينا الدول كأعضاء فى ذلك النظام الذى يهيمن عليه القانون الدولى .

فالدول ليست الأشخاص والرعايا فى تصرفاتهم وذلك أن القانون الدولى يلزم الدول بمواقف معينة ، ويحملها مسئولية الوقائع التى يرتكبها رعاياها مخالفة للقانون .

لذلك لا تدخل الدول فى اعتبارها تصرفات أولئك الأعضاء المخول لهم الاتصال بممثلى الدول الأخرى — رئيس الدولة وموظفى وزارة الخارجية عادة — وحسب ، وإنما عليها أن تدخل فى اعتبارها أيضاً تصرفات جميع رعاياها فى الدول الأخرى ، اللهم إلا إذا كانت تصرفاتهم فردية محضة .

وتشمل كلمة الرعايا هنا الأفراد الذين يتصرفون تصرفاً عابراً ، أو يريدون التصرف فى أمر من الأمور تصرفاً عابراً أيضاً ، ولكن بناء على تفويض من دولتهم ولمصلحتها .

وعلى ذلك يمكن أن تصبح تصرفات الأفراد على هـــذا النحو داخلة فى نطاق مسئولية الدولة ، إذا لم تقم بمنعها بالرغم من علمها بأنها ملزمة بذلك .

وأعضاء المخابرات يقومون بهذه التصرفات التى تعد من صميم عملهم بطريقة منتظمة أثناء مزاولتهم لنشاط التجسس ولنشاط مكافحة التجسس ، وذلك خارج نطاق قانون الحرب .وهم بذلك يتصرفون بصفتهم رعايا لدولتهم أو كأفراد مكفلين بالقيام بمهمة عابرة ، ومن ثم ينبغى بحث مدى سماح القانون الدولى بهذه التصرفات ، وكنه نظرته إليها .

الجاسوسية فى نطاق فنون الحرب

إذا بحثنا الآراء القديمة نجد أن دراسة القانون الطبيعى تستهدف التفرقة بين الحرب « العادلة » وبين الأخرى « غير العادلة » .

وتمشياً مع هذه الدراسة فإن من يشن حرباً عادلة يصبح من حقه إلحاق الضرر الممكن احتماله فقط بعدوه ، كما يصبح من حقه أيضاً استخدام كافة السبل لذلك ويرى « هوجو جروتيوس » Hugo Gratius أن الجاسوسية سبيل مسموح به فى الحرب .

وكان « فردريك الأكبر » يرى أن إرسال الجواسيس من الأمور المسلم بها التى لا تتعارض مع القانون الدولى .

ويؤكد السويسرى « دى فاتل » : أن هذه الطريقة لا تتعارض مع قانون الناس في الحرب ، ومن ثم ليس للعـــدو أىّ أساس لادعائه بأنها انتهاك للحرمات [1] .

غير أن « دى فاتـــل » نفسه يرى أن الجاسوسية فى حـــد ذاتها عمل من الأعمال غير الشريفة، ذلك أنه يقول : « ولكن هل هذا العمل شريف

---

(١) دي فاتل Vattel فى قانون الناس ١٧٥٨ Droit des gens.

ويتمشى مع قانون الضمير النقى ؟ كلا بدون شك » .

ويقول « مونت سكيو » إن من الممكن أن تصبح الجاسوسية من الأمور المحتملة إذا ما قام بهـا أناس شرفاء ، ولكن سوء السمعة المستقلة عن ذات الشخص الذى يقوم بالجاسوسية يمكن أن يشين الفعل نفسه .

ويرى مونت سكيو أيضاً أن الجاسوسية ليست « عملاً عادياً » بالنسبة لحاكم طيب . وعلى العكس من ذلك يرفض « كانت » الجاسوسية رفضاً تاماً ، ذلك أن « كانت » يعتقد أن إرسال الجاسوس يدخل فى نطاق الاستراتيجية غير الشريفة التى تستخدم فى الحرب الأمر الذى لا بد أن يؤدي إلى فقدان الثقة المتبادلة فى السلام المقبل .

ويقول كانت فى كتابه « نحو سلام أبدى » عام ١٧٩٥ : « ذلك أن أى ثقة ينبغى أن تظل كما هى فى أثناء الحرب ، وإلا أصبح السلام أمراً لا يمكن الوصول إليه ، وانتهى الحال بالمعركة إلى حرب مدمرة » .

« حتى فى مثل هذه الحرب المدمرة يجب ألا يسمح باستخدام هذه الوسيلة ، فإذا اتضح ألا مناص عن استخدام هذه الوسيلة فسوف يظهر أن هذا الفن الجهنمى الشائن فى ذاته الذى ينبغى ألا يطول استخدامه داخل نطاق الحرب فقط ، قد استغل فيه الجواسيس نذالة الآخرين ، فيبدو هذا الفن الجهنمى وقد امتدت آثاره إلى وقت السلم ، ومن ثم تظل النوايا التدميرية موجودة » .

فإذا انتقلنا إلى الآراء الحديثة نجد أن مؤتمر بروكسل للسلام عام ١٨٧٤ ، ومؤتمر لاهاى عام ١٩٠٧ ، قد وضعا أركان واقعة التجسس من ناحية القانون الدولى ، ولقد تضمنت المادة ٢٩ من لائحة لاهاى للحرب البرية ما انتهى إليه المؤتمران ، وتلك المادة عدت أحكامها قانونا .

على أنه لم يقطع برأى فيما إذا كانت الجاسوسية جريمة من جرائم القانون الدولى أم أنهـا تصرف حربى مسموح به . فقد كتب « موريه » يقول : « لقد عالج القانون الأمر علاجاً بعيداً عن المهارة . ذلك أنه من جانبه يحرم

ما تمارسه كل دولة بنفسها ويكون موضوعاً يقتضى إنزال العقـــاب فى أخرى.

كذلك لم يستطع القانون الدولى أن يهدد الجاسوسية بإنزال العقاب كما لم يحرمها . وكل ما فعله القانون أمام الواقعة الثابتة هو أنه تحدث عنها ، فذكر أن الدول ترى أن الجاسوسية جزء لا غنى عنه من وسائلها الاستطلاعية ، تقوم به إما مباشرة وإما بطريقة غير مباشرة ، مع أنه يقوم فى الدول الأخرى بمنتهى الشدة بسبب خطورته غير العادية .

تحدثت المادة ٣٠ من لائحة لاهاى للحرب البرية عن إنزال العقاب بالجاسوس ، فهل يتصرف الشخص الذى يكلف بالقيام بنشاط تجسس لمصلحة دولته تصرفاً مخالفاً للقانون الدولى ؟ وهل يتعرض للعقاب بينما لا تدخل دولته ، وهى التى كلفته أصلاً بهذا النشاط فى الاعتبار ؟

فى الحقيقة يرى بعض فقهاء القانون الدولى أن الجاسوسية تعد تصرفاً حربياً يتعارض مع القانون الدولى . فقـــد رفض « كولر » **Kohler** فى كتابه « مبادىء القانون الدولى » فكرة قبول الجاسوسية وخاصة من جهة صناعتها كتصرف ينبغى تقديره من ناحية القانون الدولى . وعلى ذلك فإن كولر يريد اعتبار الجاسوسية جريمة يعاقب عليها القانون .

ويرى « كريز » **Kries** فى كتابه « ملاحظات على قانون العقوبات الألمانى » أن الجاسوسية ليست مجرد جريمة يعاقب عليها القانون وحسب ، وإنما هى تصرف يرتفع إلى حد التعارض مع القانون الدولى .

ولكنه يعاوض « بلونشلى » **Bluntshli** و « هفتر » **Hefter** اللذين يريان أنه ينبغى التفرقة بين الضابط العادى الذى يقوم بالتجسس بدافع الوطنية ، وبين المواطن الذى ينتمى إلى نفس الشعب ويقوم بالتجسس بدافع الخيانة لبلاده.

ويضيف « كريز » فيما يتعلق بالجاسوسية التى ينبغى اعتبارها عملاً يتعارض مع القانون الدولى ، إلى جانب اعتبارها عملاً من الأعمال التى

يعاقب عليها قانون الدولة ، يضيف إلى ذلك أن الوقائع الأخرى التى تعرض مرتكبها للعقاب، طبقاً لقانون العقوبات الداخلى مثل اغتيال أحد الأشخاص أو إتلاف الأشياء ، لا شأن للقانون الدولى بها حتى وإن ارتكبت على أنها تصرف من التصرفات الحربية .

ويقول « جوجنهايم » Guggenheim فى « دراسة فى القانون الدولى» :

« إن القانون الدولى يطالب بمعاقبة الجاسوس . ويضيف إلى ذلك : « أن المبدأ الذى يرفضه القانون الدولى ومع ذلك يلتزم به قانون دولة ما ، إنما يجعل من الآثار التعسفية التى يتضمنها قانون عقوبات هذه الدولة أمراً مؤكداً، هذا وليس هناك فى القانون الدولى ما يشير إلى الحق فى مطالبة الدولة المحاربة التى يعمل لمصلحتها الجاسوس بالتعويض » .

ولكى يؤكد جوجنهايم رأيه فى أن الجاسوسية جريمة دولية . أشار إلى قرار المحكمة العليا الأمريكية بتاريخ ٣١ من يوليو عام ١٩٤٢ .

لقد بنى قرار المحكمة العليا على الواقعة التالية : فى شهر يونيو من عام ١٩٤٢ أنزلت غواصة ألمانية قوة تخريب مكونة من ثمانية رجال على الساحل الشرقى للولايات المتحدة ، وبعد مدة قصيرة ألقى القبض على هؤلاء الرجال فى نيويورك وشيكاغو وأصدرت محكمة عسكرية حكمها بالسجن ضدهم .

« واستشكل هؤلاء الرجال فى اختصاص المحكمة العسكرية ، والتمسوا من محكمة ولاية كولومبيا عرض الأمر على المحكمة العليا للنظر فى الحكم الصادر ضدهم . وجاء فى قرار المحكمة العليا الذى رفض الطعن بالنقض فى الحكم الصادر ضد الألمان الثمانية ما يلى : إن مايعنينا فى هذا الشأن هو ما إذا كان يدخل فى نطاق السلطة الدستورية للحكومة الوطنية إجراء محاكمة الذين ارتكبوا هذا الفعل . لذا علينا أن نبحث أولاً عما إذا كان الفعل الذى أجريت بسببه المحاكمة جريمة ضد قانون الحرب ، وحرى بها أن تنظر أمام

محكمة عسكرية ، فإذا كان الأمر كذلك ، علينا أن نبحث فيما إذا كان الدستور يحول دون إجراء مثل هذه المحاكمة » .

إن ما تم الاتفاق عليه دولياً وكذلك بما جرت عليه الدول فى ممارستها لما اتفقت عليه مع بعضها البعض ، هو أن قانون الحرب يرسم خطاً فاصلاً بين القوات المسلحة وبين السكان المسالمين فى الدول المتحاربة ، كما يرسم خطاً فاصلاً يميز بين المحاربين من ناحية شرعية تصرفاتهم وعدم شرعيتها ؟

والمحاربون الشرعيون عرضة للأسر والاحتجاز كسجناء حرب ، وذلك بواسطة القوات المسلحة المضادة ، أما المحاربون غير الشرعيين فهم عرضة للمحاكمة والعقاب بواسطة المحاكم العسكرية من جراء الأفعال التى ارتكبوها ، والتى أضفت على تصرفاتهم الصفة غير الشرعية .

والجاسوس الذى يتخطى الخطوط الحربية للطرف المحارب الآخر فى وقت الحرب سراً وبدون زى عسكرى لغرض جمع معلومات عسكرية وإبلاغها للعدو أو لعدو محارب ، هو ليس المثل العادى للمحارب الذى يقوم بالقتال ، لذا يعد خارجاً على قانون الحرب ، ومن ثم يصبح عرضة للمحاكمة وإنزال العقاب به أمام محكمة عسكرية .

وعلى ذلك فإن المحكمة العليا فى الولايات المتحدة قد عبرت بوجهة نظرها هذه عن رأى القانون الدولى ، من حيث عدم أحقية الجاسوس فى معاملته كأسير حرب ، ووجوب تقديمه للمحكمة العسكرية طبقاً لقانون الحرب .

وحينما وصفت المحكمة العليا الأمريكية تصرفات الجاسوسية بأنها « غير مشروعة » فإن وصفها هذا ينبغى أن يفهم على أنه يتضمن أن التصرفات التى يقوم بها الجاسوس مما يعاقب عليه قانون العقوبات الداخلى .

ولقد اتجه « دليل القانون العسكرى » البريطانى نفس الاتجاه ، إذ أطلق

على الجاسوسية إسم « جريمة حرب » ، وأشار فى فقرة رئيسية منه إلى أن المفهوم من وضع الجاسوسية فى هذه الدرجة من التحريم ، هو أن المسألة تتعلق بترتيب قانون فنى يتناول التصرفات المعاقب عليها فى أثناء الحرب .

على أية حال ينبغى ألا توضع جنباً إلى جنب فكرة « جريمة الحرب » أو « الفعل غير المشروع » ، وهى الفكرة الأنجلوسكسونية المتعلقة بالدولة داخلياً، مع « الجريمة ضد القانون الدولى » .

ذلك أن أغلب الدراسات الخاصة بالقانون الدولى ترى أن الجاسوسية ليست تصرفاً حربياً يتعارض مع القانون الدولى ، غير أنه ليس هناك قانون جنائى خاص بمعاقبة الجاسوس ، تلك العقوبة التى يجيزها القانون الدولى ، ذلك أن هذه العقوبة رهن رد الفعل فى الدولة التى أصابها الضرر من جراء الجاسوسية ، ومدى الشك فى تصرفات الجاسوس .

وإذا كانت المادة ٣٠ من لائحة لاهاي بالحرب قد تحدثت عن إنزال العقوبة ، فإنه ينبغى ألا يفهم ذلك بمعناه المادى ، بل يجب أن يفهم بمعناه الشكلى وحسب . ذلك أن الأمر يرجع إلى التطور التاريخى للواقعة ، والغرض السياسى القانونى للمادة ٣٠ من اللائحة المشار إليها .

فالجاسوس يقوم بارتكاب تصرف حربى خطير بصفة خاصة يسلم بمقتضاه الطرف المحارب أسراراً عسكرية خاصة بالطرف المحارب الآخر ، وذلك بعد أن قد تسلل إلى العارفين بأسرار الدولة العسكرية العامة .

وفى الأزمنة الأولى كانوا يتخلصون من العالمين بالأسرار من الخطرين غير المرغوب فيهم بقتلهم ، ولذا كان أمراً عادياً جداً أن يقتل جميع الجواسيس الحقيقيين باختصار .

ولقد اقتضى التطور الحديث لقانون الحرب ضرورة التثبت من واقعة التجسس ومن مدى التشكك فى الأضرار الناجمة عن هذه الواقعة .

والأمر الذى لا ريب فيه أنه بسبب عرقلة فكرة الجاسوسية والآراء الخاطئة المتعلقة بها تلك الآراء التى أبداها كل من « كولر » ، « كريز » وقال فيه إن الجاسوسية تصرف قابل للعقاب بالمعنى المادى الوارد بقانون العقوبات ولذا تقاس بمعاييره . فإن بدا الحال كأن هناك مساواة فيما بين الجاسوسية وبين خيانة الدولة فى تشريع تلك الدولة .

والحقيقة أن خيانة الدولة والجاسوسية فكرتان مختلفتان تماماً من الناحية القانونية كما فسرها « تسوبلين »[1] ، فالخائن لبلاده يعاقب ، أما الجاسوس فإنه يجند ويحتجز فى هذا الصدد .

وقد أشار مؤتمر بروكسل للسلام ، بناء على رأى الفيلد مارشال الأسبانى « سي فيرت فوما جاللى » إلى الحالات التى لا يعدم بسببها الجاسوس ، ويكتفى بحبسه فى أثناء فترة الحرب .

فالجرائم الحربية الحقيقية أو بمعنى آخر « الجرائم ضد القانون الدولى » ، هى تلك الوقائع التى تضمنتها المواد ٢٣ ، ٢٨ ، ٤٧ من لائحة لاهاى للحرب البرية ، ولقد عين القانون الدولى الآثار المترتبة على هذه الجرائم بطريقة مزدوجة .

والأثر الأول هو أن من حق الطرف المتحارب الذى أصابه الضرر مطالبة الطرف الآخر ، الذى ينتمى إليه المتسبب فى هذا الضرر ، بالتعويض كما جاء بالمادة ٣ من اتفاقية ١٨ أكتوبر من عام ١٩٠٧ . هذا ويمكن الوفاء بهذه المطالبة بواسطة التعويض ، أو عن طريق معاقبة المجرمين أو حتى عن طريق الأخذ بالثأر .

والأثر الثانى هو أن من اختصاص الطرف المتحارب الذى أصابه الضرر طبقاً للقانون معاقبة مجرمى الحرب ، وذلك بعد إبرام معاهدة الصلح ، أو عقب انتهاء العمليات الحربية . وإنزال هذه العقوبة بمجرمى الحرب إنما

(١) تسوبلين Zublin ، كتاب التشريع الحديث للجاسوسية .

يتم طبقا للقانون الدولى بصفة مباشرة ، ولا يتطلب ضرورة وجود نص فى قانون العقوبات للدولة . ويتفق فيردروس مع الرأى القائل بأنه فى هذا الشأن يتجه القانون الدولى إستثناء من قاعدته العامة إلى الأفراد وليس فقط إلى الدول .

وعلى ذلك اذا ما كانت الجاسوسية جريمة ضد القانون ، فانه ينبغى أن يكون من حق الدولة التى أصابها الضرر من جراء الجاسوسية المطالبة بالتعويض أو الأخذ بالثأر أو إنزال العقوبة بالجاسوس بعد انتهاء العمليات الحربية . غير أن ذلك كله قد استبعد تماماً ، وهى الحقيقة التى يعترف بها جوجنهايم ، وان كان قد سكت عنها .

ولقد اتجهت الاحكام التى أصدرتها المحاكم العسكرية الدولية وغيرها من المحاكم العسكرية بعد الحرب العالمية الثانية إلى معاقبة أولئك الذين ارتكبوا جرائم حرب دون أن تنظر إلى الجاسوسية على أنها من التصرفات التى تخرق القانون الدولي .

وقد قالت المحكمة العسكرية الدولية بأن قانون الحرب يسمح باستخدام الجواسيس فاذا ألقى القبض على الجاسوس فان من الممكن إعدامه ، لأن من حق الطرف المتحارب حماية نفسه ضد الأخطار الجدية الناجمة عن الجاسوسية المعادية ، وذلك عن طريق إنزال أشد العقوبات الرادعة الفعالة .

ونشير فى هذا الصدد إلى ما يسمى بقضية « شنغهاى » ضد أعضاء المخابرات الألمانية « مكتب ارهارت » ففى هذه القضية لم تكن الدعوة مرفوعة ضد هؤلاء بسبب الجاسوسية ولكن بسبب خرقهم إتفاق وقف إطلاق النار ، بأن ساعدوا اليابانيين بتسليمهم مواد معلومات بعد يوم ٨ مايو سنة ١٩٤٥ .

هذا ويجب ألا يعدم أسير الحرب ، أما اذا هرب فانه من الممكن للدولة التى كان هذا الأسير طرفها اقتفاء أثره بواسطة أجهزتها ، ومن الممكن أن يقوم أعضاء هذه الأجهزة باستخدام السلاح فى مطاردة الأسير الهارب .

فاذا ما أطلقت النيران على الأسير الهارب وقتل فلا جرم على من قام بمطاردته .

والسفينة التجارية التى تسير وسط حراسة تصبح عرضة للخطر ، وتعامل معاملة السفينة الحربية ، ولذا فمن الممكن اغراقها دون أن يكون طاقمها قد اقترف أية جريمة حرب .

ونفس الأمر بالنسبة لممارسة نشاط التجسس الذى لا يعد جريمة . غير أنه ينبغى للجاسوس أن يعلم أنه فى استطاعته فى حالة القبض عليه المطالبة بمعاملته معاملة أسير الحرب ، ولكن من حقه أن يقيم البرهان على عدم تسببه فى الحاق الضرر بالدولة التى يتجسس عليها .

وعلى ذلك فان نشاط المخابرات السرى ليس مجافيا للقانون الدولى طالما كان فى حدود الجاسوسية ومن ثم فان الدولة التى تقوم بأعمال التجسس فى أثناء الحرب إنما تقوم بهذا العمل فى حدود القانون الدولى .

التجسس على أسرار الدولة خارج نطاق قانون الحرب

ليس فى القانون الدولى أى نصوص تتناول التجسس على أسرار الدولة خارج نطاق قانون الحرب وخاصة فى وقت السلم ، ذلك أنه لم تبرم بعد أى اتفاقيات دولية تلتزم بمقتضاها الدول بعدم التجسس على أسرار بعضها البعض .

وفى خلال سنوات ما بين الحربين الأولى والثانية أبرم عدد كبير من الدول معاهدات اعتراف مع الاتحاد السوفييتى ، نص فيها على ما سمى بعدم التدخل فى الشئون الداخلية للدولة غير أنه من الممكن الا يجد أثر هذا النص إلى مدى بعيد جدا ، بحيث يمكن اعتباره متضمنا تحريم ممارسة نشاط المخابرات .

على ان الاتفاقيات غير الرسمية كتلك التى تتم بين رؤساء مخابرات دول متحالفة ، والتى يلتزم فيها الأطراف بعدم ممارسة هذا النشاط ضد بعضها البعض ، فانه غالبا ما تحافظ أغلب هذه الدول على هذا الالتزام محافظة شرف فقط . ومع ذلك لا تخلق مثل هذه الاتفاقيات سوى قانون دولى خاص ،

ولكن ينبغى أن تشملها معاهدات ملزمة ولو فى نصوص سرية . وخلافا لذلك فهى لا تعدو أن تكون مجرد محادثات غير رسمية ، مثل تلك التى تدور بين قادة جيوش الدول الصديقة .

والواقع أن دراسات القانون الدولي لم تعالج الجاسوسية فى وقت السلم إلا نادرا ، وفى هذه المواضع النادرة تعالج هذه الدراسات تلك الحالة على أساس موافقتها على السماح للدول بممارسة نشاط التجسس . ويوافق « روجى » Rogge فى كتابه « سياسة السلم الوطنية » على أن من حق الدولة ممارسة هذا النشاط كعمل تقتضيه ضرورة الدفاع . فحينما تشعر دولة ما انها أصبحت مهددة بواسطة موقف مجاف للقانون تتخذه دولة أخرى – مثل الاستعداد الذى يجرى للعدوان – فانه ينبغى عليها أن تطلق يدها فى اتخاذ إجراءات دفاعية ، وتشمل هذه الإجراءات إرسال عملاء لاستطلاع نوايا الخصم .

وعلى كل حال فان المبادىء القانونية العامة تجيز للدول كل ما لم يرد نص على تحريمه ، وهناك أمر له وضعه الخاص بالنسبة لهذه القاعدة ، وهو أنه لا التزام على أية دولة بأن تتخذ موقفاً تراعى فيه متطلبات مصلحة دولة أخرى .

على أن القانون الدولى يؤيد المبدأ القائل بالتزام جميع الدول باحترام مناطق سيادة الدول الأخرى ، وبعدم قيامها بشن هجوم على أراضى الدول الأخرى .

وعلى ذلك يمكن القول أن الدول تتصرف تصرفاً مجافياً للقانون الدولى ، اذا ما قامت بممارسة نشاط داخل منطقة دولة أجنبية مخالف للقوانين فى هذه الدولة الأجنبية ، وذلك عن طريق عملاء جهاز مخابراتها ، أى مخابرات الدولة الأولى .

ولقد أيدت سويسرا فى قضيـــة « سيزارى روسى » Cesari Rossi

وجهة النظر القائلة بأن التزام الدول بالاحترام المتبادل لاستقلال بعضها البعض إنما يحرم امتداد نشاط المخابرات السرى إلى منطقة دولة أجنبية . هذا التحريم يشتد أثرا حينما يصبح هدف مثل هذه المخابرات الإساءة إلى قوانين الدول الأجنبية ، الأمر الذى يؤدى إلى تهيئة الفرصة أمام خلخلة النظام العام فيها .

وكانت وقائع قضية روسى المشار إليها كالآتى :

« فى ٢٧ من أغسطس عام ١٩٢٨ نزل المهاجر الايطالى سيزارى روسى ، وهو معاد للفاشية مع رفيقتـــه التى تدعى « مارجريت دوراند » فى فندق « اولر » فى مدينة لوجانو تحت أسماء زائفة .

وعلى أثر ذلك قامت المخابرات الايطالية بمطاردة « سيزارى روسى » فى الأراضى السويسرية بواسطة عميل يدعى « نيكولا ترافييرسا » الذى قدم نفسه لسيزارى على أن اسمه « كريستيانى » ثم قام هذا العميل بتغرير سيزارى إلى أن تم القبض عليه وعلى رفيقته وأرسلا إلى ايطاليا . ولكن الأمر الذى يستحق الملاحظة هو أنه لم يتضح الدور الذى كانت تقوم به مارجريت دوراند فى خدمة الحكومة الايطالية .

ولقد اتضح عقب ذلك أنه كان هناك عدد من أعضاء المخابرات الايطالية يعملون فى هذه المهمة فى منطقة الأراضى السويسرية إلى جانب ترافييرسا أو كريستيانى . وعلى الفور قامت سويسرا بإرسال مذكرة احتجاج للحكومة الايطالية .

ولقد ذكر « موتا » عضو مجلس الاتحاد السويسرى فى خطاب له فى المجلس ، أن سويسرا تشعر بأنها أهينت ليس فقط عن طريق حقيقة أن أحد الأفراد الذين تحت حمايتها قد روقب ثم اختطف ، بل عن طريق وجود عملاء لمخابرات سرية أجنبية على أراضيها أيضا .

وبالرغم من اعتراض ايطاليا على المذكرة السويسرية ونفيها قيام نشاط

لبعض عملائها ، فقد قامت باستدعاء بعض رعاياها من سويسرا على الفور وفى ٢١ من نوفمبر ١٩٢٨ قامت حكومة الاتحاد السويسرى بنشر النبأ التالى :

« لقد غادر سويسرا فى النهاية الموظف الايطالى الذى قام بنشاط مخابرات غير مسموح به هذا وقد طرد اثنان من رعايا ايطاليا بسبب قيامهما بنقل معلومات بطريقة غير مسموح بها . كما أنذر اثنان آخران رسمياً بالطرد ، ويرى مجلس الاتحاد ان المحادثات الدبلوماسية التى أجريت بمناسبة حادثة روسى ، لا يمكن استئنافها إلا إذا سويت الموضوعات محل البحث » .

الواقع أن الإجراء الذى اتخذته سويسرا يمثل حادثة فردية بالنسبة لما يمكن للدولة ممارسته ، غير أن حوادث التجسس المعروفة فى العقد الحاضر من هذا القرن قد أثبتت أن غالبية الدول تكتفى بإنزال العقاب بالعميل الأجنبى طبقاً لقانونها ، وذلك دون أن تتخذ أى إجراء دبلوماسى ضد الدولة الأجنبية بسبب إرسالها هذا العميل .

وفى عام ١٩٣٤ وجهت التهمة إلى نقيب بسلاح الفرسان البولندى وهو « سوسنوفيسكى » بوصفه عميلاً للمخابرات السرية البولندية فى برلين ، حيث قام بتضليل موظفة فى أحد أقسام القيادة العليا للجيش الألمانى ، بغية الحصول على مواد أو معلومات سرية عن التسليح الألمانى ، ولقد سلمت هذه المواد للقيادة البولندية . هذا ولم تتخذ أى اجراءات دبلوماسية ضد حكومة بولندا التى كان سوسنوفيسكى يعمل لمصلحتها .

وفى عام ١٩٣٨ حكم على المغنية الروسية « بليفسكايا » فى باريس بالأشغال الشاقة لمدة عشرين عاما . وقد كانت هى وزوجها ، وهو الجنرال السابق « سكوبلين » عميلين للمخابرات الروسية ، ولقد تعاون هذان الشخصان مع هيئة موظفى السفارة الروسية فى باريس فى التغرير برئيس منظمة للمهاجرين الروس البيض ، وهو الجنرال « ايفجينى ميللر » ، حيث استطاعا القبض عليه ثم نقلاه فى سيارة من سيارات السفارة إلى ميناء الهافر . وهناك أمكن

ارغامه على ركوب الباخرة السوفييتية « ماريا اوليانوفا » التى نقلته إلى الاتحاد السوفييتى . هذا ولم تطالب فرنسا الاتحاد السوفييتى بتسليم الفاعل وهو زوج المغنية ، كما لم تطالب بمحاكمته فى الاتحاد السوفييتى ذلك أن فرنسا التى اعتدى على منطقة من مناطق سيادتها بواسطة عملاء الاتحاد السوفييتى ، اكتفت بالحكم الذى صدر ضد أحد الشركاء فى العملية ، وهى المغنية الروسية التى كانت موجودة آنذاك فى نطاق منطقة السيادة الفرنسية .

وفى سبتمبر ١٩٤٥ ترك موظف الشفرة فى السفارة السوفييتية فى « اوتاوا » وهو « ايجور جوزينكو » وظيفته ، والتمس الالتجاء السياسى من السلطات الكندية . ولقد قدم هذا الموظف الروسى تقاريرا لهذه السلطات الكندية عن طريق عديد من شبكات الجاسوسية التى بناها موظفو السفارة السوفييتية فى كندا ، ولكى يقيم « ايجور جوزينكو » الدليل على ما كتبه من تقارير قدم أشرطة ورق مسجل عليها المراسلات اللاسلكية المتبادلة بين السفارة وبين الحكومة السوفييتية فى موسكو . واتضح من هذه المراسلات ان هناك أسرارا جوهرية خاصة بانتاج القنبلة الذرية قد أفشيت . ولقد وجدت كندا نفسها أمام سؤال ، وهو ما النتائج التى يمكن أن تسفر عنها حقيقة أن دولة كانت متحالفة معها قامت بالتجسس على الأسرار الكندية بواسطة الاعضاء الدبلوماسيين فى سفارة هذه الدولة ؟ .

وبعد العرض الذى قدمه « ماكسويل كوهين » للموضوع نوقشت الإمكانيات التالية :

١ ــ ان قيام الممثلين الدبلوماسيين بنشاط غير مسموح به يمكن اعتباره عملاً غير ودى قام به الاتحاد السوفييتى ويستتبع قطع العلاقات الدبلوماسية :

٢ ــ يمكن للحكومة الكندية أن تعبر عن استيائها بالمطالبة بسحب رئيس البعثتين الكندية والسوفييتية الدبلوماسيين .

٣ – يمكن للحكومة الكندية أن تطالب بسحب أعضاء السفارة الروسية الذين اشتركوا فى هذا العمل .

٤ – يمكن للحكومة الكندية أن تطلب من الاتحاد السوفييتى محاكمة الأشخاص المتهمين فى السفارة الروسية أمام المحاكم الكندية .

ولقد قررت الحكومة الكندية بعد أن قامت بمشاورات مع بريطانيا فى الموضوع ، سحب رئيس البعثتين الدبلوماسيتين : « الكندية فى الاتحاد السوفييتى ، والسوفييتية فى كندا » ، ومطالبة الاتحاد السوفييتى بسحب الأشخاص المسئولين عن القيام بهذا النشاط كأشخاص غير مرغوب فيهم ، وتبين من طريقة معالجة حكومة كندا للموضوع أنها شعرت بأن ثمة ضرراً أصابها عن طريق نشاط تجسسى قام به دبلوماسيون رسميون ، ولذا اتخذت الاجراءات المناسبة .

وعلى ذلك يتضح أن التجسس بدون اشتراك أشخاص رسميين لا يهيىء المناسبة لاتخاذ إجراءات دبلوماسية ، كما أن التجسس يتيح الفرصة أمام ظهور جريمة ضد القانون الدولى .

الخلاصة :

مما تقدم من قضايا ، يبرز لنا رأيان جوهريان بالنسبة لتقدير الدول لأعمال التجسس من زاوية القانون الدولى وهما .

١ – اذا قام الممثلون الرسميون لدولة أجنبية بالتجسس ، فان الكيفية التى ينبغى معاملة هذه الدولة الأجنبية بموجبها تدخل فى الحسبان . ذلك أن هذه الدولة الأجنبية تكون فى هذه الحالة مسئولة عن نشاطها هذا . ومن ثم يجب على الدولة التى أصابها الضرر أن تتخذ إجراءات ضد الدولة الأجنبية التى تسببت فى الضرر . ومن أمثلة ذلك سحب الأشخاص المعتمدين وإنزال العقوبة بالمتهمين وقطع العلاقات الدبلوماسية .

٢ ـ اذا قام بالتجسس ممثلون غير رسميون لدولة أجنبية ، فانه طبقا للقانون الدولى لا تدخل مثل هذه المعاملة آنفة الذكر فى الحسبان حتّى وان كان هؤلاء الممثلون أعضاء فى المخابرات السرية للدولة الأجنبية . ذلك أن القانون الدولى لا يعد الآثار المترتبة على نشاط هؤلاء العملاء السريين اعتداءاً موجهاً من دولة أجنبية ، وانما جرائم يرتكبها أفراد تطبق عليهم قوانين الدولة التى وقعت فيها .

وعلى ذلك فان الاحتفاظ بمخابرات سرية من الأمور المسموح بها للدول حتّى فى أوقات السلم . ومن ثم تستطيع الدول داخل نطاق أراضيها ، بموجب سيادتها على هذه الأراضى آنشاء المؤسسات التى ترغب فيها والاحتفاظ بها ، واذا ما امتد نشاط مخابرات سرية عبر حدود دولتها ، فينبغى الا تؤخذ هذه الدولة بجريرة هذا العمل .

الفصل الخامس عشر

مكافحة الجاسوسية خارج نطاق قانون الحرب

الخيانة الوطنية والخيانة العظمى

تنظم مكافحة الجاسوسية خارج نطاق قانون الحرب قوانين العقوبات فى الدول المختلفة فيما تتناوله هذه القوانين من نصوص تعالج الخيانة الوطنية .

والخيانة الوطنية هى جريمة ضد الدولة ، بمعنى أن الشىء الذى ينبغى حمايته فى العادة هو الدولة وليس فريقاً متحرراً ، كما هو الحال فى الجاسوسية طبقا للمادة ٢٩ من لائحة لاهاى فى الحرب البرية .

وتشكل الخيانة الوطنية تهديدا للنطاق الحيوى الخارجى للدولة وبذلك تختلف الخيانة الوطنية عن الخيانة العظمى الموجهة ضد الأمن الداخلى للدولة .

والمفروض فى حالة الخيانة الوطنية أن تكون هناك علاقات بين دولتين — على الأقل — سابقة على الفعل ، ويلحق الضرر بأمن احداها ، بينما يعود هذا الضرر بالمنفعة على الأخرى .

أما فى حالة الخيانة العظمى فان دولة واحدة فقط هى المقصودة من وراء الفعل ، وهى على وجه الخصوص تلك التى يوجه ضد أمنها الداخلى التصرفات المهددة له .

وهذه التفرقة الذهنية التجريدية بين الخيانة الوطنية والخيانة العظمى ، وهى ما يطلق عليه « ريتر » Ritter انطلاق التفكير الوطنى الليبرالى تعد غريبة بالطبيعة عن أى قانون مهمته الأولى حماية طبقة اجتماعية كما هو الحال بالنسبة للروس السوفييت ، وطبقاً لقانون العقوبات السوفييتى يمكن أن ترتكب الخيانة الوطنية لمصلحة المنظمات الثورية ، بل لمصلحة الأشخاص الطبيعيين أيضا .

ودعا التطور السياسى فى العقود الأخيرة من هذا القرن إلى أن أصبح التوسع فى الفكرة الضيقة للخيانة الوطنية فى قانون الدولة أمراً لازما .

وقائع الخيانة الوطنية

ويفرق قانون العقوبات المصرى بين وقائع الخيانة الوطنية تفصيلياً على الوجه التالى :

١ ــ السعى لدى دولة أجنبية أو التخابر معها أو مع أحد ممن يعملون لمصلحتها للقيام بأعمال عدائية ضد مصر (مادة ٧٧ ب من قانون العقوبات المصرى) .

٢ ــ التجسس على أسرار الدولة ، وإفشاء أسرار الدولة (المادتين ٨٠ ، ٨٥ من ق . ع . م) .

٣ ــ الغدر الوطنى وهو ما يسمى بالخيانة الوطنية الدبلوماسية (مادة ٧٧ الفقرتين الأولى والثانية من ق . ع . م) .

٤ ــ تزييف الأدلة بغية الخيانة الوطنية (مادة ٧٧ الفقرة الثانية من ق . ع . م) .

وطبقاً لما تقدم فان الخيانة الوطنية يمكن أن تكتمل أركانها بافشاء أسرار الدولة أو بتحريض القوة الخارجة عن الدولة ، أو بتزييف الوثائق والمستندات ، أو فى حالات خاصة بارتكاب عمل من أعمال الغدر .

على ان الأمر ذا الأهمية الخاصة هو واقعة (التجسس على أسرار الدولة) ، أما فيما يتعلق باقامة علاقات خيانة وطنية والمحافظة عليهـا ، فانها فى العادة تكون عملاً من الأعمال التمهيدية للقيام بالتجسس ، بينما « خيانة أسرار الدولة » هى الفعل الكامل الذى يرتكب ضد هذه الأسرار كنتيجة لنشاط تجسسى ، وذلك إلى الحد الذى يتمكن عنده عملاء المخابرات من التثبت من الواقعة .

وعلى ذلك فان الخيانة الكاملة تفترض وجود معرفة مسبقة لأسرار الدولة ، ذلك أن هذه الأسرار ليست بعد فى قبضة يد المخابرات . ولذا فان هذه المخابرات تريد أولاً الوقوف على أسرار الدولة الأجنبية ولهذا الغرض تقوم بانشاء علاقات مع حامل أسرار الدولة الأجنبية ثم تدفعه للوقوع فى الخيانة بنفسه .

فكرة أسرار الدولة

ان الهدف الذى ترمى اليه الجاسوسية والخيانة هو الوقوف على الأسرار الحقيقية للدولة ، وأسرار الدولة تتناول علاقات الدولة بالدول الأجنبية ، أما الأسرار الرسمية فهى تتناول علاقات الدول بالداخل ، أما الأسرار الخاصة والتجارية فهى تتناول علاقات الأفراد بالمواطنين .

وفكرة الأسرار تفرض وجود عدد ممن يعلمون يرغبون فى حرص فى الامساك عن الافضاء بما يعلمون لبعض معين من الناس ممن لا يعلمون .

وعلى ذلك فان فكرة الأسرار هى دائما فكرة نسبية وموضوعية فى نفس الوقت ، ذلك أن الأسرار اما أن تكون ذات طبيعة مادية على أساس فحواها ، وإما ذات طبيعة رسمية على أساس تحديد مجرد .

أما من الناحية الطبيعية المادية ، فهى أن يحوى السر عنصراً يتعارض ظهوره مع مستلزمات المحافظة على الأسرار مراعاة لمصلحة الدولة ، وأما من ناحية الطبيعة الرسمية فهى أن تكون المعلومات مصحوبة بكلمة (سرى) أو أن تكون مدرجة فى تصنيف سرى رسمى مثل (مصانع التسليح) ، وان لم يكن فحوى هذا السر جوهريا .

ولقد حدد قانون العقوبات المصرى أسرار الدولة بالآتى * :

١ ـ المعلومات الحربية والسياسية والدبلوماسية والاقتصادية والصناعية التى بحكم طبيعتها لا يعلمها إلا الأشخاص الذين لهم صفة فى ذلك ويبقى مراعاة لمصلحة الدفاع عن البلاد لتبقى سرا على ما عدا هؤلاء الأشخاص .

٢ ـ الأشياء والمكاتبات والمحررات والوثائق والرسوم والخرائط والتصميمات والصور وغيرها من الأشياء التى يجب لمصلحة الدفاع عن البلاد الا يعلم منها الا من يناط به حفظها أو استلامها ، والتى يجب أن تبقى سراً على من عداهم خشية أن تؤدى إلى إفشاء معلومات مما أشير إليه فى الفقرة السابقة .

٣ ـ الأخبار والمعلومات المتعلقة بالقوات المسلحة وتكتلاتها وتحركاتها وعتادها وتموينها وأفرادها ، وبصفة عامة كل ما له مساس بالشئون العسكرية والاستراتيجية ولم يكن قد صدر اذن كتابى من القيادة العامة للقوات المسلحة بنشره أو اذاعته .

٤ ـ الأخبار والمعلومات المتعلقة بالتدابير والاجراءات التى تتخذ لكشف

(*) المادة ٨٥ من قانون العقوبات .

الجرائم المنصوص عليها فى هذا الباب أو تحقيقها أو محاكمة مرتكبيها ، ومع ذلك يجوز للمحكمة التى تتولى المحاكمة أن تأذن بإذاعة ما تراه من تحرياتها .

وعلى ذلك فان الحقائق والمواد والمعلومات هى الأمور التى ينبغى المحافظة عليها فى طى الكتمان . وقد سبق أن حكمت محكمة النقض عند الطعن فى حكم حدثت وقائعه قبل صدور قانون العقوبات رقم ١١٢ لسنة ٥٧ بأن يشترط لتطبيق المادة ٨٠ القديمة شرطين . أولهما أن يكون الشىء ذا طبيعة سرية ، وثانيهما أن يكون متعلقا بالدفاع عن البلاد . وتقدير ذلك متروك لمحكمة الموضوع ، ولها أن تستعين بمن ترى الاستعانة به كما أن لها أن تأخذ رأيه دون معقب على حكمها ، كما أن مجرد الحصول على السر أمر معاقب عليه ، وافشاؤه كله أو بعضه ، كذلك ينطبق عليه النص .

هذا ويمكن أن تشتمل على مواد . ولقد قال « فون ليست » و « فرانك » وغيرهما فى ذلك : أنه ليست العبرة بقطعة الورق التى تحوى ثمة خطة أو نية معينة وانما العبرة بالحقيقة ذاتها وهى وجود ثمة خطة محددة أو نية معينة .

على أنه فات هؤلاء أن قطعة الورق المحتوية على الحقيقة هى السبب فى ظهور تلك الحقيقة أو الكيان ، ومن ثم فانه من الممكن أن تصبح المواد محل خيانة طالما اشتملت على حقائق .

وينبغى أن نفهم جميع الأشياء المجسمة على أنها مواد . فالأشياء المتحركة وغير المتحركة ومستخرجات الطبيعة ومنتجات النشاط الإنسانى ، وكذلك المحررات والعاملات والموديلات والطرق والكبارى والأنهار والجبال وشواطىء البحار ، ان كل هذه الأشياء تدخل تحت كلمة مواد . هذا ويرى « اولزهاوزن» Olshousen و « شتنجلان » Stenglin انه ينبغى أن يدخل البشر أيضاً تحت فكرة المواد .

وتتدرج تحت كلمة معلومات جميع الأخبار من كل الأنواع شفوية أو مكتوبة عن طريق البرق أو عن طريق آخر من طرق نقل الأنباء والتى

تتناول المواد والحقائق . فوصف نموذج طائرة جديدة تعد معلومات عن مادة أما الخبر بأن هذا النموذج لم تختبر صلاحيته فإنه يعد معلومات عن حقيقة .

وعليه فاذا كانت الحقائق والمواد والمعرفة بالأمور والمعلومات تتناول عرضاً لأسرار الدولة فانه ينبغى أن تظل سرا .

ولقد طالب « فون ليست » و« بيندنج »* فيما مضى ، بضرورة تحديد دائرة الذين يعملون فى السر وبذلك يحفظ السر داخل نطاق هذه الدائرة وحسب .

بيد أن الدراسات التى تجرى فى الوقت الحاضر قد أدت إلى ظهور نظرية أوسع نسبياً للأسرار ، وطبقاً لهذا التوسع فى نظرية الأسرار ، فانه لم يعد أمراً واقعياً أن تقصر معرفة حقيقة معينة على دائرة معينة من الأشخاص .

وعلى ذلك فان الأمر الذى يحسم الموقف تمشياً مع النظرية الأوسع للأسرار ومع الدراسات المالية ، هو أن هذه الحقيقة تجهلها حكومة أجنبية جهلاً كلياً أو جزئياً .

ومن ثم فان المعيار هنا هو معرفة أو عدم معرفة حكومة أجنبية لحقيقة ينبغى المحافظة عليها فى طى الكتمان . فموقع استحكامات ساحلية فى إحدى مناطق الدولة معروف لدى دائرة محددة من الاشخاص الذين يقطنون هذه المنطقة ، ولكن طالما أنه ينبغى الحيلولة دون وقوف الحكومات الأجنبية على هذه الاستحكامات ، فان هذه الاستحكامات تدخل نطاق أسرار الدولة

ويستخدم الفكر الحديث فيما يتعلق بتحديد خيانة الدولة تعبير « الحكومة الأجنبية » بدلاً من « الحكومة الخارجية » الذى شاع استخدامه من قبل .

وينبغى ألا يغرب عن البال أن الفكرة الواسعة للأسرار تحمل فى طياتها

(*) كتاب دراسة قانون العقوبات الألمانى العام .

مخاطر تلحق بالضمان الذى يوفره القانون .

ذلك أنه اذا تمادينا فى التفسير ، فان من الممكن اعتبار قيام عملاء احدى الدول الأجنبية بشراء دليل جغرافى أو دليل سياحى عملاً من أعمال التجسس ، طالما أن دليل المدينة أو الدليل السياحى يمكن النظرة اليهما على انهما سر من أسرار الدولة ، لأن الدولة الأجنبية لا تعلمها بالرغم من أنهما مطروحان للبيع الحر .

ومن ثم فان المحافظة على السر من الافشاء به إلى حكومة أجنبية ينبغى أن تكون من الأمور التى تستلزمها مصلحة الدولة ، ازاء هذا الاطار النموذجى للوقائع ظهرت نظريتان .

فطبقاً للنظرية الموضوعية الصارمة ، فان قيادة الدولة هى التى تحدد لوازم المحافظة على حقيقة معينة فى طى الكتمان ، وذلك بناء على المعايير الخاصة بهذه الدولة ، وعلى العكس من ذلك تذهب الدراسات السائدة الآن على أنه ينبغى أن تكون المحافظة على السر من الناحية المادية من متطلبات مصلحة الدولة .

وبين هذين الرأيين يوجد رأى وسط ، وهو ما يراه كل من « فيبر Weber » و « كونراد Conrad » و « برون Brune » ، وقد ذكر هؤلاء : « انه حقيقة ينبغى تحديد الضرورة من الناحية المادية الا أنه يجب من الناحية الأخرى أن تقوم قيادة الدولة بتحديد فكرة مصلحة الدولة تحديداً موضوعياً وذلك طالما أن المسألة تتعلق بمعايير وحسم .

وثمة مسألة مسار بحث وهى : هل يعد قيام حكومة ما للمحافظة على أسرار استعدادها للعدوان خرقاً للقانون الدولى ؟ . ولقد أدت هذه المسألة إلى إثارة عدة أسئلة :

– هل للقانون الدولي سطوة على قانون الدولة .

– هل يقف وجود القانون الدولى حائلا دون إصدار قانون للدولة يتعارض معه ؟

– هل للمواطن الحق وكذلك عليه الواجب من ناحية القانون الدولى فى أن يتستر على الخائنين للدولة استناداً إلى أن قيادة دولة هذا المواطن تخرق القانون الدولى ؟

ويرد « كيلسن » فى مؤلفه « مشكلة السيادة » تمشياً مع آرائه الخاصة بالعلاقة بين القانون الدولى وبين قانون الدولة على هذه الأسئلة . ذلك أنه يرى أنه يجب أن لا تقوم الدولة بإصدار قانون خارق للقانون الدولى .

وطبقاً للآراء السائدة الآن – المتطرف منها والمعتدل – وكذلك تمشياً مع السلطات التى تمارسها الدولة ، بدأ الاتجاه حاليا نحو الفعل الذى يرتكبه الفرد داخل الدولة ، ولكنه فى نفس الوقت يتعارض مع القانون الدولى .

ولقد حوى قانون العقوبات الفرنسى تحديداً لفكرة أسرار الدولة كما هو الحال بالنسبة لقانون العقوبات المصرى . ويبدو أن المادة ٨٥ من قانون العقوبات المصرى منقولة عن القانون الفرنسى ، ولقد حصر قانون العقوبات الفرنسى الفكرة فى باب خاص بها بعنوان « أسرار الدفاع الوطنى » .

ونصت المادة ٨٧ من هذا القانون على اعتبار الأمور الآتية أسراراً وهى :

١ – معرفة الأمور العسكرية والدبلوماسية والاقتصادية والصناعية ، تلك المعرفة التى تكون بطبيعتها مقصورة على أشخاص معينين وينبغى حجبها عن الأشخاص الآخرين مراعاة لصالح الدفاع عن الدولة .

٢ – الأشياء والمواد والمحررات والعلامات والمصورات ، وما أشبه ذلك مما يمكن تكرار انتاجه وكذلك جميع الوثائق بمختلف أنواعها ، هذه جميعاً التى يقصر الاحتفاظ بها ومعرفتها على أشخاص معينين وينبغى حجبها عن الأشخاص الآخرين الذين من الممكن أن يؤدى علمهم بها إلى إلحاق الضرر بشئون الدفاع عن الدولة .

٣ – المعلومات ذات الطبيعة العسكرية المحضة التى لا تسمح الحكومة

بنشرها والتى يحرم القانون أو قرار من مجلس الوزراء نشرها أو ترويجها واعطاءها ونسخها .

٤ - معرفة الأمور سواء تلك التى تتعلق باجراءات الاعتقال والقبض على الأشخاص المتهمين فى احدى جرائم الأمن الخارجى للدولة والأشخاص المشتركين معهم فى هذه الجرائم أو تلك التى تتعلق بالتحقيقات وباجراءات المحاكمة أمام المحكمة .

وعلى ذلك تمتد آثار القانون الفرنسى إلى الحقائق والمواد والمعرفة بالأمور والمعلومات شأنه فى ذلك شأن القانون المصرى .

ولقد ابتعد القانون الفرنسى عن التفسير الواسع لفكرة السر النسبية ، ذلك أن فيصل القول فيما ينبغى الاحتفاظ به سراً من أسرار الدولة مراعاة لمقتضيات الدفاع عنها هو من سلطة الهيئة التشريعية ومجلس الوزراء ، وعلى ذلك فان القانون الفرنسى يقف إلى جانب نظرية السر المادية المعتدلة .

وفى بريطانيا يمثل التاج الدولة ، وعليه فان القوانين التى تصدر لحماية الدولة هى فى نفس الوقت وبصفة رسمية القوانين لحماية التاج .

ولقد نص القانون على واقعة « الخيانة ومؤداها اقامة علاقات معادية للملك مع الخارج » الأمر الذى يوقع مرتكبها تحت طائلة القانون ، وذلك لحماية أسرار الدولة الدبلوماسية . أما حماية بقية أسرار الدولة فقد صدر بها « قانون الأسرار الرسمية » عام ١٩١١ .

وترمى فكرة « الأسرار الرسمية » Official Secrets إلى حماية الأماكن المضمومة Prohibited places وهذه الأماكن تفصيلياً هى :

« مواقع الدفاع وأجهزتها والترسانات والخنادق والمعسكرات والسفن والطائرات ومحطات اللاسلكى والبرق والاشارات ، وكذلك كل الأماكن الخاصة ببناء وانتاج وتجهيز وتخزين الذخيرة وما يتعلق بها من تصميمات

ومشروعات ونماذج ووثائق ، يضاف إلى ذلك أماكن استخراج المعادن والزيت والأملاح المعدنية فى الأغراض الحربية » .

وهذه الأماكن ليست ملكاً للتاج البريطانى ، كما أنها لا تنتمى إلى هذا التاج بموجب أى اتفاق أو قانون أو ما شابه ذلك .

وتشتمل الأماكن المحرمة أيضاً على تلك التى يصدر بها قرار من وزير الداخلية يوضح فيه أن وصول معلومات عنها للعدو يمكن أن يعود عليه بالفائدة ومن أمثلة هذه الأماكن بوجه خاص خطوط السكك الحديدية والطرق والقنوات وطرق المواصلات الأخرى البرية منها والمائية ، وكذلك محطات الكهرباء والمياه والغاز .

ومن الواضح أن جميع هذه الأماكن بذاتها ليست أسراراً للدولة ، وانما السر الذى يطلب الاحتفاظ به هو الحقائق والمعلومات المتعلقة بهذه الأماكن وما تحويه من أشياء .

وعلى ذلك اذا ما نص القانون على أن دخول الأماكن المحرمة وتصويرها واقتحامها أو الاقتراب منها يوجب العقاب ، فانه يكون بذلك قد قصد الحيلولة دون حصول غير المختصين على معلومات عن هذه الأماكن .

والمقصود بالشخص غير المختص هو كل شخص يبدو من مظهره حسب ظروف الحال أو حسب تصرفاته أنه ينوى استغلال الحقائق فى إلحاق الضرر بأمن الدولة أو بصالحها .

ولقد اتبع القانون الانجليزى نظرية سر نسبية رحبة الاتساع . فأسرار الدولة تتضمن مفاتيح المعلومات الرسمية ، وكلمات السر والتصميمات والمشروعات والنماذج والأجهزة والعلامات والوثائق ، اذ كل هذه الأشياء يمكن أن يستفيد منها العدو فى حالة حصوله عليها بطريقة مباشرة أو غير مباشرة .

وهذه الأشياء والمعلومات أسرار فى حالة وجودها فى حيازة أو تحت اشراف شخص له الحق فى الهيمنة عليها بحكم وظيفته أو بحكم ظروف عمله أو بموجب اتفاق خاص بذلك ، أو أن يكون هذا الشخص قد عهد اليه بالقيام بهذا العمل نتيجة الثقة فيه .

وفكرة أسرار الدولة فى قانون الولايات المتحدة الأمريكية شبيهة بتلك التى حواها قانون الأسرار الرسمية الانجليزى الصادر عام ١٩١١ ، وذلك من حيث عدم شموله لواقعة عامة موحدة ، ذلك أنه عدد الوقائع تفصيليا .

ولما سبق النص على ما يسمى بخيانة الدولة دبلوماسياً ، تماشياً مع التقاليد الانجلوسكسونية تحت وقائع الخيانة ، أى إقامة علاقات مع الخارج ضارة بالدولة ، فقد اشتمل قانون التجسس الأمريكى الصادر بتاريخ ١٥ من يونيو عام ١٩١٧ على حماية الدفاع عن الدولة ضد التجسس .

وعلى ذلك لم توضع واقعة الحصول على « أسرار عسكرية أو أسرار الدولة » تحت طائلة العقاب ، غير أن الحصول على « معلومات تدخل فى نطاق الدفاع عن الدولة » هو الأمر الذى حرم .

وتنص المادة الأولى من قانون التجسس السالف الاشارة إليه على ما ينبغى فهمه على أنه معلومات تدخل فى نطاق الدفاع عن الدولة تفصيلياً ومن أمثلة ذلك المعلومات عن السفن الحربية والطائرات ومواقع الدفاع والموانى الحربية ونقط دفاع الغواصات ومحطات الفحم والاستحكامات والبطاريات والترسانات البحرية ، وكذلك المعلومات عن القنوات وخطوط السكك الحديدية وترسانات الأسلحة والمعسكرات والمصانع والمناجم ومحطات اللاسلكى والأماكن المخططة لانتاج وتجهيز وتخزين أدوات الحرب وأجهزتها .

ولقد تضمنت هذه المادة فى فقراتها المتتالية عدداً من الأشياء التى يعتبر الحصول عليها أو على معلومات عنها خيانة وفصلت هذه الأشياء كالآتى : التصميمات والمصورات والنسخ الضوئية الزرقاء والمشروعات والخرائط

والأجهزة والأدوات والوثائق والمذكرات وما شابهها ، على أن يكون لهذه الأشياء ثمة علاقة بالدفاع عن الدولة .

هذا وقد اشتمل القانون الأمريكى على سريه رسمية إلى حد ما أيضاً ، وقد نصت المادة ٣٢ من القانون المشار إليه على أنه فى زمن الحرب أو فى حالات اعلان الطوارىء فى الداخل يعتبر الافضاء بالمعلومات الخاصة باتجاهات القيادة وهى المعلومات المتعلقة بالمخططات والتصرفات الخاصة بالعمليات البرية والبحرية وكذلك الافضاء بتكهنات خاصة باجراءات القيادة من ناحية وجهات نظر خاصة من الأمور الموجبة لانزال العقوبة .

وعلى ذلك فان الفعل الموجب للعقاب وهو الحصول على هذه المعلومات أو الافضاء بها ، يعد خيانة للأفراد وذلك اذا ما عمل شخص على الحصول عليها أو الافضاء بها بغية إلحاق الضرر بالولايات المتحدة ، أو استخدام هذه المعلومات أسباب الامتياز لدولة أجنبية .

ومن هنا تقف الولايات المتحدة إلى جانب نظرية السر النسبية الواسعة ، ذلك لأنه من الممكن لأى شخص أن يستقى معلومات عن الدفاع عن الدولة ، ولكن عليه أن يعرف أنه ينبغى أن لا تصل هذه المعلومات إلى آخر يمكن أن تلحق معرفته بها ضرراً بالولايات المتحدة الأمريكية ، أو تخلق امتيازاً لدولة أجنبية .

ولقد أفاض قانون التجسس الأمريكى المذكور فى غير المعلومات المتعلقة بالدفاع عن الدولة ، يضاف إلى ذلك أنه منح رئيس الجمهورية (المادة السادسة) الحق فى التوسع فى الأشياء التى ينبغى الاحتفاظ بها فى طى الكتمان ، وذلك لإضافة المزيد من المناطق المحرمة بحكم علاقاتها بالدفاع عن الدولة « النظرية الموضوعية للسر » .

ويتضمن القانون السوفييتى الروسى فكرة أسرار الدولة ، فقد تحدثت المادتان ٥٨ ، ١٣٩ من قانون العقوبات الروسى ، كما تحدث قرار ٨ من

يونيو سنة ١٩٣٤ الخاص « بالخيانة الوطنية » عن « أسرار الدولة الجديرة بالحماية بصفة خاصة » عن « الأسرار العسكرية » وعن « المعلومات الاقتصادية » التى ينبغى الاحتفاظ بها سرا .

وتعد مادة معلومات « سراً من أسرار الدولة جديراً بالحماية بصفة خاصة » تلك التى يتفق مجلس وزراء اتحاد الجمهوريات السوفييتية مع مجالس وزراء الجمهوريات الاتحادية على اعتبارها معلومات ، وتدرج بالسجلات المصنفة .

وطبقاً للمادة ٥٨ من قانون العقوبات السوفييتى تعد « مادة معلومات » سراً من أسرار الدولة ينبغى المحافظة عليها وحمايتها من الوصول إلى الدول الأجنبية والمنظمات الثورية المضادة وكذلك الأشخاص المناهضين للثورة .

وعلى ذلك فانه يمكن القول بأن نظرية سر الدولة قد فسره الاتحاد السوفييتى تفسيراً ضيقاً ، ذلك أن المادة التى تعد سراً من أسرار الدولة التى تبنيها الحكومة تفصيليا .

أما فيما يتعلق « بسر الدولة الجدير بالحماية بصفة خاصة » فهو إحدى تلك الحالات المصنفة المدرجة بالسجلات ، والتى تعرض من يرتكب جريمة إفشائها للعقاب الشديد بصفة خاصة .

وأما فيما يتعلق « بمادة المعلومات الاقتصادية » فانها طبقاً للمادة من القانون آنف الذكر لا تصل فى فحواها إلى درجة سر الدولة الجدير بالحماية بصفة خاصة . ذلك أنه طبقاً للمادة المشار إليها ينبغى المحافظة عليها سراً بموجب حظر شرعى ، أو بمقتضى قرار يصدره أحد رؤساء الجهات الحكومية أو المؤسسات ، يحرم فيه الإفضاء بها لاحدى الدول الأجنبية أو لاحدى المنظمات الثورية المضادة أو الأفراد المناهضين للثورات . ونفس ما تقدم يمكن أن ينصرف أيضا إلى « الأسرار العسكرية » .

ولقد تناولت المادة ١٩٣ من قانون العقوبات السوفييتى المعلومات عن القوات المسلحة السوفييتية ، وقدرة الاتحاد السوفييتى على الدفاع .

وطبقاً لاحكام المادة فانه من الممكن أن تصبح هذه المعلومات من قبيل « أسرار الدولة الجديرة بالحماية بصفة خاصة » ، ذلك أنه حتى اذا لم يكن فحواها ينطبق عليه هذا النص المذكور فإنها تصبح من المعلومات العسكرية التى ينبغى حجبها عن النشر والعلانية .

ولا ريب فى أن ما تقدم يشير إلى توسع فى فكرة السر توسعاً لا حد له . فالقانون السوفييتى لا يعرف نظرية السر الموضوعية بأوسع معانيها وحسب ، وإنما يصع أيصا كل سر رسمى يصدر بـه قرار من رئيس احدى الجهات الحكومية أو أحد المصانع تحت حمايته .

وعلى ذلك فإن الاتحاد السوفييتى يضع كل شيء تحت حماية الأسرار ، سواء أكانت هذه الحماية شديدة أم خفيفة ، ولا يستثنى من ذلك سوى الأمور التافهة .

ولعل السبب فى ذلك هو أن الخوف من التجسس فى الاتحاد السوفييتى أشد منه فى أية دولة أخرى ، كما أن هذا الخوف لم يترك بصماته على جهاز الدولة فى أى مكان فى العالم بقدر ما هو واقع فعلاً فى الاتحاد السوفييتى .

يضاف إلى ذلك أنه لما كان إفشاء سرٍّ من أسرار الدولة طبقاً للقانون السوفييتى يدخل ضمن جرائم الثورة المضادة للقانون فقد نصت المادة ٥٨ من قانون العقوبات السوفييتى على حماية الأسرار الأخرى للدولة .

تصرفات التجسس

تنص المادة ٧٧ ب من قانون العقوبات المصرى على الآتى :

« يعاقب بالاعدام كل من سعى لدى دولة أجنبية أو تخابر معها أو مع أحد

ممن يعملون لمصلحتها للقيام بأعمال عدائية ضد مصر » .

وتنص المادة ٧٧ د من نفس القانون على الآتى :

« يعاقب بالسجن اذا ارتكبت الجريمة فى زمن السلم ، وبالأشغال الشاقة المؤقتة اذا ارتكبت الجريمة فى زمن الحرب » .

« أولاً : كل من سعى لدى دولة أجنبية أو واحد ممن يعملون لمصلحتها أو تخابر معها أو معه وكان من شأن ذلك الإضرار بمركز مصر الحربى أو السياسى أو الدبلوماسى أو الاقتصادى .

ثانياً : كل من أتلف عمداً أو أخفى أو اختلس أو زور أوراقاً أو وثائق وهو يعلم أنها تتعلق بأمن الدولة أو بأية مصلحة قومية أخرى فاذا وقعت الجريمة بقصد الإضرار بمركز البلاد الحربى والسياسى أو الدبلوماسى أو الاقتصادى أو بقصد الإضرار بالمصلحة القومية لها ، كانت العقوبة الأشغال الشاقة المؤقتة فى زمن السلم والأشغال الشاقة المؤبدة فى زمن الحرب .

أما المادتان ٨٠ ، ٨٥ عقوبات فتنصان على الآتى :

« يعاقب بالإعدام كل من سلم لدولة أجنبية أو لأحد ممن يعملون لمصلحتها أو أفشى اليها أو اليه بأية صورة من الصور وعلى أى وجه وبأية وسيلة سراً من أسرار الدفاع عن البلاد أو توصل بأى طريقة إلى الحصول على سر من هذه الأسرار بقصد تسليمه أو إفشائه إلى دولة أجنبية أو لأحد ممن يعملون لمصلحتها وكذلك كل من أتلف لمصلحة دولة أجنبية شيئاً يعتبر سراً من أسرار الدفاع أو جعله غير صالح لأن ينتفع به .

ويفهم من هذه المواد النص على أن يقوم الشخص بنفسه بوقائع وتصرفات التجسس . وهذا المفهوم من الناحية العامة المطلقة .

ولقد لخص المستشار محمد كامل البهنساوى فى كتابه (الجاسوسية بين الأسرار الحقيقية والأسرار الحكمية) بقوله :

« إن الشارع ألغى بالتشريع الجديد التفرقة بين الأسرار الحقيقية والأسرار الحكمية كما كان عليها الخلاف قائماً من قبل ولم يستلزم صدور أى قرار من الحكومة يسبغ على أمر أو شيء صفة السرية كما هو الحال فى بعض القوانين الأجنبية بل جعل التحريم هو الأصل فى باب أسرار الدفاع والاستثناء هو أن يباح النشر فقط بإذن كتابى من القيادة العامة كما هو صريح فى النص وعلى من يتمسك بمثل هذا أن يثبت صدوره ؛ فعبء الاثبات فى وجود الإذن يقع على الجانى نفسه لأن المفروض أنه لم ينشر أو يفشى الا بعد الاطلاع على إذن . أما فى وقت الحرب فان العادة جرت على أن تنشر القيادة العامة بلاغات على الشعب ومثل ما يرد فى هذه البلاغات لا يعد من أسرار الدفاع أما ما عداها فلا بد فيه من إذن كتابى .

« أما فى وقت السلم فكل الأخبار والمعلومات لا يجوز نشرها إلا بعد أخذ رأى القيادة وصدور الاذن الكتابى منها ، والا بقيت لهذه الأخبار سريتها محصنة من الافشاء ، وكل ما هو خاص بقيادة الجيش وتشكيلاته وشئونه العسكرية وعتاده .

وهى كل ما يجهز به الجيش ليقوم بواجبه فى وقت السلم والحرب كالسلاح والذخيرة والمهمات والعربات والملبوسات والأدوية والأجهزة اللاسلكية وغيرها وصلاحيتها وكفاية القائمين عليها ، وامكانيات الدفاع وتشكيلات الفرق وتوزيعها والخبراء الأجانب فى القوات المسلحة وندب أفراد هذه القوات لأية مهمة خارجية أو داخلية ، وتحركات القوات وعتاد ومهمات القوات ، والمعلومات الخاصة بالمصانع الحربية ومواقعها ، ومواقع المطارات السرية والعلانية وما ينشأ عنها ، والمنشآت العسكرية وورش إعداد الطائرات الحربية والمطارات وتزويدها بالآلات المختلفة من رادار وغيره ، ومدافع ونوعها وتجهيزاتها وأماكن حفظ الوقود فيها وأخبار المناورات البحرية والجوية والرسوم والخرائط وغيرها كل هذا مما يعد من الأسرار

وعلى ذلك يمكن امتلاك أحد أسرار الدولة عن طريق قيام أحد العملاء بالتحري شخصياً ، وعن طريق التقاط صور للوثائق بمختلف الوسائل ، وكذلك بواسطة إلقاء الأسئلة أو الاستماع إلى المحادثات .

كما يمكن الوصول إلى امتلاك أحد الأسرار عن طريق سرقة المواد أو شراء مواد بمعلومات بعد إقامة علاقات خيانة للدولة .

لذا فإن نص المادة ٨٠ جديدة من قانون العقوبات أولى فى ذلك وأقطع ، اذ إنها تعاقب على مجرد تسليم السر أو الحصول عليه بقصد تسليمه ولو لم يصاحب التسليم أو الحصول عليه افضاء بمكنون السر .

وتمشياً مع هذا فان واقعة التجسس تكون قد اكتملت حينما يصل العميل إلى المكان المراد التجسس فيه ، ثم لم يتمكن من الوصول إلى الشيء المراد التجسس عليه بالرغم من اقترابه منه ، وذلك مع وجود نية استخدام نشاطه هذا فى اتجاه معين .

كما يمكن امتلاك أحد أسرار الدولة عن طريق سرقة المواد أو شراء مواد بمعلومات بعد إقامة علاقات خيانة للدولة .

هذا وقد سبق لقانون العقوبات الألمانى المعمول به حتى عام ١٩٤٥ النص على أن « من يقوم بنفسه بالعمل على الحصول يعرض نفسه للعقاب » وعلى ذلك فان « القيام بالعمل » تعني فى نظر قانون العقوبات المساواة بين المحاولة وبين اكتمال الفعل .

وتمشياً مع هذا رأت محكمة الشعب الألمانى فى الماضى أن واقعة التجسس تكتمل حينما يصل عميل إلى مكان التجسس دون أن يتمكن من الوصول إلى الشيء المتجسس عليه برغم اقترابه منه ، وذلك مع وجود نية استخدام نشاطه هذا فى اتجاه معين .

ويحدد القانون الفرنسى فى الباب الثالث المادتين ٧٦ ، ٧٧ من قانون العقوبات التجسس على الوجه التالى :

« كل فرنسي أو كل أجنبي يسلم لدولة أجنبية أو لعملائها تحت أى صفة أو بأية طريقة سراً من أسرار الدفاع الوطنى ، أو أى شخص تثبت ملكيته لأحد الأسرار من هذا النوع بغية تسليمها لأحدى الدول الأجنبية أو لعملائها ...

وعلى ذلك فان واقعة التجسس تصبح ثابتة فى حالة حيازة سر من أسرار الدفاع الوطنى على أى وجه .

ويصف قانون الأسرار الرسمية الانجليزى الصادر فى ١٩١١ تصرفات التجسس على الوجه الآتى :

أ) اذا ما اقترب شخص أو فتش أو مر فى منطقة محرمة أو دخلها بنية ارتكاب هذا العمل

ب) أو قام بعمل استكشاف أو خرائط أو نماذج أو ملاحظات .

ج) أو قام بالحصول أو جمع أو سجل أو نشر أو أعطى لأى شخص أى كلمة سر وما إلى ذلك .

وعلى ذلك يضع القانون الانجليزى مجرد الاستعداد للتصرف ، على نحو الاقتراب من المكان المحرم بقصد الخيانة ، تحت طائلة العقاب تماما مثل اكتمال الفعل التجسسى .

ويجعل القانون الأمريكى لواقعة التجسس امتداداً يصل إلى التصرفات الخاصة بالاستعداد .

فقد نصت المادتان ٣١ ، ٣٢ من قانون العقوبات الأمريكى على الآتى :

« كل من يقوم بغرض الحصول على المعلومات المتعلقة بالدفاع الوطنى ... بالاقتحام والدخول والطيران .. أو الحصول على معلومات تتعلق بأى .....

« كل من يقوم بنسخ وبأخذ وبعمل وبالحصول أو بمحاولة أو بتحريض الغير أو بمساعدتهم على نسخ أو عمل وحصل على أى كروكى أو صور

سالبة أو صور زرقاء للرسومات أو خرائط أو موديلات أو أدوات ... وما إلى ذلك » .

ويصف قانون العقوبات السوفييتي محاولة التجسس خارج نطاق قانون الحرب بالجاسوسية ، وطبقاً للمادة ٥٨ من قانون العقوبات السوفييتي تعني الجاسوسية « تسليم » أو محاولة تسليم مجموعة « مادة معلومات » سبق الحصول عليها .

الوقائع الداخلية للتجسس

وعلى ذلك فإن التجسس نشاط إجرامي وليست نتيجة الفعل وبخاصة إفشاء أسرار الدولة وحدها ، هي التي تجعل مرتكب هذا العمل تحت طائلة العقاب ، وانما تشمل أيضا التصرفات الهادفة التي يقوم بها الفاعل .

ومن ثم فانه كقرينة على الواقعة من الناحية الموضوعية يتطلب الأمر وجود نية إخبار غير مختص بسر الدولة موضوع التجسس أو نشره. والمعروف أن غير المختص هذا هو ذلك الشخص الذي ينبغي كتمان سر الدولة عنه .

هذا فضلاً عن ضرورة وجود الادراك بأن مصلحة الدولة أو أحد أقاليمها سوف يحدق بهذا الخطر ، وليس ضروريا أن تكون هناك نية تعريض هذه المصلحة للخطر ذلك أنه يكفي إدراك هذه المخاطرة المحتملة .

وعليه فإن إفشاء سر الدولة هو بذاته تصرف خائن ، اذ إن الفاعل يدرك أنه بإفشائه هذا السر سوف يلحق بالدولة ضرراً واقعياً أو محتملا .

لذلك يرتكب خطأ كل من يقوم بتصرفات خائنة أو تصرفات تجسسية يعاقب عليها .

هذا وتستلزم قوانين العقوبات الأجنبية لوجود جريمة خيانة الدولة

والتجسس موقفاً موضوعياً معيناً . وقد نص قانون العقوبات الفرنسى « نية تسليم السر إلى إحدى الدول الأجنبية أو لعملائها » . وينص قانون الأسرار الرسمية الانجليزى « نية ارتكاب هذا العمل » كذلك ينص القانون الأمريكى بنية أو باعتقاد أن المعلومات سوف تلحق الأضرار بالولايات المتحدة أو لتوفير أسباب الامتياز لدولة أجنبية » .

كما ينص قانون العقوبات السوفييتى « لغرض تسليم ... » .

والأمر الجدير بالملاحظة هو أن قانون الولايات المتحدة لا يستلزم وجود نية الاضرار بالدولة ، وإنما يكتفى بادراك الضرر المحتمل الذى يلحق بالولايات المتحدة مع إدراك إمكان تشجيع دولة أجنبية ، بينما القوانين الثلاثة الأخرى التفتت إلى قصد تسليم المادة وطرحت جانبا دافع الاضرار بالدولة .

على أنه اذا انقضت العلاقة الداخلية بين التصرفات ، واذا لم يكن هناك ثمة وجود لخطة كاملة ، إن الافشاء المتعدد للأسرار يصبح فيه تكرار فعل هو الظاهرة الواضحة غالبا .

الفصل السادس عشر

فن الإخفاء

قضية جود مويس

فى أواخر عام ١٩٥٩ اكتشفت المخابرات العامة المصرية أكبر شبكة تجسس لحساب إسرائيل فى مصر ، واستطاعت المخابرات المصرية أن تكشف مراكز تجسس إسرائيل فى روما وجنيف وزيورخ وأمستردام وأن تتبادل مع هذه المراكز رسائل لاسلكية .

وقد اتضح أنه لإسرائيل ست خلايا تكوّن فى مجموعها شبكات تجسس موزعة بين القاهرة والاسكندرية ودمشق . وقد حاولت المخابرات الإسرائيلية أن تطلب من رئيس هذه العصابة جود مويس الهولندى الجنسية موافاتها بمعلومات عن التحركات العسكرية فى منطقة القنال وعن خصائص ووصف الشاطىء والمنشآت به ، وكذا معلومات عن القوات البحرية وسفن الأسطول والقوارب البخارية الملحقة به لحراسة الشواطىء فى بورسعيد ، كما كلف بجمع معلومات عن المدفعية الساحلية والدفاع الساحلى ومواقع ومحطات الحراسة

الساحلية فى الطريق إلى بورسعيد والسويس ومواقع محطات الرادار ومعسكرات الجيش في طريق السويس والعلامات المميزة والمعسكرات الحربية فى أماكن حددت للعميل ، كما طلبت منه ذكر المنشآت فى رئاسة القوات البحرية ووصف وتحديد مواقعها .

وفى ٩ نوفمبر انتقل المحقق إلى منزل العميل . وكشف البحث الدقيق لمنزل جود مويس عن وجود شفرة خاصة بالتراسل مأخوذة من كتاب « البحر القاسى The Cruel Sea » والذى كان مخبأ بين مجموعة كبيرة من الكتب .

كما وجد جهاز للارسال وآخر للاستقبال « ترانزيستور » مخبآن فى حقيبة جرامافون وحبراً سرياً ومظهراً وبقية أدوات التراسل العسكرى.

وكان الحبر السرى موضوعا فى زجاجة عليها اسم Rhinex والمظهر فى زجاجة مكتوب عليها Listerine Antisiptic ، كما ضبطت آلة تصوير لايكا لتصوير المستندات وبوصلة لمعرفة اتجاه جهــاز الارسال وضبطه وكانت كل هذه الأشياء مخبأة بمهارة تدل على مستوى عال للعميل سواء من ناحية التدريب أو الذكاء

وسائل الاخفاء

على أن إخفاء التراسل ووسائله ليست بالوسائل المستحدثة ، كما أنها تعتمد على الفطرة والذكاء ، قدر اعتمادها على العلم ، وعلى سبيل المثال نجد مثالاً حياً لواقعة حدثت فى أوائل القرن الثالث حينما وصل عبد إلى بلاط الامبراطور المغولى جنكيزخان فى مدينة كركورم بصحراء جولى .

وطبقاً للتعليمات طلب أن يقص شعر رأسه ، وعندما تم ذلك وجد جنكيزخان أن رسالة كانت مكتوبة على رأس العبد بقلم نارى .

وخلال مئات الأميال التى قطعها العبد لم يشك أحد فى أنه يحمل طلب معونة عسكرية عاجلة . وكان من نتيجة هذا الخطاب أن تم الغزو المغولى للشرق الأوسط وأوروبا الشرقية .

وثمة طريقة تقليدية للاخفاء معروفة ، وهى ذلك الخاتم الذى اذا ما فتح بأظافر الاصبع وجدت داخله رسالة شفرية على شريط من الورق الملفوف ، ويستعمل نفس هذا الطراز لوضع السم أو المخدر فى مشروب العدو ، وقد نبغت بعض الجاسوسات فى استخدام هذه الخواتم لدرجة أنه كان باستطاعة الواحدة منهن إذابة السم فى شراب الرجل فى نفس الوقت الذى كانت تناول فيه الرجل كأسه عبر المائدة .

وثمة طريقة أخرى من طرق الاخفاء وذلك بواسطة استخدام حزام الرجل لاخفاء الرسائل وبعض هذه الأحزمة مصنوع بدقة متناهية تجعل العثور على رسالة أمراً عسيراً .

ونحن اذ نستعرض بعض أنماط ووسائل الاخفاء يجدر بنا أن نذكر ذلك الملك القوى الذى كان يستخدم رموزاً خاصة فى موضوع خاص . كان السلطان إبراهيم الذى حكم الامبراطورية التركية فى منتصف القرن السابع عشر يصنف نساء حريمه وعددهن بالمئات بواسطة عطر خاص يتعطرن به وبهذه الطريقة كان يميز بينهن .

ويقال إنه اذا أراد أن يرى إحدى نساء حريمه ممن كان قد استمتع بصحبتها قبل ذلك فانه يطلبها بواسطة وصف عطرها ، وحتى اذا كان قد نسى اسمها وهو عادة ما ينساهن فانه يذكرها بعطرها .

ويمكنك أن تترك رسالة سرية على زجاج نافذة عادية بأن تكتب عليها باصبعك اذ يوجد عادة رطوبة ودفء فى حك الاصبع ، وهكذا يترك أثرا على سطح الزجاج الصلب البارد . وما على القارىء الا أن يتنفس على مقربة من الزجاج ليغطيه بطبقة من البخار . عند ذلك تظهر الرسالة وتختفى حالما

يختفى البخار ، ويمكنك أن تمحو الكلمات تماماً بأن تمسح الزجاج بقطعة من القماش .

وقد استعمل صندوق الاقفال فى الماضى كوسيلة من وسائل الاتصال ، فعندما يقرب مغناطيس كهربائى فوق الاقفال كان يلتقط قفلاً واحداً من بين آلاف الأقفال التى كان يحتويها الصندوق ، وعند فتحه يوجد داخله رسالة سرية . وكانت كل الأقفال تبدو فى مظهرها متشابهة تماما ، ولكن القفل الذى بداخله الرسالة كان من الصلب الحقيقى ومغطى بطبقة من النحاس الاصفر .

وحدث فى عام ١٩٥٠ فى الولايات المتحدة أن وقعت فى يد صبى يبيع الجرائد قطعة نقود بدت له خفيفة ، وعندما اسقطها على الأرض ليتأكد منها انفلقت فظهرت داخلها رسالة شفرية مكتوبة على ميكروفيلم فذهب بها الصبى إلى الشرطة التى أوصلتها بدورها إلى مكتب المباحث الفيدرالية .

وكانت قطع النقود الجوفاء لسهولة انتقالها من جاسوس إلى آخر بين الحيل التى كان يستخدمها العملاء الشيوعيون فى أمريكا ، وقد كشفها لسلطات مكتب المباحث الفيدرالية « رينو هايهان » عندما قرر أن يهجر خدمة الشيوعيين وكان هايهان قد أوفد إلى الولايات المتحدة متنكراً كمواطن أمريكى من أصل استونى ، وكان يعلن عن وصوله لزملائه الجواسيس بأن يضع دبوس رسم أحمر فى لوحة كانت معلقة فى سنترال بارك ، ثم يتصل برئيسه الذى كان لا يعرف الا أن اسمه « مارك » ، وكانا يتقابلان فى دور السينما أو فى محطات المترو المزدحمة ، كما كانا يتصلان بواسطة رسم علامات من الطباشير على عامود فى أحد أسوار بروكلين للاشارة إلى أن الرسائل كانت مخبئة فى أماكن معينة متفق عليها فى مناطق نيويورك .

كان أحد هذه الأماكن عبارة عن تجويف بين سلالم « بروسبكت بارك » ، وكان موظفو الحديقة قد اكتشفوا وجود التجويف فقاموا بسده بالأسمنت وبعد سنوات وبتوجيه من هايهان ، قام رجال مكتب المباحث باعادة فتح التجويف

فوجدوا داخله قفلاً مجوفاً داخله ميكروفيلم صغير جدا .

وقد أبلغ هايهان العملاء الأمريكيين أنه كان قد اصطحب مارك فى احدى الممرات إلى مخزن فى بروكلين ، وبقيادته استطاع رجال مكتب المباحث الفيدرالية تحديد المبنى ووضع كل من يدخله أو يخرج منه تحت المراقبة . وتعرفوا على مارك الذى كان يتنكر على أنه مصور يسمى نفسه « جولد فوس » بينما هو فى الحقيقة « رودلف ايفانوفتش ابيل » ، وهو ضابط برتبة كولونيل فى شرطة أمن الدولة السوفييتى .

كان هذا الجاسوس الكبير يجد سهولة فى أداء عمله وهو متنكر كمصور ، وعند تفتيش بيته وجدت مستندات مصورة فى حجم رأس الدبوس كما عثر على أشياء مجوفة لاخفاء الأفلام المصغرة بداخلها ، ووجدت أدوات شفرة ومحطة إرسال لاسلكية قوية تذيع على الموجة القصيرة . وكان ابيل هذا هو الذى استعاده الروس فى مقابل الطيار الأمريكى باورز الذى كان يقود طائرة التجسس (U2) .

إخفاء الرسائل بطريقة ثقب الدبوس

وفى يوليو ١٩١٦ ينسف المخربون الألمان مخازن السكة الحديد فى لاهاى فالى بنيويورك مما سبب خسائر فادحة وقتل شخصين ، وقد خطط المخربون لهذه العملية المعروفة باسم « إنفجار بلاك توم » بواسطة مجموعة من الرسائل السرية المخبأة فى مجلات ، وقد قام جاسوس بثقب الحروف والكلمات المطلوبة للرسالة فى إحدى المجلات ثم أرسلها إلى أحد شركائه . وبعد الحرب استطاعت الولايات المتحدة أن توضح أمام محكمة دولية ما حدث وأن الدولتين كانتا فى غير حالة الحرب فى عام ١٩٦١ ، وقد منحت الولايات المتحدة تعويضات بلغت اثنين وعشرين مليونا من الدولارات .

ولم تكن الرسائل المكتوبة بطريقة ثقب الدبوس جديدة ، ففى بريطانيا

قبل أن يخفض أجر الخطابات كانت الصحف هى الشىء الوحيد الذى لا يتكلف بالبريد كثيراً ، وانتهز الناس هذه الفرصة بأن كانوا يرسلون إلى بعضهم الصحف مع وضع ثقوب على الكلمات الذى تتكون منها الرسالة .

وفى أثناء الحرب العالمية الثانية حاول كثير من الجنود الأمريكيين أن يخبروا زوجاتهم عن مكانهم بأن كانوا يرسلون لهن خريطة للعالم ويضعون ثقبا بالدبوس عن مكان وجودهم . وقد تنبه الرقيب العسكرى لهذه العملية التى تخرق أمن الدولة وصاروا يفحصون كل الخرائط الموضوعة فى الخطابات . فاذا اشتبه فى وجود ثقب دبوس كان يلقى بالخريطة قبل أن يسمح بإرسال الخطاب ، وإذا أراد الدعابة فكان يضيف عددا من الثقوب من عنده . ونستطيع أن نتصور حيرة الزوجة المسكينة عندما تجد هذا العدد من الثقوب .

طرق أخرى

أما الطرق التى يمكن بها كتابة أو إخفاء رسالة سرية فلا عدد لها ، فمثلاً يمكن استخدام قطعة من الحجر الجوفاء ، فيضع العميل الرسالة الشفرية داخل الحجر ثم يخفيها بأن يسد الفتحة بقطعة من الطين أو البلاستين ، ثم يرش بعض القذارة على البلاستين ، ويسقط الحجر فى المكان المتفق عليه ، فيمر عميل آخر ويلتقط الحجر ويأخذ الرسالة وربما يضع رسالة أخرى مكانها .

ويشعر كل من يرسل أو يتسلم رسائل بهذه الطريقة بالقلق دائماً لأنه كثيراً ما يحدث أن يلتقط جاسوس مثل هذا الحجر ليجد لغماً تحته .

وفى قضية كروجر « كوهين » وزوجته اللذين كانا يتجسسان لصالح السوفييت وقبض عليهما فى يناير عام ١٩٦١ بواسطة الحكومة البريطانية ، كشف البحث الدقيق لمنزل كروجر كوهين عن خطط الاشارات ومفاتيح شفرة داخل ولاعة سجاير كانت موضوعة على مائدة فى حجرة المعيشة ،

كما وجدوا أحدث آلات التصوير والراديو مع جوازات سفر مزيفة ومبلغ كبير من المال المهرب – معظمه أمريكي – وكان في حجرة مكتب كروجر جهاز استقبال ممتاز بسماعات وذو موجة قصيرة ، وكذا جهاز تسجيل يعمل مع الراديو وكاميرا حساسة مع أدوات تحميض وأدوات نسخ وثائق سرية .[1]

وفي ركن تحت مطبخ كروجر وتحت المشمع الذي وضعت عليه الثلاجة ، وجد ضباط القسم المخصوص التابعون لاسكتلانديارد باباً سرياً يؤدي إلى فراغ بين أخشاب الأرضية وأساس المنزل الخرساني ، وفي ركن هذا الفضاء بعيداً عن الباب السري وتحت كومة من النفايات اكتشفوا قطعة من الخرسانة كانت قد التصقت حديثاً بالأسمنت في مكانها .

وتحت هذه الكتلة وجد حجر عمقه قدمان كان يخفي فيه كروجر جهاز الارسال عندما يكون في غير وقت الاستعمال ، ولكونه جاسوساً دقيقاً فقد عمد إلى إلصاقه بالاسمنت بعد أن ينتهي من إرسال كل رسالة . ولم يكن يزيد حجم جهاز الارسال عن حجم آلة الكتابة المنقولة ، ولكنه كان قادراً على الوصول إلى عاصمة روسيا على بعد ١٧٠٠ ميل . وبالرغم من أن جهاز الترانزستور كان مكونا من أجزاء مستوردة من كثير من البلاد الأوروبية فلم يكن به ما يدل على مكان صنعه ولا يمكن أن يكون قد مر على ضباط الجمارك البريطانية دون أن يلفت نظرهم،ويعتقد بعض الخبراء أنه لا بد أن يكون قد وصل انجلترا بمساعدة الحصانة الدبلوماسية أي بواسطة أحد ضباط إدارة أمن السوفييت . وعندما كان مستعداً لارسال المعلومات كان كروجر يقوم بترجمة رسالته إلى الشفرة مستخدما الحروف على أنها إشارات مورس ، ثم بواسطة جهاز السرعة يرسلها بسرعة ٣٠٠ كلمة في الدقيقة وهي سرعة تتحدى كل من يحاول تحديها . واذا حدث واكتشف البريطانيون أن هناك عملية إرسال سرى لن يكون لديهم الوقت لتشغيل آلات إيجاد مصدر الإرسال ، اذ يكون كروجر في ذلك الوقت قد فرغ من إرسال رسالته . كذلك ساعد

على اخفاء عمليات كروجر قربه من قاعدة جوية أمريكية بالقرب من روليسليب ، فقام بشراء منزله بالقرب من موقعها . ولما كانت القاعدة تقوم بعملية الارسال ليل نهار كان كروجر يستخدم ذبذبة قريبة من ذبذبة القاعدة . ولذلك إذا حدث أن التقط فرد إحدى الرسائل ، كان يظن أنه التقطها من إحدى إذاعات القاعدة الجوية الشرعية .

وبعد أيام من القبض على كروجر ، كانت المخابرات العسكرية البريطانية تنصت إلى رسائل غير مفهومة من الاتحاد السوفييتى . كانت تبدأ بتشكيلة من النداءات من بينها أسماء أنهار روسية ، واسماء أمكنة وزهور أو نجوم ، ويبدو أن الجواسيس الروس الآخرين الذين لم يكن قد ألقى القبض عليهم كانوا يستمعون إلى هذه الرسائل .

كان جهاز الإرسال اللاسلكى أهم ما وجد فى منزل كروجر ، ولكن كانت هناك أسرار أخرى ، ففى الحمام وجدت علبة من بودرة تلك يبدو عليها البراءة ، ولكن كان قد اختفى فى جزء منها قارىء للشفرات الصغيرة ذات النقط ، وعندما كان كروجر يريد ان يرسل إلى السوفييت صورة لاحدى الوثائق التى كانت « س جى » تسرقها من خزانة الادميرالية فى قاعدة بورتلاند البحرية ، فانه كان فى استطاعته أن يصغرها إلى صفحة فى حجم سن الدبوس بواسطة ميكروكاميرا ، وبعد ذلك يضع هذه النقطة فى كتاب قديم داخل حرف كبير فى بداية أحد فصول الكتاب ، ثم يبيع الكتاب لأحد عملائه فى أوروبا ، الذى كان يقوم برحلات تجارية إلى أوربا حيث يحمل معه بضاعته ، ويعود منها بمجموعة من الكتب النادرة . وبالاضافة إلى الأسرار التى كان يرسلها كروجر بواسطة وسطائه إلى رؤسائه خلف الستار الحديدى كان « لونسديل » يتراسل بانتظام مع زوجته الموجودة فى روسيا عن طريق « نقط » كروجر الصغيرة . وعندما تم القبض على مسز كروجر كانت تحمل فى حقيبة يدها خطابات مكتوبة باللغة الروسية لارسالها إلى « جاليوشا لونسديل » .

وقبيل نهاية عام ١٩٦٠ كان العلماء قد ابتكروا كاميرا صغيرة تستطيع أن تصور كتابا متوسطا الحجم بأكمله فى مساحة لا تزيد على المساحة التى يشغلها رأس نفرتيتى المرسومة على ورقة النقود ذات الخمسة قروش ، بحيث لا يزيد حجم الخطاب الفردى عن حجم البكتريا .

ولما كان فى استطاعة هذه الكاميرا أن تلتقط نصف الصفحة فيما لا يزيد عن ذرة تراب كانت ذات نفع كبير للجواسيس أكثر من الكاميرات التى كانت مستعملة منذ عشرين عاما .

والعميل اذ يتسلح بمثل هذه الكاميرا يستطيع أن يلتقط صور التصميمات بسرعة ويخفيها بين الأشياء الصغيرة مثل أزرار قميصه أو القفل أو الأقلام أو أقلام الرصاص .

استخدام النقطة المكروسكوبية

على أن تطور وسائل الكتابة السرية بفضل التقدم التكنولوجى ، أى استخدام أبحاث الكتابة السرية لمساعدة العملاء فى جعل الوثائق فى شكل لا يسمح لأجهزة الأمن باكتشافها ، قد أدى فى النهاية إلى التمكن من تصغير صفحة الفولسكاب إلى حجم النقطة كما سبق أن أوضحنا ، وسنحاول شرح استخدام هذه الوسيلة فى شكل قصصى حتى يسهل فهمها .

ففى الحرب العالمية الثانية كان من الأمور الجوهرية للقيادة العليا للسلاح البحرى الألمانى أن تقف على نشاط الملاحة التجارية المعادية فى منطقة أمريكا الجنوبية ، حيث كانت هناك أهمية خاصة بالنسبة للوقوف على كيفية التحكم فى مشكلة الامداد من ناحية أمريكا الشمالية إلى مسرح الحرب فى شمال أفريقيا وأوروبا ، وذلك قبل أن تدخل الولايات المتحدة الحرب .

ولتحقيق هذا الغرض لم يكن ثمة سبيل الا استخدام وسيلة الكتابة مع

الإستفادة من الاجراءات السرية المختلفة فى محاولات السلاح البحرى الألمانى انشاء طريق اتصالات مع موانىء أمريكا الجنوبية ، وكان أن استخدم طريقة النقطة الميكروسكوبية التى عرفت فيما بعد .

وتقضى هذه الطريقة بتصغير صفحة مكتوبة من الصفحات التى تستخدم فى الآلات الكاتبة ، حتى يصبح حجمها فى حجم النقطة التى تكتب بواسطة الآلة الكاتبة ، ثم تثبت هذه النقطة فى ورقة من الأوراق التى تستعمل فى الخطابات الخاصة العادية كأحد النقاط المعتاد وضعها فى هذه الخطابات بواسطة الآلة الكاتبة . وتجرى هذه العملية بواسطة استخدام أداة صغيرة تعمل على تثبيت صفحة الآلة الكاتبة الصغيرة فى فجوة احدى النقاط العادية .

وهكذا يستطيع من يتلقى الرسالة قراءة الصورة المصغرة بالاستعانة بميكروسكوب ، وبهذه الوسيلة أمكن ارسال عدد لا يحصى من الخطابات دون أن يكشف الرقيب من الدولة المعادية سرها . والجدير بالملاحظة أنه لم يكشف النقاب عن هذه الطريقة الا حينما ألقى القبض على أحد العملاء فتطوع بافشاء سرها فى أثناء التحقيق معه .

وكان طبيعيا ألا تصبح هذه الطريقة مأمونة الجانب بعد القبض على هذا العميل ، طالما أضحى فى استطاعة الرقيب الوقوف على ما تحويه الخطابات من أسرار بهذا الشكل اذا عرضها للأضواء بطريقة معيّنة ، ذلك أنه بمجرد تعرض النقطة لضوء مشتت ذى لمعة خفيفة تظهر بوضوح .

لا جرم أنه أمكن انشاء شبكة مخابرات واسعة تقريبا فى أمريكا الجنوبية ، كان لها نشاطها البارز لمدة طويلة ولم يقطع استمرارها سوى الأميركيين . غير أنه لم يعرف بعد ما اذا كان الأمريكيون قد تمكنوا من القضاء على هذه الشبكة عن طريق مراقبة الاتصالات اللاسلكية كما ذكرت صحافة أمريكا الجنوبية ، أم عن طريق اكتشاف سر طريقة النقطة .

وبهذه المناسبة هناك قصة طريفة حرى بها أن تذكر ، فحينما أبرمت احدى دول أمريكا الجنوبية معاهدة مع الولايات المتحدة ، كان قد ضرب

نطاق كثيف من السرية حول هذه المعاهدة ، غير أن أحد العملاء تمكن من الوصول إلى نصوص تلك المعاهدة وأصبحت فى حوزته ، ومع هذا كانت هناك صعوبة فى ارسال هذه النصوص إلى ألمانيا .

وكان ثمة أحد القسس الكاثوليك فى ذلك الوقت يقوم برحلة إلى روما عن طريق اسبانيا ، ولم يكن هذا القس يعلم أنه سوف يصبح وسيطا مجبرا فى حمل هذه الوثيقة ذات الأهمية القصوى لألمانيا .

فقد قام أحد العملاء بادخال الوثيقة التى صغر حجمها وأصبح فى حجم طابع البريد بواسطة آلة التصوير ، فى غطاء جلدة « كتاب الصلوات » الذى يحمله القس وبصفة مستديمة . وهكذا سافر القس إلى روما وهو يحمل هذه الوثيقة الهامة جداً بالنسبة لألمانيا .

وفى اسبانيا نزل القس لقضاء بعض الوقت ، وفى لحظة من اللحظات التى يشرد فيها الفكر أمكن الحصول على كتاب الصلوات هذا ، كما أمكن فتح غطائه واخراج الورقة التى فى حجم طابع البريد ، ثم أعيد الكتاب إلى المائدة التى يجلس اليها القس .

وبذلك أمكن ارسال الوثيقة إلى ألمانيا ، كما تمكن القس من الوصول إلى روما دون أن يتحمل شيئا من الخطابات التى تثقل النفس . ولما كانت المسألة تتعلق بوثيقة سياسية ، فقد كان تقييمها من اختصاص وزارة الخارجية وليس من اختصاص المراكز العسكرية ، فما أن وصلت الوثيقة ليد « فون ريبنتروب » وزير الخارجية حتى وجد فكرتها لا تتمشى مع مجرى تفكيره ، فأنكر امكانية ابرام هذه المعاهدة أصلاً . وهكذا ذهبت الجهود التى بذلت فى ارسال هذه الوثيقة لألمانيا سدى .

الفصل السابع عشر

حيل وأساليب

ان الشيء الذى لا يمكن انكاره هو ان منظمات المخابرات لا تتوانى في استخدام كل الوسائل الميسّرة لديها ضد خصومها . كما أن معركة الدهاء التى تقوم بين منظمات المخابرات المختلفة ، لا يمكن أن تحقق أهدافها دون الالتجاء إلى وسائل وأساليب يمكن أن تضفى عليها صفة البعد عن المعايير الأخلاقية .

ولكن معركة الدهاء — كأى معركة حربية — يحاول كل طرف فيها استغلال مواهبه العقلية والفكرية والمادية والتكنولوجية الخ .. لتحقيق النصر ، مستغلا فى ذلك كل وسائل الخداع والمناورة والمفاجأة .

ومن ثم نجد أن الوسيلة هنا تبرر الغاية ما دام الهدف نبيلا ، وهو تحقيق الأمن القومى للدولة ، ومنع الاضرار بمصالحها .

وفى هذا الفصل سنحاول أن نكشف عن بعض الأساليب التي تستخدمها المخابرات فى معركة الدهاء ، وهى ليست الا نموذجا لعمليات وأساليب

كثيرة يختلف استخدامها باختلاف طبيعة الدول ، من ناحية نظمها السياسية والاجتماعية ، أو من ناحية قيم المجتمع الذى تضمه .

الطعم

الواقع أن نشاط كل من التجسس ومكافحة التجسس يعد نشاطا متناقضا مع الآخر ، فان النشاط الأول يهدف إلى سرقة الاسرار الحيوية التي تملكها دولة أجنبية ، وأما الثانى فواجبه حماية أسرار دولته ، واماطة اللثام عن الجواسيس الأجانب ، وشلّ نشاطهم لمنعهم من الحاق أيّ أذى بأمن الدولة القومى .

وبالرغم من ذلك ، فان كليهما يخوضان معركة لا نهاية لها ، ويطلق على كل منهما حرب دهاء حيث يستخدم كل فريق جلّ ما فى جعبته .

وكثيراً ما نسمع عن أعمال خارقة خيالية يقوم بها الجواسيس مواجهين أخطاراً جسيمة فى أثناء سرقتهم أوراقا دبلوماسية ، أو نقل أسرار ذرية أو عسكرية إلى دولة أجنبية .

والفرق بين عميل التجسس ومكافحة التجسس ، هو أن عمل الأول يكون محفوفاً بالأخطار بينما يتسم عمل الثانى بالأمان بالرغم من انه عمل شاق .

صور للمآزق

على أن رجل المخابرات الذى يعمل فى بلد أجنبى سواء من هيئة المخابرات أو عميلاً ، كثيراً ما يجد نفسه فى مآزق عدة ، ونذكر على سبيل المثال الصور الآتية :

١ ــ قد يقوم المندوب الذى استدرجه ضابط المخابرات إلى شبكة

التجسس التى يديرها ، بالابلاغ عن الضابط وكشف شخصيته لأجهزة الأمن فى البلاد .

٢ ـ أو قد تتعقب أجهزة الأمن كاتب فى وزارة الخارجية أو وزارة الدفاع يكون موضوعا تحت المراقبة بينما كان يسرق الوثائق المصنفة وتستمر مراقبته ، حتى يصل إلى مكان الاجتماع الذى سيلتقى فيه مع العميل الأجنبى .

٣ ـ أو قد تكشف شخصيته الحقيقية للعميل الأجنبى فجأة نتيجة لقاء مؤسف .

وبالرغم من ذلك فهناك لحظات حرجة فى حياة العميل السرى ، حينما يحس أنه قد يكون فى طريقه إلى فخ منصوب له ، ولكنه مع ذلك يتحدّى القدر ويخسر اذا ما كان مدفوعا بحماس بالغ أوبغريزة حب المغامرة .

دس الطعم الجذاب

ولا تتوانى أجهزة مكافحة التجسس فى الدولة عن دسّ طعم جذاب فى طريق العميل الأجنبى ، ثم تحركه بصورة مغرية كما يحرك صائد السمك الماهر الشص ، إلى أن يقع العميل تحت تأثير الاغراء فيبتلع الطعم كما تبتلعه السمكة ، وحينئذ يقع العميل فى الفخ حتى النهاية .

وأول أعراض الطعم ، هو أن يدس بصورة مغرية غير مغال فيها ، حتى لا يشك الشخص الذى يقدم له الطعم فى العرض ، اذ إن الخط المميز بين المادة المدسوسة والحقيقية رفيع جدا ، لدرجة أن العرض الصادق قد يرفض أحيانا خوفا من الوقوع فى الفخ .

على أن الخوف من الوقوع فى الفخ عن طريق مبلغين مدسوسين ظاهرة عميقة الجذور تكمن فى عقول ضباط المخابرات والعملاء ، ولكن اذا لم يكن لدى هؤلاء الأشخاص ملكة التمييز والادراك فانه غالباً ما تسبب هذه

الظاهرة فقدان أجهزة المخابرات لعدد كبير من العملاء الاكفاء الذين يقدمون خدماتهم نتيجة شكوك غير قاطعة .

ونذكر على سبيل المثال القصة التالية :

دخل رجل أنيق ذات يوم السفارة السوفييتية فى تشيكوسلوفاكيا ، وأخبر رجل الاستقبال فى السفارة أنه يرغب فى مقابلة احدى الشخصيات الكبيرة المسئولة فى السفارة لأمر هام ، ولكنه رفض الادلاء باسمه للموظف المسئول عن الاستقبال .

وبعد تردد قليل ، وافق نائب القنصل السوفييتى وهو فى حقيقته أحد رجال المخابرات السوفييتية ، على مقابلة الرجل الغريب . ولم يضع الرجل الغريب الوقت فدخل فى الموضوع مباشرة ، وذكر لنائب القنصل أنه موظف فى وزارة الخارجية لبلد أوروبى ، وأنه وقع فى متاعب مالية وهو يعرض خدماته على الاتحاد السوفييتى ، ثم أخرج من جيبه عينات للخدمات التى يستطيع تقديمها ، كانت عبارة عن صور كربون للرسائل الدبلوماسية المتبادلة بين وزارة خارجية بلاده وبين سفيرها فى موسكو .

وبالرغم من أن نائب القنصل أبدى ملاحظته بأن السفارة السوفييتية لا تمارس هذا النوع من النشاط وذلك خشية أن يكون الشخص مدسوسا عليه فان الزائر ترك الأوراق ورقم تليفونه مع القنصل ، وشرح له كيف يستدعيه اذا أراد اللقاء معه .

وأرسلت صور الكربون إلى موسكو لتحليلها ، ووجد أنها صور حقيقية . ثم قامت موسكو بعد ذلك باصدار تعليمات إلى أحد عملائها السريين المقيمين فى أوروبا لاجراء تحريات عن ذلك الزائر ، والاتصال به بحذر فربما يكون مدسوسا عليهم .

وبدأ رئيس مركز المخابرات المقيم فى هذه الدولة يتلقى صور نسخ من

المراسلات الدبلوماسية من المصدر الجديد . ولم تكن هذه المراسلات موجهة من وزارة خارجية هذه الدولة إلى سفارتها في موسكو ، بل كانت عبارة عن مكاتبات موجهة إلى سفاراتها فى بولندا ورومانيا وبلغاريا ودول شرق أوروبا الأخرى .

وفى أثناء هذه العملية استمرت موسكو تؤكد صحة المعلومات والبيانات التى تتلقاها من المصدر الجديد . وفجأة حدثت تطورات ، ففى ذات يوم أبرقت وزارة الداخلية إلى رئيس جهاز المخابرات المقيم فى البلد الأوروبى المذكور تفيده بأنها حصلت عن طريق أحد مصادرها الموثوق بها على صورة زنكوغرافية بكشف مرتبات وزارة الخارجية ، وان اسم المصدر المنضم حديثا للمخابرات السوفييتية لم يكن من ضمن الأسماء فى كشف المرتبات .

وأصدرت موسكو أوامرها بالتوقف عن الاجتماع مع الرجل حتى تصدر اليه تعليمات أخرى ، وأن يوضع هذا المندوب تحت رقابة مشددة . وأعربت موسكو عن خوفها من أن يكون الرجل مدسوسا ، وأن البوليس السرى كان يمد جهاز المخابرات السوفييتى المقيم بمادة صحيحة بهدف كشف النقاب عن أكبر عدد ممكن من أعضاء حلقة الجاسوسية السوفييتية .

وكشفت مراقبة المصدر عن حقائق هامة . فهو يذهب كل صباح إلى وكالة حكومية لها صلة بشئون المحاربين القدامى ، واتضح أنه يعمل بها . وأبلغت موسكو بذلك ، فصدرت أوامرها بقطع الصلة به نهائيا . واستدعت الضابط السرى الذى كان حلقة الاتصال مع العميل للعودة إلى موسكو خوفا عليه من الاعتقال .

ولكن ضابط الاتصال كان يشارك رؤساءه مخاوفهم ، وكان ذكيا شجاعا ، فاستأذن فى السماح له قبل أن يغادر البلاد بالاتصال بهذا الرجل ، حتى يعرف الدافع الذى جعله يتصرف بمثل هذه الطريقة .

وأيده فى طلبه هذا رئيس الجهاز السوفييتى المقيم ، وكان رئيسه المباشر .

وفي أثناء انتظار موافقة موسكو ، كان قد فوّت موعدين أو ثلاثة على العميل .

وحتى يفاجىء ضابط الاتصال العميل ، انتظره بالقرب من مبنى مكتب المحاربين القدامى فى نهاية يوم العمل ، وتعقبه لمسافة ما حتى تأكد أن الرجل بمفرده ، ثم فاجأه ودعاه إلى محادثة معه .

وكانت قد صدرت تعليمات أخرى لعميلين سريين من السوفييت ليقتفيا أثر الضابط لمواجهة الطوارىء ومراقبة تطورات الموقف .

وأخذ الرجل على غرة حينما رأى الضابط الشاب يواجهه فجأة ، واستفسر الضابط منه عن سبب سلوكه الغريب هذا . وبدا الانزعاج والارتباك على الرجل ، واعترف بأنه لم يعمل على الاطلاق فى وزارة الخارجية ، وأنه كان موظفاً فى ادارة مكتب المحاربين القدامى

وسأله الضابط السوفييتى عن سر كذبه ، والدافع الذى جعله يقدم نفسه على أنه موظف فى وزارة الخارجية . وكان رد الرجل وشرحه مقبولا ومعقولا ، فذكر له أنه كان يتستر على شخص آخر كان يحصل منه على صور الكربون ، وكان هذا الشخص هو شقيقته الأرملة التى كانت تعمل سكرتيرة خاصة ورئيسة قسم الاختزال بادارة أوروبا الشرقية فى وزارة الخارجية .

وطلب منه الضابط أن يقدم الدليل على ذلك ، واقترح عليه المندوب أن يتصل فوراً بشقيقته بالتليفون ويطلب منها مقابلته فى مقهى معين ، ثم يقدمها للضابط على أنه الرجل الذى يتسلم منه صور الكربون وعليها أن تجيب عن أية أسئلة توجه اليها .

وقد تم ذلك ، وصدمت المرأة حينما قدمت فجأة وبطريقة غريبة إلى الأجنبى وأجابت عن الأسئلة بصوت مهتز ، ولكن ثبت أن كل شىء كان صادقا صحيحا .

وأخرجت المرأة بطاقة تحقيق شخصيتها الصادرة من وزارة الخارجية ،

وفى اجاباتها استطاعت أن تحصى بعض الأوراق التى كانت سلمتها لشقيقها .

وبذلك أثمر إلحاح الضابط الشاب ، وكسب للمخابرات السوفييتية « مصدراً » ثميناً للمعلومات .

هدف عملية دس المبلغين

وحينما تدس أجهزة الأمن فى الدولة مبلغين مزيفين ، فانها تهدف بذلك إلى تحقيق الأهداف التالية :

١ — أن يتصل المبلغ بعميل المخابرات الأجنبية ، الذى يوضع تحت مراقبة مشددة ، وبذلك تتمكن أجهزة الأمن من اكتشاف حقيقة شخصية العملاء الأجانب والأشخاص الذين يقابلونهم .

٢ — فى فترة العلاقات الحرجة يكون الهدف تضليل صانعى السياسة فى الدولة الأخرى بتقديم معلومات زائفة استفزازية .

٣ — اعتقال العملاء الأجانب ومحاكمتهم بعد البحث والتحرى الدقيق .

محاولة الايقاع

وقبل أن نناقش الطرق والوسائل التى قد تساعد على تجنب الوقوع فى الفخ ، يجدر بنا أن نذكر حالة توضح كيف تستخدم أجهزة الأمن شخصاً مدسوساً بهدف الايقاع بضابط مخابرات أجنبى .

هذه الحالة وقعت فى موسكو منذ سنوات قليلة مضت ، حيث نجح جهاز أمن الدولة فى دس عميل مبلغ زائف استطاع برقته ومهارته تدريجا أن ينال ثقة الملحق العسكرى لبلد غربى كبير فى موسكو .

وذات يوم ، وبينما كان العميل والملحق العسكرى المساعد يستقلان

عربة أوتوبيس مزدحمة تبادلا حزمتين أو ربطتين ، فتسلم الملحق العسكرى المساعد من العميل بعض الأوراق ، وفى مقابل ذلك أعطى العميل ربطة بدت وكأنها حزمة أنيقة من المال السوفييتى .

وأثار أحد ركاب الأتوبيس ضجة عالية وطالب بتفتيش الربطتين ، وبدأت ضجة وضوضاء أعدت كفصول مسرحية فتوقفت عربة الأوتوبيس حيث وجدت مجموعة من عملاء الشرطة السرية ، أمسكوا بالملحق العسكرى المساعد وشدوه خارج الأوتوبيس حيث ضرب ضرباً مبرحاً ، وألقوا به فى سيارة كانت معدة ، ثم اقتادوه إلى أحد مكاتب الشرطة .

وهناك هددوه تارة باللجوء إلى العنيف وتارة بالوعود البراقة باعطائه مبالغ كبيرة من المال ، وطلبوا منه التنكر لبلده ، وأن يتجسس لصالح السوفييت .

وأصرت الشرطة على أن الأوراق التى تسلمها الملحق العسكرى المساعد تتضمن معلومات تجسس مكتوبة بحبر سرى . واهتزت أعصاب الملحق العسكرى المساعد من هذه التجربة القاسية ، ولكنه لم يستسلم .

وكنتيجة لذلك طرد من الاتحاد السوفييتى ، ولو لم يكن هذا الرجل موظفا دبلوماسيا فى سفارة أجنبية ، أو كان عميلاً سرياً لاختفى ولما سمع عنه أحد بعد ذلك .

ومن هذه القضية يبرز ثلاثة أخطاء هامة .

أولاً : أن الاغراء للحصول على معلومات سرية جعل الملحق العسكرى يثق فى عميل لأجهزة الأمن مدسوس عليه .

ثانياً : فشل الملحق العسكرى فى تأمين نفسه ضد خطر الاعتقال وفى حوزته مادة تدينه .

ثالثاً : سوء اختيار مكان المقابلة ، فعربة الأوتوبيس أشبه بمصيدة الفئران

أتاحت لرجال الشرطة السرية فرصة ملاحظة تبادل الربطتين من مسافة قريبة .

وهذه الأخطاء تدل على سوء تدريب الملحق العسكرى ، وعدم فطنته لاحتمالات الوقوع فى الفخ .

ولقد دلت التجربة على أنه فى البلاد التى تتميز بقدر كبير من القدرة والكفاءة فى ادارة جهاز مكافحة الجاسوسية ، يفضل أفراد أجهزة الأمن اعتقال العميل الأجنبي وتفتيشه فى اللحظة التى يتأكدون فيها من أن العميل الأجنبي استلم الوثائق .

مفاجآت غير متوقعة

على أنه يحدث فى مثل تلك الحالة بعض المفاجآت ، كأن يرمى العميل الأوراق التى معه فى نهر اذا كانت المقابلة بجوار أحد الجسور أو يهرب العميل الأجنبي وتنتهى المطاردة بالفشل .

وقد يمكن احباط محاولة أجهزة الأمن للامساك بالعميل الأجنبي ، حينما يقابل المندوب لاستلام المستندات والوثائق . والطريقة التالية يمكن سردها على سبيل المثال :

« لا يجب على ضابط المخابرات أو العميل أن يتسلم من المصدر أى وثائق مهما بلغت الثقة فيه فى المكان الذى يتلاقيان فيه ... اذ يجب أن يتأكد من أنه خرج من دائرة الحصار . فمثلا قد يستخدم تاكسيا ويأخذ معه المصدر إلى مكان آخر ، وحينما يتأكد من عدم المراقبة تتم العملية ... على أنه يجب عليه أن يغير الوسيلة من آن لآخر .

وفى هذا الصدد نذكر قصة مشهورة بطلاها ضابط المخابرات السوفييتى « فالنتيين جوبيتشيف » الذى كان يأخذ ساترا رسميا اذ كان معينا موظفا فى الأمم المتحدة ، و « جودى كوبلون » الموظفة فى ادارة العدل بالولايات المتحدة .

فعندما تم اللقاء الأخير المحتوم بين جوبيتشيف وبين مدموازيل كوبلون فى نيويورك تجنب أن يأخذ معه التقارير السرية التى كانت قد سرقتها كوبلون لخدمة السوفييت .

وحينما تقابل جوبيتشيف مع مدموازيل كوبلون سار مسافة طويلة على قدميه برفقتها ، ثم ركبا المترو ، وانتقلا بعد ذلك إلى عربة أوتوبيس ، ومع ذلك كان جوبيتشيف لا يزال مترددا فلم يمس التقارير التى تدينه لو ضبطت معه خشية أن يكونا متبوعين .

وأخيرا عندما اعتقلهما عملاء الحكومة وفتشاهما ، لم يعثروا على التقارير مع جوبيتشيف ، ولكن فى حقيبة يد مدموازيل كوبلون .

وخطأ ضابط المخابرات هنا يكمن فى أنه عندما قابل مدموازيل كوبلون وشم رائحة الخطر ، لم يتخذ خطوات ناجعة لتضليل مراقبيه .

العلاج ضد ابتلاع الطعم

وأفضل علاج ضد « ابتلاع الطعم » يعتمد على الحس المعقول ، وعلى كبت الاغراء ، وكذا تقييم تقدير سليم لكل الأشخاص الذين لهم صلة به . على أن الحاسة السادسة تلعب هنا دوراً كبيراً ، ولذا فغالباً ما يستدعى الأفراد الذى يمتلكون هذه الموهبة لاستشارتهم فى القضايا الخطيرة ، وحينما يتطلب الموقف اتخاذ قرارات نهائية .

الا أن كفاءة رجال مكافحة الجاسوسية اذا أضيف اليها صفة الدهاء وسعة الخيال ، تستطيع أن تقيم فخا وتموهه بدهاء ومهارة فائقة ، بحيث تعجز أعين أكثر الناس خبرة وتجربة عن اكتشاف الدعائم الغادرة والخيوط الرفيعة التى تقود إلى هذا الفخ .

وضابط مكافحة الجاسوسية من هذا الطراز لن يدفع خصمه فى أى

وقت تجاه الطعم ، بل ولن يدخل فى خطته أية عوامل أو عناصر قد تكشف عن مبادأة شريرة لشخص ما وراء هذه الخطة ، بل بالعكس فانه يعمل على اشعاز الضحية المرتقبة بأنه لا يوجد شخص ما يستدرجه إلى أى مكان ، وأن الضحية تعمل بمحض ارادتها وباختيارها .

الايقاع فى الشرك

وثمة أسلوب آخر تستخدمه كثير من أجهزة المخابرات والأمن ، للايقاع ببعض الضحايا لاجبارها على العمل معها ، مستغلة فى ذلك نقط ضعف فى هؤلاء الأشخاص ، مثل حب المال أو الادمان على الخمر والمخدرات ، أو الرغبة العارمة فى معاشرة النساء ، أو الاصابة بالشذوذ الجنسى ، وغير ذلك من نقط الضعف التى تجعل الضحية سهلة الوقوع فى الشرك .

استخدام الجنس

ويعتمد الأسلوب بالنسبة للجنس على أساس مبدأ اجبار الرجل على أن يعمل لحساب المنظمة التى أوقعته فى الشرك ، فاذا قام الرجل بعمل لا ينبغى أن يكشف أمام الناس أو أمام زوجته أو حكومته ، استغلت المنظمة هذا الفعل وهددته بالتشهير به ، اذا لم يوافق على العمل لصالحها . وحتى اذا لم يقم الرجل من تلقاء نفسه بعمل من هذا النوع تقوم المنظمة بتدبير موقف يدفعه إلى مثل هذا العمل .

ان قضية فؤاد محرم عام ١٩٥٨ مثل لاستغلال المخابرات الاسرائيلية لنقطة ضعف لديه وهو حبه للمال والتظاهر بالثراء لارضاء النساء ، كما كانت قضية العميل الاسرائيلى سامى نافع مثل آخر لاستغلال الرجل لادمانه على الخمر ورغبته العارمة فى معاشرة النساء .

وقد تمكنت المخابرات الاسرائيلية أن تجند شبكة كبيرة تضم أربعة عشر

يونانياً معتمدة فى تشغيلهم على أنهم مصابون بالشذوذ الجنسى . وكان على رأس هذه الشبكة اسبريدون قسطنطين ، وقد حاولت هذه الشبكة الحصول على معلومات عسكرية عن قواتنا البحرية والبرية بطريقة غير مباشرة ، وذلك بتجنيد بعض الأفراد فى القوات المسلحة المصابين بالشذوذ الجنسى . وتقوم منظمة المخابرات بتهيئة المسرح وتقديم التسهيلات كمنزل أمين أو فندق أو ملهى ليلى ، وتزويد الأماكن بالأشخاص سواء كانوا رجالا أو نساء ، ثم تستخدم تكتيكات مختلفة اما بالتصوير السرى واما أن تمثل تمثيلية كأن يحضر فجأة أحد الرجال ويتظاهر بأنه زوج السيدة الموجودة ، ويهدد الضحية بأنه سيبلغ الشرطة ، وحينئذ يتدخل أحد أفراد المنظمة الذى يظهر فجأة ليخفف من وقع الصدمة على الرجل ويبدأ معه فى تكتيكات التجنيد .

الشذوذ الجنسى

على أن أنجح مثل للايقاع بالشرك ينطبق على جون فاسال موظف الادميرالية البريطانية ، الذى تجسس لحساب السوفييت مدة ست سنوات .

فبعد أن قام رجال جهاز الأمن السوفييتى بدراسة تاريخ حياة فاسال من جميع زواياها ، وبعد أن حللوا نقط ضعفه ، رسموا خطة للإيقاع به مستغلين اصابته بالشذوذ الجنسى .

وتتم العملية فى مثل تلك الأحوال بدعوة الضحية إلى ما يبدو أنه ترويح اجتماعى وبعد ذلك تهيأ له المغريات التى من شأنها أن تجعل الضحية يقبل على الاغراء ، وعند ذلك يسجل سلوكه على شريط أو على فيلم . ثم يواجه الرجل بعد ذلك بالدليل ، ويهدد بأنه ان لم يعمل لصالح المنظمة فانه سوف يفضح أمام حكومته ... ولقد خضع فاسال ازاء التهديد .

واذا كان الشخص الهدف قوى العزيمة لدرجة تمكنه من أن يفضى بكل شىء إلى رئيسه فى الحال ، فان هذه المحاولات تقاوم مع تعريض الشخص

إلى خطر قليل نسبياً — حتى ولو كان مقيما فى الدولة التى بها المنظمة .

أما اذا كان الاتصال قد تم فى دولة أجنبية فقد يطلب الرئيس من الشخص بأن يتظاهر بالقبول ، ليحتال على الجهاز الأجنبي للكشف عن كل الأفراد وكل الأساليب المستخدمة . وأحياناً اذا كان الشخص الذى تم الاتصال به غير مؤهل لأن يلعب هذا الدور ، يطلب منه أن يقطع صلته بهذه العصبة ، بعد أن يخبرهم أنه قد أفضى بكل شيء إلى رؤسائه .

وظهر من التحريات الرسمية التى أجريت فى موضوع قضية فاسال أن السوفييت يعاودون الكرة اذا ما نجحوا فى حالة ما . فقد حاول نفس العميل السوفييتى الموجود فى السفارة البريطانية فى موسكو الذى اجتذب فاسال إلى شرك العملية الجنسية الشاذة أن يوقع أحد مهندسى الصيانة فى السفارة ، وذلك بأن هدده بفضح سره بخصوص بعض جرائم فى السوق السوداء .

وتوقع رجال جهاز أمن الدولة السوفييتى أن ضحيتهم سوف يفضل التعاون معهم على انكشاف أمره . ولكن المهندس قام بالابلاغ عن ذلك لرؤسائه الذين أعادوه لتوه من موسكو إلى بلاده . وكانت النتيجة أن خسر العميل السوفييتى وظيفته فى السفارة البريطانية وفى ذلك الوقت لم يكن قد عرف أنه هو نفس الشخص المسئول عن اللعبة التى أدت إلى تجنيد فاسال .

التهديد بالزنا

وبينما لعب الشذوذ الجنسى دوراً بارزاً فى معظم القضايا الحديثة المعروفة مثل قضية فاسال فقد لعب الزنا دوراً أكبر . فقد تعلمت أجهزة المخابرات المختلفة أن التهديد بالتشهير على أساس القيام بأعمال جنسية غير شرعية هو سلاح حاد مع بعض الجنسيات دون جنسيات أخرى . ان هذا يتوقف على المعايير الخلقية فى البلد التى ينتمى اليها الشخص . وأكثر ضحايا هذا النوع

هم مواطنو البلاد التى تقيم وزناً كبيراً لاخلاص الزوجية ، والتى تنظر إلى الخيانة التى من هذا النوع نظرة قوية .

ولقد سمعت قصة منذ سنين قليلة من أحد خبراء التزييف الكبار فى جهاز دولة غربية عن استخدام تزييف الصور فى مسائل الجنس . وقد حدثت هذه القصة فى احدى الدول الاسيوية حيث كان بها حزب شيوعى قوى يرأسه رجل متزوج بامرأة عضوة فى الحزب ولها مكانة كبيرة فيه .

وقد أراد أحد ضباط مخابرات الغرب إحداث انقسام فى الحزب ، ففكر فى لعبة جهنمية ، بأن قام بتزييف صورة رئيس الحزب فى وضع مشين مع امرأة صديقة لزوجته ، وكانت تتردد على منزلها فترات طويلة .

ثم أرسلت الصورة للزوجة التى سرعان ما غادرت منزل الزوجية وشهرت بزوجها وانضم اليها كثر من أفراد الحزب ، وبهذا انقسم الحزب إلى شطرين .

التقاط الصور الفاضحة

وفى مثل هذه الأحوال تزيف الصورة بشكل يصعب اكتشافه ، كما أن الخطة تبنى على معلومات واقعية بأن تختار الضحية من شخصية تكون معروفة للزوجة مثلا ، أو تكون الزوجة تشك فيها ، كما تدرس صفات الضحايا بحيث تكتمل صورة يمكن تصديقها ، حتى لو كانت القصة مختلقة .

ويروى الين دالاس قصة ذكرها فى كتابه « صناعة المخابرات » حيث يقول :

« عندما كان موظفو احدى الدول التابعة للسوفييت لا يزالون على درجة من السذاجة بشأن الموقف فى الأمور الجنسية فى بلاد بعض جيرانهم من دول الغرب ، استطاعت الشرطة السرية فى تلك الدول أن تلتقط بعض صور لأحد الدبلوماسيين فى أوضاع مشينة ، وكان أملهم أن يستغلوا هذه الصورة فى

اجبار الرجل على التعاون مع جهاز مخابراتهم ، فدعوه إلى أحد مكاتبهم تحت أى عذر وعرضوا عليه هذه الصورة .

وأشاروا فى كلامهم إلى أن زوجته ورؤساءه لن يسرهم رؤية هذه الصور . وعلى خلاف ما كانوا يأملون وما كانوا يتوقعون لم يهتز الدبلوماسى عن الاشارة سالفة الذكر ، بل استمر فى فحص الصور بكل حماس .

وأخيراً قال « انها صور جميلة ، فهل أطمع أن تكونوا من الكرم بحيث تستخرجون لى منها بعض النسخ ... أريد نسختين من هذه ... ونسختين من هذه ... » .

والواقع أن هذا الشخص اما أنه كان لا يهتم بالتهديد أو أنه كان يعرف جيدا كيف يلعب دوره ازاء هذا التهديد .

التهديد

وثمة نوع آخر من الضغوط مختلف عن ذلك كل الاختلاف ، فقد حاولت المخابرات الاسرائيلية أن تهدد الطلبة العرب الذين يدرسون فى بعض دول اوروبا بتعذيب أقاربهم فى الأراضى المحتلة بعد كارثة ٥ يونيو ١٩٦٧ .

ونفس هذا الأسلوب استخدمه الشيوعيون فى الماضى مع المهاجرين أو المستوطنين الذين لهم أقارب يعيشون خلف الستار الحديدى .

فقد يتلقى أحد المهاجرين الذين يعيشون فى الغرب زيارة من شخص غريب يعرض عليه اقتراحا بالتعاون مع السوفييت ، والا تعرضت أمه أو أخيه أو زوجته أو أطفاله إلى ضرر بليغ .

ولكن نظراً لأنه يحدث أحياناً أن يكون لدى اللاجىء الشجاعة بحيث يتقدم بشكوى إلى السلطات المحلية ، التى تقوم بدورها بإلقاء القبض على العميل

الذى أبلغ الرسالة لذلك فهم يحاولون ادارة العملية بطريقة أقل بدائية من هذه الطريقة .

فبدلا من الزيارة يتلقى اللاجىء خطابا من أحد أقربائه فى الوطن يخبره فيه بطريقة مستترة أن السلطات المحلية تقوم بعمل تحريات عنه ، وأن بعض المتاعب تنتظر أقرباءه نتيجة لهذا ، وقد يكون هذا الخطاب مزوراً قام بكتابته جهاز المخابرات وبخاصة اذا كان معروفاً ان اللاجىء لا يتراسل كثيراً مع أقربائه .

استغلال عقدة الذنب لدى الألمان

وبالاضافة إلى تلك الوسائل فقد استغلت منظمات المخابرات المختلفة ظروف المانيا الغربية وجندت كثيرين من النازى « مجرمى الحرب » أو غيرهم مستغلين ما يسمى « عقدة الذنب » واستغل كل من الشرق والغرب عاملين أساسيين حيال هؤلاء الناس أولهما — أن هؤلاء الناس كانوا — طبقاً لموافقة الحلفاء — ضمن قائمة الأشخاص المطلوب القبض عليهم أو اعدامهم .

ثانيهما — أنه أصبح بعد النازية من العسير على أحد أعضاء الحزب الالمانى أو الجستابو أو أى منظمة نازية مشابهة أن يحصل على عمل محترم . لقد فقد أولئك الذين عاشوا أياما زاهرة أيام النازى كل السلطة وأصبحوا عاطلين وعانوا من الضيق .

وهناك أيضاً عدة محاولات قامت فيها بعض منظمات المخابرات باستغلال الالمان فى المانيا الغربية ، وذلك نتيجة حصولهم على أدلة بقيام ضحاياهم بعمليات اجهاض فى المنطقة الشرقية قبل هروبهم إلى الغرب .

وقد استغلت نقطة الضعف هذه بعناية ، ومن ثم أمكن استغلال « روزانى كونز » سكرتير الاميرال فاجنر نائب رئيس البحرية الالمانية بواسطة السوفييت.

الساقطون وغير المستقرين

وبالمثل قامت المخابرات الأجنبية بالبحث بين الالمان فى المانيا الغربية والشرقية عن الساخطين ، أو الذين وقعوا فى مأزق أو الذين خابت آمالهم ، أو كانت حياتهم المنزلية تعيسة ممن يشكون من الأمراض العصبية ، أو ذوى الشذوذ الجنسى أو المدمنين على الشراب .

ان مثل هؤلاء الناس لا يحتاجون أحياناً الا إلى اشارة خفيفة للوقوع فى حمأة الخيانة ، وكانت المسألة سهلة لا تحتاج لمجهود كبير .

ويدرك السوفييت ادراكاً كاملاً أن الأشخاص الذين يتصفون بالضعف الخلقى أو المصابين بأمراض نفسية لا يمكن أن يكونوا عملاء ممتازين . ولكنهم يلجأون إلى استخدامهم فقط حينما يعجزون عن الحصول على أفضل منهم .

انهم يفضلون الشخص الذى يعمل بوحى من دوافعه الايديولوجية ، ولذلك فانهم يواصلون البحث عنه .

وفى النهاية فلعلنا نتذكر قضية الطالب الالمانى « فروفالدو » الذى جندته إسرائيل للتجسس علينا مستغلة عقدة الذنب لدى بعض الالمان ... وحينما قامت المخابرات العامة بالقبض عليه كان الطالب المذكور صريحاً فى الادلاء بأقواله مؤمناً بما كان يقوم به ، اذ قرر أنه يكفر عما قام النازى من عمليات ارهاب ضد اليهود فى الحرب العالمية الثانية .

لقد نجحت إسرائيل فى غسل مخ الطالب الصغير ، وجعلته يعتقد أنه بالتجسس لصالح إسرائيل انما يكفر عن عقدة الذنب التى ارتكبها آباؤه فى أثناء الحرب العالمية الثانية فى عهد الرايخ الثالث .

ولقد كانت هذه القضية مأساة انسانية لطالب لا يزال فى ربيع العمر ويتطلع إلى مستقبل مزدهر .

الخداع والتزييف

الواقع أن معركة الدهاء التى تشنها أجهزة المخابرات ضد خصومها ، يكمن بها عناصر الخداع والتزييف والتضليل ، والتى تدخل فى هذا العصر ضمن وسائل الحرب النفسية .

وتستخدم المخابرات كلمة « خداع » لتعنى تلك المناورات والحيل التى تهدف دولة ما إلى تضليل دولة أخرى .

والخداع كأسلوب عملية قديمة قدم التاريخ . ففى موقعة مدين عام ١٢٤٥ ق. م. نجد أسلوباً غريزياً حينما نجح جدعون الاسرائيلى فى خداع عدوه باستخدام المشاعل(*)، كما يروى لنا هوميروس قصة حصان طرواده الذى أدى إلى سقوط طرواده .

على أن ثمة صورة من صور الخداع السياسى تبرز فى قصة التحكيم المشهورة بين على بن أبى طالب ومعاوية ، والتى كان بطلها الداهية عمرو ابن العاص حيث لعب دوراً كبيراً فى خداع المسلمين ، والتى أدت إلى الفتنة الكبرى التى لا تزال تعانى منها أمة المسلمين حتى اليوم .

وفى هذا العصر الذى نعيش فيه حيث تتصارع المذاهب بشكل رهيب ، تحاول الأطراف المختلفة فى هذا الصراع ممارسة أشكال مختلفة من الخداع بما فى ذلك الخداع السياسى .

وقد يكون من المناسب أن نسرد بعض قصص الخداع التى استخدمت ، والظروف التى أملت على الدول استخدامها ، حتى نستطيع أن نستخلص صورة حقيقية لهذه الأساليب ، وكذا لنخرج بدروس لتفادى هذه المحاولات .

(*) راجع الحرب النفسية — صلاح نصر — الجزء الأول — ص ٥٥ .

ففى أثناء الثورة الأمريكية لم تكن منظمات المخابرات قاصرة على التجسس العسكرى فى المستعمرات الأمريكية ، بل كانت هناك لعبة أغرب وهى لعبة التجسس السياسى الدولى فى دوائر السياسة وخاصة فرنسا ، حيث كان بنيامين فرانكلين يرأس بعثة أمريكية غرضها الحصول على معونة فرنسا من أجل قضية المستعمرات .

كان من الأهمية بمكان بالنسبة للبريطانيين أن يعرفوا تطور مفاوضات فرانكلين والمساعدات التى كان يعرضها الفرنسيون على المستعمرات .

ولا يمكن حصر عدد الجواسيس الذين كانوا يحيطون بفرانكلين ، ولا عدد الجواسيس الذين كان يحتفظ بهم فى بريطانيا .

كان فرانكلين رجلاً حريصاً ، وكان يعرف أنه فى بلد غريب ، كما أنه لم ينشر كثيرا عن حياته عن هذه الحقبة . ومع ذلك فهناك رجل واحد ربما يكون قد نجح فى خديعة فرانكلين .

هذا الرجل هو الدكتور « بانكروف » الذى ولد فى المستعمرات فى ويستفيلد فى ماساشوستس ، ولكنه حصل على تعليمه فى انجلترا ، وقد عين سكرتيراً للجنة الأمريكية فى باريس . واستطاع أن يشق طريقه حتى نال ثقة فرانكلين وأصبح مساعده الأمين وموضع حمايته ، كل ذلك نظير أجر ضئيل ، واستطاع بنجاح أن يلعب دور الأمريكى المخلص شديد الولاء .

وكان بمقدوره أن يعيش بمرتبه الضئيل الذى كان يتقاضاه من الأمريكيين ، لأن البريطانيين كانوا يجزلون له العطاء ، اذ كانوا يدفعون له ٥٠٠ جنيه ومثلها كمرتب سنوى بخلاف معاش مدى الحياة . ولما كان مطلعاً على كل المفاوضات السرية — أو هكذا كان يظن — فقد عد عميلاً ذا قيمة للبريطانيين.

وكان يبعث برسائله إلى السفارة البريطانية فى باريس بأن كان يضعها

فى قارورة يخفيها فى تجويف شجرة فى حدائق التويلرى . وكان يكتب رسائله بحبر سرى بين سطور خطابات غرامية ، وعندما كان لديه معلومات أكثر من أن تستوعبها القارورة ، أو عندما كان يريد توجيهات من البريطانيين، فقد كان يسافر إلى لندن .

وكان فرانكلين يبارك سفره اعتقادا منه بأن بانكروف سوف يحصل له من لندن على معلومات تهم الأمريكيين ، وكان البريطانيون يزودونه بمعلومات مضللة معدة للاستهلاك بواسطة الخصوم .

وحتى لا يتطرق الشك فى عميلهم قام البريطانيون مرة بالقبض على بانكروف وهو فى طريقه من بريطانيا حتى يزيد فرانكلين من ثقته فيه ، وحتى يدرك الأخطار التى يتعرض لها مساعده من جراء إخلاصه للقضية الأمريكية .

وكان كل شيء يعتمد دون شك على قدرة دكتور بانكروف التمثيلية ، والتى كان فعلا يتصف بها لدرجة أنهم عندما أقاموا الدليل على أنه ذو وجهين رفض فرانكلين أن يصدق ذلك .

وربما كان فرانكلين الحصيف يعرف هذه الحقيقة ولكنه لم يشأ أن يطلع الغير عليها .

ففى عام ١٧٧٧ كتب فرانكلين خطاباً إلى سيدة أمريكية كانت تعيش فى فرنسا ــ وهى جوليانا ريتشى ــ وكانت قد أرسلت تحذره من أنه محاط بجواسيس . لقد كتب اليها فرانكلين يقول :

« انى أتقدم بخالص الشكر لعنايتك الرقيقة بمصلحتى فى شكل المعلومات التى أرسلتها لى ، وأنا على يقين من أنها مبنية على أساس سليم . ولكن لما كان من المستحيل أن نمنع إحاطتنا بالجواسيس عندما يعتقد من يهمهم الأمر ضرورة استخدامهم لهذا الغرض ، فانى أتبع دائماً قاعدة واحدة تخلصنى

من مضايقات مثل هذا العمل .

هذه القاعدة هي ألا أتورط في عمل يحمر وجهي خجلا عندما يعرف ، وألا أقوم بعمل لا أحب أن يراه الجواسيس ، واذا كانت أعمال الإنسان سليمة وشريفة فكلما ذاعت كلما ذاع صيته واستقر ، وحتى لو تأكد لدى أن خادمي الخاص جاسوس — وربما كان كذلك فعلا — فانى لا أفصله من خدمتى اذا كانت له صفات أخرى تروقني » .

وقد نتساءل هل نجح ادوارد بانكروف في خداع فرانكلين ؟ الواقع أن الاجابة صعبة وهنا تكمن المشكلة .

أمثلة من الخداع

وفى أثناء الحرب الأهلية الأمريكية نجح ضابط اتحاد البريد الملحق بقسم الاشارة في الجيش في ضبط برقية مرسلة من مواطن إلى جنوب واشنطن ، ولم يشأ أن يفرط في هذه الفرصة .

وابتدأ يرسل رسائل زائفة إلى وحدات هذا المواطن ، وكان غرضه أن يقود هذه الوحدات إلى كمين . ولكن لم يخدع هذا الجنوبيين دقيقة واحدة ، اذ أدركوا لتوهم أن ثمة تغيير في أسلوب الارسال فأرسلوا له الاشارة التالية « نحن نعرف أنك هناك — فابعد عن طريقنا أيها الشمالى الملعون » .

وتقوم الآلات في الوقت الحاضر بعملية ارسال الاشارات من أجهزة إرسال الكترونية ، ولم تعد هناك الصبغة الشخصية ، والتى بقيت فقط في أعمال الهواة أو في رسائل الجواسيس السرية .

لقد حدث في الحرب العالمية الثانية أن أسقط البريطانيون جاسوساً في هولندا كى يعاون في تنظيم حركة المقاومة السرية . ولكى يرسل المعلومات الهامة إلى انجلترا ، كان يحمل معه جهاز ارسال يعمل على الموجة القصيرة .

وفى الحال بدأ البريطانيون يتلقون سيلاً منتظماً من الرسائل مكتوبة بالشفرة المتفق عليها وعلى الموجة المتفق عليها ، مما يدل دون شك على أن العميل البريطانى هو مرسلها .

وطبقاً للأنباء الواردة فى الرسائل كان سلاح الطيران البريطانى يقوم بالقاء القنابل على الاهداف الهامة ومطارات النازى ومخازن المؤن حسب تحديد الرسائل ولكن كانت الطائرات البريطانية فى كل غارة تقابل بعاصفة من المدافع المضادة للطائرات ، مما جعل الانجليز يعتقدون أن قوة النازى العسكرية أعظم مما كانوا يظنون . وطلب الجاسوس البريطانى اسقاط عملاء أكثر بالمظلات فى هولندا وكانت رسائله تفيد بوصولهم سالمين .

ولكن بدأ البريطانيون يشكون فى أن كل شىء لا يسير حسب ما يرام ، وبعد الحرب ظهرت الحقيقة كلها . لقد تم القبض على الجاسوس البريطانى الأول قبل أن تلمس مظلته الأرض ، واستخدم النازى معه طرق تعذيبهم الوحشية ، والتهديد بالاضرار بذويه ، وأجبروه بذلك على أن يخدع حلفاءه وحاول فى غمرة يأسه أن ينبههم بأنه كان يستخدم حرفاً زائداً على حروف الشفرة ولكن دون جدوى ، اذ لم يفطن إلى هذه الاشارة أحد . وكانت المطارات ومخازن المؤونة المذكورة فى رسائله مجرد حقول مفتوحة ، أقيم بها أحياناً هياكل مبان ، ووضع حولها مدافع مضادة للطائرات زائفة ، أما العملاء الذين طلب إسقاطهم فقد وصلوا وأعدموا حال هبوطهم .

وفى مناسبة واحدة كان حظ سلاح الطيران البريطانى سعيداً عندما شاهدت الطائرات البريطانية ما يشبه المطار الألمانى الملىء بالمبانى والطائرات المصنوعة من الخشب ، فما كان من الطائرة البريطانية التى وقفت إلى هذا الاكتشاف الا أن ألقت عليه قنبلة واحدة — مصنوعة من الخشب .

كارثة بيرل هاربور

وكانت كارثة بيرل هاربور تحوى جزءا من الخداع ، فبالرغم من أن الاتحاد السوفييتى كان قد تلقى معلومات فى الوقت المناسب من عميلهم السرى المقيم فى طوكيو « ريتشارد سورج » ، بأن اليابان لن تهاجم الاتحاد السوفييتى ، الا أنه أكد أنه سوف توجه ضربتها إلى الولايات المتحدة فى الفترة ما بين ديسمبر عام ١٩٤١ ويناير عام ١٩٤٢

وكان الأشخاص الوحيدون الذين اعتمدت عليهم حكومة الولايات المتحدة كمصدر للمعلومات فى تلك الفترة الحرجة هم الملحقون العسكريون والبحريون فى طوكيو .

ولكن نادرا ما يستطيع الملحقون الرسميون أن يكشفوا عن الخطط السرية فى الدول المضيفة ، لأن وكالات مكافحة الجاسوسية التابعة لهذه الدول تهتم اهتماماً خاصاً بعرقلة محاولات الملحقين وبمنعهم من جمع المعلومات الحيوية ، بل وقد تنجح تلك الوكالات أحيانا فى تضليل هؤلاء الملحقين بمدهم بمعلومات خاطئة .

هذا ما حدث بالضبط مع الملحق البحرى الأمريكى فى طوكيو ، وهو الذى أبلغ حكومته قبل وقوع الهجوم على بيرل هاربور بيوم واحد بأنه لا يتوقع هجوماً مفاجئاً ، لأن الاسطول اليابانى ما زال مستمراً فى الرسو فى القاعدة الرئيسية فى « يوكوسوكا » ، والدليل على ذلك وجود جماهير غفيرة من البحارة فى شوارع طوكيو .

وبالرغم من ذلك فقد كان الملحق البحرى مخطئاً خطأً خطيرا .

ففى هذا الوقت بالذات كان الأسطول اليابانى فى طريقه إلى بيرل هاربور ، ولم يكن البحارة المتجمهرون فى الشوارع بحارة حقاً ، بل كانوا مجرد جنود ارتدوا زى البحارة لتضليل الأمريكيين واخفاء رحيل الاسطول الذى أبحر فى مهمته الخطيرة .

أهمية الإعداد المتقن

وكمناورة استراتيجية يتطلب الخداع عادة إعداداً طويلاً ومتأنيا ، اذ يجب أن تتأكد المخابرات أولا عما يفكر فيه العدو ويتوقعه ، لأن المعلومات المضللة التى سوف توضع بين يديه يجب أن تكون معقولة ، ويجب ألا تخرج عن النطاق العلمى للخطط التى يعرف العدو احتمال القيام بتنفيذها .

وعلى المخابرات بعد ذلك أن تفكر في الطريقة التى توصل بها هذا الخداع للعدو ، ويتوقف النجاح على التنسيق الوثيق بين القيادة العسكرية وبين جهاز المخابرات .

فبعد أن طرد الحلفاء من شمال أفريقيا عام ١٩٤٣ ، كان واضحا للجميع أن وجهتهم التالية ستكون جنوب أوروبا ولكن السؤال الذى كان يتردد هو : أين بالتحديد ؟ ولما كانت صقلية هى مكان العبور ، فقد كانت فعلا هدفا من أهداف الحلفاء ، فقد رؤى أن يبذل كل جهد حتى يعرف الألمان والايطاليون أن الحلفاء سوف يعبرونها .

ولو حاول الحلفاء اقناع الألمان أنه لن يكون هناك هجوم عليها ، أو أنهم سوف يقصدون هدفهم عبر اسبانيا لبدا هذا غير معقول ، لان مثل هذه المناورات لا يمكن أن يصدقها عقل . فيجب أن يكون الخداع فى حدود الشىء المتوقع .

ولقد عاونت المخابرات البريطانية فى عملية المفاجأة الخاصة بغزو نورماندى ، فقبيل الغزو عمدت الصحف إلى نشر قصة فقد طائرة في البحر كانت فى طريقها من بريطانيا إلى شمال أفريقيا ، وبعد ذلك بقليل عثر على جثة ضابط بريطانى قذفت بها الأمواج إلى شاطىء قرية صيد صغيرة على الساحل الجنوبى الغربى لاسبانيا . وأسرعت السفارة البريطانية بارسال مندوب عنها إلى تلك البقعة تطالب بأخذ الجثة وبجمع الأوراق التى كانت فى جيوب

صاحبها . ولكن النازيين كانوا قد سبقوا وقدموا رشوة للسلطات الاسبانية التى سمحت لهم بتفتيش جيوب الجثة وتصوير كل مستنداتها قبل وصول البريطانيين ، وكانت هذه الأوراق عبارة عن خطابات وأوراق رسمية تفيد بأن الولايات المتحدة وبريطانيا قد أرجأتا غزو فرنسا ، لكى تقوما بهجوم على بعض الجزر فى البحر المتوسط(*) .

وكانت العملية كلها خدعة كبيرة ، اذ كانت المخابرات البريطانية قد ابتكرت شخصية لهذا « الضابط » المتوفى ، بأن نشرت عنه بعض القصص فى الصحف وذكرته فى نشراتها الرسمية . ولم يكن فى حقيقة الأمر سوى رجل مدنى مات ميتة طبيعية ، ولكنه خدم بلاده بعد موته أكثر من كثير من الأبطال الذين يموتون فى ساحة القتال . ولم يكن من المستطاع اكتشاف أن الرجل مات متأثرا بالتهاب رئوى — لا بالغرق — الا بتشريح دقيق للجثة .

وكان المسئولون البريطانيون قد حصلوا على موافقة أسرة المتوفى فألبست الجثة الزىّ الذى لم يلبسه قط فى حياته وملئت جيوبه بوثائق مصطنعة . وبعد ذلك نقل بواسطة غواصة إلى ذلك المكان كى تحمله التيارات المائية إلى شواطىء أسبانيا . وقام حب استطلاع النازى ورشوتهم باكمال المسرحية . وقد كان أعضاء القيادة الألمانية العايا مقتنعين كل الاقتناع بصحة هذه المعلومات ، لدرجة أنهم تصرفوا بعد ذلك طبقاً لها فكانت العواقب وخيمة بالنسبة لهم .

عملية أونولورد

ولقد تنوعت عمليات الخداع التى استخدمها الحلفاء فى غزو نورماندى ، اذ استخدمت مجموعة من المناورات المضللة المتناسقة تنسيقاً وثيقا . وكان

(*) « عملية ديسميث » أو عملية اللحم الغروم — راجع الحرب النفسية ، الجزء الأول « صلاح نصر » الطبعة الثانية الدار القومية للطباعة والنشر ١٩٦٧ ص ٢٣٢ .

يطلق على هذه العملية الاسم الكودى « اونو لورد » .

لقد نجح الحلفاء فى أن يجعلوا الألمان يخمنون المنطقة التى سوف ينزل الحلفاء منها . وانتشرت بشأن ذلك شائعات بين قواتهم على أمل أن يلتقطها العملاء الألمان الموجودون فى انجلترا ويبلغونها إلى بلادهم .

واستخدمت الاذاعات اللاسلكية لدى عملاء الحركة الفرنسية السرية فى ارسال أوامر وطلبات مضللة تؤيد قصة نزول الحلفاء .

لقد كان معروفاً أن بعض هؤلاء العملاء كانوا يعملون تحت اشراف الألمان ، وأنهم سوف ينقلون هذه الرسائل الواردة من الحلفاء إلى ألمانيا ، وهكذا كان هؤلاء العملاء وسيلة اتصال مباشر مع أجهزة المخابرات الألمانية .

وحتى يجعلوا الألمان يفكرون فى أن نزول الحلفاء سيتم فى منطقة الهافر ، طلب من العملاء الموجودين فى هذا المكان أن يقوموا بتسجيل بعض الملاحظات التى توحى للألمان باهتمام الحلفاء الكبير بالاستحكامات وحركة السكك الحديدية وغيرها .

وأخيراً نظمت حركة الاستطلاعات العسكرية بحيث تؤكد الاهتمام العاجل بإمكان أن يكون الهجوم عن طريقها .

وكانت عمليات الطيران الاستطلاعى فوق سواحل نورماندى أقل منها على الهافر ، كما انتشرت شائعات عن هجوم على النرويج منعا لتركيز القوات على شمال أفريقيا .

طرق توصيل المعلومات المضللة

ويشرح الين دالاس فى كتابه « حرفة المخابرات » الطرق الأساسية لتوصيل معلومات مضللة للعدو بغية خداعه . يقول دالاس :

« هناك طريقان أساسيان لتوصيل معلومات مضللة إلى العدو ، أحد هذين الطريقين ما استخدمه البريطانيون مع أسبانيا . ومثل هذه الحوادث قابلة للتصديق ، والتاريخ ملىء بالأمثلة التى تروى سقوط رسل محملين برسائل هامة فى يد العدو . أما الطريق الآخر فهو « زرع » عميل مع الأعداء ، مهمته ارسال تقارير عن خططه كما فعل أهل أثينا فى « سيراكيوزه » . ويمكن أن يكون هذا العميل هارباً أو محايدا ، والمشكلة — كما هو الحال فى كل عمليات التسلل من جانب الجاسوسية المضادة — هى أن تجعل الأعداء يثقون فى هذا العميل ، فلن يمكنه أن يتقدم بمعلومات عسكرية خطيرة ويتوقع أن يصدقوه ما لم يشرح دوافعه وكيفية حصوله على هذه المعلومات » .

وقد ظهرت وسيلة حديثة تماما مع استخدام الراديو ، فمثلا ينزل أحد رجال المظلات فى أرض الأعداء وهو مجهز بجهاز ارسال متنقل وليقبض عليه ، ثم يعترف أنه قد أرسل فى مهمة للتجسس على تحركات قوات العدو ، وأنه أرسل المعلومات التى حصل عليها إلى جهاز المخابرات باللاسلكى . ومثل هذا العميل قد يحكم عليه بالاعدام رميا بالرصاص بعد أن يدلى باعترافه هذا ، وقد يطلق عليه الرصاص قبل أن يدلى بهذا الاعتراف ، ولكن الاحتمال كبير فى أن آسريه قد يقررون أن فائدته وهو حى أكثر من فائدته وهو ميت ، لأنه سيكون واسطة مباشرة بواسطة جهازه اللاسلكى لتوصيل المعلومات المضللة إلى جهاز مخابرات الخصم ، فاذا كان جهاز المخابرات الذى أرسله قد عرف أنه قبض عليه وأنه تحت سيطرة العدو فسوف يستمر فى ارسال أسئلة له بغرض تضليل الجانب الآخر . فاذا طالب بتقرير عن تركيز القوات فى القطاع « أ » ، فانه يوهم بأن هناك خطة للقيام بعمل عسكرى فيه ، وكان ذلك احدى التكتيكات التى استخدمها الحلفاء عندما كانوا يستعدون للنزول فى نورماندى .

ان عمليات التضليل الاستراتيجى تتطلب التعاون الوثيق والأمن الكامل

بين كل أقسام الحكومة المشتركة فى الجهود ، وهذا عمل صعب فى حكومة ديموقراطية الا اذا حدث ذلك وقت الحرب .

أمثلة للتزييف

وتقترن عملية التضليل بعمليات التزييف ، وفى الدول التى تسيطر فيها الحكومة على الصحافة وأجهزة الاعلام تتم العملية بكفاءة أقدر .

فمثلاً حدث فى يوم الطيران السوفييتى فى يوليو من عام ١٩٥٥ ، وبحضور الممثلين الدبلوماسيين والعسكريين فى موسكو ، أن عرض طراز جديد من قاذفات القنابل الثقيلة ، وكان العدد الذى عرض يفوق ما كان متوقعا .

كان الهدف هو ايهام الحاضرين أن المصانع قد أخرجت عددا كبيراً منها ، ومعنى ذلك أن السوفييت كانوا يملكون قوة ضخمة من قاذفات القنابل الثقيلة .

وقد تبين بعد ذلك أن نفس السرب كان يدور فى شكل دائرى بحيث يعاود ظهوره كل بضع دقائق .

وكان الهدف هو تأكيد قوة انتاج قاذفات القنابل السوفييتية . والحقيقة أنهم كانوا ينقلون التأكيد بعد ذلك إلى الصواريخ .

وتشمل الوثائق المزيفة خطابات متنوعة تبدو كما لو كانت صادرة من كبار الموظفين إلى رئيس الدولة ، أو خطابات مرسلة من وإلى وزير الخارجية أو وزير الدفاع ... الخ .

وبينما يكون بعض هذه الوثائق غاية فى الاتقان ، فهناك دائما عدد كبير من الأخطاء الفنية فيها . ولسوء الحظ لا تظهر هذه الأخطاء للجمهور المقصود من هذه الخطابات وهم عادة شعوب الدول المستقلة حديثا . وقد أعدت هذه

الوثائق للاستهلاك على النطاق الواسع ، ولم تعدّ للنخبة الممتازة . ومن بين هذه الوثائق المتقنة التي ظهرت كأنها جزء من ورقة صادرة عن الوزارة البريطانية ، كانت الوثيقة التي شوهت موقف الولايات المتحدة وموقف بريطانيا بالنسبة إلى سياسة العمال فى افريقيا .

ومن أمثلة التزوير أيضا ما ظهر فى صحيفة هندية تصدر باللغة الانجليزية وتتكون من برقيتين مزورتين قيل ان مرسلهما هو السفير الأمريكى فى « تايبيه » إلى وزير الخارجية فى واشنطون ، معلقاً على عدد من الاقتراحات الخيالية للتخلص من الجنرال « شانج كاى شيك » . وحتى يفسروا كيفية وقوع البرقيتين فى أيديهم استغل السوفييت بمهارة حادثاً كان قد قع ، وهو هجوم الغوغاء واعتداؤهم على سفارة الولايات المتحدة فى « تايبيه » .

وعندما يتعمد الإنسان التضليل تكون النتيجة أن يضلل الصديق والعدو على السواء ، وبعد ذلك لن يصدق لهذا المخادع كلام ، حتى اذا أراد أن يصدقه الناس .

وغالباً ما يحدث أن يعمى الخوف من التضليل الخصم عن القيمة الحقيقية للمعلومات التى تضعها بين يديه العمليات العارضة أو عمليات المخابرات .

وقد عبر عن ذلك سير والتر سكوت حين قال :

« ما أعقد النسيج الذى نصنعه اذا ما بدأنا نمارس الخداع ! » .

فاذا ما شككت فى حيل العدو المستمرة فان أى شىء يحدث تأخذه على أنه احدى هذه الحيل .

ومن بين آثار التضليل — اذا ما نجح هذا التضليل — أن يربك حكم الخصم وتقديره لأى معلومات يتلقاها . انه سيكون شكاكا ومرتابا ... انه لا يحب أن يؤخذ على غرة .

على أنه من ناحية أخرى يجب أن يكون العميل الذى ترسله لتضليل العدو

موضع ثقة العدو ، فقد ثار الشك حول أحداث صحيحة أحياناً ، بل أهملت وذلك لاعتقاد الطرف الآخر أنها من قبيل التضليل ، وهذا ما حدث للنازى فى أواخر الحرب العالمية الثانية .

كان قد عين « هانزفون بابن » الماكر الذى كان يتآمر فى الحرب العالمية الأولى مع حكومة المكسيك سفيراً لألمانيا فى أنقرة .

وقد أوفد الدبلوماسى الثعلبى إلى أنقرة قبل الحرب العالمية الثانية مباشرة بمهمة مؤداها أن يبعد تركيا حتى لا تنضم إلى الحلفاء .

وكان لـ « فون بابن » مصدر للمعلومات لا يبارى فى أنقرة فى شخص مستر بازتا الخادم الألبانى الخاص للسفير البريطانى . وهذا الخادم معروف للألمان بالاسم الرمزى « شيشرون » وكان معتاداً على أن يفتح خزانة السفارة ويستخرج وثائقها الهامة ويقوم بتصويرها واعادتها إلى الخزانة مرة أخرى . ثم يسلم النسخ إلى « مويزتش » — وهو ضابط ألمانى ملحق بالسفارة الألمانية — وفى نظير هذه الخدمة الممتازة كانوا يدفعون إلى شيشرون بسخاء — أكثر من مليون دولار — ولكنها للأسف كانت نقودا زائفة .

وكانت محاضر مؤتمر طهران الذى اجتمع فيه ستالين وروزفلت وتشرشل لمناقشة السياسة العليا ومحاضر مؤتمر القاهرة يحصل عليها « شيشرون » لينقلها بالتالى إلى أيدى النازى .

وكان الواجب على الألمان بعد أن حصلوا على الوثائق البريطانية الأصلية أن يقارنوا بين نصوص الرسائل المكتوبة باللغة العادية وبين النصوص الخاصة بالبرقيات الشفرية من لندن واليها ، كى يتفقوا على رموز الدبلوماسية البريطانية . وربما كان البريطانيون من المهارة بحيث أن رموزهم كانت نسبة الأمن فيها عالية ، وربما كانت أجهزة مخابرات الألمان تتخبط ببعضها البعض ، لدرجة أنهم لم يفكروا فى أن يحولوا إلى وحداتهم الخاصة بالمكاتبات السرية المعلومات التى كان يزودهم بها « شيشرون » .

وعلى كل حال كان هتلر يتشكك فى صحة أية معلومات تشير إلى تزايد قوة العدو ، وظلت رموز البريطانيين وشفرتهم فى أمان .

وكان يتم تمويل « شيشرون » عن طريق العملية التى يرمز لها باسم « برناهارد » ، وهى أعلى برنامج نازى سرى كان مخصصا بتزييف نقود الحلفاء ولا سيما الجنيهات الانجليزية ، وذلك بمعاونة حفارين كانوا أسرى فى معسكرات الاعتقال الألمانية . وكانت هذه النقود الزائفة تخدع الكثيرين فيما عدا المدققين جدا . وكان هتلر يعوّل على هذا البرنامج فى تحطيم اقتصاد دول الأعداء . وكانت المبالغ التى دفعت إلى « شيشرون » سحبت من رصيد كان مودعا فى بنك سويسرى عبارة عن أوراق بنكنوت زائفة .

وعندما قامت الولايات المتحدة بفحص ملف « أبوير » وهى المخابرات البحرية التى كان يرأسها الادميرال كناريس — بعد الحرب — ، صعقوا عندما اكتشفوا ان المخابرات كان لديها الخطط كاملة لغزو الحلفاء لشمال أفريقيا قبل أن يتم هذا الغزو بفترة طويلة . وكانت معلومات المخابرات تأتى عن طريق أجهزة الجاسوسية الألمانية المختلفة إلى جهاز المخابرات الأعلى الذى كان يديره جنرال نيكولاى الذى كان يرأس المخابرات الألمانية فى الحرب العالمية الأولى .

وواضح أن هتلر شعر بالغضب الشديد ازاء الضربة الكبرى التى حققها جهاز كناريس المنافس ، لدرجة أنه عمل على أن تبقى المعلومات الخاصة بغزو شمال أفريقيا على مستوى جنرال نيكولاى ولا تتعداه . ولو كانت هذه المعلومات وصلت إلى هيئة أركان الحرب العامة ، لقاست الولايات المتحدة من هزيمة أقصى من تلك التى نالتها فى بيرل هاربور

نصاب المخابرات

وهناك نوع آخر خارج أجهزة المخابرات وهم مزيفو المعلومات والنصابون ،

ومن بين هؤلاء العميل الذى جفت مصادره وهددته البطالة . انه يعرف نوع المعلومات التى تطلبها أجهزة المخابرات ، كما أنه محل ثقتها ، فان لم يكن له معاش آخر وان لم يكن يتصف أساسا بالامانة ، فانه يفكر فى احياء المصادر واعادة توظيفها بعد أن تكون قد ماتت فعلا ، وذلك بأن يقوم بنفسه بكتابة تقاريرهم وتزييف محتوياتها ، ولكن ان آجلاً وان عاجلاً يكتشف جهاز المخابرات الخدعة بسبب بعض التناقضات ، أو نتيجة بعض النقص فى البيانات ، أو بسبب التزويقات التى لم تكن موجودة من قبل ، أو بسبب وجود أخطاء فى الأسلوب . وقد يكتشف الغشاش بطريقة أخرى ، فالمفروض أن يرى العميل مصادره من آن لآخر ، وهو عندما يفعل ذلك لا يكتفى بتسليم المعلومات إلى جهاز المخابرات ، ولكنه يكتب تقريراً عن مقابلته للمصدر ويضيف ظروف المقابلة وحالة المصدر العامة والفعلية وغيرها من الأمور . وقد يلتفت ضابط المخابرات إلى العميل قائلا : « تقول إنك رأيت س يوم كذا ... وهذا غريب لأننا نعرف أنه كان خارج البلاد طوال هذا الأسبوع » . وهذه لحظة لا يحس فيها العميل بالسعادة ، ولا يحس فيها ضابط المخابرات بالسعادة أيضاً لا سيما اذا كان يتحدث إلى عميل خدمه باخلاص فترة من الزمن .

أما نصاب المخابرات فهو يختلف عن العميل الحقيقى المنحرف ، فهو رجل تخصص فى هذا اللون من النشاط دون أن يكون قد خدم كعميل لأى إنسان من قبل . وكغيره من النصابين يعرف طريقه إلى مكاتب المخابرات . ومنذ زمان طويل وجد المزيفون والنصابون فى عالم المخابرات ، ولكن بازدياد الاكتشافات الفنية والعلمية — ولا سيما تطبيقاتها العسكرية — أفسح مجالات جديدة ومغرية أمام النصابين . وكانت نقطة الضعف التى يستغلهـا النصابون هى نقص تفاصيل المعلومات العلمية من جانب ضابط المخابرات ، وبالرغم من أن أجهزة المخابرات الحديثة تدرب ضباطها تدريبا كاملا — بقدر الامكان — على المواضيع العلمية التى تفيدهم ، الا أنها لا يمكن أن تحول كل ضابط مخابرات إلى عالم متخصص فى الطبيعة أو الكيمياء . والنتيجة أن كثيراً من

ضباط المخابرات المهرة يستمرون فى العمل مع عميل حتى ترد تقارير الاخصائيين فى الوطن ، تنبىء بأنه بتحليل البيانات وجد أنها للأسف صادرة عن نصاب أو محتال .

وعقب الحرب العالمية الثانية كان المحتالون يستغلون اهتمام العالم أجمع فى النشاط الذرى . لقد ظهر من أطلق عليهم اسم « بائعى اليورانيوم » . كانوا يظهرون فى كل عواصم اوروبا ومعهم «عينات» من « اليورانيوم ٢٣٥ » أو « اليورانيوم ٢٣٨ » فى علب من الصفيح أو ملفوفة فى قطعة من القماش أو موضوعة فى زجاجات حبوب . وكانوا يعرضون أحيانا بيع كميات كبيرة من المادة النفيسة . كما كانوا يدعون أحياناً أن عيناتهم مأخوذة من مناجم مكتشفة حديثا فى تشيكوسلوفاكيا حيث لهم مصادر ممتازة يمكنها أن تمد الغرب بآخر البحوث خلف الستار الحديدى . حقا كانت هناك أنواع كثيرة من عملية تجارة اليورانيوم .

والصفة الرئيسية التى يتميز بها المحتال هى أنه يطلب الثمن نقدا ، إذ يأتى فى أول الأمر بالعرض المغرى مصحوبا بالعيّنة ، ثم يلى ذلك المطالبة بمبلغ كبير يتبعه تسليم البضاعة ، ولما كانت أجهزة المخابرات لا تسمح لضباطها فى الميدان أن ينفقوا أكثر من مبالغ رمزية قبل أن تقوم الرئاسة بمراجعة المشروع بكل تفاصيله ، لذلك كان من النادر أن يخسر جهاز مخابرات مبالغ طائلة بسبب الاحتيال ، وكل ما يخسره الجهاز هو الوقت الذى يكون أحيانا أثمن من المال . فاذا كان فى العرض أى بريق من الحقيقة ولم يكتشف الفحص أن هناك احتيالا ، يقوم ضابط المخابرات بالانتظار قليلا حتى يتم له التأكد ، وتتحول العملية إلى لعبة عقلية بين المحتال الماهر وبين ضابط المخابرات حيث لا يقوم الأخير بترك العملية نهائيا ، بينما يبذل المحتال كل جهده للاجابة على الأسئلة التى تثبت صدقه .

وبعد اليورانيوم جاء التنافس على تقديم معلومات عن الصواريخ ، ثم

أصبح المحتالون ينقسمون إلى جماعات يقدمون التقارير عن تطوير الصينيين الحمر لأشعة الموت، واعتمدوا على المنطق الذى يقول انه نتيجة لتخلف الصينيين الحمر فى ميدان القنبلة الهيدروجينية فانهم يكرسون نشاطهم فى هـــذه الأشعة .

مصانع الورق .

وهناك نوع أكثر عملا وان كان أسهل كشفا من التزييف . وهو الذى تنتجه ما يطلق عليه « مصانع الورق » ، فهذه تخرج أطنانا من التقارير ولكنها تعول على المواضيع الساخنة كما يفعل المحتالون . وفى الغالب تكون معلوماتها معقولة ومنظمة تنظيما جميلا ، وهناك عيب واحد فيها وهو أنها غير صادرة من مصدرها الحقيقى .

وقد استغلت مصانع الورق هذه موقف الصراع بين الكتلتين ، وراجت مطبوعاتها فى أواخر الحقبة الأربعينية وأوائل الحقبة الخمسينية عندما لم تكن اجهزة مخابرات الغرب قد حلت بعد مشكلة اختراق الستار الحديدى . وفى خلال هذه المدة اكتشف كثير من المثقفين فى أوروبا الشرقية ممن فروا من أوطانهم وفقدوا الأمل فى أن يعيشوا كلاجئين ، ان أجهزة مخابرات الغرب كانت تواقة لأن تتحدث معهم عن أحوال المناطق التى غادروها حديثا . واستطاع بعض منهم أن يمدوا بسهولة هذه الأجهزة بما تحتاجه . ولكن كان لا بد من وجود مصادر لهم خلف الستار الحديدى فى شكل أصدقاء موثوق بهم يشغلون وظائف هامة فى بلادهم ، كما كان لا بد لهم من وجود وسائل سرية للاتصال بهؤلاء الأصدقاء . ومما جعل مهمة اثبات التزييف فى هذه المعلومات صعبة هو أن مؤلفيها كانوا على بينة من تشكيل حكوماتهم وعاداتها ومنشآتها العسكرية ، كما كان فى امكانهم أن يقتبسوا مادة من الصحف التى تصدر خلف الستار وكذلك من الاذاعات ، ثم ينسجونها أو يفسرونها بفن . وكثيرا ما يحدث أن تكون هناك معلومات ذات قيمة ، والعيب الوحيد فيها هو أنها تكلف أكثر مما تستحق ، أو أنها لم تستق معلوماتها من المصدر الذى تدعى أنها مستقاة منه .

الفصل الثامن عشر

الكتابة السرية والرمزية

تعريف بعلم الاتصالات السرية .

قد تكون محاولة الخوض للكتابة فى هذا الموضوع مسألة شاقة ومجهدة ، ذلك لأن هذا العلم واسع متشابك ، وينتمى إلى الناحية الفنية انتماء وثيقا ، كما أن التقدم والتطور التكنولوجى قد طور منه بحيث أصبح يسابق الزمن .

ولكن لا يمكن أن نتحدث عن معركة الدهاء — أى معركة الجاسوسية ومقاومتها — دون أن يقترن ذلك بهذا الموضوع الحيوى ، الذى حاولنا أن نتحدث عنه فى شكل نماذج وأنماط معروفة نشرت فى كثير من الدوريات والمؤلفات . ان هدفنا من هذا الفصل هو أن نوضح أهمية هذا العلم فى صراع معارك الأذهان .

والواقع أن علم الاتصالات السرية والرمزية يختص بالوسائل والادوات التى تستخـــدم فى الاتصالات السرية . ويسمى بالإنجليزية Cryptology وقد اشتقت هذه الكلمة من الكلمتين اللاتينيتين « Krypto » بمعنى خفى ،

« Logas » بمعنى كلمة .

ومع أن هذا العلم معروف منذ القدم، فان نمو الحكومات، وانتشار التجارة بشكل واسع، كذا التطور العظيم فى تكنولوجيا المواصلات الالكترونية أدى إلى أن أصبح هذا العلم يلعب دورا فعالا، وخاصة فى ميدانى الدبلوماسية والعسكرية. كما أنه يلعب دورا أقل فى اتصالات التجارة والصناعة والبيوت المصرفية .

على أنه من زاوية أخرى فان علم الاتصالات السرية يتضمن كلا من أمن المواصلات وأمن المعلومات ، فالأول يعالج الوسائل والطرق التى تتبع لتحمى اتصالات أحد الأطراف من التقاطها من طرف آخر للوقوف على ما بها ، كذلك يقوم بمنع أي فرد غير مصرح له بالاطلاع على هذه المراسلات من استخدامها أو الانتفاع بها .

أما مادة أمن المعلومات فانها تختص بالوسائل والطرق التى تستخدم للحصول على المعلومات ، وذلك بمحاولة التقاط رسائل العدو السرية ، والعمل على حلها ، كذا تقوم باحباط أمن مواصلاتها ، وبذا يستطيع الطرف الآخر أن ينتفع بالمعلومات المستقاة من هذه المواصلات .

أمن المواصلات .

ان المحتوى الأساسى لهذا الموضوع يتضمن عادة ثلاثة مبادىء أساسية : أولها في الأفراد الذين يعملون في هذا المجال والأدوات التي يستخدمونها ، وثانيها أمن الارسال والاستقبال ، وآخرها أمن الكتابة السرية .

واذا ما تحدثنا بتفصيل أكبر نستطيع أن نقول أن أمن الأفراد يختص بالاجراءات والتدابير التى تتخذ لحماية الوسائل والأدوات المادية التى تستخدم مثل الشفرة والكود ومفاتيحها ومنع وصولها إلى الخصم ، كذا يختص بأمن الأفراد أى التأكد بأن الأشخاص الذين يعملون فى الكود والشفرة أو يستخدمون معداتها محل ثقة كاملة .

أما أمن الارسال والاستقبال فيختص بالوسائل والطرق والاجراءات التى تستخدم ويعمل على منع تسرب أية معلومات أو كشفها نتيجة نزق أحد عمال الشفرة ، أو نتيجة خلل فى معدات الارسال والاستقبال مما قد يساعد على حل الرسالة

وأخيرا فان أمن الكتابة السرية يختص بالكفاءة الفنية للوسائل المستخدمة ، وهى فى الواقع أهم المبادىء ، وتستحق أهمية أكثر من المبدأين الأولين .

على أننا سنقصر الحديث فى هذا الفصل على الكتابة السرية ، أو ما يطلق عليه « الكربتوغرافية » Cryptography . وقد اشتقت هذه الكلمة من الكلمتين اللاتينيتين « Krypto » بمعنى خفى،« Graphein » بمعنى يكتب .

ويجب أن نذكر هنا أن المبادىء التى تستخدم لأمن الكتابة السرية يمكن تطبيقها أيضا على أمن الاتصالات السرية الأخرى مثل اتصالات التليفونات السرية واللاسلكية .

وبوجه عام فان الاجراءات التى تتبع فى ذلك هى استخدام الكود أو الشفرة ، فاجراءات تحويل رسالة مكشوفة إلى كتابة سرية يطلق عليها اصطلاح « تشفير » أو « التحول إلى كود » ، أما اعادة حل هذه الرسالة السرية إلى رسالة مفتوحة بواسطة أشخاص شرعيين عن طريق استخدام الأدوات ومفاتيح الشفرة والكود فيطلق عليها حل الشفرة والكود .

وبالرغم من أنه لا يوجد خط محدد يفصل بين وسائل الشفرة ووسائل الكود من الزاوية النظرية ، فانه من الزاوية العملية الحديثة تؤيد الاختلافات الفنية بدرجة كبيرة تبرر ضرورة الفصل ، واعتبار كل منهما لها نوعيتها وطبيعتها الخاصة .

على أن بعض الكتاب أضاف نوعا ثالثا لذلك وهو ما يعرف بالكتابة السرية أو الخفية عن طريق استخدام الحبر السرى كما سيأتى شرحه فيما بعد

فى هذا الفصل ، أو الكتابة الميكروسكوبية كما سبق شرحه فى الفصل السادس عشر من هذا الجزء .

ولتسهيل هذا الموضوع المعقد فاننا سنتحدث أولا عن الكتابة بالحبر السرى ، على أن يلى ذلك الحديث عن استخدام الشفرة ، واضعين فى عين الاعتبار أن الوسائل التى سنتحدث عنها ليست الا نماذج وأنماط من تلك الوسائل العديدة التى تستخدم فى هذا المجال ، كما أننا سنناقش التطور التاريخى والفني لهذا الموضوع الحيوي .

الحبر السرى

ان استخدام الحبر السرى فى التراسل يعد فى الواقع مغامرة مع الوسائل العلمية التى تستطيع اليوم اظهار أى كتابة غير مرئية ، ذلك لأنه لا يمكن اطلاقا التأكد من أن قوات مكافحة الجاسوسية لا تتوافر لها الوسائل لاظهار أية كتابة غير مرئية ومعرفة ما فى الخطاب من أسرار .

وتبحث أغلب منظمات الجاسوسية باستمرار عن أنواع جديدة من الحبر غير المرئى ، ولكى تكون فى مأمن من الكشف عن مراسلاتها يجب أن تغير من مادة الحبر الذى يستخدمه أفرادها ، ذلك لأن الاستعمال الخاطىء للحبر أو للكود قد يكون فيه نهاية حياة الجاسوس ، ونهاية الشبكة التى يعمل فيها .

وتاريخ استخدام الحبر السرى قديم نسبيا ، استخدمه العملاء والجواسيس منذ الحرب العالمية الأولى ، وادخل العلم عليه تحسينات وتطورات سواء فى تركيب محلول الكتابة أو المظهر . ولكن بالرغم من ذلك ، فان منظمات المخابرات تستغل كل امكانياتها فى معركة الدهاء لاكتشاف أحبار جديدة لعملائها ، ومحاولة اكتشاف أحبار الخصوم .

ولكى نتصور هذا الاستخدام نعود إلى مساء يوم ١٦ أبريل من عام

١٩١٨ ، حيث كان رجال الأمن فى الولايات المتحدة يقتفون أثر تلميذة فى السادسة عشرة تحمل فى يدها صحيفة فى مدينة نيويورك . لم تكن الفتاة محل ريبة ، ولكن لما كان أحد أبناء عمومتها يشتبه فى أنه يعمل كجاسوس ، فقد اتجهت النية إلى مراقبة كل أفراد الأسرة .

وقبيل الغروب دخلت الفتاة احدى الكنائس وركعت لتؤدى الصلاة . وانصرفت بعد ذلك تاركة وراءها الصحيفة التى كانت فى يدها . ولاحظ أحد رجال الأمن وجود شخص آخر يصلى ، وهو رجل كبير السن أنيق الملبس . لم تبد اشارة تدل على معرفة الفتاة بالرجل ولكنه كان يحمل فى يده صحيفة أيضا ، وعندما نهض وبدأ ينصرف شوهد وهو يحمل الصحيفة التى تركتها الفتاة .

واقتفى رجال الأمن أثر الرجل المسن الذى استقل سيارة تاكسى حتى وصل إلى بنسلفانيا ، ثم استقل القطار حتى « لونج ايلاند » ، ودخل فندق « ناسو » الأنيق وجلس فى البهو ، وأخذ يدخن فى هدوء لمدة نصف ساعة . وعندما خرج العميل لاحظ رجال الأمن أنه لم يعد يحمل الصحيفة ، وبعد دقائق معدودات دخلت البهو فتاة شقراء أنيقة تحمل فى يدها بعض الصحف وبعض المجلات . وبعد أن تصفحتها نهضت لتخرج والتقطت الصحيفة الغامضة .

وتم القبض على الشقراء الحسناء ، ووجد أن الصحيفة كانت تحوى ٢٠,٠٠٠ دولار عبارة عن أجور الجواسيس والمخربين ، أما السيدة نفسها — ماريا فون كريتشمان — فكانت احدى مشاهير الجواسيس فى التاريخ . كان البوليس السرى البريطانى يجد فى البحث عنها ، وكانت قد وصلت إلى أمريكا قبل أن تدخل هذه الحرب ، وذلك لتنظيم عصابة من العملاء لشل المصانع الأمريكية وتدمير المنشآت الملاحية ونسف قناة بنما .

ووجد من بين الأشياء المضبوطة معها عدد من الأقلام الكروية لمطرف

والتى لم تكن شائعة فى تلك الأيام . كما وجدت « كوفيتان » من الحرير الأبيض عليها حبر سرى . وعندما كانت تريد ارسال رسالة سرية بالشفرة ، كان عليها أن تبلل احدى الكوفيتين بالماء وتكتب بالحبر الخاص على ورق خشن بأحد الأقلام سالفة الذكر . وتكتب على نفس الورقة رسالة عادية بالحبر بحيث تغطى سطور الرسالة السرية ، وبعد ذلك كان يستخدم أحد الأحماض لاظهار الكتابة السرية .

ويمكن استخدام كل أنواع السوائل كأحبار خفية بل يمكن استخدام أى سائل من حيوان أو نبات كعصير الفاكهة أو البول مثلا . وفى هذه الحالة يكون المظهر الضرورى هو الحرارة . فتوضع الورقة فوق مصباح أو شمعة أو فى وعاء على موقد أو تكوى بمكواة ساخنة عند ذلك تبدو الكتابة بنية اللون ، ويمكن استخدام بعض المواد الكيماوية بنفس الطريقة ، ويمكن استخدام كلوريد الأمونيوم « ملح النشادر » لكتابة الرسائل الخفية التى تظهر ذات لون أصفر عند تسخينها . وعند استخدام الحرارة لاظهار أى حبر سرى يجب أن تكون حريصاً حتى لا تصل النار إلى الورق .

وهناك بعض التركيبات الكيماوية الخاصة بالكتابة السرية التى تظهر عند تسخينها ثم تختفى بالتدريج حينما تبرد الورقة . فرسالة القرصان السرية فى قصة بو « الحشرة الذهبية » ، كانت مكتوبة بحبر مصنوع من اكسيد الكوبالت الذائب فى حامض النيتريك أو الهيدروليك ، وعندما تكتب بهذا المحلول تظهر الكتابة زرقاء اذا عرضتها للنار ثم تختفى اذا تنفست فيها .

وهناك أحبار أخرى لا ترى الا اذا عولجت الكتابة ببعض المواد الكيماوية . ويمكن عمل حبر مؤثر من سلفات الحديد عندما تذيب $\frac{1}{8}$ ملعقة شاى منه فى أوقية ماء . ويجب استخدام المحلول فى الحال . وفى هذه الحالة يكون المظهر هو صودا الغسيل أو كربونات الصودا . تذاب ملعقة شاى فى أربع أوقيات من الماء فى وعاء وتوضع الرسالة فى المحلول مع جعل وجهها إلى أسفل .

عند ذلك تظهر الكتابة زرقاء فى الحال وعندما تجف الورقة يصبح اللون بنيا . واذا استخدم بوتاسيوم حديد السيانيد بدلا من الصودا تصبح الكتابة ذات لون أزرق داكن . ولكن حديد السيانيد مادة سامة ولا يسهل الحصول عليها . ويمكن عمل حبر سرى بواسطة اذابة قرص أسبرين فى كحول ويمكن اظهار الرسالة بغمس قطعة من القطن فى كحول وتمريرها على الرسالة ، ومن الصعب أن تشتبه فى أسبرين وكحول من بين متاع العميل .

وتخفى الجواسيس أدوات حبرها السرى بطرق بارعة كثيرة . كانت « كوفية » ماريا دى فيكتوريكا الحريرية مثلا لذلك ، وبعض العملاء كانوا يخفون حبرهم المركز فى جواربهم أو رباطات عنقهم أو فى أزرارهم المكسوة بالقماش ، وبعض الأحبار كان يخفى على شكل عطور ، أو على شكل مطهر للفم أو معجون للأسنان . وكانت الخطابات المكتوبة بحبر خفى تغمس غالبا فى محلول الأمونيا ، وكان هذا يجعل سطح الورق ناصع البياض ويخفى آثار القلم .

وقد أخذت منظمات المخابرات فى العالم تبحث بجنون عن مادة تظهر كل الأحبار السرية ، حتى اكتشفوا فوائد بخار صبغة اليود . فكانوا يضعون الخطاب المشتبه به فى اناء زجاجى مملوء ببخار صبغة اليود . وكانت صبغة اليود التى تستقر تدريجياً على صفحة الورق تبين اذا كان قد حدث أن أثر حبر خفى فى ألياف الورق .

واذا كان بخار صبغة اليود قادرا على اظهار الكتابة السرية نتيجة استخدام أى سائل ، فيمكن والحالة هذه استخدام الماء كحبر سرى شأنه شأن أى محلول كيماوى . فاذا تم بسرعة تجفيف طبقة رقيقة من الحبر ، فان هذا يمكن أن يكشف الرسائل المكتوبة بالماء حيث تبدو الكتابة كما لو كانت مكتوبة باللون الأبيض على الورق المغطى بالحبر .

ويلجأ العملاء السريون إلى حيل كثيرة لاخفاء مكان كتابتهم السرية .

فأحيانا كانوا يكتبون رسائلهم فى الركن العلوى الأيمن للمظروف الذى كان يحوى خطابا بريئا ، وعلى كل من يبحث على الرسالة المكتوبة بالحبر السرى أن يعرض طابع البريد للبخار ليكشف الرسالة من تحته . وثمة حيلة أخرى كانت متبعة تصلح وهى أن يقوم الراسل بكتابة رسالة على الجانب الداخلى للمظروف .

ودعت الحاجة إلى الوصول إلى حيلة يستطيعون بها التغلب على استخدام صبغة اليود كمظهر للكتابة . ان بخار صبغة اليود يعمل لأنه يستقر على ألياف الورق التى زحزحت من مكانها الطبيعى ، ولذلك عمد الجواسيس إلى طريقة يتغلبون بها على خصومهم الكيماويين بأن بلّوا قطعة الورق وضغطوا عليها بمكواة ، وكانت النتيجة أن تعود الألياف إلى وضعها الأول ، وعند استقرار الصبغة على الورق فانها تستقر بالتساوى على كل السطح ، وقد اكتشفت بعد ذلك مادة كيماوية تستطيع أن تظهر أى كتابة سرية سواء بلت الورقة أو لم تبلل ، كويت أو لم تكو .

وابتكر الفرنسيون طريقة متقنة لاخفاء رسائلهم المكتوبة بالحبر السرى ، اذ كانوا يغسلون بعناية بيضة طازجة ليزيلوا الغشاء الطبيعى لها ويكتبوا الرسالة على القشرة بحبر سرى يمكن اظهاره بواسطة الحرارة . وعندما يمر الحبر فى المسام الموجودة على القشرة إلى الغشاء لا يترك أثرا ملحوظا على البيضة التى توضع بين عشرات غيرها من البيض . وكانت الفلاحة التى تحمل السلة إلى السوق تراقب البيضة الخاصة بعناية لتتأكد أنها بيعت للزبون الصحيح . يأخذ الجاسوس البيضة ، ويقشرها بعناية ويقرأ المعلومات المكتوبة على سطحها ويعطيها لزميله . وبعد أن يقرأها هذا يزيل الدليل بأن يأكلها . واذا فرض أن وقعت البيضة ذات الرسالة السرية فى يد شخص آخر غير المقصود ، فالمحتمل أن يكسرها ويتناولها دون أن يدرى شيئاً عما تحويه اذ لا يمكن أن تظهر الرسالة الا اذا غليت كثيرا .

وتعد السيجارة المكان المفضل لاخفاء الرسائل القصيرة . فتكتب الرسالة

على ورق رقيق بحبر عادى أو بحبر سرى لا يتأثر بالحرارة . وبعد ذلك تلف حول الجزء الآخر من السيجارة . ويمكن التخلص من هذا الجزء من السيجارة فى حالة الخطر بأن يشعل الشخص السيجارة مع حرصه على اشغالها من الجزء الذى يحوى الرسالة السرية وبعد أنفاس قليلة قوية يكون قد أعدم الدليل .

ويحاول الجاسوس فى الوقت الحاضر اخفاء الأحبار والمظهر فى زجاجات أدوية أو مواد عطرية لتضليل رجال الأمن .

ففى احدى قضايا التجسس التى كان المتهمون فيها يعملون ضد مصر لحساب اسرائيل ، ضبطت مع العميل الرئيسى أحبار سرية موضوعة فى زجاجات أدوية للأنف والاذن أو زجاجات لدهان الشعر أو أنبوبة أسنان وما شابه ذلك .

ولقد تبين من فحص الطبيب الشرعى أن ما فى الزجاجات لا يحوى ما هو مدون عليها ، أى أن جميع الزجاجات لا تحتوى على المركب الطبى الموضح عليها ، بل تحتوى على مواد أخرى ، فاتجه نظره إلى مسألة الأحبار السرية وتكوينها ، وبالتحليل عرف تكوين المواد وأصولها .

ولما كان الحبر السرى لا يمكن حصره فى دائرة واحدة ، إذ إنه متشعب ومختلف فى وسيلة الاستخدام ونوع المظهر الذى يحتاجه كل نوع من أنواع الأحبار . فإن عملية اكتشاف الكتابة تحتاج إلى دراية وخبرة لإيجاد المظهر المناسب لكل حالة .

والحبر السرى عبارة عن مادة تختفى بمجرد الكتابة وجفاف الحبر ، ويصعب على العين المجردة قراءتها ، كما أن الكتابة لها تعليمات خاصة ، إذ يجب ألا يضغط على الورق ، ولذلك يستخدم نوع من الورق الخاص .

وعادة ما يقوم الأخصائى الفنى الذى يجهز الحبر السرى بتحضير المظهر الخاص به بحيث لا يكون على العميل إلا التدريب فقط على طريقة الكتابة .

ومهما كان الأمر فإن استخدام الحبر يجب ألا يكون وسيلة رئيسية فى التراسل بين العملاء والمنظمات التى تعمل لحسابها ، إذ إن الوسائل الأخرى وخاصة الراديو قد سهلت كثيراً من عملية الاتصال .

الشفرة والرموز

لا تتوانى الحكومات فى العالم فى بذل جهود جبارة لاختزان أعمق أسرار الحكومات الأخرى والكشف عن الشفرة أو الكود التى تستخدمها والعمل على حل رموزها ومعرفة أسرارها .

ويقال إن كلمة شفرة مأخوذة من الكلمة العربية « صفر » كما أنها مرتبطة كذلك بالكلمة العبرية « ساذار » ومعناها رقم.

وفى الكتابة الرمزية يجب أن نميز بين اصطلاحين رئيسيين هما « الكود » و « الشفرة » .

فالكود عبارة عن كلمات أو مجموعة حروف أو رموز تختار لتمثل أو تعبر عن كلمات أخرى ، وفى هذه الطريقة قد يكون للكلمة الواحدة عدة معان ، أو قد تمثل عددا من الكلمات مركبة معا ، أو قد تعادل جملة كاملة أو فقرة كبيرة تبعا للنظام المستخدم .

أما فى الشفرة فيحل الرمز أو الحرف أو الرقم محل حرف آخر فى كلمة ، فمثلا الحرف « ب » أو الرقم « ١ » قد يحل محل الحرف « ج » أو أى حرف آخر . وفى الشفرات البسيطة يحل نفس الرمز محل نفس الحرف دائما . أما فى الشفرات المعقدة المستخدمة اليوم فيحل نفس الرمز محل حرف مختلف فى كل مرة . ويحدث أحيانا أن تكتب الرسالة بالكتابة السرية ثم توضع الأخيرة بالشفرة .

على أننا يجب أن نقرر منذ البداية أنه حتى الخمسينيات من هذا العصر ، لم نجد فى أى لغة تاريخاً مفصلا موثوقاً به وفى متناول النشر عن علم الكتابة السرية . وبالاضافة إلى ذلك فانه نتيجة لستار السرية التى تغشى الأعمال الرسمية لهذا العلم فان التقارير الدقيقة عن الأحداث التاريخية الهامة لهذا الموضوع ، وكذا الاختراعات التى تستحق الاعتبار ، كذا التحسينات التى أدخلت عليها لخدمة هذا العلم ، قد ظهرت فقط فى الدوائر العامة بعد سنين طويلة من ظهور هذه التقارير أو الاختراعات . ولذا فانه بالرغم من صعوبة التأكيد بثقة عن أصل أى حقيقة أو أداة استخدمت فى هذا العلم ، فاننا يجب أن نعود بأى معلومات عنه إلى الوراء بقدر ما تسمح به التسجيلات والتقارير الموثوق بها .

وفى حدود هذا التحفظ ، فاننا نستطيع أن نقول أن الوسائل السرية للتراسل والمواصلات قد استخدمت منذ تاريخ مفحم فى القدم ، اذ إن الرغبة فى الحاجة إلى اتصالات سرية كانت بلا نزاع موجودة منذ قدم بداية استخدام الكتابة .

ومع جواز افتراض ان الكتابة السرية استخدمت بواسطة الشعوب القديمة ، فان هذا الافتراض قد ثبت بالنسبة لقدماء المصريين وذلك بعد دراسات اللغة الهيروغليفية التى بدأها شامبليون ، ثم أتمها من بعده دارسون آخرون على فترات متفرقة بلغت ذروتها عام ١٩٣٢ م ، ولقد كشفت هذه الدراسات عن استخدام المصريين القدماء لثلاثة أنواع من الكتابة السرية .

كما استخدم اليهود القدامى الكتابة السرية فمثلا كتب النبى « ارميا » كلمة « أشسياس» بدلا من كلمة « بابل » لاخفاء الهدف أو القصد من النبوءة التى ذكرها ، كما استخدم طريقة تغيير أوضاع أحرف الهجاء العبرية فى الشفرة التى استخدمها فوضع حرف « دالت » مكان حرف « اليف » وحرف

« هيه » بدلا من الحرف « بايت » وحرف « قاف » مكان حرف « جيطل » ، وبهذا وضع الحرف الثاني والثانى عشر فى بدايتهما فى الترتيب العادي ، مع اضافة الحرف الثالث فى الترتيب الأصلى لأحرف الهجاء العبرية إلىٰ جانب كل حرف من الجملة الأصلية .

واستخدم الاغريق الكتابة السرية فى صياغة معاهداتهم ، واخفاء رسائلهم ، وتحوى الوثائق الاغريقية القديمة عدة من الوثائق المكتوبة بالشفرة ، وقد وجد أن أحد حروف الشفرة التى استخدمت ترجع إلىٰ القرن التاسع ق . م .

وبالرغم من ندرة وثائق الرومان التى استخدمت الشفرة ، الا أنه من المؤكد أن الرومان استخدموا أعمال الشفرة ، وهناك دلائل عدة على أن قيصر واغوسطس استخدما الشفرة .

وفى العصور الوسطى استخدمت الكتابة السرية فى الفترة من عام ٤٥٠ م إلى عام ١٤٥٠ م مرتبطة مع علمى السيمياء والتنجيم المخادعين ، وترجع أساليب استخدام الشفرة فى هذه العصور إلى أنظمة الشفرة التى استخدمها الامبراطور الرومانى اغوسطس ، التى كانت عبارة عن مجرد وضع مكان كل حرف الحرف الذى يليه فى ترتيب الحروف الابجدية العادية ، وفى أغلب الأحيان فان حروف معينة هى التى كانت تستبدل فقط ، كما كانت فى بعض الأحيان تستبدل الحروف المتحركة فقط .

على أن بداية الكتابة المصرية الحديثة يمكن أن ننسبها بصدق إلى ايطاليا مسقط رأس الدبلوماسية الحديثة ، والواقع أن كثيرا من حروف الشفرة الأبجدية قد جاءت الينا من الرسائل الباباوية ، وكذا من الرسائل المتبادلة بين جمهوريات ايطاليا القديمة فقد استخدمت الشفرة فى جمهورية البندقية منذ عام ١٢٢٦ م ، وفى « مانتو » و « مودنا » منذ عام ١٣٠٥ ، وفى كل من فلورنس وسبينا وبيزا وميلانو قبل عام ١٤٥٠ م .

ولكن منذ عام ١٥٠٠ م ، كانت عمليات الكتابة السرية قد نظمت على

أساس فعّال اذ ابتكرت أنظمة شفرية جديدة ، كما أعدت معاجم للكتابة السرية لتحل محل الأساليب القديمة ، ويعد أهم عمل من أعمال الشفرة التى ظهرت فى ذلك الوقت ولا تزال باقية حتى الآن هذا الكتاب اليدوى أو تلك المجموعة المصنفة للشفرات ، التى استخدمها حوالى عام ١٣٧٩ م « جبريل دى لافند اوف بارما » « Gabriel de Lavind of Borma » ولا تزال هـــذه المجموعة محفوظة فى أرشيف الفاتيكان .

كانت الحروف المكشوفة فى هذه الشفرات تمثل بحروف تحكمية ، ولم يكن ثمة اختلاف بين الحروف المتحركة والحروف الساكنة وذلك من ناحية عدد أرقام الشفرة الممثلة لها .

وفى عام ١٤٠٠ م ، أصبح واضحا أنه من المحتم أن يكون لكل حرف متحرك أكثر من حرف شفرى يعادله ، وهناك سجل محفوظ لنظام شفرة يتضمن تسلسلاً معكوساً لحروف أبجدية مضافا اليها ثلاثة رموز متباينة لتستخدم عند تشفير كل حرف متحرك .

لا جرم أن القرن الخامس عشر شاهد تطوراً كبيراً فى الكتابة السرية الايطالية ، إلى الحد الذى أصبح من المستطاع استخدام من ثلاثة إلى ستة حروف مختلفة لتمثل حرفا واحدا من الحروف الهجائية ، ويرجع الفضل فى ذلك إلى « الويز ميستز » .

على أن أول عمل كامل للشفرة ، أو بمعنى أكثر تفصيلا أول عمل للشفرة تضمن رموزا تحكمية لكل حرف من الحروف الساكنة ، ورموزا متباينة اخرى للحروف المتحركة ، ظهر فى شفرة فينيسية قام بها لويجى باشيتى عام ١٤١٠ م .

وفى منتصف القرن الخامس عشر ، توسع المحتوى ووصلت المسميات إلى درجة من التطور والاستخدام التجريبى ، مما جعلها تصلح لقرون عدة كنموذج للسجلات الدبلوماسية التى تستخدم تقريبا بواسطة كل الحكومات

الاوروبية ، ومعظم الجمهوريات النامية فى نصف الكرة الغربى .

وقبل استمرارنا فى سرد أنظمة الكتابة السرية من هذا النوع ، يجدر بنا أن نوجه الانتباه إلى ابتكار وتطور نظام آخر للكتابة السرية نشأ أصلا بابتكارات بسيطة منذ القدم ، وأخذ يتطور حتى وصل إلى ذروته خلال القرن السادس عشر حيث أطلق عليه اسم « الشفرة التى لا تحل » Chiffres indéchiffrables وهى التى يشار اليها بشفرة « فيجنير » Viganère ، كما سيجىء شرحها فى هذا الفصل .

حقا ان التاريخ ملىء بقصص الممالك والجيوش والشعوب التى دمرت نتيجة هذا المرض القاتل ، والقصة التى تتردد من آن لآخر هى نفس القصة : لم تكن الكتابة السرية على درجة كافية من السرية ، فاستطاع العدو أن يكشف الغطاء عن سريتها .

كانت أغلب الشفرات فى التاريخ — كما رأينا — عبارة عن ابدالات بسيطة ، مثل تلك الشفرة التى استخدمها اغوسطوس ، حين وضع مكان كل حرف الحرف الذى يليه . ويوجد مثل للابدال فى الانجيل . فعندما أراد جريميا أن يحتفظ بكلمة « بابل » سرية فى احدى تنبؤاته استخدم الحروف التى تكوّن كتابة كلمة « بابل » فكانت الكلمة Sheshacho .

على أن هناك عيباً واحداً فى عملية الابدال البسيطة وهى أنها من البساطة لدرجة تفقدها سلامتها ، ولا يجب أن تستخدم مثل هذه الطريقة الخاصة بالكتابة السرية عند ارسال رسالة هامة ، ان حلها فى مقدور أى شخص يتوفر له الوقت لحلها .

ولا تستطيع شفرة الابدال البسيطة أن تخفى المعلومات الحيوية ، وكما يقول ادجار الان بو فى قصته « الحشرة الذهبية » : ان المرء لا يحتاج أن يعرف أكثر من أن أكثر الحروف ترددا فى اللغة الانجليزية هو حرف « E » ويلى ذلك على التوالى O ثم A ثم N ثم I ثم R ثم S ثم H ثم B ثم L ثم F .

وفى الأيام الأولى من الحرب العالمية الاولى كان موضع الشفرة لا يؤخذ بجدية هامة، فمثلا كان فيليب الثانى ملك اسبانيا المتعالي الذي أرسل « الارمادا » لتحطيم انجلترا ، بعد أن أمرت الملكة اليزابيت الاولى باعدام مارى ملكة اسكتلنده ، لا يؤمن بامكان حل الكتابة السرية . وكان يتصل بامبراطوريته الشاسعة — التى كانت تضم إلى جانب اسبانيا كلاً من هولندا وبلجيكا وجزءاً من ايطاليا ومعظم أمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية — باستخدام شفرة يستعمل فيها خمسمائة رمز محل حروف الأبجدية .

ووقعت بعض الرسائل المكتوبة بهذه الشفرة فى يد هنرى الرابع ملك فرنسا الذى حولها بدوره إلى أحد مستشاريه — فرانسوا فيت العالم الرياضى الشهير — واستطاع فيت أن يحل الشفرة ، وأن يقرأ الرسائل التى كتبت بها . وبذلك ظل الفرنسيون طيلة عامين يقرأون كل الوثائق الاسبانية التى كانت تقع فى أيديهم . وبعد أن يلموا بمضمون الرسالة كان الفرنسيون يسمحون لها بأن تمضى فى طريقها سواء إلى أسبانيا أو منها .

وعندما علم فيليب الثانى أن « فيت » قد استطاع حل رموز شفرته طلب أن يقدم العالم الرياضى أمام المحكمة البابوية بتهمة استخدام السحر الاسود والاتصال بالشيطان . وجاء فى كلام فيليب : كيف يمكن لأي شخص أن يقرأ شفرته المعقدة الا بتحضير أرواح الموتى الذين كانوا يستخدمونها فى حياتهم ؟ .

كانت هذه هى السمعة الملتصقة بمن يعملون فى تحليل الكتابات السرية . وحدث قبل ذلك بقرن من الزمان أن نشر جوهان ترمينيس أول كتاب عن الكتابة السرية ، وكانت النتيجة أن أحرق الكتاب علنا على أنه ضرب من السحر. أما مؤلف الكتاب فقد أسعده الحظ فنجا من أن يكون مصيره مصير كتابه .

ونتيجة لطلب الملك فيليب الثانى عين البابا لجنة من الكاردينالات وأوصى توصية عاجلة بالتحقيق فى نشاط فيت . ومما لا شك فيه أن البابا كان يعرف

عن الكتابة السرية أكثر مما كان يعرف ملك أسبانيا ، كما كان يتمتع بروح الفكاهة أيضا . وعلى كل حال لم يتم التحقيق حتى اليوم . بل وليس من المحتمل أن تقدم القضية إلى المحاكمة .

عواقب الاهمال

وحتى فى الولايات المتحدة كان موضوع استخدام الشفرة من الأمور التى لم تلق اهتماما من الحكومة الأمريكية مما كان له عواقب وخيمة .

ففى أيام عام ١٩١٢ الهادئة كان للولايات المتحدة سفير فى رومانيا وهو سياسى ناجح خدمه حزبه فى الغرب ، وكوفىء على نجاحه بأن أوفد كسفير لبلاده فى بوخارست . ولما كان حديث عهد بالعمل فى هذا السلك ، كانت الكتابة السرية والشفرات لا تعنى كثيرا بالنسبة له . وكان نظام الولايات المتحدة الأساسى فى ذلك الوقت قائما على كتاب خاص بالكتابة السرية . وكانت النظرية التى يستند اليها استخدام الكتاب نظرية ساذجة ، تعتمد على أنه اذا كانت هناك ست أو سبع كلمات لأدى ذلك إلى ارباك العدو ، وتعجيزه عن فهم أين تبدأ وأين تنهى جمل الرسائل .

وعلى كل حال سافر السفير إلى رومانيا وبصحبته « الكتاب السرى » فى ظرف كبير مختوم حتى وصل بأمان إلى بوخارست . وكان المفروض أن يودع الكتاب في خزانة السفارة الوحيدة ، ولكن لم يكن حفظ تركيبات فتح الخزائن من هوايات السفير ، ولذلك وجد ان فى وضع الكتاب تحت مرتبة سريره أكثر راحة له . وظل فى مكانه فترة من الزمن ، وفى يوم من الأيام اختفى الكتاب ، والمعتقد أنه وجد طريقه إلى بترو غراد .

ووجد السفير الجديد نفسه فى مأزق شديد ولكنه وجد له حلا قد ينم عن مهارة كبرى . كانت حركة البرقيات السرية المرسلة إلى بوخارست فى هذه الأيام خفيفة معظمها خاص بموضوع المهاجرين فى رومانيا وبسارابيا

إلى الولايات المتحدة . ولذلك حينما كان يتجمع لدى السفير الجديد ست أو سبع رسائل كان يستقل القطار إلى فيينا حيث يقوم بزيارة السفير هناك . وفى خلال المناقشة يقوم الزائر من بوخارست بابداء ملاحظة فحواها أنه وهو على وشك مغادرة بوخارست تلقى بعض الرسائل التى لم يتسع وقته لحل رموزها ، ويطلب استعارة كتاب السفير الخاص بالشفرة حيث كانت حكومة الولايات المتحدة تستخدم نفس الكتاب فى كل بعثاتها الدبلوماسية . وهكذا كان يقوم سفير بوخارست بفك رموز هذه الرسائل واعداد الردود اللازمة بعد أن يحولها إلى شفرة ، ثم يستقل القطار عائدا إلى بوخارست ، وبعد ذلك يرسل من هناك ردود الرسائل على دفعات متفاوتة . وظل كل شيء يسير على هذا المنوال الهادىء فترة من الزمن ، وظل سر فقد الكتاب مخفياً حتى أغسطس عام ١٩١٤ ، عندما وصل سيل من الرسائل من واشنطن نتيجة لتطور الأحداث التى أدت إلى الحرب العالمية الاولى . وكان موقف السفير يستحق الرثاء حيث لم تعد تجدى الرحلات إلى فيينا ، ولقد اعترف السفير بخطئه وعاد مرة أخرى للعمل فى السياسة الأمريكية .

وقد يحدث أن تؤدى العمليات العسكرية المبنية على كشف الشفرة الخاصة بالعدو إلى أن يتخذ الحذر ، فمثلا لاحظ الالمان أن مواقع غواصاتهم كثيرا ما كانت تعرف ويقتفى أثرها ، فلم يكن من الصعب عليهم أن يفمهوا أن رسائلهم إلى أسطولهم تحت الماء كانت تقرأ . وكانت النتيجة أن غيروا كل أنظمة كتابة رسائلهم فى الحال . وهناك كانت المشكلة قائمة وتنحصر فى كيفية التصرف إذا ما وصلت معلومات بهذا المعنى . وهناك دائما المخاطرة بانهاء خدمة المصدر بقصد الحصول على كسب عسكرى أو دبلوماسي مباشر ، أو الاستمرار فى جمع معلومات تحركات العدو وأعمال بقصد الحاق أكبر ضرر به .

وفى أى من الحالتين تبذل محاولة لحماية المصدر الحقيقى والاحتفاظ به وذلك عن طريق اعطاء العدو معلومات زائفة تشير إلى أن هناك مصدراً آخر .

الغرفة السوداء

فى أثناء الحرب العالمية الأولى بدأت الحكومة الأمريكية من لا شيء تنشيء منظمة قوية لحل الرموز والشفرة الخاصة بالعدو . وقد أطلق الكولونيل هاربرت ياردلى — رئيسها — على الجهاز الجديد اسم « الغرفة الأمريكية السوداء » لأن مكتب الكاتبات السرية الفرنسى يطلق عليه نفس الاسم ، وحول ياردلى بعد الحرب اهتمامه إلى الرموز والشفرات الدبلوماسية الخاصة بالبلاد الاخرى ، وتمكن هو ومعاونوه من حل رموز الشفرة اليابانية .

واللغة اليابانية لغة فريدة من نوعها . وهى وان كانت كاللغة الصينية تكتب حروفها كأشكال بالفرشاة ، الا أنه يمكن كتابتها بالرموز الصوتية كأبجدية الحروف اللاتينية بحيث يعبر كل رمز عن مقطع لا عن صوت . ولذلك يمكن استخدام كتاب رموز صغيرة نسبيا ليعبر عن كل شيء فى اللغة اليابانية فيما عدا أسماء الأشخاص .

وقد وفق ياردلى وزملاؤه فى حل رموز اللغة اليابانية أيما توفيق ، وخاصة اذا أخذنا فى الاعتبار أن ياردلى لم يكن يتكلم اليابانية . ففى ٢٨ نوفمبر عام ١٩٢١ بينما كان مؤتمر واشنطن البحرى منعقدا ، وصلت رسالة بالشفرة من الحكومة اليابانية إلى الأمير توكوجاوا « ممثل الحكومة فى المفاوضات » ، وأمكن للحكومة الأمريكية أن تحصل عليها فحولت نصها إلى ياردلى وغرفته السوداء . وفيما يلي نص هذه الرسالة بالشفرة :

Nov. 28, 1921

KOSHI WASHINGTON URGENT 0073 VRXPM DVZOORUPUH UTELETAMME

F U I N O F R I D Y
U X O Y S L A Z I J
N H U L E A D R Y
A B K I A B O K I J
U L E S A M A M A D
Z Y L I N Y R U O D
H V A D A Z E T E D
E H O B B O M U R E
A M O W I N O K N Y
E H E C D Y I Z N Y
O B A Z E B E I P U
A K E D A B U L U Z
H O A D A Z E M D A
U P O F E H I J U Y
I Z O X N Y F O U K
N Y V Y C C I D K O
E T U P I H M S K U
V Y H I M U R E A M
M U M O K E A D L E
R O V E I V E X A Z
I D H O U G E X A Z

U X I T U P U P E X
O K I C U M A Z I J
E C U L V O I D A D
I D J A Y E O K I G
U L E T E F O K A B
U P A K O T L E E S
U P E D A S U L U G
A M A M O U O K K O
R U E Y U P A K M U
B E U P E X V E V Y
E F A X E N A F H O
C U M U E N X A R O
J A V Y E C I D K
J A O P L E K O L E
E N F A I P M O V U
I D E W E M Y E E R
V E E V O F U P E K
A M E W E X A D I Z
X A E N A C O Y E G
A M O W Y Z D Y J A
A M I D E L F O M E

S T U P E S B Y U Z
T H E V E U R O K U I
J A E D U H P I I D
V Y O D R O X O M O
O F O K K O O A P
E X E F A X E N A F
F E M Y A C V Y H E
R O V E I V E X A
D O D O J A B A I Y
P A N Y C E O Y O R
A D O X V Y V E I D
D O H O A D E N A F
A Z U L A V N Y E T
O K I N E T U P B E
A Z I J A H I F V Y
E C F I U P A N C E
E N T U O L X A A C
E N T E E D B U D O
O K E S O B I D K O
C A E D K E D D I N
U C H I D A

وقد نجح ياردلى فى فلك رموزه . وفيما يلى ترجمة هذه الرسالة وهى عبارة عن تعليمات الحكومة اليابانية لمندوبيها فى المؤتمر البحرى بواشنطون :

من طوكيو

إلى واشنطون

مؤتمر رقم ١٣ ٢٨ نوفمبر ١٩٢١

سرى

بالاشارة إلى برقيتكم رقم ٧٤ نحن متفقون معكم فى الرأى بأن من الضرورى تجنب أى صدام مع بريطانيا العظمى وأمريكا . بالنسبة لموضوع تحديد السلاح يجب أن تبذلوا قصارى جهدكم لتقفوا موقفا وسطا وتضاعفوا جهودكم لتنفيذ سياستنا .

وفى حالة الضرورة التى لا مفر منها يجب أن تعملوا طبقا لاقتراحكم الثانى من ١٠ إلى ٦,٥ . واذا كان من الضرورى – بالرغم من قصارى جهدكم بالنسبة للموقف ولمصلحة السياسة العامة أن ترجعوا إلى اقتراحكم رقم ٣ . يجب أن تحاولوا تحديد قوة التركيز والمناورة فى الباسفيك بأخذ ضمان لتخفيض أو على الأقل للاحتفاظ بالوضع الراهن للدفاع الخاص بالباسفيك وأن تتخذوا التحفظات المناسبة التى توضح أن هذه هى نيتنا للموافقة على النسبة ١٠ : ٦ .

أما رقم ٤ فيجب أن تتجنبوه قدر الامكان .

* * *

ولقد أدت هذه الوريقة باليابان إلى أن تصبح دولة بحرية من الدرجة الثانية .

وبذلك تمكن خبراء المكاتبات السرية الأمريكية أن يبلغوا وفد الولايات المتحدة فى المؤتمر على وجه الدقة بالتعليمات التى أرسلتها الحكومة اليابانية إلى مفاوضيها ، والمدى الذى يمكن أن تدفع اليابان اليه لتوافق على أن تكون

بحريتها أقل من بحرية كل من بريطانيا العظمى والولايات المتحدة . ولقد كشفت البرقية الشفرية على أن اليابانيين — اذا ضغط عليهم بشدة كافية — سوف يوافقون على مضض على أن يبنوا ثلاث سفن حربية لكل خمس سفن تبنيها كل من الولايات المتحدة وانجلترا . وكانت هذه المعلومات كل ما كان يحتاجه المفاوضون الأمريكيون والبريطانيون العنيدون ليجعلوا مركز اليابان ثانويا .

وبعد سبع سنوات ولتأثر أمريكا بروح نزع السلاح العالمية وبالمعدات التى تعاهدت فيها الدول أن لا تلجأ إلى الحرب ، قررت الحكومة الأمريكية أن تحل ادارة المكاتبات السرية ، وتبطل قراءة مراسلات الدول الأخرى السرية كلية . عند ذلك وجد كولونيل ياردلى نفسه بلا عمل . فحول مواهبه إلى تأليف كتابه « الغرفة الأمريكية السوداء » الذى روى فيه القصة الكاملة لنجاح أمريكا فى مجال تحليل المكاتبات السرية ، وتضمن ذلك قصة المؤتمر البحرى بواشنطن . ولقد أضر نشر هذا الكتاب بالولايات المتحدة ، وكلفها بطريقة غير مباشرة حياة كثير من الأمريكيين .

لقد أغضب نشر كتاب « الغرفة الأمريكية السوداء » اليابانيين كثيرا لدرجة أن سقطت حكومة طوكيو واجتاحت البلاد موجة من العداوة لأمريكا لم تكن الدولتان قد وقفتا من بعضهما موقف العداء ، وكان موقفهما وديا أثناء مؤتمر نزع السلاح . وأعلن العسكريون اليابانيون أنهم لا يريدون أن يشتركوا فى معاهدات تشوبها الحيل لتحديد حجم بحريتهم ، وبدأوا يبنون السفن التى قاتلت ضد الولايات المتحدة فى الحرب العالمية الثانية ، كان بعض هذه السفن — مثل « ياماتو » و « موساشى » — من أكبر السفن الحربية التى بنتها أية دولة فى العالم . وبازدياد حدة التوتر فى الفترة السابقة للحرب من ١٩٢٣ حتى عام ١٩٤١ — عادت الولايات المتحدة بهدوء إلى انشاء منظمة تحوى قسما لفك رموز شفرات الدول المعادية القوية . وهذه المنظمة هى التى

يطلق عليها الآن « وكالة الأمن القومى » ، وقد أنشئت فى شكلها الحالى طبقا لمرسوم من الرئيس الأمريكى فى عام ١٩٥٢ . ويقول العاملون فيها ان هذه الحروف الثلاثة « National Security Agency « NSA » » معناها أيضا : Never Say Anything أى « لا تقل شيئا » .

وفى الحرب العالمية الثانية كان خبراء حل الرموز الشفرية يطلقون على أنفسهم اسما رمزيا هو « سحر » Magic ، وفعلا كان عملهم — كما كان عمل فيت الفرنسي — يبدو كما لو كان سحرا . وعندما ظهر لبعض رجال الكونجرس أن هذا الجهاز « ماجيك » هو الذى زود الحكومة بالمعلومات التى كان يمكن أن تمنع الكارثة فى بيرل هاربور قامت احدى اللجان فأعلنت الموضوع كله . ولولا التحقيق الذى أجرى لظل المعروف عن دور هذا الجهاز غامضا . لقد أظهرت تحريات رجال الكونجرس أن خبراء الأمريكيين والبريطانيين كانوا وثيقى التعاون مع بعضهم ، ولقد استطاعوا معا حل الرموز التى كان الملحقون العسكريون اليابانيون يستخدمونها فى جميع أنحاء العالم .

ولسوء الحظ لم يكن هناك تنسيق بين منظمات المخابرات الأمريكية المختلفة . ولجهل عملاء مكتب الخدمات الاستراتيجية — سلف المخابرات المركزية — « ماجيك » فقد اقتحموا البعثة اليابانية فى لشبونة وسرقوا نسخة من نفس كتاب الرموز التى حصلت عليه تلك المنظمة منذ مدة ، ولخيبة أمل الأمريكيين والبريطانيين أوقفت الحكومة اليابانية فجأة استخدام الرموز المسروقة

كانت هذه الغارة التى شنها مكتب الخدمات الاستراتيجية سببا فى توقف مصدر من مصادر معلومات الحلفاء فى الحرب العالمية الثانية . وصدر أمر فى الحال لكل أجهزة الحلفاء الخاصة بالجاسوسية والجاسوسية المضادة بعدم الاقدام على سرقة رموز دون الحصول على ترخيص سابق ، وأى عميل

يعثر على كتاب رموز عند دخوله أى مكتب من مكاتب الأعداء ، يجب أن يحاول أن يمحو أى دليل على أن أحدا قد دخل المكتب وينتظر أوامر أخرى .

كذلك ألقى الضوء على تعاون الحلفاء أو عدم تعاونهم عندما قامت لجنة اخرى من الكونجرس بالتحقيق فى تجسس الشيوعيين فى الولايات المتحدة . وبالرغم من أن أمريكا والسوفييت كانا حلفاء فى الحرب العالمية الثانية ، الا أن السوفييت كانوا يحتفظون بشبكة نشطة من الجواسيس قبل الحرب وأثناء الحرب وبعد الحرب . وعندما وقفت اليزابيث بنتلى — التى اعترفت صراحة بأنها خدمت السوفييت كجاسوسة لهم فى وزارة الخارجية الأمريكية — فى المحكمة لتدلى كيف كانت ترسل المعلومات إلى الشيوعيين ، قالت أنها سبق أن حذرت السوفييت قرب نهاية الحرب بأن منظمة « Magic » كانت على وشك أن تكشف محتويات بعض رسائلهم السرية . وبطبيعة الحال أراد رؤساؤها الشيوعيون أن يعرفوا أي رموز أو أي شفرة توصل الأمريكيون إلى حلها ، ولكنها لم تستطع معرفة ذلك .

برقية زيمرمان

ومن بين الضربات الكبرى التى تمت فى ميدان رسائل المخابرات قيام البريطانيين بفك رموز ما يسمى ببرقية زيمرمان فى يناير عام ١٩١٧ ، وذلك عندما كانت الولايات المتحدة على وشك الدخول فى الحرب العالمية الأولى . وقد قام بهذه العملية خبراء الحجرة رقم ٤٠ التى كانت تطلق على الادارة البحرية الخاصة بفك رموز الشفرات . وكانت الرسالة موجهة من زيمرمان وزير الخارجية الألمانية إلى السفير الألمانى فى مدينة المكسيك ، وأوجزت الرسالة الخطة الألمانية الخاصة باستئناف حرب لا حدود لها بواسطة الغواصات فى أول فبراير عام ١٩١٧ ، وان هذا ربما يؤدى إلى دخول الولايات المتحدة الحرب . واقترحت الرسالة أن تدخل المكسيك الحرب إلى جانب ألمانيا، وعند النصر تستطيع أن تستعيد أراضيها التى فقدتها فى تكساس ونيو مكسيكووأريزونا.

وظلت هذه الرسالة فى يد الأدميرال هول — وهو رئيس المخابرات البريطانية البحرية الاسطورى — مدة أكثر من شهر بعد تسليمها . كانت المشكلة التى أمامه هى كيف يمكنه أن يوصل محتوياتها إلى الأمريكيين بحيث يقتنعون بحقيقتها ، وبحيث لا يعرف الألمان أن البريطانيين قد كشفوا شفراتهم . وأخيرا اضطرت ظروف الحرب لورد بالفور — وزير الخارجية البريطانى — أن يبلغ رسالة زيمرمان رسميا إلى السفير الأمريكى فى لندن . وتلقت واشنطن الرسالة فى كل من البيت الأبيض ووزارة الخارجية بضجة كبرى ، كما خلقت هذه الرسالة مشكلة أمام حكومة الولايات المتحدة : كيف يمكن التحقق بما لا يدع مجالا للشك عن صحة الرسالة أو كيف يمكن اعلانها دون أن تبدو على أنها مجرد ذريعة أنجلو أمريكية لادخال أمريكا الحرب ؟ .

وتعقد الموقف عندما استخدم الألمان امكانيات السلك الدبلوماسى الأمريكى لارسال رسالة إلى سفيرهم فى واشنطن — الكونت برنستورف — ، ثم نقلها الأخير وأعاد ارسالها إلى مكسيكو سيتى .

ولقد كان الرئيس ويلسون قد سمح للألمان بحق استخدام خطوط مواصلات أمريكا الممتدة بين أوروبا وأمريكا ، على اعتبار أن تكون هذه الرسائل لنقل مقترحات السلام التى كانت تهم ويلسون .

ومما زاد فى أسى الرئيس ويلسون أن اكتشف الغرض الذى استخدم فيه الألمان عرضه . ومع ذلك فقد أسفرت التنظيمات الغربية عن فوائد جمة . فأولا كان معنى ذلك أن وزارة الخارجية الأمريكية كان لديها نسخة من برقية زيمرمان بالشفرة ، والتى حولتها إلى برنستورف دون أن يدرى بمضمونها الملتهب وبعد أن تم التعرف على النص الشفرى ، أرسل إلى سفارة الولايات المتحدة فى لندن حيث قام أحد رجال الأدميرال هول بفك رموزها فى حضور مندوب السفارة ، وهكذا تم التحقيق فى محتوياتها بما لا يدعو إلى الشك .. أما الفائدة الثانية فتكمن فى أن الحقيقة التى تقول أن النسخ المفكوك

رموزها من البرقية قد شاهدها الدبلوماسيون الألمان فى كل من واشنطن ومكسيكو سيتى ، وقد ساعدت على حل المشكلة العويصة التى أقضت مضجع الأدميرال هول ، ألا وهى التمويه على الألمان بشأن المصدر الذى حصلت الولايات المتحدة منه على الرسالة . وفى نهاية الأمر فهم الألمان أن الرسالة تسربت نتيجة اهمال أو سرقة فى احدى السفارات الألمانية أو أحد المكاتب المكسيكية التى كانت قد وصلتها النسخ منها . وعلى ذلك استمروا فى استعمال نفس الرموز مما أثبت أنه كان ينقصهم لحسن الحظ الخيال السليم . وفى أول مارس عام ١٩١٧ أعلنت وزارة الخارجية محتويات البرقية عن طريق الاسوشيتدبرس ، وكان وقعها على الجمهور الأمريكى كانفجار القنبلة ، وفى أبريل أعلنت الولايات المتحدة الحرب على ألمانيا .

أهمية أمن الرسائل

وفى عام ١٩٦٠ تحطم بقسوة ذلك الحلم الذى كان يراود الولايات المتحدة بأن تجعل نسبة الأمان فى أجهزة المكاتبات السرية مائة فى المائة ، فقد كان هناك شابان متخصصان فى الرياضيات هما وليام مارتن وفيرنون ميتشيل يعملان فى وكالة المخابرات المركزية ثم ذهبا لقضاء الاجازة فى المكسيك ، ولكنهما غادرا الفندق خلسة ويمما شطر كوبا حيث استقلا غواصة روسية . ولم نسمع عنهما بعد ذلك الا وهما فى روسيا يطلبون التجنس بالجنسية الروسية ، ويصيحان بأعلى صوتيهما أن أمريكا تحاول أن تقرأ كل الرسائل السرية الخاصة بالدول الصديقة ، ومما لا شك فيه أنهما ألحقا بأمريكا ضررا بليغا .

وحدث بعد هروب مارتن وميتشيل ما هو أسوأ ، ففى مايو عام ١٩٦٠ ألغى السوفييت فجأة اجتماع مؤتمر القمة لأنهم كانوا قد نجحوا فى اسقاط طائرة استطلاع أمريكية كانت تطير فوق قلب الاتحاد السوفييتى ، ولم يكن

الشعب الأمريكي يعرف شيئا عن وجود الطائرة « U2 » ذات الأجنحة العريضة التى تستطيع أن تطير على ارتفاع غير معقول « ٦٨,٠٠٠ قدما » ولمسافة آلاف الأميال . ويقال أن ثمة عملية تخريب هى التى أفسدت جهاز الاكسجين الخاص بالطائرة المنكوبة مما اضطرها إلى الهبوط إلى ارتفاع ٣٠,٠٠٠ قدم حيث أصبحت هدفا سهلا نسبيا للصواريخ الروسية . وهناك نظرية أخرى تقول أن السوفييت صنعوا سرا طائرة تطير على ارتفاع كبير هى التى أسقطت الطائرة

ولم يستأنف بعد ذلك الطيران بالطائرات « U2 » التى كان بين مهامها — بالاضافة إلى عملية تصوير المناطق الواسعة التى لا يمكن الوصول اليها — تسجيل اذاعات الراديو الروسية سواء باللغة العـــادية أو بالشفرة ، وكانت الأشرطة ترسل إلى وكالة الأمن القومى ، ومن المحتمل أن تكون الوكالة مهتمة بدراسة أخبار سفن الفضاء .

ولا يمكن أن نحكم على قيمة المعلومات السرية ما لم يكن لدي الدولة العزيمة والقوة للاستفادة منها . لقد استخدمت أمريكا عمل « كولونيل ياردلى » واستفادت منه فى عام ١٩٢٢ ، ولكن منظمة « ماجيك » فشلت فى منع الهجوم المفاجىء الذى شنه اليابانيون على بيرل هاربور .

وبعد بيرل هاربور استطاعت الولايات المتحدة مرة أخرى أن تقوم بعمل حاسم ، فبعد ستة شهور تمكن الأمريكيون من اغراق أربعة من حاملات الطائرات التى هاجمت بيرل هاربور عند ميدواى . ومن المعلومات المستندة على الرسائل اليابانية كان قادة البحرية الأمريكية على ثقة من أن الهجوم الرئيسي سيكون عند ميدواى ، وقد أرسل اليابانيون قوة لضرب واتسن هاربور بالقنابل أملا فى تحويل أنظارهم إلى ألاسكا ، ولكن كانت البحرية الأمريكية تعرف أنها لا يجب أن تترك مكانها بالقرب من ميدواى . وقد أمكن غسل العار الذى لحق الأمريكيين فى بيرل هاربور عندما أسقط الأميرال ياما موتو — الذى كان قد دبر الهجوم على بيرل هاربور — من طائرته والنيران مندلعة فيه فوق بوجنفيل بعد ذلك بسنة .

وقد كان فى الامكان أن يكون مصير رئيس الولايات المتحدة كمصير ياماموتو لو كان لدى النازى مترجم آخر ، فعندما تقرر أن يجتمع روزفلت وتشرشل فى كازابلانكا « الدار البيضاء » فى شمال أفريقيا عام ١٩٤٣ ، علم الجواسيس الاسبان فى واشنطن بالخبر وأبلغوه برقيا إلى هتلر . ولكن المترجم الألمانى الذى كان يحل رموز الرسالة المكتوبة باللغة الاسبانية لم يدرك أن كازابلانكا هو اسم مكان ، وقرأ الاسم على أنه مكون من كلمتين كازا ومعناها بيت وبلانكا ومعناها أبيض ، فترجم الرسالة على أن زعماء الحلفاء سوف يجتمعون فى البيت الأبيض . وبطبيعة الحال لم تكن الطائرات النازية تستطيع الوصول إلى واشنطن ، وهكذا نجا روزفلت وتشرشل من الهجوم .

أنظمة الشفرة

يجدر بنا بعد أن عرضنا بالتفصيل للتطور التاريخى والفنى للشفرة أن نقف عند بعض أنظمة الشفرة المستخدمة ، وكما سبق أن نوهنا به فان تلك الوسائل ليست الا أنماطا محدودة لتعطى القارىء صورة مبسطة عن بعض وسائل استخدام الكتابة السرية .

وبوجه عام فان اعمال الشفرة تتضمن معالجة الكتابة السرية ، وذلك بوضعها فى وحدات حروف متكررة ذات أطوال متساوية . وغالبا ما تكون هذه الوحدات حروفاً أبجدية فردية أو زوجية ، ونادرا ما تكون ثلاثية . وهذه الوحدات من الحروف ينظر اليها كاصطلاحات رمزية لا علاقة لها البتة كحروف مكونة لكلمات ذات معنى ، كما أنها لا تكون عبارات أو جملاً لها فعل .

على أن كل نظام للشفرة يجب أن يتضمن أولا مجموعة من القواعد والترتيبات والخطوات التى تشكل الطريقة الأساسية للكتابة السرية ، ويطلق

عليها « النظام العام » حيث يتفق عليه مقدما بين المتراسلين وعادة يكون ثابتا فى طبيعته ، وثانيا وجود مفتاح خاص يتغير بين حين وآخر .

وحينما نقوم بتشفير نص مفتوح ، فان مفتاح الشفرة قد يتكون من رقم أو مجموعة من الأرقام أو من كلمة أو من عبارة أو جملة ... الخ . هذا المفتاح هو الذى يتحكم فى الخطوات التى تتخذ فى نظام الشفرة ، كما أنه يحدد الطبيعة الخاصة لتركيب الرسالة الشفرية الناتجة .

كما يتحكم مفتاح الشفرة فى خطوات حلها ، ويحدد طبيعة الرسالة المفتوحة بعد حل رسالة الشفرة .

وبالرغم من الاختلاف البين فى المظهر الخارجى للشفرة وتكويناتها فى المضمون فاننا لا نجانب الصواب اذا قلنا ان الشفرة تشمل نظامين أساسيين هما : نظامى النقل والابدال

فعمليات النقل من الشفرة تتضمن اعادة تنظيم الحروف أو تغيير تسلسلها فى الرسالة المفتوحة دون تغيير فى كيان الحروف ، أما عمليات الابدال فتتضمن استبدال حروف اخرى بحروف الرسالة المفتوحة أو رموز دون تغيير تسلسلها ، كما أنه يمكن الجمع بين الأسلوبين فى نظام شفرى واحد .

على أن معظم أنظمة النقل فى الشفرة تتضمن تدوين حروف النص المكشوف فى شكل هندسى يطلق عليـــه اسم « القالب » Matrix ، ثم يلى ذلك نقل الحروف من هذا القالب بادئين من نقطة معينة .

ويتخذ هذا القالب أشكالا مختلفة ، فقد يكون مستطيلا أو شبه منحرف أو مثمن الشكل ، ولكن بطل استخدام هذا الأسلوب لضعف درجات أمنه ، وأصبح نظام شفرة النقل المعروفة « بطريقة النقل داخل أعمدة » Columnar Transposition هو الأسلوب الشائع الذى يستخدم الآن على نطاق واسع .

الا أن المزايا الرئيسية فى استخدام نظام النقل فى الشفرة يكمن فى

بساطتها النسبية وسرعة العمل ، وارتفاع درجة أمنها فى بعض الحالات ، ولكن بالرغم من كل هذه الاعتبارات العامة فانها لا تلعب فى الوقت الحاضر دورا بارزا فى علم الكتابة السرية .

شفرة النقل .

وقبل أن ننتقل إلى الحديث عن شفرة الإبدال سنتحدث عن نوعين من شفرة النقل . الأولى مثال لعملية من عمليات النقل البسيطة فى الشفرة والثانية تمثل عملية نقل مزدوجة .

المفتاح

ص	ل	أ	ح	ا	ل	د	ى	ن
٥	٦	١	٣	٢	٧	٤	٩	٨
ا	ن	ت	ظ	ر	ت	ع	ل	ى
م	ا	ت	ن	ا	ى	و	م	ا
ل	ج	م	ع	ه	خ	م	س	ه
س	ب	ت	م	ب	ر			

الرسالة المفتوحة : إنتظر تعليماتنا يوم الجمعة خمسة سبتمبر

شكل رقم (١)

ففى الشكل رقم (١) نجد مفتاحا فى أعلى المستطيل ، معبرا عنه بكلمة « صلاح الدين » التى تكتب فى أعلى المستطيل حسب ترتيبها الأبجدى من اليمين إلى اليسار ، ثم تنمر أحرف الكلمة فى المهمات التى تحتها مباشرة تبعا

للترتيب الأبجدى من اليمين إلى اليسار ، مع مراعاة أن يأخذ الحرف المكرر الرقم التالى للحرف المشابه له على أن يكون الترقيم من اليمين إلى اليسار .

تكتب بعد ذلك الرسالة المفتوحة فى المربعات تحت المفتاح فى صفوف أفقية من اليمين إلى اليسار كما هو موضح فى الشكل رقم (١) . ولتحويل هذه الرسالة إلى شفرة فان النص يوزع إلى مجموعات من خمس حروف مبتدئين من الحرف تحت رقم (١) ثم تستكمل بعد ذلك بالحروف التى تحت الرقم التالى حتى تنتهى الرسالة ويجوز ملء السطر الأخير من المستطيل بأحرف أخرى ولكن للسرية يستحسن أن تبقى بعض المربعات الخالية كما فى النموذج عاليه .

والشكل رقم (٢) يوضح مثالاً لعملية نقل شفرة مزدوجة ، وفى هذا النظام تنقل الرسالة المستخرجة من المستطيل « أ » إلى المستطيل « ب » بنفس الطريقة التى كتبت بها الرسالة المفتوحة ، ثم نستخرج الرسالة السرية النهائية من المربع « ب » بنفس الطريقة العالقة ، ويصبح شكلها كما هو موضح عاليه .

شفرة الابدال

فاذا انتقلنا للحديث عن شفرة الابدال فاننا نستطيع أن نقول أنها تتضمن استخدام حروف أبجدية رمزية أو شفرية ، وهى غالبا ما تتكون من صفين متجاورين من الحروف الأبجدية ، أحدهما يرمز إلى الحروف الأبجدية العادية أ ب ج د ... الخ ، والآخر يرمز إلى حروف الشفرة المقابلة لها .

على أن تعقيد نظام الابدال فى الشفرة يعتمد على ثلاثة عوامل : أولها التركيب الخاص لحروف الشفرة أو الحروف المستخدمة ، وثانيها عـــدد الحروف المستخدمة فى لوحة شفرة واحدة ، وأخيرا الطريقة التى تستخدم بها هذه الحروف .

الوسالة المفتوحة : إنتظر تعليماتنا يوم الجمعة خمسة سبتمبر

ص	ل	ا	ح	ا	ل	د	ى	ن
٥	٦	١	٣	٢	٧	٤	٩	٨
ن	ت	م	ت	ر	أ	هـ	ب	ظ
ن	ع	م	ع	و	م	أ	م	ل
س	ن	أ	ج	ب	ت	ى	خ	ر
ى	أ	هـ	ل	م	س			

ب

ص	ل	ا	ح	ا	ل	د	ى	ن
٥	٦	١	٣	٢	٧	٤	٩	٨
ا	ن	ت	ظ	ر	ت	ع	ل	ى
م	ا	ت	ن	ا	ى	و	م	ا
ل	ج	م	ع	هـ	خ	م	س	هـ
س	ب	ت	م	ب	ب			

أ

الوسالة السرية

م م أ هـ و ب م ت ع ج ل هـ ا ى ت ن س ى ت ع ن ا ا م

ت س ظ ل ر ب م خ

شكل (٢)

ان أهم عامل بالنسبة لتركيب حروف الشفرة هو ما اذا كان الخصم يعرف أو يجهل الحرفين المتتاليين لها — بغض النظر عن تركيبهما — لأنه اذا ما توصل العدو لذلك ، فان أية حروف رمزية أو غير مرتبة سيستطيع العدو معالجتها بنفس السهولة التى يعالج بها الحروف الأبجدية العادية .

أما بالنسبة للعامل الثانى الخاص بعدد الحروف المستخدمة ، فان الشفرة قد تكون وحيدة الحروف أى تستخدم حرفا واحدا للشفرة ، أو تكون متعددة الحروف أى تستخدم حرفين أو أكثر .

وفى الجوهر نجد أن الاختلاف بين الأسلوبين يكمن فى ثبات التعادل الكمى بين الحروف الأبجدية وحروف الشفرة ، أو بمعنى أوضح فان ثمة تعادلا فى الحروف بين الرسالة المفتوحة والرسالة الشفهية ، بينما نجد أن ذلك يتغير فى الأسلوب الثانى ، ويحدد ذلك مفتاح الشفرة .

وعادة ما تكون الشفرة وحيدة الحروف من جانب واحد ، أى أن كل حرف فى النص المكشوف يستبدل فى الشفرة بحرف واحد ، وقد يستخدم من جانبين أو ثلاثة جوانب .

ان الشكل رقم (٣) يوضح مثالا لاستخدام طريقة الابدال وحيدة الحروف من جانبين ففى هذا الشكل نجد أن الحروف الأبجدية وزعت فى مستطيل أبعاده ٤ × ٧ بأى ترتيب مراعين بداية التوزيع بكلمة المفتاح ولتكن « مدار » ثم برسم أربعة مربعات عليا أفقيا ، وسبعة أخرى على الجانب عموديا . وترص الحروف الأبجدية فى هذه المربعات الجانبية بترتيب تسلسلى كما فى الشكل المذكور .

ولتحويل أى حرف فى رسالة مفتوحة إلى الشفرة فما على عامل الشفرة الا أن يستخدم الصف العلوى للحروف المتسلسلة ، والعمود الجانبى للرسم .

وتبدأ العملية: بتوزيع الاشارة المفتوحة إلى حروف مفردة ثم يستبدل بكل

حرف من الرسالة فى شفرة ، مبتدئين أولا بالحروف الأولى التى على الجانب الأيمن ، ثم بالحروف الأفقية العليا ، فمثلا الحرف ل فى الرسالة المفتوحة يمكن أن يشار اليه بالحرفين ود ، والحرف ك بالحرفين هـ ج وهكذا دواليك :

الحروف التالية

	أ	ب	ج	د
أ	م	د	أ	ر
ب	ح	ظ	ز	خ
ج	ب	س	ع	ق
د	ف	ت	ذ	ش
هـ	ج	غ	ك	ض
و	ث	ص	ط	ل
ز	ن	هـ	و	ى .

الحروف الأولى فى القراءة

الرسالة المفتوحة : لا تحركات للعدو أمام خطوط الهدنة

الشفرة

مفتوح : ل ا ت ح ر ك ا ت ل ل ع د و

تشفير : ود أج دب زأ هج أج دب وأ جج أب زج

مفتوح : ا م ا م خ ط و ط ا ل هـ د ن هـ

تشفير : أج أأ أح أأ بد فج زج وج أج ود زب أب زأ زب

شكل رقم (٣)

لوحة فيجينيير

وفى نظام الشفرة متعددة الحروف ، نجد أنها غالبا ما تستخدم حرفين أو أكثر من حروف الشفرة وذلك فى تشفير الرسالات الفردية .

وفى أبسط صور هذا النظام نجد أنّ الحروف الأبجدية ترص أفقيا بالترتيب من اليمين إلى اليسار ، وتعتبر هذه الحروف معبرة عن حروف النص المكشوف ثم ترص الحروف أسفل هذا الصف فى شكل أفقى مكونة شكلاً رباعياً كما هو موضح فى الشكل رقم (٤) التالى ، أما مفتاح الحروف فيكون عموديا على الجانب الأيمن ويبتدىء بتسلسل الحروف الأبجدية ، ويطلق خبراء الشفرة على هذا النظام لوحة فيجينيير التى نوهنا عنها من قبل .

وتستخدم هذه اللوحة بطرق عديدة ، ولكن أكثر الطرق شيوعا هو استخدام الصف الأعلى الأفقى كحروف للنص المكشوف ، والصفوف الأفقية المتتالية كمتتاليات الشفرة ، كما يمكن أن يرمز لكل من هذه الحروف بالحرف الأصلى .

وفى هذا النظام نجد أن حرف الشفرة المعادل لحرف مكشوف مشفر بحرف من حروف الشفرة فى مفتاح الحروف ينتج من تقاطع العمود الرأسى الذى يقع على رأسه حرف النص المكشوف مع الصف الأفقى الذى يبدأ عنده حرف الشفرة . فمثلا نجد أن الحرف د المشفر بالحرف د من مفتاح الشفرة ينتج حرف الشفرة س ويمكن أن يعلم بحرف النص فيكتب س د ، وبالتالى فان الحرف س المشفر بالحرف د ينتج حرف الشفرة ق أو ق س وهكذا دواليك.

شفرة بلاى فير

على أن هناك أيضا نظام من أنظمة الشفرة نرى أنه من المفيد التحدث عنه ، ويطلق عليه اسم « شفرة بلاى فير » Play Faire Chpher نسبة إلى ليون

بلاى فيز بالرغم من أن الذى ابتكر هذا النظام هو السير شارل هوايت ستون .

حروف النص المفتوح

مفتاح الحروف

		أ	ب	ت	ث	ج	ح	خ	د	ذ	ر	ز	س	ش	ص	ض	ط	ظ	ع	غ	ف	ق	ك	ل	م	ن	ه	و	ى
١	أ	أ	ب	ت	ث	ج	ح	خ	د	ذ	ر	ز	س	ش	ص	ض	ط	ظ	ع	غ	ف	ق	ك	ل	م	ن	ه	و	ى
٢	ب	ب	ت	ث	ج	ح	خ	د	ذ	ر	ز	س	ش	ص	ض	ط	ظ	ع	غ	ف	ق	ك	ل	م	ن	ه	و	ى	أ
٣	ت	ت	ث	ج	ح	خ	د	ذ	ر	ز	س	ش	ص	ض	ط	ظ	ع	غ	ف	ق	ك	ل	م	ن	ه	و	ى	أ	ب
٤	ث	ث	ج	ح	خ	د	ذ	ر	ز	س	ش	ص	ض	ط	ظ	ع	غ	ف	ق	ك	ل	م	ن	ه	و	ى	أ	ب	ت
٥	ج	ج	ح	خ	د	ذ	ر	ز	س	ش	ص	ض	ط	ظ	ع	غ	ف	ق	ك	ل	م	ن	ه	و	ى	أ	ب	ت	ث
٦	ح	ح	خ	د	ذ	ر	ز	س	ش	ص	ض	ط	ظ	ع	غ	ف	ق	ك	ل	م	ن	ه	و	ى	أ	ب	ت	ث	ج
٧	خ	خ	د	ذ	ر	ز	س	ش	ص	ض	ط	ظ	ع	غ	ف	ق	ك	ل	م	ن	ه	و	ى	أ	ب	ت	ث	ج	ح
٨	د	د	ذ	ر	ز	س	ش	ص	ض	ط	ظ	ع	غ	ف	ق	ك	ل	م	ن	ه	و	ى	أ	ب	ت	ث	ج	ح	خ
٩	ذ	ذ	ر	ز	س	ش	ص	ض	ط	ظ	ع	غ	ف	ق	ك	ل	م	ن	ه	و	ى	أ	ب	ت	ث	ج	ح	خ	د
١٠	ر	ر	ز	س	ش	ص	ض	ط	ظ	ع	غ	ف	ق	ك	ل	م	ن	ه	و	ى	أ	ب	ت	ث	ج	ح	خ	د	ذ
١١	ز	ز	س	ش	ص	ض	ط	ظ	ع	غ	ف	ق	ك	ل	م	ن	ه	و	ى	أ	ب	ت	ث	ج	ح	خ	د	ذ	ر
١٢	س	س	ش	ص	ض	ط	ظ	ع	غ	ف	ق	ك	ل	م	ن	ه	و	ى	أ	ب	ت	ث	ج	ح	خ	د	ذ	ر	ز
١٣	ش	ش	ص	ض	ط	ظ	ع	غ	ف	ق	ك	ل	م	ن	ه	و	ى	أ	ب	ت	ث	ج	ح	خ	د	ذ	ر	ز	س
١٤	ص	ص	ض	ط	ظ	ع	غ	ف	ق	ك	ل	م	ن	ه	و	ى	أ	ب	ت	ث	ج	ح	خ	د	ذ	ر	ز	س	ش
١٥	ض	ض	ط	ظ	ع	غ	ف	ق	ك	ل	م	ن	ه	و	ى	أ	ب	ت	ث	ج	ح	خ	د	ذ	ر	ز	س	ش	ص
١٦	ط	ط	ظ	ع	غ	ف	ق	ك	ل	م	ن	ه	و	ى	أ	ب	ت	ث	ج	ح	خ	د	ذ	ر	ز	س	ش	ص	ض
١٧	ظ	ظ	ع	غ	ف	ق	ك	ل	م	ن	ه	و	ى	أ	ب	ت	ث	ج	ح	خ	د	ذ	ر	ز	س	ش	ص	ض	ط
١٨	ع	ع	غ	ف	ق	ك	ل	م	ن	ه	و	ى	أ	ب	ت	ث	ج	ح	خ	د	ذ	ر	ز	س	ش	ص	ض	ط	ظ
١٩	غ	غ	ف	ق	ك	ل	م	ن	ه	و	ى	أ	ب	ت	ث	ج	ح	خ	د	ذ	ر	ز	س	ش	ص	ض	ط	ظ	ع
٢٠	ف	ف	ق	ك	ل	م	ن	ه	و	ى	أ	ب	ت	ث	ج	ح	خ	د	ذ	ر	ز	س	ش	ص	ض	ط	ظ	ع	غ
٢١	ق	ق	ك	ل	م	ن	ه	و	ى	أ	ب	ت	ث	ج	ح	خ	د	ذ	ر	ز	س	ش	ص	ض	ط	ظ	ع	غ	ف
٢٢	ك	ك	ل	م	ن	ه	و	ى	أ	ب	ت	ث	ج	ح	خ	د	ذ	ر	ز	س	ش	ص	ض	ط	ظ	ع	غ	ف	ق
٢٣	ل	ل	م	ن	ه	و	ى	أ	ب	ت	ث	ج	ح	خ	د	ذ	ر	ز	س	ش	ص	ض	ط	ظ	ع	غ	ف	ق	ك
٢٤	م	م	ن	ه	و	ى	أ	ب	ت	ث	ج	ح	خ	د	ذ	ر	ز	س	ش	ص	ض	ط	ظ	ع	غ	ف	ق	ك	ل
٢٥	ن	ن	ه	و	ى	أ	ب	ت	ث	ج	ح	خ	د	ذ	ر	ز	س	ش	ص	ض	ط	ظ	ع	غ	ف	ق	ك	ل	م
٢٦	ه	ه	و	ى	أ	ب	ت	ث	ج	ح	خ	د	ذ	ر	ز	س	ش	ص	ض	ط	ظ	ع	غ	ف	ق	ك	ل	م	ن
٢٧	و	و	ى	أ	ب	ت	ث	ج	ح	خ	د	ذ	ر	ز	س	ش	ص	ض	ط	ظ	ع	غ	ف	ق	ك	ل	م	ن	ه
٢٨	ى	ى	أ	ب	ت	ث	ج	ح	خ	د	ذ	ر	ز	س	ش	ص	ض	ط	ظ	ع	غ	ف	ق	ك	ل	م	ن	ه	و

لوحة فيجينير

شكل رقم (٤)

وفى هذا النظام نجد أن الحروف الهجائية يمكن أن توزع على شكل مستطيل مبتدئة بكلمة مفتاح ولتكن « معاوية » كما هو موضح فى الشكل رقم (٥) .

وتستبدل الحروف زوجيا بحروف شفرة زوجية من مربعات المستطيل . ويمكن أن تتم عملية الابدال بثلاثة صور : (١) اما باستخدام حروف الصفوف الأفقية التى تقع فيها حروف النص ، وذلك بابدال كل حرف بالحرف الذى يليه على اليمين ، (٢) واما باستخدام حرف من العمود الذى يقع فيه حرف النص وذلك بابدال كل حرف بالحرف الذى يقع فى المربع الذى تحته مباشرة ، (٣) وأخيرا يمكن أخذ الحرفين المتقابلين لقطر مستطيل تخيلى يحدد أركانه حرفى النص .

وبدراسة هذه الصور الثلاث على الشكل رقم ٥ نجد أن فى الحالة الأولى : وأ = أع ، نج = ضن ، مض = دج ، وفى الحالة الثانية نجد أن : رغ = ن خ ، طق = ذح ، صف = وع . أما فى الحالة الثالثة فنجد أن : أق = ور ، ب ن = دض ، مب = ع ط .

شفرة بلاى فير

م	ع	ا	و
ى	هـ	د	س
ط	ب	ر	ق
ق	ض	ن	ج
س	ك	ت	ل
ظ	ح	غ	ذ
ت	ف	خ	ص

الرسالة : أغادر بيروت للقاهرة اليوم

النص : اغ أد دب ىر وت لم
لق أه رهـ ال ىو م ن

الشفرة : عح در يط دط نش شو

شكل الرسالة النهائى :

عحدرب طدطنش شوترع
دذبدت سن أأد

شكل رقم (٥)

ويراعى فى هذه الشفرة فصل كل حرف متكرر مباشرة بحرف هجائى وليكن الحرف م ، ونجد ذلك واضحا فى حرف اللام فى كلمة القاهرة ، كما يضاف أيضا فى آخر النص المفتوح حرف النون حتى تصبح الحروف زوجية .

وعليه ففى الرسالة الموضحة فى الشكل رقم (٥) ، نجد أننا قمنا بتفريط الرسالة المفتوحة فى حروف زوجية ، ثم قمنا بعملية التشفير مستخدمين الثلاث حالات التى ذكرناها من قبل . وبعد استخراج حروف الشفرة تكتب الرسالة السرية فى مقاطع من خمسة حروف كما هو واضح فى النموذج المذكور .

عندما تتولى الآلة العمل .

ولننتقل الآن إلى نوع آخر من الشفرة تستخدم فيه الآلة بشكل أشد تعقيدا ، وأكثر أمنا . ويرجع تاريخ جذورها إلى عهد لويس الرابع عشر .

ففى سجن الباستيل بباريس كان هناك سجين مجهول عام ١٦٦٤ ، ظل مقنعا طيلة احدى وثلاثين سنة بقناع مصنوع من الحديد حتى مات فى السجن . ولذلك سمى « بالرجل ذى القناع الحديدى » .

وقد حاول كثيرون أن يخمنوا شخصية الرجل المقنع . ولما كان هذا الرجل موضع احترام حراسه ، فقد اتفقوا على أنه لا بد أن يكون شخصية عريقة وعلى درجة كبيرة من الأهمية وربما كان أميرا . ولقد كتب الكسندر دوماس قصة صور فيها هذا السجين على أنه الأخ التوأم للملك لويس الرابع عشر . ويقول آخر أنه ابن شارل الثانى ملك انجلترا .

وبعد قرنين تقريبا من وفاة السجين ، دعى « بازيريس » — وهو من أعظم محللى الشفرات الذين أنجبتهم فرنسا — ليحاول قراءة رسائل عمرها مائتى سنة لها علاقة بالتاريخ العسكرى ولم يستطع أى شخص آخر أن يقرأ

الشفرة المكونة من أرقام مختلطة ببعضها .

وعندما اتضح أن الرسائل كانت أصعب بكثير من أن تكون شفرة ابدال كما كان يظن «بازيريس »، أدرك أنه لا بد وأن يكون أمام شفرة لويس الرابع عشر العظمى . وهى التى ابتكرها عبقرى الشفرة روسينول ، والتى لا يمكن حلها بغرض حماية أسرار الملك . ولما مات الملك لويس الرابع عشر دفن سر هذه الشفرة المشهورة معه .

حلل بازيريس مجموعة الرسائل ووجد أنها تحتوى على ٥٨٧ مجموعة رقمية — أقل من أن تكون رموزا وأكثر من أن تكون شفرة — . واستنتج أنه يحاول أن يحل نوعا يسبق « الترميز » وهى طريقة بمقتضاها يمثل كل عدد اما مقطعا واما حرفا . ثم كانت هناك تباينات كثيرة زادت الشفرة تعقيدا . وعالج مجموعة من الرسائل على أساس هذه النظرية ، حتى تم له أخيرا فك رموز هذه الشفرة التى يئس من حلها خبراء الكتابة السرية والمؤرخون لمدى أكثر من مائتى سنة .

ومن بين رسائل الشفرة العظمى الشيقة التى توصل بازيريس إلى حلها رسالة كانت خاصة بمصير جنرال دى بولوند . كان الأخير قد أثار غضب لويس الرابع عشر بعدم طاعة أوامره . فبدلا من أن يستولى على قلعة كدنى الايطالية التى كانت خطة الملك تعد الاستيلاء عليها أمرا حيويا جبن بولوند وفك الحصار عنها . فأصدر « اوفوا » وزير الحرب، أوامره مكتوبة بالشفرة العظمى وتقضى هذه الأوامر بالقاء القبض على بولوند فى الحال ووضعه فى السجن . وتضمنت الأوامر أن يسمح له بأن يسير فى السجن وقت فسحته برقمى « ٣٠٩ ، ٣٠٣ » ولم تظهر المجموعتان ٣٠٣ ، ٣٠٩ فى مكان آخر فى الرسائل . ولم يكن هناك مفتاح يشير إلى معناها فاستنتج بازيريس أنها لا بد وأن تعنيا كلمة « قناع » .

فهل كان هذا القائد الجبان هو الرجل ذو القناع الحديدى ؟ وعلى أية

حال فلا يقلل من عظمة بازيريس كخبير في الكتابة السرية أن مخبرا مشهورا أثبت أن بولوند كان حيا وطليقا بعد موت السجين المقنع بسنتين .

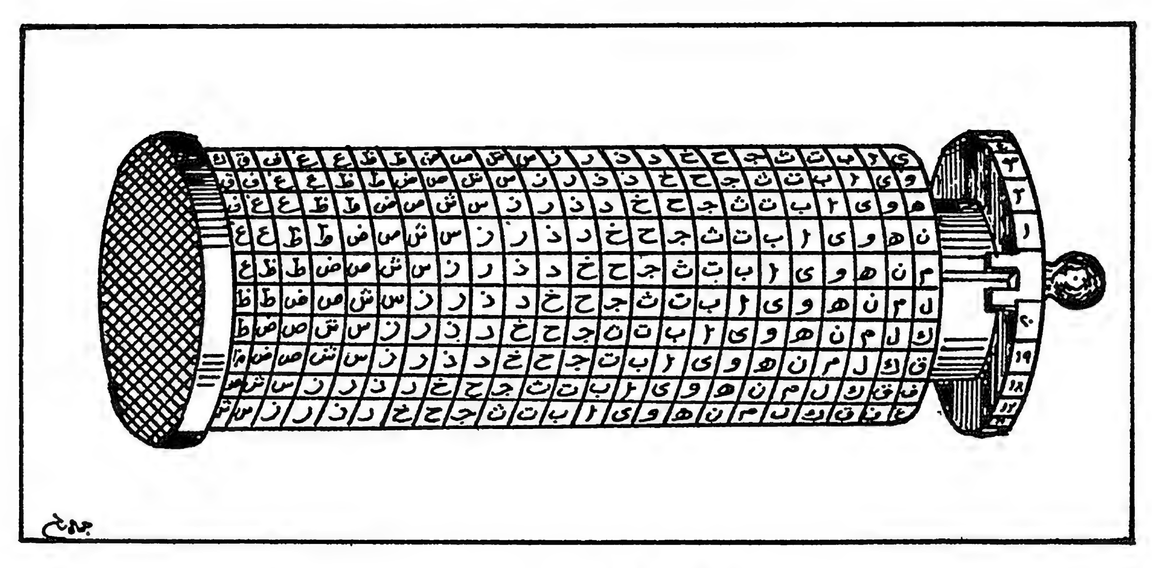
وكان من بين أعمال بازيريس التى كللت بالنجاح فى عالم الكتابة السرية شفرة أدبية . كان كتاب القرن التاسع عشر يميلون إلى أن يقدموا فى قصصهم بعض الرسائل الشفرية كى يبهروا قراءهم بحلولها . ومن بين هؤلاء الكتاب كان بو وجولزفون وكونان دويل . وقام أونوريه دى بلزاك أعظم قصاص فى عصره بتقديم ثلاث صفحات من الكتابة السرية الغامضة فى كتابه «فسيولوجية الزواج» ولم تستطع أجيال من خبراء الكتابة السرية — هواة ومحترفين — أن يصلوا إلى فك رموزها .

وأخيرا أثبت بازيريس بالتحليل المنطقى الدقيق أن بلزاك كان لا يقصد الا أن يختبر قراءه . وكانت الرسالة عبارة عن هراء ، وتحتوى على رموز متكررة حتى تبدو كما لو كانت شفرة حقيقية .

وكان أعظم أعمال بازيريس الباهرة هو اختراع آلة شفرة كانت أصلا لمعظم آلات الشفرة التى ظهرت فى الخمسين سنة الأخيرة . وكغيرها من المخترعات العظمى الكثيرة كانت بسيطة نسبيا . كما أنها كغيرها من التجديدات العظمى الأخرى فاز باختراعها رجل آخر . كان توماس جفرسون منشغلا بأشياء أخرى غير أعماله الحكومية . فاخترع جهازا لقياس السرعة كما اخترع آلة للشفرة تشبه آلة بازيريس . وكان الهام جفرسون قد سبق الهام المخترع الفرنسى بمائة عام .

ان اسطوانة بازيريس — كما تسمى — تتكون من عمود من الأقراص ومن اطار . وكل قرص مرقم على جانبه ولو ثقب فى مركزه وعلى حافة محيطه أبجدية غير مرتبة . وتحتوى معظم اسطوانات بازيريس على عشرين قرصا ، ولكن الاسطوانة التى فى الشكل التالى تحتوى على سبعة عشر قرصا فقط .

ويسمح الاطار بتركيب الأقراص على عمود ، وتربط بصامولة فى الطرف الآخر . ويمكن تجميع الأقراص بأى ترتيب يتطلبه المفتاح ، كما يمكن أن يكون هذا المفتاح بأى ترتيب من الأرقام واحد إلى عشرين مثل :



إسطوانة بازيرس

٣ — ٧ — ١٩ — ١٠ — ١ — ٦ — ١٤ — ١٥ — ٢٠ — ١٧

٢ — ٤ — ٥ — ١٣ — ٨ — ١١ — ١٢ — ٩ — ١٨ — ١٦ .

ولما كان من العسير فعلا للشخص المتوسط أن يستظهر مثل هذه المجموعة من الأرقام ، ولما كان من الخطأ كتابتها ، فقد استخدم بدلها كلمة أو عبارة مكونة من ٢٠ حرفا كمفتاح . فمثلا اذا كان المفتاح هو طريق ابو عويجلة الشمالى ، يتبع ترتيب الأرقام ترتيب الحروف كالآتى :

ط ر ى ق أ ب و ع و ى ج ل ه

٨ ٦ ١٨ ١٠ ١ ٤ ١٦ ٩ ١٧ ١٩ ٥ ١١ ١٥

أ ل ش م ا ل ى

٢ ١٢ ٧ ١٤ ٣ ١٣ ٢٠

فأول حرف من حروف الأبجدية هو الحرف ألف ، وهكذا تكون أول ألف من اليمين فى المفتاح تعادل رقم واحد وثانى حرف ألف فى المفتاح تعادل رقم اثنين ، وثالث حرف ألف فى المفتاح تعادل رقم ثلاثة ، وهكذا ، فالحرف باء أخذ رقم أربعة بعد الانتهاء من حروف الألف ، ثم أخذ الحرف جيم رقم خمسة لعدم وجود حرفى التاء والثاء وهكذا دواليك .

ويقوم كاتب الشفرة بوضع الأقراص مرتبة أمامه ثم يبدأ بالتقاط القرص رقم ٨ ويدخله فى العمود ، ويأتى بعده بالقرص رقم ٦ ثم القرص رقم ١٨ وهكذا حتى توضع الأقراص جميعها فى ترتيبها ، فاذا كانت الرسالة المطلوب تشفيرها هى : لوحظ نشاط للعدو فان كاتب الشفرة يضع القرص رقم ٨ فى موضع مقفول حتى يجد الحرف لام وهو أول حرف فى نص الرسالة ، ثم يدير القرص الثانى رقم ٦ حتى يجد حرف واو وهو الحرف الثانى فى نص الرسالة ويضعه إلى جوار الحرف الأول وتكرر العملية حتى يتم وضع العشرين حرفا التى تتكون منها الرسالة بترتيبها .

ولحل شفرة من شفرات بازيريس يضع المحلل الأقراص فى ترتيبها الصحيح ويغلق نص الشفرة من أحد الجانبين إلى الجانب الآخر . بعد ذلك يستمر المحلل فى ادارة الاسطوانة حتى يجد فى النهاية الصف الذى يحتوى على الرسالة .

والرسالة التى نحصل عليها من اسطوانة بازيريس هى النص الأصلى . ويمكن استظهار المفاتيح بسهولة كما يمكن تغييرها كثيرا .

وطريقة بازيريس مثلها مثل غيرها من طرق الكتابة السرية لها عيوبها . ان حمل الاسطوانة فيه خطورة على حاملها .

وليس من الصعب صنع آلة شفرة بازيريس . ولو أنها قد لا تتصف بالاتقان ، الا أنها يمكن أن تصنع باليد بواسطة أقراص خشبية ومسمار طويل

« بريمة » . أولا نقوم بثقب قطعة اسطوانية من الخشب فى مركزها بالضبط بحيث يكون الثقب أصغر قليلا من المسمار ثم تقطع الاسطوانة بالتساوى إلى أقراص متساوية — ويحسن أن يتم ذلك بمنشار كهربائى — ويمكن استخدام أى عدد من الأقراص . ثم نأتى بأشرطة من الورق بحيث يغطى كل شريط محيط الأقراص الخشبية . ونقسم كل شريط إلى ٢٨ مسافة نكتب فى كل مسافة حرفا من حروف الهجاء بحيث تكون غير مرتبة ثم نلصق الشريط على حافة القرص .

فكرة بازيريس أساس الآلات الحديثة

وقد أثبتت فكرة بازيريس أنها نافعة لدرجة أنها ظلت الأساس الذى تستند اليه كل آلات الشفرة التى صنعت فى الخمسين سنة التى تلت اختراعها . ويستخدم هذه الطريقة الجيوش والأساطيل والجواسيس والهيئات الدبلوماسية ورجال الأعمال . وقد ابتكرت آلات أفضل بعد ادخال كثير من التحسينات على الفكرة الأصلية . ومن بين هذه الآلات آلة بخارية صغيرة الحجم يمكن أن توضع فى الجيب ، وهى تقوم بطبع نص شفرتها على شريط من الورق ، وهناك آلات أكبر تدار بالكهرباء وتستخدم مفاتيح شبيهة بمفاتيح حروف الآلة الكاتبة . ويطبع نص الشفرة ، وفى بعض الحالات يمكن ارسال الشفرة بطريقة آلية . ويمكن تزويد مستخدمها بمجموعات من الأقراص بحيث تستخدم مجموعات جديدة من الأبجديات بنفس المفاتيح المختلفة .

ومن بين آلات الشفرة المعقدة التى استخدمها الأمريكيون فى الحرب العالمية الثانية الآلة المسماة « تليكيتون » ، وهى آلة تنتج شريطين مثقوبين متشابهين احدهما يكتب الرسالة فى ناحية الارسال والآخر يحلها فى ناحية الاستقبال . والخطر الذى يكمن فى استخدام هذه الآلة هو أن الرسول الذى يحمل صورة الشريط الذى سيوضع فى آلة الاستقبال قد

تسنح الفرصة لشخص آخر بنسخه .

وقد كان دان مور من مكتب الخدمات الاستراتيجى يتجنب هذه الخطورة بأن كان يكتب اسمه بحبر سرى على جانب الشريط الملفوف كما يكتب الطالب اسمه على حافة صفحات كتابه المدرسى . ويمكن أن يحمض الحبر السرى بحيث تظهر الحرارة التوقيع المكتوب بسرعة . فاذا كان قد قام شخص ما من الخصوم بفك الشريط ونسخه فلن يستطيع أن يلفه بدقة كما كان تماما بحيث يظهر التوقيع بوضوح ، فعندما يوضع الحبر السرى فى الحامض يعرف العميل من وضوح التوقيع على حافة الشريط أنه لم يعبث به احد مطلقا .

ان فكرة فك رموز شفرة كتبت بالآلة تبدو مستحيلة ما لم يكن قد حدث أن سرق مفتاحها . ذلك لأن من الصعب أن يتغلب عقل على عقل آخر ولكن التغلب على آلة يبدو كما لو كان سحرا . ومما لا شك فيه أن شفرات الآلات تضعنا أمام عقبات ضخمة . ولكن هناك أكثر من مخرج لهذا المأزق ، ففى بعض الأحيان يمكن استخدام آلة لحل رموز كتبتها آلة أخرى .

ففى الحرب العالمية الكبرى كان الأمريكيون يلتقطون الرسائل اللاسلكية من سفارة ألمانية فى احدى البلاد المحايدة ويقومون بحلها . ولكنهم وجدوا أنفسهم فى حيرة عندما بدأ الالمان يستخدمون آلة شفرات كهربائية فاستعصى عليهم قراءة الرسائل . وكانوا يحتاجون إلى أسابيع وربما إلى شهور لتجميع كمية كافية من الرسائل المكتوبة على الآلة حتى يستطيعوا أن يتوصلوا إلى حل . واذا حدث وأصاب العطب تلك الآلة فربما يضطر الألمان أن يعودوا إلى استخدام شفراتهم القديمة التى كانت تفتقر إلى سبل الأمن، والتى كان الأمريكيون قد توصلوا إلى فك رموزها .

ولقد حدث أن استأجر أحد رؤساء مكتب الخدمات الاستراتيجى رجلا وطنيا للتسلل إلى سفارة ألمانية عليها حراسة مشددة لنسف آلات الشفرة

الكهربائية . ولما كانت الفكرة غير واضحة للعميل المستأجر فقد طلبوا منه أن يدخل حجرة الرموز فى السفارة وينسف أكثر الآلات تعقيدا . واستطاع الرجل بعد مجازفة خطيرة أن يتسلل دون أن يراه الحراس ويقوم بعمله . وفى غضون الارتباك الذى ساد المكان بسبب الانفجار استطاع العميل أن ينجو بصعوبة .

وفى اليوم التالي ولدهشة الأمريكيين استمر الألمان فى ارسال الشفرات المكتوبة على الآلة ! كما لو كان لم يحدث شىء . فهل كذب العميل عليهم حتى يأخذ مكافأته ؟ . واتضح بعد ذلك أن العميل قد قام بنسف ما بدا له أكثر الآلات تعقيدا ــ فكان أن نسف آلة كهربائية لصنع القهوة .

وعلى وجه العموم يمكن حل كل شفرات الآلة من نوع بازيريس بنجاح اذا توفر للشخص عدد كاف من الرسائل والمعدات والوقت . وباستخدام المعادلات الرياضية يستطيع محللو الشفرات ان آجلا وان عاجلا فك رموز الرسائل التى كتبت بترتيب متشابه ومفاتيح متماثلة . كل ما يحتاجونه هو أن يتأكدوا أنهم يعالجون مادة كتبت بطريقة ما ومفتاح متشابه . فاذا توفر لهم هذا التأكد ، فانهم سيصرون على محاولاتهم إلى أن يكسروا الشفرة .

لقد كان الحلم الذى طالما راود محللى الشفرات أن يصنعوا الآلة « المثالية » التى لا يقصر عملها على كتابة الشفرات بطريقة الابدال الخاصة ببازيريس بل التى تعيد كتابة الشفرات بطريقة تغيير مواضع الحروف أيضاً . ولتحقيق ذلك كان لا بد من استخدام طريقة تستطيع بها الآلة أن تخترق الحروف ، لأنه ليس من المستطاع كتابة شفرة تغيير مواضع الحروف باستخدام حرف واحد فى المرة الواحدة .

وإذا عقدنا مقارنة بين نظم الكريبتوغراف المستخدمة اليوم مع النظم التى استخدمتها الحكومات لنقل أهم أسرارها وأكثرها حساسية لبدت الأخيرة وكأنها بدائية أو من أعمال الهواة ، وخاصة بالنسبة لتكرار مجموعات من

الرموز مما كان ينبه إلى أن ثمة كلمة هامة يجب أن تكون هناك خلف تلك الرموز. فعندما رأى محللو الأدميرال هول التركيب «٦٧٨٩٣» فى برقية زيمرمان عرفوا أنه يعنى كلمة مكسيكو، وطبقاً للنظام الألمانى كانت تفيد دائماً هذا المعنى : أما اليوم فان نفس التركيب لا يعنى نفس الكلمة مرتين.

وفى الوقت الحاضر فكل رسائل الحكومات الرسمية وكذلك رسائل عملاء الجاسوسية انما تخضع لنظم كريبتوغرافية معقدة آمنة. فمثلاً يقوم العملاء السوفييت فى اعادة معلوماتهم إلى موسكو باستخدام نظم شفرية معقدة. وهنا كما فى أى مكان آخر كلما تحسنت الاجراءات الدفاعية كلما تحسنت أيضا الاجراءات المضادة لاختراق اجراءات الدفاع الجديدة.

البديهية فى حل الرموز والشفرات

على أن محلل الرموز السرية يعرف جيدا أنه يوجد حل صحيح واحد — اذا استطاع أن يجد اليه سبيلا — وبدلاً من أن يناضل بغرض كشف أسرار الطبيعة أو كشف أنماط السلوك فانه يبحث فى أسرار الناس الآخرين، وهو فى هذا يختلف عن العالم أو الفيلسوف أو الاقتصادى الذى يبحث عن حلول قد لا يكون لها وجود. ان محلل الرموز يعرف أن الحل الذى يسعى للوصول إليه هو الحل الممكن الوحيد.

ويكوّن عظماء محللى الرموز السرية طائفة خاصة بهم. انهم رجال ونساء كرسوا أنفسهم للعمل ليل نهار. ان حل الشفرات هو مهمتهم وهوايتهم فى نفس الوقت.

ففى عام ١٩٤٣ أسندت إلى ضابط أمريكى صغير فى سلاح الاشارة — متخرج حديثا — وظيفة رسول، يحمل الوثائق بين وحدات البحرية والجيش فى واشنطن. وكان نظامه يقضى بأن يصل كل صباح لاستلام حزمة من

الأوراق السرية من البحرية فى نفس الوقت الذى يكون فيه زملاؤه يستمتعون بفترة استراحة يحتسون فيها القهوة . وفى الحقيقة كان الكثير من العمل يتم فى فترة الاستراحة هذه . ولكن كان هذا الضابط الصغير يعتقد أن البحرية لم تعد مكانا اجتماعيا مريحا عندما كان يرى الرجال يجلسون واضعين أقدامهم على مكاتبهم يدخنون ويتبادلون النكات عن عملهم .

وفى صبيحة أحد الأيام دهش الرسول عند دخوله ، اذ رأى ضباط البحرية وهم منحنون فوق منضدة والغضب باد على وجوهم . وكانت مشكلتهم عبارة عن رسالة خفية منشورة فى مجلة فكاهية تحت عنوان « تيرى والقرصان » .

كان هناك شخص أمريكى يدعى فيليب أوقعه عميل يابانى في شرك فى إحدى القرى الآسيوية البعيدة ، وكان يحاول أن يرسل رسالة شفرية يستخدم فيها فقط حرف (..) وشرط حرف (..) على أن تمثل النقط والشرط المستخدمة في رموز مورس. واستطاع فيليب أن يصطنع خطابا مرفقا ضلل به الجاسوس حتى سمح له بإرساله .

وكانت الشفرة تبدو فى صورتها الطبيعية سليمة . ومن الناحية العلمية لم يكن فى الامكان حلها لان الفواصل بين الحروف لم تكن موجودة ، ولم يستطع أحد فى الجيش أو البحرية حلها .

وكثيرا ما يظهر الحل للباحث وهو فى حالة حلم أو وهو فى حالة بين النوم واليقظة عندما يطفو عقله اللاواعى إلى السطح . ولقد كانت هذه هى حالة الكولونيل ياردلى عندما توصل إلى حل الرموز الدبلوماسية اليابانية أمام مؤتمر واشنطن البحرى . ان استخدام بخار صبغة اليود لاظهار الحبر السرى قد تم عن طريق الحلم .

ان هذا العمل الذى يستغرق الليل والنهار لحل نفس المشكلة يجعل العاملين فى ميدان الكتابة السرية فى حالة توتر عاطفى . انهم يعيشون فى عملهم

ويتنفسون فى عملهم ، ولكن نظرا لأنه محظور عليهم أن يتحدثوا عن عملهم الا لحفنة من الناس يعملون معهم ، لذلك تجدهم معرضين للارهاق العقلى .

ان قيمة العمل فى ميدان الشفرة تقل بالتدريج فى كل ساعة تمر قبل الوصول إلى الحل .

لقد أمضى أحد رجالنا يومين متتاليين بحثا عن ألفاظ أو حروف مكررة فى الرسائل وهو فى عمله هذا أشبه بمن يقوم بمقارنة حبات الرمال بعضها ببعض على شاطىء البحر .

وبالرغم من أن جزءا كبيرا من عمل تحليل الكتابة السرية يتم بواسطة الآلات ، الا أنه لا يمكن أن توجد الآلة التى تحل محل عقل محلل الرموز . فعليه أن يعمل بشكل منطقى وبعقل رياضى ولكن عليه أن يعتمد أيضا على البديهة . فعندما يقوم بحساب جداول التردد يجب فى نفس الوقت أن يستخدم خياله ليخمن قيمة بعض الحروف ، أو ليخمن بعض الكلمات المختلفة . ويجب أن يواصل عملية التخمين المرة بعد المرة ، فهو يطرح جزءا من العمل ويعود فيبدأ من جديد ثم يعود مرة أخرى وهكذا ... واذا كان يعالج شفرة — لرسالة رمزية — فسيعرف بل ويمكنه أن يثبت أن الحل الذى توصل اليه صحيح . وفى هذا رضاء كبير له . عند ذلك تكون المشكلة قد أصبحت خاصة بطريقة لها مفاتيح معينة .

ولا يستطيع أن يحلل الشفرات الحديثة الا الخبراء الذين كرسوا أنفسهم لهذه العملية . انهم فى حاجة إلى كل العون الذى يمكن أن يحصلوا عليه من الآلات التى تستخرج الحقائق العلمية ، ومن المعلومات ذات الصلة بموضوع الرسائل ومن التفكير العقلى الخاص بخصومهم ، ومن كتب الشفرة والرموز التى يجمعها لهم عملاؤهم . والمعروف عن خبراء الشفرة والرموز أنهم يرحبون بسرقة كتب الرموز وصفحات الشفرة التى تعينهم فى عملية تحليل المكاتبات السرية

ويجب أن يكون واضحا أن النص الأصلى لرسالة أرسلت بالرموز أو بالشفرة على جانب عظيم من القيمة . ففى حالة الشفرة يمكن أن يكشف هـذا النص عن الطريقة المستخدمة وعن المفاتيح أيضا ، أما فى حالة الرموز فقيمة هذا النص أقل ، ولكنه يساعد على معرفة معنى بعض مجموعات من الرموز .

والرسائل المحلولة لا يجب حفظها فى ملفات حتى لا يقوم عميل أجنبى بالتقاط صورها ، ولما كان من الضرورى أن تكون مادة الرسائل قريبة للرجوع اليها ، فيمكن اعادة كتابتها بطريقة أخرى مع اعدام النص الأصلى .

ومن الطرق المستخدمة لتغيير صيغة الرسالة تغيير ترتيب الفقرات أو الجمل أو الكلمات ، كما يمكن استخدام المرادفات لتؤدى نفس المعانى . فمثلا اذا كان نص الرسالة : « سنكون مستعدين للهجوم عند الفجر » فيمكن أن تحول إلى : « هجوم قواتنا عند شروق الشمس قد أعد » ، وكلما طال نص الرسالة كلما سهل تغيير كلماتها .

وإذا كان هناك خطر من الاحتفاظ بالنص الأصلى للرسائل فهناك خطر سيكولوجى آخر من نتيجة تغيير كلماتها . فحالة التوتر التي يمكن أن تنشأ بين الناس الذين يعملون فى أماكن متباعدة قد يمكن التغلب عليها بالدبلوماسية واللباقة فى الكتابة .

فمثلا الرسالة التى تقول : « من المهم أن تذهب بأسرع ما يمكن إلى بيروت » يمكن تغييرها إلى : « أنت مجبر أن تسافر إلى بيروت فى الحال » . فالرسالة الأولى عبارة عن أمر صادر من متعجرف .

ومن الممكن أن يؤدى تغيير الكلمات إلى تغيير أساسى فى المعنى ، فمثلا العبارة الآتية : « لم يكن زيد من الناس مخمورا يوم السبت الماضى » تختلف فى معناها عن : « كان زيد من الناس » فائقا « يوم ١٣ يوليو » فالنص الثانى يوحى بأنه ظل سكرانا حتى يوم ١٣ حينما أفاق .

ومع ذلك فعملية تغيير نص الرسالة ضرورى للغاية ، كما أن الخبراء يكونون على أهبة الاستعداد بأقلامهم وعقولهم الحادة لمعاونة مبتكرى الشفرات ومستخدميها .

ان كل منظمة مخابرات ناجحة لا بد أن يكون لها قسم للكتابة الرمزية ، حيث يستخدم « الكود » و « الشفرة » ويدرب عملاؤها عليها ، كما يجب أن يكون بها بعض الأقسام الخاصة بفك رموز الكود وحل الشفرة التى تستخدمها منظمات العدو المضادة .

على أن بعض الحكومات تبقى هذه العملية بعيدا عن أجهزة المخابرات وتتركها للقوات المسلحة أو وزارة الخارجية ، أو قد تكون فى كل منها الأقسام الخاصة بها .

ولكن مهما كانت الجهة التى تتولى العملية ، فمن الضرورى العمل دائما للاحتفاظ بسرية أعمالها والطرق التى تستخدمها ، كذا العناية بوقاية ورقابة الأفراد الذين يعملون فيها .

* * *

الفصل التاسع عشر

العمليات السياسية

المفاوض الدبلوماسى والقائم بالعمل السياسى

يحاول المفاوض الدبلوماسى أن يحقق مصالح بلده باقناع ممثلى الدول الأخرى بقبول وجهات نظر معينة ، أو لالزام بلادهم للمشاركة فى أعمال معيّنة عديدة . ان نجاح هذا المفاوض فى تحقيق هدفه يعتمد من ناحية مهارته كمفاوض ، ولكن يعتمد بدرجة أكبر على السلطة المخولة له والتى تمكنه من ممارسة الضغط ، وبذل الوعود ، وعرض قوة الدولة التى يمثلها . ومهما كانت براعته ومهارته ، فان الدبلوماسى لا يستطيع تقديم وعود أو التزامات تختلف مع السياسة العليا لحكومته .

وعادة ما يتألف الجمهور الذى يستمع للمفاوض من نفر قليل من الرجال الجالسون حول مائدة ، وعادة ما تدور المناقشات فى السر والخفاء .

وبالرغم من ذلك فان كلا من المفاوض الدبلوماسى ، ومن يقوم بالعمل السياسى السرى يعتمد على السياسة القومية لدولته ، ولا يمكن لأى منهما

أن يعتمد على مهارته وحدها ، اذ إن القدر الذى يستطيع أن يعالجه ، انما تحدده الاجراءات والتدابير التى تنوى حكومته اتخاذها .

ويسبق كل مؤتمر دبلوماسى مناقشات للسياسة القومية ... مثل: ما هو القدر من التنازلات التى يمكن للدولة أن تقدمها ؟ هل هى على استعداد للمجازفة بالحرب ؟ هل المواطنون على استعداد لتحمل مزيد من الضرائب ؟ وما هى الاجراءات الواجب اتخاذها اذا ما تقدم طرف آخر فى المناقشات بطلبات معيّنة ؟ وتوضع مثل هذه الأسئلة موضع الجدل والبحث المستفيض .

وحينما يصل المفاوض إلى مسرح المباحثات ، غالبا ما يكون لديه فكرة واضحة بصفة عامة عن الردود التى يمكنه أن يدلى بها ، واذا لم يكن قد اشترك شخصيا فى المناقشات السياسية السابقة ، فانه على الأقل يكون قد التقى بآخرين يعرفون المشكلات التى سوف يواجهها ، ومن ثم يصبح على دراية بالأسلوب أو المنهج الذى سوف يسلكه الممثلون والمندوبون الآخرون . ومع أن الدبلوماسى ملتزم بالسياسة القومية لبلاده ، الا أنه كلما ازدادت خطورة المسألة السياسية ، ازداد احتمال اشتراكه أو اشتراك الهيئة التى يمثلها فى صياغة هذه السياسة ورسمها .

ولكن رجل الخدمة السرية الذى يقوم بعمليات سياسية ليس سعيد الحظ بنفس القدر ، فمع أنه ملتزم بالسياسة القومية قدر التزام الدبلوماسى ، الا أنه ليس له عادة يد فى صياغة السياسة أو رسمها ، فهو عادة يتلقى تعليمات رسمية فى الصيغة النهائية ثم يطلب منه أن يستغلها أحسن استغلال .

تحويل المعلومات إلى قوة

ويبدو أن هناك فهما خطأ نتيجة ما كتب عن العمليات السرية بأنها عمليات خاصة للحصول على المعلومات ، وهذه صورة مضللة للغاية للحرب الخفية ،

لأن المعارك الحاسمة فى هذه الحرب انما تدور رحاها فى النطاق الواسع، للعمليات السياسية المشهورة .

حتما، ان العمليات السرية أصبحت فى هذا العصر من الأنشطة الضرورية للحصول على المعلومات ، ولكن يجب أن يسمح بأن يكون ذلك غاية فى حد ذاته ، فان الهدف القومى المطلق فى العمليات السرية ليس هو فى بساطة مجرد المعرفة فحسب ، بل السعى للاحتفاظ بالقوة القومية للدولة ، والعمل على نموها واضعاف قوة العدو . ان الغاية هي ممارسة القوة كشيء ديناميكي وليس كشيء ثابت .

ومما لا شك فيه أن ممارسة القوة وتحويل المعلومات السياسية إلى قوة بواسطة العمل حدثت وتحدث كل يوم وبوضوح فى السياسة الاستراتيجية والاقتصادية والدبلوماسية والدفاع والدعاية وفى كل المراحل العلنية للعلاقات الدولية ، كما تحدث كل يوم بشكل خفى غير واضح فى العمليات السرية النطاق والتى تعد بدورها جزءا من الحرب الخفية .

وهناك صورة من ذلك — أى تحويل المعلومات إلى قوة بواسطة العمل السياسى — نجدها فى مأساة فلسطين التى تعيشها أمة العرب اليوم .

فحينما أعلن بلفور وعده المشهور فى نوفمبر عام ١٩١٧ مؤيدا قيام وطن قومى لليهود فى فلسطين ، كان تأثيره على اليهود بعيد المدى . لقد وصفه الألمان حينئذ بأنه أعظم ضربة دعائية وجهتها بريطانيا اليهم وتمنوا لو أنهم سبقوهم فى التفكير باتخاذ هذه الخطوة . لقد كان لهذا الاعلان بلا جدال أثر دعائى ، وان لم يكن المقصود به — أساسا — تحقيق غاية دعائية . بل كان عملا من أعمال سياسة الحرب الرامية إلى تحقيق أهداف محددة في ميدانين . فمهما كان مستر بلفور مدفوعا باحساس شبه دينى بأنه من الأنسب ضمان وطن قومى لليهود فى فلسطين ، فلقد كان ومعه الوزارة البريطانية مدفوعين بالدرجة الأولى ، بالحجج التى طرحها أمامهم الزعماء الصهيونيون امثال حاييم وايزمان وناحوم سوكولوف .

وكانت هذه الحجج تؤثر تأثيرا مباشرا على الموقف العسكرى للحلفاء فى تلك اللحظة ، كما انطوت على احتمالات منع التدهور فى الموقف العسكرى فى اتجاه معيّن ، واحتمالات تحسين هذا الموقف فى اتجاه آخر .

وفى أبريل عام ١٩١٧ دخلت الولايات المتحدة الحرب فى جانب الحلفاء ، وذلك بعد مرور حوالى شهر على الثورة الأولى « الديموقراطية الدستورية » فى روسيا . لكن مجهود الولايات المتحدة من زاوية المعونة العسكرية الايجابية لم يكن يسير بالسرعة أو السهولة التى تمناها الحلفاء فى اوروبا . وقد ظل غالبية اليهود الأمريكيين ، متابعين للألمان فى قرارة أنفسهم ، بل لقد كان ثمة مجال للشك فى أن كثيرا من اليهود الأمريكيين يضعون العراقيل أمام المجهود الحربى لوطنهم الثانى .

وكان الزعماء الصهيونيون الذين كانوا يؤيدون قضية الحلفاء قلبا وقالبا ، يرون أنه باعلان وعد بريطانى لصالح قيام وطن قومى لليهود فى فلسطين ، فان الجزء الأكبر من يهود أمريكا لم يكن ليتوقف عن عرقلة المجهود الحربى فحسب ، بل سيعمل بجد ونشاط فى دفع عجلة هذا المجهود الحربى للولايات المتحدة .

وفى نفس الوقت ، كانت هناك بوادر فى روسيا تشير إلى أن الحكومة المؤقتة للديموقراطيين الدستوريين قد لا تستطيع الصمود ضد تأثير ونفوذ لينين وغيره من البلاشفة الذين تعمد الألمان ارسالهم إلى روسيا حتى يعملوا على تقويض وهدم المقاومة للجيش الألمانى .

أما فى جانب البلاشفة ، فقد كانت جماعة الديموقراطيين الاشتراكيين اليهود تعمل على تفكك وتحلل الثورة . ولم يكن الصهيونيون الروس وحدهم قادرين على مواجهة هذه الاتجاهات التخريبية أو المحافظة على الجبهة الروسية صامدة أمام ألمانيا ، لكن زعماء الصهيونية فى بريطانيا كانوا يعتقدون أنه عن

طريق وعد بلفور ، فان تأثير جماعة اليهود الديموقراطيين الاشتراكيين ، ويطلق عليهم اصطلاح « Bund » فى روسيا ، سوف يبطــل إلى حد يكفى لتمكين الجيش الروسى من الصمود لمدة ستة شهور أخرى ، ومن ثم تمنع الألمان من اعادة مليون رجل لتعزيز هجوم لودندروف المرتقب فى الغرب ، وازاء هذين الاحتمالين ، باركت وزارة الحرب البريطانية وعد بلفور وأقرته . وقد حقق غرضه فى المجالين ، اذ إن المجهود الحربى الأمريكى ازداد قوة وكفاءة ، ولم تنهار الجبهة الروسية ، حتى بعد الثورة البلشفية فى نوفمبر ١٩١٧ الا فى بداية مارس ١٩١٨ ، وهو موعد تاريخ تعذر معه استعادة القوات الألمانية من الشرق إلى الغرب باعداد كبيرة . ولهذه الأسباب يمكن أن نعد وعد بلفور عملا سياسيا أقدم عليه السياسيون ترقبا للنتيجة التى تعود من ورائه . وحين تحققت هذه النتيجة أصبح الوعد ملزما لوزارة الحرب البريطانية والحكومات البريطانية اللاحقة .

وفى نفس الوقت الذى صدر فيه وعد بلفور ، قدم لورنس فى أثناء الحرب العالمية الاولى بموجب السلطة الممنوحة له الوعود للأسرة الهاشمية مقابل معاونة العرب للانجليز ضد الأتراك ، ولكن لم يستطع الانجليز الوفاء بهذا الوعد ، كما هو معروف تاريخيا .

تدخل الولايات المتحدة فى الانتخابات الايطالية

وفى تاريخ البشرية نجد أنه كان للعمليات السرية دورها الواضح فى كل منطقة من مناطق العالم الفسيح . ولكن الظاهرة البارزة فى هذا العصر الذى نعيش فيه هو الصدام الأيديولوجى الكبير بين معسكرين ظهرا بقوة جبارة بعد الحرب العالمية الثانية .

وبالرغم من تحالفهما فى الحرب العالمية الثانية ضد ديكتاتورية هتلر ، فان تضارب مصالحهما سرعان ما أدى إلى ما نسميه اليوم بالحرب الباردة .

وكان أول اشتباك بين الشرق والغرب بعد الحرب العالمية الثانية فى ميدان العمليات السياسية المستورة هذا النشاط الذى قامت به الولايات المتحدة فى الانتخابات الايطالية عام ١٩٤٨ .

فمع وجود كل شرق أوروبا فى قبضة السوفييت ومع قيام حرب أهلية فى اليونان ، استيقظ الغرب على حقيقة أنه من الممكن سقوط ايطاليا فى يد السوفييت بعمل سياسى .

وبدأت عمليات سريعة عاجلة منها هذه الجولة التى قام بها السفير الأمريكى « دن » فى كل بلاد ايطاليا ، ومحاولات الولايات المتحدة فى منع الشيوعيين الايطاليين من السيطرة على الانتخابات . ثم امتد النزاع بعد ذلك إلى الشرق الأقصى والأوسط وجنوب شرق آسيا وأمريكا اللاتينية ثم إلى أفريقيا .

وفى كل هذه المناطق تدور رحى الحرب الباردة بعملاء يمكن فى اطمئنان القول بأن عملهم سياسى خالص .

الإطاحة بحكومة مصدق

وثمة صورة من هذه العمليات السياسية حدثت فى ايران . ففى أبريل من عام ١٩٥١ تولى مصدق رئاسة الحكومة فى ايران ، وقام بتأميم شركة الزيت الانجليزية الايرانية، كما استولى على معامل تكرير عبدان على الخليج الفارسى .

وتعطل آلاف من العمال نتيجة هذا الاجراء ، وواجهت ايران أزمة اقتصادية اذ قاطع البريطانيون وحكومات الغرب زيت ايران ، ولم يتمكن العمال المحليون من ادارة معامل التكرير دون الاستعانة بالفنيين البريطانيين .

وبدأ التقارب بين حزب توده الشيوعى وبين حكومة مصدق ، وحينئذ خشيت بريطانيا والولايات المتحدة أن يؤدى ذلك إلى حصول الاتحاد السوفييتى على زيت ايران .

واتفقت الحكومتان البريطانية والأمريكية على أن تقوما بعمل موحد لعزل مصدق ، وكانت المخابرات الأمريكية تتوقع النجاح لهذه العملية اذ إن الظروف كانت مواتية ، فعهدت بادارة هذه العملية إلى « كيم روزفلت » حفيد الرئيس الأمريكي السابق تيودور روزفلت ، وأحد رجال المخابرات الرئيسيين في الشرق الأوسط .

وأجريت خطة للاطاحة بحكومة مصدق ، ففى ١٣ أغسطس وقع الشاه قرارا باقالة مصدق وتعيين فضل الله زاهدى رئيسا للوزراء . ولكن مصدق قام باعتقال الضابط الذى حمل اليه قرار الاقالة ، ثم بدأت الجماهير تتظاهر فى الشوارع ، وفر الشاه وزوجته ثريا من قصرهما على بحر قزوين بالطائرة إلى بغداد .

واستمر الشغب ، واستطاعت الجماهير الشيوعية السيطرة على الشوارع فى طهران وحطموا تماثيل الشاه تعبيرا عن ابتهاجهم برحيله ، لكن الجيش الايراني ونشاط المخابرات الأمريكية استطاعا أن يحولا الموقف ضد مصدق بتجميع الجماهير المعارضة للشيوعيين ، وظهر أن الموجة الجديدة من الناس قد سيطرت على الموقف .

وكان زاهدى مختفيا فخرج من مخبئه وتولى السلطة ، وعاد الشاه من منفاه ، وألقى القبض على مصدق ، وأعدم زعماء حزب توده الشيوعى .

أزمة صواريخ كوبا

على أن هناك شكل آخر من العمليات السياسية بين المعسكرين تتضح بشكل واضح فى أزمة صواريخ كوبا حينما كان الرئيس الراحل كنيدى مجتمعا يوم ١٦ من أكتوبر عام ١٩٦٢ مع اللجنة التنفيذية لمجلس الأمن القومى لبحث هذه المشكلة . لم يكن كنيدى يشعر الا أن أمامه أحد أمرين : إما أن

يدمر هذه الصواريخ بضربة جوية ، وأما أن يتجه نحو الحل السياسى فيتصل بالرئيس خروشوف .

وبعد اجتماع هذه اللجنة لمدة أربعة أيام متتالية اتجهت نحو اتخاذ موقف وسط يقضى بعمل حصار على كوبا والاصرار على انسحاب السوفييت ، والتهديد باستخدام القوة العسكرية .

والواقع أن اللجنة حينما اتخذت هذا القرار كانت متأثرة بشكل كبير برأى روبرت كنيدى الذى رجع بذاكرته إلى حادثة بيرل هاربور ، مما دعاه إلى معارضة اتخاذ هجوم جوى على جزيرة كوبا ، قائلا : ان الشعب لن يستطيع مواجهة غضب العالم على مثل هذه الغارات التى تهز الضمير العالمى بعنف .

ولقد وافق الرئيس الراحل كنيدى على توصية اللجنة باقامة حصار على كوبا ، كما أقر مجلس الأمن القومى هذا القرار فى اليوم التالى .

وقرر كنيدى أن يتحدث فى مساء الاثنين من أكتوبر ليخبر الشعب بأمر اكتشاف الصواريخ فى كوبا وضرورة عمل حصار للجزيرة . وكانت وزارة الدفاع تعلن طوال الأسبوع قائلة : « ان البنتاجون ليس لديه أى معلومات عن وجود أسلحة هجومية فى كوبا » .

وحينما تحدث كنيدى فى التلفزيون أكد أن الحصار ما هو الا خطوة مبدئية ، وأكد أن القوة سوف تستخدم عند الضرورة لاخراج الصواريخ وأضاف قائلا : ان سياسة هذه الدولة هى أنها تعتبر أن أى صاروخ ذرى يطلق من كوبا على الولايات المتحدة نفسها يقتضى ردا كاملا من الولايات المتحدة .

وظل العالم على شفا الحرب فى الأيام الأربعة التالية ، ينتظر الأحداث ، ويتساءل عن رد فعل السوفييت ، وعما اذا كان سيواصل عمله فى الصواريخ

ويتحدى انذار الرئيس الأمريكي ، أم سيرضخ للتهديد الأمريكي ؟ .

وأخيرا وصلت رسالة من خروشوف في ساعة متأخرة من مساء ٢٦ أكتوبر وجاء في الرسالة أنه مستعد أن يسحب الصواريخ تحت اشراف الولايات المتحدة ، اذا ما قامت الولايات المتحدة برفع الحصار والتعهد بعدم غزو كوبا .

ولكن سرعان ما تبدد هذا التفاؤل حينما جاءت رسالة خروشوف الثانية التي أعلنت في موسكو ، والتي عرضت سحب الصواريخ السوفييتية من كوبا مقابل سحب الصواريخ الأمويكية من تركيا .

ورأى كنيدى أن معنى قبوله العرض السوفييتي هو التسليم بصحة الرأى السائد في بعض الدوائر الأوروبية بأن الولايات المتحدة تضحى بمصلحة أوروبا إذا كانت مصلحتها الشخصية معرضة للخطر .

وأعلن كنيدى أنه يرفض هذا العرض الخاص بتبادل الغاء الصواريخ ، ثم أرسل رسالة خاصة إلى خروشوف ، يقبل فيها عرضه الأول ويتجاهل موضوع صواريخ الولايات المتحدة في تركيا .

ووصلت رسالة من خروشوف في صبيحة الأحد من ٢٨ أكتوبر إلى كنيدى ، يذكر فيها أنه أصدر أوامره بايقاف العمل في القواعد الصاروخية بكوبا ، وكذا فك الصواريخ وشحنها للاتحاد السوفييتي كما أخبره أنه في امكان ممثلى الأمم المتحدة أن يتحققوا من عملية فك الصواريخ .

ورحب كنيدى بقرار خروشوف وأعرب عن أسفه لحادثة الطائرة في سيبريا التي أشار اليها خروشوف في خطابه .

وهكذا انتهت أزمة الصواريخ ، وفاز كنيدى في انتخابات الكونجرس التي حدثت في نوفمبر ، اذ إن انتصار الحزب الديموقراطى في هذه الانتخابات كان واضحا ، وخسر الجمهوريون أثناء أزمة صواريخ كوبا عشرين مقعدا .

وثمة اعتقاد لدى دول العالم الحر فى أن المخابرات السوفييتية تكون جزءا هاما من الحركة الشيوعية الدولية ، كما أن السوفييت لهم دور رئيسى ومهمة فريدة فى الصراع القائم للقضاء على الرأسمالية وبناء نظام اشتراكى جديد فى العالم .

وتعد الحروب الأهلية من أفضل ميادين نشاط العمليات السرية السوفييتية ، كما أنه من المبادىء الأساسية التى ترتكز عليها الشيوعية الدولية نظريا وعمليا منذ أيامها الأولى ضرورة وجود منظمة شيوعية سرية فى كل دولة أولا ، ثم محاولة تأييد كل حزب شيوعى فى دول العالم للاتحاد السوفييتى .

ومما يلاحظ أن هذين المبدأين لم يكونا مرتبطين مع بعضهما دائما وبصفة خاصة فى عهد لينين وتروتسكى ، ولكن حينما تركزت السلطة فى يد ستالين رأى ديكتاتور روسيا أن يجمع هذين المبدأين فى نظام واحد يكون بمثابة الأساس المذهبى لشبكة جاسوسية سوفييتية واسعة النطاق .

وقد أكد أول قانون للشيوعية الدولية الذى أعده لينين عام ١٩١٩ ، والمعروف باسم « الواحد وعشرين شرطا » بأنه على الشيوعيين فى أى مكان أن يقيموا جهازا سريا لمساعدة الحزب الشيوعى فى تأدية وظيفته نحو الثورة ، كما نادى بوجوب بناء شبكات شيوعية سرية لا فى الدول البوليسية والاوتوقراطية فقط ولكن فى الدول الديموقراطية أيضا .

على أنه لم يكن لينين ولا المؤتمر الشيوعى الدولى — الذى وافق على اصدار هذا المبدأ — يلمسون الحاجة إلى ضرورة القيام بأعمال الجاسوسية فى الأراضى الروسية ذاتها ، بل كانوا يعتقدون أن التنظيم السرى كان ضرورياً لتحقيق الثورة الاشتراكية المرتقبة والتى سوف تشمل العالم كله ، وذلك عن طريق جمع الأسلحة وتخزينها وتمويل المبالغ اللازمة ، والمحافظة على وجود علاقات

طيبة مع أفراد القوات المسلحة ، وتجهيز ماكينات للطباعة تكون على أتم استعداد للعمل فى حالة الضرورة واعداد جوازات سفر مزيفة ، ونظراً لأن بعض الأحزاب الشيوعية لم تقم بتنفيذ ما كان مفروضا عليها بالنسبة للمنظمات السرية ، فقد قاد الكومنترن « الشيوعية الدولية » حملة لبلشفة تلك الأحزاب وغرس الروح الثورية فيها .

وكان تروتسكى يعلم أن الأحزاب الشيوعية بالرغم من قبولها تعليمات وأموال الكومنترن ، يجب أن تراعى مبدأ استقلالها بسياستها التى يجب أن تبنى أساسا لمراعاة آراء ومصالح أفرادها ، كما كان يعتقد تروتسكى أن ازاحة الستار عن أى عمليات سرية يقوم بها الحزب الشيوعى المحلى لصالح دولة أجنبية ، سوف يضر أبلغ الضرر بمركز الحزب نفسه .

أما بالنسبة لستالين فقد كان الأمر مختلفا ، اذ إن المبادىء الرئيسية فى الستالينية تفضيل المصالح الروسية على ما عداها ، واخضاع الأفراد وتسخير الأحزاب لخدمة احتياجات الاتحاد السوفييتى .

وقد أكد ستالين هذا المبدأ عقب توليه السلطة الكاملة عام ١٩٢٦ / ١٩٢٧ ، فكرر أكثر من مرة ضرورة الالتزام الجاد لبروليتاريا الدول الأخرى نحو ديكتاتورية بروليتاريا الاتحاد السوفييتى ، كما أشار بصفة خاصة إلى واجبهم نحو الدعاية للهروب من العمل فى جيوش الاستعمار ، والانضمام إلى جانب الاتحاد السوفييتى .

ومن ثم نشأ دور الأحزاب المحلية فى العمليات السياسية السوفييتية ، اذ يتولى زعيم الحزب الشيوعى المحلى مركزا خاصا وغامضا إلى حد ما ، فهو من ناحية يعد الزعيم المحبوب للجماهير الكادحة بصفته رئيس الحزب ، ومن ناحية أخرى فهو يعمل فى الهيئة السرية لتلبية رغبات المخابرات السوفييتية ، فضلاً عن قيامه بامدادها بالأفراد الصالحين الموثوق فيهم لتأدية أى عمل سياسى فى وطنهم لصالح السوفييت .

أهداف السياسة والتخطيط

والواقع أنه لا يرجى تحقيق نتائج فعالة فى العمليات السياسية إلا نتيجة تخطيط دقيق مرسوم . ان ادراك أهمية الخطة المرسومة باحكام تؤكد لرجال التخطيط ضرورة مرونة الخطة فى التنفيذ ، حتى يستطيع من يقوم بالتنفيذ أن يواجه الظروف والمواقف التى تتغير من آن لآخر ، اذ غالبا ما تطرأ ظروف أو أحداث تتطلب تعديل السياسة أو تغيير الأساليب من أجل الحصول على ميزة هامة على الخصم أو العدو .

ومخطط العمليات السياسية عليه هنا أن يلقى بثقل مهارته كله بوصفه منفذا لجزء كبير من السياسة القومية .

ويستلزم التخطيط الفعال للعمليات السياسية عددا من الخطوات الهامة مثل :

١ ــ تحديد أهداف السياسة القومية للدولة .

٢ ــ تحليل مواضع القوة والضعف فى الجمهور المستهدف من النواحى المادية والنفسية والاقتصادية ... الخ .

٣ ــ صياغة التوجيهات والارشادات السياسية السليمة لتوجيه امكانيات العمليات السياسية والسيطرة عليها .

وكما سبق أن ذكرنا فان وعد بلفور عام ١٩١٧ يصور كيف أن الحكومة البريطانية من خلال تعبير جديد عن السياسة القومية فى اعلان تأييد قيام دولة قومية لليهود فى فلسطين ، حققت ضربة دعائية بلغت حد استثارة الزعماء الألمان الذين أعلنوا صراحة أنهم كانوا يتمنون أن يفكروا قبل غيرهم فى هذا الاعلان .

وتوضح « العمليات السرية الألمانية » ضد الاتحاد السوفييتى من عام ١٩٤١ حتى ١٩٤٥ ، كيف أن الأهداف العريضة للسياسة القومية تحدد المجال الذى

يمكن أن تكون هذه العمليات فى نطاقه فعالة ومؤثرة ، فلقد دخل الألمان الحرب ضد الاتحاد السوفييتى فى يونيو ١٩٤١ دون مخطط لهذه العمليات . وكان القصور فى التبين الدقيق لميول الرعايا السوفييت والتحكم فى نتيجة الدعاية وأثرها بينهم ، وكذا العجز فى توجيه بيانات السياسة بما يتمشى مع المصالح الحقيقية للقيادة الألمانية العليا وللشعب الروسى ، كان لهما أثران كبيران على ضياع فرص كبرى من الألمان لاخضاع أجزاء كبيرة من الاتحاد السوفييتى .

وتوضح هذه الفترة أيضا أن كثيرا من المبادىء المعمول بها فى العمليات السياسية لم يكن سوى امتداد للمبادىء المعمول بها فى الدبلوماسية . فحيثما تشن الحملات الدعائية باسم حركات التحرير للاقليات القومية أو لصالحها ، فلا بد من اجراء المفاوضات على أساس الثقة المتبادلة ، وفى جو يراه ويعتبره زعماء حركة التحرير جوا حقيقيا أصيلا .

وليس من الضرورى دوما أو ليس من المستحسن بصفة دائمة ، اعلان الأهداف القومية أو اذاعة التفصيلات الدقيقة فى البيانات الدعائية سواء فى وقت السلم أو وقت الحرب ، اذ إنه بتغيير الظروف ، وبتوافر المعلومات المستجدة للقائمين برسم السياسة عن المجموعة المستهدفة فى العدو ، يصبح من المستحسن غالبا تغيير التركيز أو مواضع التركيز فى البيانات والنشرات الدعائية . ولقد كانت تلك هى الحالة فى صيف عام ١٩٤٥ ، حينما تولى ترومان منصب رئيس الجمهورية الأمريكية فى أبريل من عام ١٩٤٥ واكتشف مكتب معلومات الحرب الاستراتيجية كيان الروح المعنوية المتدهورة فى اليابان وقت الحرب ، والموقف العسكرى المستمر فى التدهور الذى واجه اليابانيين خلال الشهور الأولى من عام ١٩٤٥ ، الأمر الذى دفع واضعى السياسة الأمريكية إلى التنبؤ بأنه قد أضحى من المستحسن أن يوضحوا بتفصيلات أكثر معنى الاستسلام غير المشروط ، وتوجيه اذاعات عن هذه المسألة بصفة خاصة للصفوة المخططة للسياسة فى الحكومة اليابانية .

ولقد اختارت الولايات المتحدة شخصاً مؤهلا تأهيلا عظيماً كى يقوم بعمل المتحدث الرسمى، ذلك هو الكابتن ــ الادميرال فيما بعد ــ «اليس م . زاكاريا » من البحرية الأمريكية .

كان الكابتن « زاكاريا » قد عاش فى اليابان فى مناسبات عديدة خلال السنوات الخمس والعشرين الماضية ، ومن ثم اكتسب القدرات اللغوية المطلوبة ، والعلم الغزير بالمهمة المنوطة به ، وكان الكابتن « زاكاريا » يعرف عدداً من القادة اليابانيين معرفة شخصية ، ومن ثم كان يوجه تعليقاته اليهم فى المقام الأول باعتبارهم العناصر المعتدلة فى الدوائر الحاكمة ، ولقد حدد لنفسه هدفاً هو اقنـــاع القيادة العليا الحاكمة بأن هناك بديلا للدمار الشامل والاستعباد ، وان استمرار المقاومة لا معنى له ولا جدوى منه .

كان المخططون والمنفذون لاذاعات « زاكاريا » يعتقدون أن رسالات الاذاعة سوف تلتقط وسوف تنقل ، كما أن الخلاصات أو الملخصات سوف تتداول بين أعضاء الدوائر الحاكمة الذين قد لا يسمعون هذه النداءات بأنفسهم . وكان الأفراد الذين يخططون لحملة الدعاية يأملون أن تحظى الآراء التى تعبر عنها الاذاعات قبولا طيبا باعتبارها التعبير المعتمد لموقف الحكومة الأمريكية . ومن المعتقد أن أولئك الذين خططوا لهذه الحملة كانوا أقرب إلى الدقة فى تنبؤاتهم .

مدى العمليات السرية

لا جرم أن مدى العمليات السرية غير محدود ، كما انه لا يمكن تحديد معالمها ، فهى تختلف فى طبيعتها وأسلوبها ، اذ تبدأ من مجرد مظاهرة صامتة فى عاصمة احدى الدول إلى القيام بأعمال الشغب والعنف فى دولة ما ، أو نشوب معركة عنيفة بين منظمات العمال الدولية ، كما تتضمن أيضاً أعمال الضغط والتهديد لجماعات معينة فى الحكم ، أو اكتشاف المعارضين لهذه

الجماعات ، كما تشتمل أيضاً توزيع المطبوعات والنشرات السرية ، وأعمال الحرب النفسية والسياسية بمعناها الشامل ، وكذا حرب العصابات التى ستتحدث عنها بتفصيل فى الفصل القادم .

وبالرغم من أن أعمال الاغتيال السياسى تعد من الأعمال المنافية لأى مبدأ انسانى ، وتتفق كل الدول على استخدامها ضمن عملياتها السياسية ، إلا ان هناك تناقضاً فى هذا الاتفاق فقد استخدم كل من ستالين وهتلر وغيرهما هذا الأسلوب .

فمثلا استخدم ستالين هذا الأسلوب ضد أفراد اعتقد أنهم تحت سيطرته مثل تروتيسكى وكريفوسكى . ويقول الكسندر فوت : ان ستالين كان يستطيع فى سهولة ويسر اعداد اغتيال هتلر قبل توقيع الحلف الألمانى الروسى . كما استخدم هذا الأسلوب أيضاً فى الدول الصغيرة مثل ما حدث فى اغتيال الملك الكسندر ملك يوغوسلافيا قبل الحرب العالمية الثانية بواسطة الارهابيين الكروات الذين كانوا يحظون بتعضيد ايطاليا والمجر ، وكذلك محاولة رجل من بورتوريكو اغتيال الرئيس ترومان ، وأخيراً إن اغتيال الرئيس الراحل كنيدى مثل من تلك الأساليب العدوانية التى تنطوى تحت هذا النوع من العمليات .

كان القرن السادس عشر شديد الشبه بالعصر الذى نعيش فيه ، اذ يقدم لنا صورة طريفة لعمليات سياسية مستورة قام بها الجزويت سراً فى بريطانيا لأكثر من خمسة أجيال ، حينما قاموا بارسال مبشرين للقيام بالطقوس الدينية للأسرار الكاثوليكية ، ولتحويل الانجليز عن عقيدتهم ولتجنيد عملاء يرسلون للتدريب فى المدرسة الانجليزية فى روما .

ان قصة الجزويت فى بريطانيا فى حد ذاتها كتاب تعليمى لتكتيك العمليات السرية الخفية ، فلقد كان رجالهم مهرة فى التخفى واستخدام الساتر واعداد وسائل الهروب واستخدام الحبر السرى وأماكن الالتجاء ،

فاذا ما قبض عليهم كانوا يواجهون تنفيذ حكم الاعدام فى سرور وبشر على أساس أنهم شهداء .

وكان الغرض الأساسى لكنيسة روما سياسيا يكمن فى اعادة كنيسة بريطانيا إلى أحضان الكنيسة الأم والخضوع لسلطان روما ، ومع أن الموضوع قد يفهم منه أنه محاولة إلى تقوية السلطة الدينية ، الا أن ذلك لا يخفى المغزى السياسى ، ولذلك فان هذه العملية تعد عملية سياسية .

ان الأمثلة التى سبقت تصور ناحية من العمليات السياسية الخفية ، التى تتميز عن عمليات المخابرات السرية التى يقصد منها الحصول على معلومات .

على أن الوظيفة الحقيقية لغالبية العمليات السياسية فى حد ذاتها وظيفة مكشوفة ولكن ليس من الضرورى أن يعنى هذا أنها تجىء علانية تتحدث عن نفسها ، اذ يجب على الأقل أن تكون مغطاة مستورة .

فمثلا اذ اريد تقوية حزب سياسى معارض فى دولة أجنبية ، فان تقوية هذا الحزب لا يمكن أن تخفى أو تموه وليس من المرغوب فيه أن يحدث ذلك ، ولكن الشىء الذى يجب أن يخفى هو حقيقة الحكومة الأجنبية التى تقدم هذه المعونة ، سواء أكانت هذه المعونة مادية أو معنوية .

على أن التفهم الواضح للغرض من العمليات السرية السياسية تعوقه كثير من المصطلحات المتضاربة التى ظهرت بعد الحرب العالمية الثانية ، مثل الحرب النفسية والحرب السياسية وحرب العصابات وحرب الأفكار ... الخ ، ومن ثم كان من الضرورى أن نعرض دون تفصيل فى هذا الفصل لنوع حيوى من هذه الأعمال وهى الحرب السياسية ، كما أفردنا الفصل القادم لنوع آخر لا يقل عنه أهمية وهى حرب العصابات .

الحرب النفسية والسياسية نوع من العمل السياسى

بالرغم من أن ثمة مجموعة متزايدة من المطبوعات على شكل كتب

ومقالات صحفية ورسائل تعالج هذا الموضوع المتشعب ، ومع أنه فى خلال الحقبة الأخيرة وفى كل عام تظهر اضافات جديدة قيمة للمكتبة الخاصة بهذا الموضوع ، فان الانسان اذا ما تمعّن مليا فى هذه الكتب لاكتشف عدم وجود اتفاق تام فى وجهات النظر الخاصة بمادة الموضوع الذى نحن بصدده .

وقد أحرز الكتاب نجاحاً كبيراً فى انتقاء الصفات التى تستخدم للتعبير عن هذا الموضوع مثل « الحرب النفسية » — « الحرب السياسيـــة » — « الاستعلامات الأجنبية » — « الدعاية » — « وسائل الاعلام الجماهيرية » — « وسائل الاعلام الدولية » — « استعلامات ما وراء البحار » — « حرب العقول » — « معركة عقول الرجال » — « الحرب العقائدية » .

والواقع أن لكل هذه التعبيرات حججاً تساندها كما أن استخدام كل واحد منها لـــه مزاياه الخاصة ، ولكن استخدام كل منها يتضمن قصورا فى الكشف عن مدى النشاط الذى يمكن أن تغطيه تلك التعبيرات أو الذى تغطيه الهيئة التى تضطلع بالقيام بالعمل فى هذا الميدان من المجهود البشرى .

ولكن الاسم الذى نطلقه لا يهم فى كثير ، طالما كان ثمة تفاهم بين الكاتب وبين القارىء . ويميل أغلب الكتاب إلى تجنب الدخول فى جدل مع الآخرين بشأن الموضوع العام للدراسة أو عن التسمية ، فمثلا هل يطلق عليها اسم الحرب السياسية أو حرب الدعاية أو الاتصالات الدولية أو الاستعلامات الخارجية أم نجعلها شاملة فنطلق عليها اسم الحرب النفسية .

وحينما نقوم باستخدام اصطلاح الحرب النفسية فاننا نعمد إلى استخدام أسماء كثيرة غيره ، وحتى تتضح الصورة يمكن أن نعرّف الحرب النفسية بأنها استخدام مخطط للدعاية وغيرها من الأفعال التى تستهدف التأثير على آراء وعواطف ومواقف وسلوك الجماعات الأجنبية المعادية والمحايدة والصديقة بطريقة تساعد على تحقيق الأهداف والأغراض القومية .

ونوجه نظر القارىء إلى أن كل عمل يوصف بأنه يدخل فى عملية

الحرب النفسية يجب أن يكون مخططاً وليس نتيجة لعمل مرتجل .

كما تعد الحرب النفسية اسماً حديثاً لفكرة قديمة موضوعها كيف تشن حرب ناجحة وتعالج الفكرة أقدم كتب الاستراتيجية العسكرية . وقد أكد « كتاب الحرب » الذى ألفه فى الصين فى القرن الخامس قبل الميلاد « صان تزو » أهمية تحطيم عزيمة العدو للقتال عن طريق المفاجأة وإحداث الضوضاء ، وقد كتب صان تزو يقول : تستخدم الطبول والمشاعل فى القتال ليلا ، وتستخدم أعداد كبيرة من الاعلام فى القتال نهاراً حتى ترتبك عيون العدو وآذانه . ويتحقق نفس الهدف بواسطة ترويج القصص عن خيانة القادة وعن القوات الضخمة التى يستخدمها العدو . ويشير « كتاب الحرب » إلى طريقة اغتيال قادة العدو حتى يشيع بين صفوفه الذعر . ويقدم صان تزو اقتراحا آخر يوصى فيه بأن يتجنب القائد الدخول فى قتال مرير وعليه أن يحاول إحراز النصر بأقل التكاليف .

ونجد نفس المبادىء الموجهة فى المطبوعات العسكرية أو فى الحكم السائد فى الامبراطوريات القديمة للهند والشرق الادنى ، فيحتوى كتاب « ارثا ساسترا » السياسى — للكاتب الهندى « كوتيليا » — نصيحة عن كيفية تحطيم الروح المعنوية للعدو ورفع روح مواطنيه المعنوية . ويقترح الكتاب أن يقوم العملاء السريون بنشر الشائعات بين جنود العدو لايقاع الهزيمة بهم . أما من جهة قواتهم — قوات الهند — فيقوم المنجمون وأتباعهم وأتباع الملك باذكاء روح الجنود والتحدث عن طبيعة جيشهم الذى لا يقهر .

والفكرة الأساسية هى أن أفضل نجاح يحرزه الجيش انما يكون عن طريق تحطيم عزيمة العدو للمقاومة وبأقل قدر ممكن من القدرة على القتال والابادة ، فالهدف السياسى هو التدمير المحدود ، ولا يجب أن تمحى قوات العدو المسلحة أو تمحى سكانه أو تمحى امكانياته المادية محواً كاملاً ، بل على العكس يجب أن تكون الأهداف السياسية محدودة ، وأن يكون الغرض عادة هو

اقامة زعامة أو قيادة فى بلاد العدو تستطيع أن تحولها إلى حليفة أو على الأقل إلى دولة غير معادية .

وأهم ما يميز الحرب النفسية أنها تستخدم أجهزة الاعلام الجماهيرية لتحطيم عزيمة العدو للقتال ، وقد كانت جيوش الصينيين القديمة تخرج إلى القتال بآلاتها الموسيقية وبكميات ضخمة من الأعلام وذلك للتأثير على جنود الأعداء . وبهذه الطريقة كانوا يعتمدون على استخدام الوسائل الخاصة بالتأثير على المشاعر والمعنويات . وينطبق نفس الشيء على استخدام القصص لبث الانقسام واشاعة الفرقة بين صفوف الأعداء وذلك بالمبالغة فى وصف قوات الجانب الآخر ، أو باثارة حفيظة الجنود ضد قادتهم .

ولا تقتصر الأجهزة الجماهيرية على الكلمة — الشفوية أو المكتوبة — أو على الصورة بل أنها تستخدم طرقاً أخرى مثل الأعمال المادية والبدنية ، وينطبق هذا على الاغتيال واذا كان القتل لا يعد طريقة تقليدية للاعلام الا أنه كثيرا ما استخدم للتأثير على المواقف السياسية . ونحن ننظر إلى مصير الحرب فى ضوء علم النفس وذلك عندما نوسع الهوة بين التدمير العادى للامكانيات فى كلا الجانبين وبين قوة التأثير فى رغبة العدو فى المقاومة .

وواضح هنا أن الحرب النفسية تذكرنا بالمفهوم الأساسى لكل الاستراتيجيات أكثر من أن ترسم لنا أسلوبا معينا . لماذا اذن نتحدث عنها ؟

لا جرم ان المبادىء الأساسية للحرب النفسية تسير باستمرار نحو زاوية الاهمال ، ومن الواجب تخليصها من هذا الاهمال . فنجد أن قادة الجيش وقادة البحرية تتنازعهم ميول متعارضة بشأن استخدام آلات الحرب . فالاتجاه الأول يميل نحو تجسيم أهمية الأدوات المادية وأهمية العملين ، بينما يميل الاتجاه الثانى نحو اخضاع هذه الأدوات لخطة تستهدف تدمير الاقتصاد . ومعنى ذلك أن الرجال المتخصصين على السفن يكرسون أنفسهم لكل التفصيلات الخاصة بكيفية بناء السفينة وتموينها واستخدامها فى الحرب ،

وينشغل المتخصصون فى المدفعية فى تصميم المدافع وصنعها واستخدامها التكتيكى . وبغض النظر عن الأسلحة المادية أو عن العاماين المتخصصين فيها ، فهناك تركيز كبير على الفهم والولاء ، وتكون النتيجة تجسيم الدور المنظور الذى تلعبه الأسلحة فى سير الحرب .

ومن المعتقد أن معالجة دراسة الحرب النفسية مناسب بصفة خاصة فى حالة التطور التى يمر فيها ما يسمى بـ « علم الاتصالات الدولية » ، وهناك أكثر من اجماع فى وجهات النظر بشأن المبادىء التى يمكن تطبيقها على العمليات السياسية . ويعتقد بعض الكتاب أنهم اذا ما غالوا فى الكلام عن مبدأ أو اذا اكتشفوا بعد ذلك أن المبادىء التى أكدوها قد حكمت فى ضوء تجربتهم الجديدة فان ايحاءهم يحتفظ بقيمتها ، حيث بذلت محاولة للتعرف على المواضيع الرئيسية التى تتضمنها المواقف المختلفة والتى قد يجد منها المخطط أو العميل نفسه نواحى مفيدة فى المستقبل .

ونحن نرى أن العظات أو التحذيرات المكتسبة التى يتضمنها نشر مادة معينة يجب ألا تقف عقبة فى طريق العميل واسع الحيلة الذى يستخدم خياله الخلاق ومرونة عقله حتى يجد الحل المناسب للمشاكل التى تنشأ .

ويدعى البعض أنه غير ممكن وضع المعلومات الخاصة بالحرب النفسية على هيئة قوانين ولذا يستحيل توضيح المبادىء التجريبية الموجهة بواسطة طريقة دراسة الحالات ، وأولئك الذين يؤمنون بوجهة النظر هذه نادراً ما يفحصون عن الاستنتاج المنطقى الذى يقول بأن ما يمكن أن نتعلمه عن الحرب النفسية عن هذا الطريق قليل غير واف .

وهناك أيضاً أولئك الذين يعترضون على الاعتماد على هذه المبادىء التجريبية الخاصة بالحرب النفسية بحجة أن كثيراً منها واضح للقارىء وتتحاشى وجهة النظر هذه الموضوع الأساسى . ويتضمن كثيرا من المواضيع الحاسمة فى الحرب النفسية اختيار عمليات هى بمثابة معالم للطريق من بين

ما قد يبدو أنه عبارة عن مبادىء متناقضة ، والموضوع الأساسى هو الخط المنطقى الذى يؤدى بالإنسان إلى اختيار الواحدة دون الأخرى .

الحرب السياسية

وتتضمن الحرب السياسية استخدام الوسائل الاقتصادية إلى جانب الأدوات الأخرى السابق ذكرها ، فمثلاً لكى يحاول أحد الأطراف منع العدو استخدام بعض المعادن أو غيرها من الموارد ، يقوم بشراء الكميات الموجودة فى الدول المحايدة . ومن المهم أن ننسق الدعاية مع هذه العمليات حتى نضمن التعاون الأكيد مع الدول الصديقة .

ويروج استخدام اسم « الحرب السياسية » عندما تتهيأ الظروف لكى تضفى أهمية جديدة على الاقتصاد فى استخدام الأسلحة المادية كوسيلة من وسائل تحطيم ارادة العدو للقتال ، ففى الحرب العالمية الأولى كانت الكلمة التى تقوم باداء هذه المهمة هى كلمة « الدعاية » ، ولم تكن هذه قاصرة على طبع الصحف والاعلانات وتوزيعها سراً بين جنود العدو وبين مدنييه ، بل كانت هناك أيضا « الدعاية العملية » وهو تعبير مشتق من الثورات الاجتماعية يؤكد أهمية الاغتيال والاستيلاء على المدن ذات الأهمية العاطفية كما يؤكد أهمية المفاجآت وبث الأهداف الثورية ضد الحكومات المعادية .

ويصف البريطانيون النشاط الذى يطلق عليه الأمريكيون اسم الحرب النفسية باصطلاح الحرب السياسية .

وقد وصف سير روبرت بروس لوكهارت المدير العام للجنة التنفيذية للحرب السياسية فى الحرب العالمية الثانية اصطلاح « الحرب السياسية » بانها : «تطبيق الدعاية لتخدم الحرب... ان غرضها الرئيسى هو تعبيد الطريق أمام القوات المسلحة وتسهيل مهمتها » . ولا يختلف هذا المفهوم بأية حال عن التعاريف التى أوردها الكتاب الأمريكيون مثل لاينبارجر وليرنر ولاسويل

وغيرهم عن الحرب النفسية ، ومع ذلك فان وجهة النظر الضيقة هذه عن طبيعة الحرب السياسية لا تمثل بالضرورة المبدأ البريطانى بالرغم من المناصب الكبيرة التى تولاها سير روبرت بروس لوكهارت فى الأجهزة السياسية وفى أجهزة الدعاية البريطانية

وتقوم صحيفة رسمية تصدرها الحكومة البريطانية باعطاء مفهوم عن الحرب السياسية نلحظ فيه انحرافاً شديداً اذ تقول : « يمكن تعريف الحرب السياسية بأنها شكل من أشكال الصراع بين الدول يسعى كل جانب فيه إلى أن يفرض ارادته على خصومه بطريق غير طريقة القوات المسلحة . ومن الناحية العملية يمكن أن نقول أن السلاح الرئيسى للحرب السياسية هو عملية مشتركة بين الدبلوماسية والدعاية » .

وواضح أن مفهوم الحرب السياسية التى يتحدث عنها لوكهارت ينحرف نحو استخدامها فقط فى أوقات النزاع المسلح ، وعلى نقيض ذلك فالبيان البريطانى الرسمى يقول : إنها تستخدم بصفة عامة فى وقت السلم وفى وقت الحرب الباردة .

على أن التسمية « الحرب السياسية » قد دخلت المعجم الأمريكى ، ونجدها فى كتابات عدد كبير من محررى الصحف ، ومع ذلك فهناك فارق كبير فى الآراء بشأن كيفية استخدام هذه التسمية .

ويرى لاديسلاس فاراجو أن الحرب السياسية مرادفة للحرب النفسية ، وان كلمة « حرب سياسية » هى تعبير بريطانى ، كما يطلق على هذا النشاط أسماء مرادفة فى بلاد أخرى .

يقول فاراجو : « انها هذا النوع من أعمال المخابرات التى تستخدم الأفكار للتأثير على السياسات . انها تعالج الآراء وتنقلها إلى الآخرين ، وهى عملية منظمة لاغواء الآخرين بطرق غير عنيفة ، على نقيض الحرب العسكرية

التى تفرض فيها ارادة المنتصر على الجانب المنهزم ، اما بالعنف واما بالتهديد باستخدام العنف » .

كما كتب جون سكوت وهو مؤلف أمريكى ومراسل أجنبى كتاباً اسمه « الحرب السياسية دليل للتعايش التنافسى » ، وهو يضع فى هذا الكتاب تعريفاً لهذا الاسم حيث يقول : « انه يتضمن الأنشطة التى يطلق عليها الجيش « حرباً غير تقليدية » وتلك التى تطلق عليها البحرية « حربا خاصة » ، ان الهدف الأساسى للحرب السياسية هو اضعاف العدو — واذا أمكن تدميره — بواسطة استخدام المناورات الدبلوماسية ، والضغط الاقتصادى والمعلومات — الصحيحة والمضللة — والاثارة والتخويف والتخريب والارهاب وعزل العدو عن أصدقائه ومؤيديه ... كما أن من الوسائل الكبرى التى تستخدم عند شن حرب سياسية وسيلة نقل الأفكار » .

على أنه مهما اختلفت التعريفات والاصطلاحات فاننا نستطيع أن نقول أن الحرب السياسية تهدف إلى :

— تدعيم قوة بعض مجموعات متنافسة أو اضعاف بعض آخر .

— تنظيم قوى يمكن توجيهها لتحقيق غايات محببة .

— تقديم المعونة لقوى تتفق مصالحها مع مصالح القوى التى تقدم العون .

— معاونة دول واقعة تحت سيطرة أو أفراداً معينين للوصول إلى مراكز قوة ومن ثم إلى الحكم .

وتتفاوت درجة هذه الأعمال من مجرد اظهار مشاعر الود إلى تمويل العمليات السياسية وتنظيمها وامدادها بالمعدات اللازمة ، ومن مجرد صداقة شخصية بين حكام الدول وساستها إلى التسلل إلى الدولة الهدف ، واشعال الفتن والحروب الأهلية والثورات .

ولقد طور السوفييت والصين من مفهوم الحرب السياسية ، واستخدموا

هذه الأهداف على نطاق واسع ، بحيث أصبح مصطلح « الحرب السياسية » أكثر التصاقا بالشيوعية من استخدامات البريطانيين الذين ابتكروه .

الخاصيات الرئيسية للحرب السياسية

وقبل أن نختتم هذا الفصل نود أن نشير إلى أن العمليات السياسية تعنى بالمخلوقات البشرية ولذا فان دراسة الجنس البشرى من العوامل الرئيسية التى تحدد نتائج هذه العمليات .

كما أن العمليات السياسية يجب أن تقوم على أساس ثلاث خاصيات رئيسية هى التى تحدد علاقات العمل فى مثل هذه العمليات :

أولاً — يجب أن تقوم كل عملية على شيء حقيقى له كيانه الواقعى حقا ، فالعمليات السياسية السرية ليست حيل وأحاييل وليست شعوذة وخفة يد .

وعلى سبيل المثال فان احدى العمليات التى أضاع فيها الأمريكيون الجهد والمال هى إرسالهم أحد رجال المجر الكاثوليك إلى لندن للعمل ضد قرار الكنيسة الانجليكية الخاص بتبنى دعوة الكنيسة الأرثوذكسية للانضمام إلى المجلس العالمى للكنائس ، اذ إن القرار كان قد صدر من أعلى مجالس الكنيسة الانجليزية وكان قد حظى بموافقة الرأى العام البريطانى ، وهكذا فان مهمة هذا العميل المجرى كانت كمهمة من يتحدث إلى نفسه لأنه لا يجد من ينصت اليه .

ومرة أخرى نجد نفس الحالة حينما نظم السوفييت عام ١٩٥٤ فى برلين الشرقية منظمة للتغطية باسم « لجنة ميخائيلوف » نسبة إلى الجنرال الروسى الذى كان يتولى رياستها وكان الغرض الذى أعلن عن مهمة اللجنة هو المعاونة على إعادة المنفيين السياسيين من الاتحاد السوفييتى ومن دول شرق اوروبا إلى أوطانهم ، وقد قوبل تشكيل هذه اللجنة بصفير السخرية والازدراء من

دول الغرب . ومع ذلك فان اللجنة استطاعت إلى درجة ما أن تثير بعض مشاعر الحنين إلى الوطن وزيادة المتاعب الاقتصادية لكثير من اللاجئين فى بلاد الغرب .

ثانياً — ان الخاصية الثانية للعمليات السياسية السرية هى أنها يجب أن تنفذ بواسطة أصحاب المصلحة الأساسية ، فاذا كان الغرض مثلاً تقوية حزب معارض فى دولة ما ، أو القيام بأعمال اضطراب فى دولة ما ، أو جعل مؤتمر محايد يتخذ سياسة معينة ، أو احداث تصدع فى بعض الأحزاب فانه يجب على أصحاب المصلحة الأساسية أن يقوموا هم بالتنفيذ وألا تتدخل الدولة الأجنبية بطريقة ظاهرة فى هذا العمل .

ثالثاً — أهمية المواءمة بين السياسة القومية وأسلوب تنفيذ العمليات السياسية ، ومن ثم فان الاختيار السليم للأفراد الذين يقومون بالعمليات السرية وتدريبهم ووعيهم السياسى من الأمور الحيوية لنجاح العمليات السياسية .

وأخيراً فان لكل أوجه النشاط المختلفة للعمليات السياسية غرض سياسى مشترك ، وهو التنظيم والاستثمار وتوجيه المشاعر والأغراض البشرية الموجودة بالقدر الذى يجعلها تسهم لصالح طرف واحد من طرفى النزاع ، دون ما نظر إلى أى مدى غير مباشر يمكن أن تكون طبيعة هذا العمل .

* * *

الفصل العشرون

حرب العصابات والمخابرات

مهمة الاستكشاف

عرفت الشعوب منذ تاريخ مغرق فى القدم حرب القوات غير النظامية ، أو ما يطلق عليه اليوم « حرب العصابات » . والواقع أن هذا النوع من العمليات العسكرية قد عرفه الناس منذ بدأت الحروب التقليدية بين الشعوب ، ففى الصين مثلاً ظهرت حرب العصابات قبل أكثر من ٢٣٠٠ عام ، وعرفت فى أثناء حرب الاستقلال الأمريكية وكذا فى الحرب الأهلية الأمريكية ، وحرب البوير . كما ظهرت فى الحرب العالمية الأولى بواسطة لورنس والروس وقبيل الحرب العالمية الثانية قاتلت العصابات تحت قيادة ماوتسى تونج ضد شيانج كاى شيك ، ثم ضد اليابان .

وفى الحرب العالمية الثانية قاتلت العصابات فى كثير من مسارح الحرب ضد الصين والملايو والفلبين والهند الصينية وبورما وبولندا واليونان ويوغوسلافيا وفرنسا وايطاليا وكثير من البلدان فى آسيا واوروبا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية .

وبالرغم من أن أصول حرب العصابات قد مرت بعدة تفسيرات مع مرور الزمن ، فان الأصول القديمة ما زالت صالحة للتطبيق اليوم ، كما كانت فى الماضى . ولا تزال هذه الحرب وسيلة تأمل بها القوة الأضعف من أن تتغلب على عدوها الأكثر قوة وعتاداً وتنظيما ، ولكن حينما تقاتل قوات العصابات فى معاونة جيش نظامى فانها تتبع أساليب الحرب النظامية ، وان كان من الضرورى تعيين قيادة لها ، تكون لها نفس المسئولية التى لقائد الوحدة العسكرية بالنسبة لجنوده .

وتبعا لما جاء فى اتفاقية لاهاى ، فان جنود العصابات يجب أن يكونوا على مثال القوات النظامية من ناحية النظام والضبط والربط ، ولكن الخلاف بينهما يجىء فى الواجبات التى تطلب منها وفى مسرح العمليات التى تعمل فيه ، لأنها عادة تقاتل وراء خطوط القتال .

على أن قوات العصابات من ناحية أخرى تعد مصدرا مثاليا للمعلومات ، ولقد استخدمت لهذا الغرض وعلى مدى واسع فى الحرب العالمية الثانية . ويمكننا أن ندرك اليوم أن حرب العصابات فى روسيا قد أوجدت التطورات الأساسية لهذه الصورة من صور الحرب القديمة ، وكان الفضل فى هذا لستالين .

وفى عام ١٩٤٣ أصدر السوفييت « كتاب الجيب لقوات المناضلين وأفراد حرب العصابات » وقد جاءت فيه معلومات نافعة ... معلومات عن كيفية اجتياز جبهة القتال وكيف تعسكر قوات العصابات ، وكذا معلومات عن كيفية تدمير منشآت العدو ، وعن كيفية إعداد الكمائن ، وعن مهاجمة القرى ، وعن الانسحاب من الاشتباك بقوات العدو ، وعن كيفية استخدام أسلحة العدو ، وعن الاخفاء والتمويه .

ومن أهم ما جاء بهذا الكتاب ما يختص بقيام جنود العصابات بأعمال الاستطلاع حيث يقول الكتاب : « تذكر أن جندى العصابات لا يقوم

باستكشاف من أجل وحدته وحدها ، بل من أجل جنود الجيش الأحمر أيضا ... عاون الجيش الأحمر للحصول على معلومات عن العدو ولاكتشاف قواته ومواقعه وحقول ألغامه وأسلحته ومستودعاته الخلفية ، وكذلك المعلومات عن نواياه ، واستعداداته للعمل ... اعمل دائماً للحصول على معلومات دقيقة موجزة ما أمكن .

« ان كل رجل من رجال العصابات يوضع خلف خطوط العدو ، من واجبه القيام بالاستكشاف طوال الوقت ومن أى مكان .

« يجب أن لا يقنع رجل العصابات بالقيام باستطلاع عسكرى عن طريق المراقبة الشخصية أو أثناء القتال فقط ، بل يجب الاندماع بالمواطنين السوفييت وبالسكان المحليين ... لا تخشى أن تذهب للاستكشاف ولو فى داخل قرية يحتلها العدو ... ارتد نفس ثياب المواطنين المحليين وقم بهذا العمل .

« ومن الأهمية بمكان أن تأسر جنود العدو لتحصل من الأسرى على المعلومات الضرورية ... اجتهد فى أن تسلم الأسير للسلطات العسكرية » .

ولقد كان لاستخدام السوفييت لهذا الأسلوب فى الحرب العالمية الثانية نتائج باهرة من ناحية عمليات الاستطلاع ، ولم يحدث من قبل فى الحرب أن انتشر المناضلون للقيام بعمليات استطلاع في منطقة فسيحة بهذا القدر الذي انتشر به عملاء السوفييت فى منطقة الاحتلال الألمانى فى الاتحاد السوفييتى .

وجاء فى تقرير قيادة أحد الفيالق الألمانية بتاريخ ٥ مارس ١٩٤٢ ما يلى :

« لقد ثبت أن العدو على دراية تامة بتحركات الوحدات ، اذ قال قائد القسم الروسى فى هيئة الأمن الألمانية : ان المناضلين الروس كانوا يعرفون تقريبا كل تحركات القوات الألمانية فى وقت مبكر يكفى لوضع الخطط أو إعداد كمائن لتصيد رجالها » .

ويقول الليفتنانت جنرال هـ . ج مارتن فى مقال له فى الديلى تلغراف بتاريخ ٩ من أبريل عام ١٩٥٤ : « لا شك أنه فى أى حرب قادمة سيكون لتهديد العصابات الشيوعية أكبر وأخطر أثر مما كان فى الحرب العالمية الثانية ، وفى أى حرب ضد الاتحاد السوفييتى يجب أن نذكر الوسائل التى تستخدمها الشيوعية الدولية ، فى أسلوب « المناضلين من أجل السلام » الذين سيقومون بأعمال العصابات فى المناطق الخلفية وراء الجيوش الغربية ، وسيقومون بأعمال الجاسوسية والتخريب والخيانة ، وسيحدث فى أرضنا وأراضى حلفائنا ما قد يصل إلى حد الحرب الأهلية ، أما فى مناطق العمليات نفسها فيستطيع السوفييت أن ينظموا حرب العصابات بواسطة المناضلين . واذا كان العدو يستطيع هذا ... فيجب فى تخطيطنا أن نضع قدراته هذه موضع الاعتبار والتقدير ! ! » .

وبالاضافة إلى مهمة جنود العصابات من ناحية جمع المعلومات ، فان لها واجباً أساسياً يتعلق بأعمال التخريب ، وقد سبق أن تحدثنا عن أساليبها وأنواعها فى الفصل الثانى عشر من هذا الجزء .

لقد حاول الشيوعيون فى أوروبا دائماً احتكار حروب العصابات ، ولما كان من المتعذر ذلك بسبب وجود منظمات المناضلين المعادين للشيوعية ، فان المناضلين الشيوعيين لم يندمجوا معهم مطلقا ، بل قاتلوا كوحدة منفصلة .

وخلال الحرب الأخيرة كان المناضلون الشيوعيون يزاولون نشاطهم فى فرنسا وايطاليا تحت قيادة زعمائهم. وطبقاً لتعليمات هؤلاء الزعماء ، كانوا يقومون بالدعاية الخاصة بهم .

ولكن على حين تقبّل المناضلون الشيوعيون فى فرنسا وايطاليا قيادة

مشتركة على مستوى عال كشأن منظمات المقاومة الأخرى فى البانيـا ويوغوسلافيا واليونان وبولندا فانهم احتفظوا باستقلالهم التام .

وفى دول البلقان لم يلجأ المناضلون الشيوعيون إلى محاربة الألمان فحسب ، بل كذلك أشعلوا نار حرب قاسية ضد الحركات المنافسة التى قام بها غير الشيوعيين ، وفى بولندا لم يشتبك المناضلون الشيوعيون فى صراع مع الألمان الا قليلا ، ولكنهم ركزوا جهودهم على الاطاحة بالحركات السرية التى يقوم بها غير الشيوعيين ، وكانت المعركة غير متكافئة فى البانيا ويوغوسلافيا وبولندا حيث خرج منها الشيوعيون منتصرين وفى خضم النصر استولوا على القوة السياسية ، اذ حولوا حروب التحرير إلى حرب ثورية وحققوا أهدافهم وفى كل من هذه البلاد ولدت فى ذاك الوقت دولة تابعة جديدة .

ومن ثم نجد أنه ظهرت مهمة أخرى فى زمن الحرب لحركات المناضلين الشيوعيين فى الدول غير الشيوعية ، وهى تشكيل مقدمة فى القتال بقصد فرض الشيوعية على البلاد ، ومن أجل ذلك كانوا يعملون على ازاحة المنافسين من طريقهم وبخاصة رجال حرب العصابات من غير الشيوعيين .

وكان المناضلون الشيوعيون قد عهد اليهم بهذه المهمة فى مؤتمر الشيوعية الدولية الذى عقد بموسكو فى أغسطس سنة ١٩٢٨ حيث تقرر : « فى حالة قيام حرب ضد الاتحاد السوفييتى فان على الشيوعيين أن يكونوا وحدات وطنية ثورية تقوم بحرب العصابات كلما كان الموقف يسمح بذلك »

قصة المناضلين فى يوغوسلافيا

ويتبين لنا ذلك بوضوح من قصة حرب المناضلين فى يوغوسلافيا ... انها قصة تيتو زعيم المناضلين الشيوعيين وميخائيلوفيتش زعيم المناضلين الملكيين . على أنه كلما تذكرنا حرب العصابات فى يوغوسلافيا يتساءل بعضنا عن ميخائيلوفيتش : هل كان هذا الرجل بطلا أم خائنا ؟

ففى عام ١٩٤٢ امتدحه البارزون من قادة الغرب بوصفه محارباً شجاعاً وأرسلوا إليه برقيات تحمل معنى التقدير والاعجاب ، وبعد أن مضى أربع سنوات حكم عليه بالاعدام ، وصدر القرار من المحكمة العليا فى جمهورية يوغوسلافيا الاتحادية الشعبية .

كان ميخائيلوفيتش قد حارب الألمان بدافع من الوطنية ، وشنّ عليهم حرب العصابات فى وقت لم يظهر فيه قائد آخر للمناضاين فى أوروبا ، ولم تكن الحركة التى قام بها موجهة ضد الشيوعيين ، وحينما نظم قواته لأول مرة لم يكن فى الميدان مناضلون شيوعيون ولم تكن روسيا قد هاجمها الألمان بعد .

وقد أصبحت هذه الحقائق غامضة حتى ان بريجادير « فيتزورى ماكلين » فى مذكراتــه التى سميت باسم « معالمــان شرقية » Eastern Appreaches ، يبدو أنه يساهم فى القالة التى تقرر أن « تيتو » قد أعد قواته للمقاومة ضد الغزاة قبل ٢٢ من يونيو سنة ١٩٤١ ، ولكنّ هذا لا يطابق الحقيقة إلى حد ما . يقول ماكلين :

« فى ٢٢ من يونيو سنة ١٩٤١ بدأت ألمانيا فى مهاجمة الاتحاد السوفييتى ، وكانت اللجنة المركزية للطبقة العاملة فى الحزب الشيوعى فى يوغوسلافيا تعقد اجتماعا فى بلجراد فى ذلك اليوم ... وهنا صدر الامر بدعوة الشعب لحمل السلاح » .

وتواصل المذكرات الحديث فتقول : « ... والحقيقة أنه اتفق على أن يكون تاريخ الدعوة لحمل السلاح مطابقاً لتاريخ هجوم الألمان على الاتحاد السوفييتى . فلقد اعتبر ماكلين أن الألمان قد قاموا بالهجوم على يوغوسلافيا فى وقت لا يقل عن شهر ونصف قبل وقوعه . ومع ذلك ذكر أن الهجوم وقع على الاتحاد السوفييتى فى نفس اليوم . ولكن تيتو أزال هذه الشكوك بنشره البرقيات اللاسلكية التى تبودلت بينه وبين موسكو فى أثناء الحرب

وذلك بعد قطع علاقته مع ستالين .

ففى ٢٧ من مارس عام ١٩٤١ سقطت حكومة يوغوسلافيا التى كانت عقدت اتفاقية عدم اعتداء مع ألمانيا ، وبذلك أصبحت هذه الاتفاقية ملغاة ، فقام الألمان بهجوم على يوغوسلافيا ولم يستطع الجيش اليوغوسلافى الصمود طويلا ، وانتهت مقاومته فى مدى عشرة أيام .

ولكن « دراجـا ميخائيلوفيتش » الكولونيل فى هيئـة أركان الحرب لم ييأس من القتال واستطاع أن يجمع حوله بعض ضباطه فى جبال الصرب ، ونظم حركة للمقاومة ضد الغزاة وما لبث أن انضم إلى رجاله عدد كبير من « الشنتلك »(*) ، وقد استطاع أن يحقق نجاحا عظيما فى أولى عملياته .

وفى هذه الفترة ظهر أنصار تيتو وتم التفاهم بين الحركتين ، ويبدو أنه تم أول اجتماع بين ميخائيلوفيتش وتيتو فى « ستروجانيك » فى ١٩ من سبتمبر ١٩٤١ ، حيث اتفق الجانبان على التعاون عسكريا وسياسيا فى محاربة الألمان .

ولكن الانسجام بين الفريقين لم يدم طويلا ، ففى اكتوبر اجتمع الرجلان مرة أخرى واتهم كل منهما الآخر مخالفة شروط الاتفاقية السابقة وتمت تسوية الخلافات مؤقتا ، ولكنها ما لبثت أن عادت بسبب تبادل عبارات اللوم بين الفريقين .

واجتمع الزعيمان مرة أخرى فى نوفمبر سنة ١٩٤١ ، ولم يكن جو الاجتماع يبعث على الارتياح ، فقد اختلفا حول امتلاك بلدة كانت فى قبضة الألمان واستولى عليها الفريقان .

واتهم ميخائيلوفيتش رجال تيتو بالقيام بأعمال السلب والنهب بين سكان

(*) منظمة قامت قبل الحرب تضم المحاربين القدامى منذ الحرب العالمية الأولى .

المدينة وغضب تيتو لأنه لاحظ نشوب قتال بين رجال الفريقين فى أثناء العمليات . وكانت النتيجة أن قتل عدد من رجاله ، وانفصلت الحركتان كل منهما عن الأخرى .

ولقد وجهت عدة اتهامات إلى ميخائيلوفتش كان أخفها انه اعتبر الشيوعيين ألد أعدائه ، ولم يكن الاتهام صحيحا فقد كان معسكر تيتو وحده هو الذى أقام الدليل عليه .

وكان تيتو على اتصال لاسلكى مع موسكو ، وفى مارس سنة ١٩٤٢ تلقى الاشارة التالية منها :

« من سوء الحظ انك لم تفهم برقيتنا بالمعنى المقصود منها ، فنحن لم نوجه اليك اللوم ، والوقت لا يتسع لمثل ذلك ... لكن تأكد لنا ان الجهاد الذى كان موجها أصلا ضد المحاربين القدماء ... أولا وقبل كل شيء يجب تجنيد الرأى العام العالمى ضد الغزاة . ان ذكر المحاربين القدماء أو رفع القناع عنهم يعد أمرا ثانويا » .

ويبدو أن تيتو لم يقبل بسهولة المحاولات الملتوية التى انتهجتها موسكو من حيث التظاهر بغير الحقيقة ، فأخبر موسكو برأيه فى هذا السلوك فردت عليه فى أبريل سنة ١٩٤٢ تقول :

« من الضرورى حقا أن نكشف القناع عن المحاربين القدماء أمام القوم وأن نقنعهم بالبراهين والمستندات » .

وتم تنفيذ هذه المهمة واستخدمت الأدلة والمستندات ضد ميخائيلوفيتش فى أثناء محاكمته . وقبل أن تشك دول الغرب فى صدق بعض الأدلة المقدمة فى أثناء المحاكمة بفترة طويلة ، أعربت موسكو عن الشكوك التى تساورها ، ففى سبتمبر سنة ١٩٤٢ تسلم تيتو من موسكو الاشارة التالية :

« عاجل . أنبئنا بعبارة مختصرة عن محتويات المستندات التى فى حوزتكم

فيما يتعلق بدور دراجا ميخائيلوفيتش ، مع مراعاة ما ينطوى عليه من صدق . فمن الممكن أن الغزاة يهتمون بنوع خاص ، لاثارة الخلافات والاشتباكات بين الأنصار والمحاربين القدماء ، وليس ببعيد ، أن الغزاة أنفسهم قد قاموا — قصدا — بتزوير بعض المستندات » .

وحقا كان الغرض الذى ترمى اليه سياسة الألمان من بادىء الأمر هو اثارة الخلافات بين حركتى حرب العصابات حتى تتفكك جبهة المقاومة .

تأييد السكان المحليين

وعادة فانه فى المراحل الاولى لتكوين قوة حرب العصابات ، تكون هذه القوة أصغر وأضعف من قوى الحكم الظالم المستبد داخل البلاد . فبينما تضم جيوش الحكومة آلاف القوات المجهزة بالمدفعية والدبابات والطائرات ، فان قوة العصابات أو الفدائيين المتفتحة حديثا قد تتكون من مائة رجل مسلح تسليحا رديئا من الممكن ابادتهم فى ساعات لو لم تتمتع تلك القوة الصغيرة بمميزات هامة بعيدة الأثر .

وأهم العوامل التى تؤثر على نجاح هذا النوع من العمل هى : تأييد السكان المحليين ، وتعذر الوصول إلى مخابىء رجال العصابات فى الجبال أو فى الغابات أو الأراضى الزراعية الكثيفة .

وقد أوضح تاريخ حرب العصابات أنه بدون تأييد السكان لمحاربى العصابات ، فان مصيرهم يكون مصيرا محتوما ، وحتى لو أن الأرض التى يقومون بعملياتهم فيها لا تتمتع بوسائل دفاع طبيعية ، فانهم يستطيعون الاختفاء وراء الناس ، واذا حوصروا استطاعوا الذوبان داخل أفراد الشعب الذى يؤيدهم .

وخلال الحرب الأهلية الروسية ، كان قائد قوات العصابات أو الفدائيين

هو القومى الفوضوى الاوكرانى « ماخنو » الذى كان يحارب كلا من الحمر والبيض . وكانت قواته من الفدائيين تلعب « لعبة الاستغماية » مع الحملات التأديبية التى أرسلها أعداؤه ، ولكن عندما كانت قواته من الفدائيين تجد نفسها محاصرة فانها كانت تخفى بنادقها وتتظاهر بمظهر الفلاحين الأبرياء الذين يفلحون الأرض فى الحقل ، أو تتظاهر بالعناية بخيولهم أو باصلاح سقوف منازلهم . كان السكان يضللون المطاردين فيقولون لهم : « ان العصابة من الفدائيين مكونة من عدد معين من الرجال قد مرت بهم سريعا من وقت قصير ، وشقت طريقها نحو ذلك الوادى أو نحو شواطىء النهر التى يغطيها نبات الخيزران » .

تطور إنشاء قوة الفدائيين

ويثبت التاريخ أنه لا يحمل الفلاحون المسالمون أو الجماعات الأخرى من طبقات الشعب السلاح بسهولة وبساطة ضد قوى الحكومة المتفوقة ، الا اذا دفعوا إلى هذا السبيل وذلك نتيجة متاعب لا طاقة لهم بها أو ضرائب مجحفة أو مصادرات ظالمة لأملاكهم أو أعمال عنف عارمة .

وتتعرض حياة الناس — قبل أن تنجح المقاومة المسلحة للعصابات فى كسب بعض المطالب والتنازلات من الحكومة — إلى تصدع اجتماعى واختلال فى التنظيم الاقتصادى وشلل وتوقف فى التجارة ، بل قد تصاب مجتمعات كاملة بالدمار علاوة على خسائر كبيرة فى الأرواح . وحينما تصل المظالم والآلام إلى درجة الغليان ، فان أكثر الناس تصميماً ويأساً يتناولون أية أسلحة تصل إلى أيديهم — من الطوب إلى الفأس والشوم — ويختفون وراء التلال والغابات والمزارع ، ومن هناك يدبرون غارات عنيفة على مزارع واقطاعيات أسيادهم الاقطاعيين السابقين وعلى مراكز البوليس المحلية . ويصير هؤلاء الرجال خارجين على القانون ويتحدون سلطة الحكومة . وتبدأ فصائل من

قوات الحكومة فى حملات تأديبية تطاردهم ، وتأخذ قوات الحكومة فى اضطهاد الناس المشتبه فى أنهم يعاونون الثوار . ويعتقل البوليس الكثيرين من الأهالى ويستتب النظام تدريجيا ، وتعرف السلطات من الأهالى أن الخارجين على القانون قد فروا إلى بلد آخر . ولكن عندما يبدو كل شىء هادئاً ، وعندما تستعد فصائل السلطات للرحيل ، يظهر المناضلون فجأة فى منتصف الليل ، ويتغلبون على الحراس ويدمرون قوة البوليس ويفرون بعد الاستيلاء على بنادقهم وذخيرتهم . ويشرع الأهالى فى النظر إلى عصابات الفدائيين على أنها ليست مجرد وحدة مقاتلة بل كيان سياسى يعمل على توحيده مثل أعلى هو تحرير الأهالى من الحكم المستبد .

وقبل أن يمضى وقت طويل ، تصل وحدات الجيش لقمع حركة التمرد — وتعلـــن الأحكام العرفية . وتغزو القوات التلال ، وتضطر إلى التوغل فى أعماق التلال فى أثناء تقهقر قوات المتمردين حتى تجد القوات نفسها فجأة أمام موقع جبلى منيع لا يمكن اختراقه ، وأخيرا تدرك القوات أنها استدرجت إلى كمين ، حيث تنهال عليها رصاصات البنادق والقنابل اليدوية التى يطلقها الثوار من خلفهم . وبعد أن تمنى بالهزيمة ، وبعد أن ينال منها التعب والاعياء ، يعود الجنود الباقون على قيد الحياة إلى مراكزهم ويستولى الثوار على البنادق والمدافع الرشاشة والذخيرة من القتلى . وهكذا تبدأ حرب العصابات ويعيش المتمردون فى مكان عال عن الأرض . ويمدهم السكان العاديون بالطعام والملابس والأحذية — وفوق كل هذا يمدونهم بالمعلومات الدقيقة ، فيعرف الفدائيون كل خطوة وحركة تقوم بها القوات المسلحة ، وكذا موقعها وقوتها على وجه التحديد ، والتعزيزات التى تصل اليها .

ومن ناحية اخرى يعوق قوات الحكومة عجزها الكامل عن الحصول على معلومات عن تحركات الفدائيين ، بل غالباً ما تضلل قوات الحكومة بمعلومات غير صحيحة . وتستنكر « قيادة القوات » التعاون الصامت بين الأهالى

وبين الثوار . وتلجأ القيادة إلى إجراءات القمع التعسفية ضد الأهالى ، ونتيجة لذلك يهرب عدد كبير من الشباب إلى التلال ، وهكذا يزداد عدد المتمردين والفدائيين .

وتزداد شعبية قوات الفدائيين والمتمردين حينما يسمع الناس باخفاق الحكومة فى سحق الثورة ، وبالعمليات والغارات الجريئة التى يقوم بها الفدائيون ، ويتسع نطاق حرب العصابات ، وتنتشر عدواها إلى المناطق المتاخمة .

مبدأ رئيسى فى حرب العصابات

وهناك مبدأ رئيسى من مبادىء حرب العصابات . هو تكبيد العدو أقصى قدر من الخسائر ، بينما يتكبد الفدائيون الحدّ الأدنى من الخسائر . ولتحقيق هذا ، يجب على الفدائيين أن لا يقبلوا على الاطلاق الدخول فى معركة مع قوات من العدو تفوقهم عددا ، بل عليهم أن يعوضوا تفوق العدو فى العدد بالتخطيط الذى يتسم بالدهاء والمكر ، وبالخداع ، وحتى بأساليب الغدر والغش ونكث الوعود . وعليهم أن يوجهوا الضربات إلى العدو فى زمان ومكان لا يتوقعه العدو ، ويعدّ توجيه الضربة الشديدة التى تأخذ العدو على غرة وتوقع به خسائر كبيرة ، يجب على الفدائيين عدم الانتظار ، بل يجب عليهم التفرق والتوارى عن الأنظار قبل أن يجمع العدو شتات قواته ويعد العدة لتوجيه ضربة مضادة . ويجب على الفدائيين أن يستفيدوا بأكبر قدر ممكن من معرفتهم بالأرض حتى يزعجوا العدو فى أثناء الليل وحتى يقطعوا الطريق على وحدات العدو التى تسير على الطريق وذلك بمهاجمتها . ومن واجبهم أيضاً أن يدسوا مبلّغين مزيفين لغرض خداع العدو واستدراجه إلى فخاخ معدّة من قبل ، وأهم مبادىء تكتيكات حرب العصابات هى عامل المفاجأة ، والقدرة على الحركة ، والهجمات الشديدة ، والانسحاب السريع . ويجب على الفدائيين

أن يختاروا المعركة مع العدو فى الظروف والأحوال التى يختارونها هم ، كما يجب عليهم أن يركزوا الهجوم على مؤخرة العدو وجناحيه . والشعار الذى يهتدى به واضعو استراتيجية حرب العصابات هو « أن جبهة حرب العصابات هى مؤخرة العدو » ، ويجب أن يكون الفدائيون مصدر ازعاج ومضايقة مستمرة للعدو ، ويجب عليهم ارهابه وخاصة فى الليل حتى يجعلوا العدو يحس بأن الفدائيين يكمنون خلف كل غصن . ولا يحارب الفدائيون للاستيلاء على مزارع أو مؤسسات ثابتة ، كما أنهم لا يستولون على مراكز ثابتة أو يدافعون عنها كما تفعل وحدات الجيش النظامية فى الحروب التقليدية ، فلو أنهم حاولوا ذلك لحاصرتهم قوات تفوقهم عددا ولأبادتهم عن بكرة أبيهم . وحتى يأتى اليوم الذى ينجح فيه الفدائيون فى التحول إلى قوة عسكرية كبيرة منظمة على نمط الجيوش النظامية ، فان الدور الذى يقومون به الآن يقتصر على ازعاج واضعاف العدوّ وذلك بابادة كتائبه الصغيرة وبمضايقة كتائبه الكبيرة ، ومهاجمة قواعده وترسانات ذخيرته ، ونهب قوافل تموينه ، وقطع خطوط اتصالاته ، وقلب خططه وارباك عملياته ، وارغامه على تحويل قوات كبيرة لحماية كل خطوة من خطواته ، والشيء الذى يعتبر أمراً حقيراً كريهاً فى الجيش النظامى — وهو الهروب من الجيش — هو عمل لا يشين صاحبه مطلقاً فى حرب العصابات . بل على العكس فان مقاتل حرب العصابات يدرب على الجرى سريعاً ، ويشجع على قتل أكبر عدد من العدو بالهجوم المفاجيء ثم الفرار لانقاذ حياته ، لأن شعار المحاربين الفدائيين هو « اقتل العدو ؛ وابق أنت على قيد الحياة » .

تنسيق العمليات اليومية

ومن واجب الفدائيين أن يحرسوا المنافذ التى تؤدى إلى قاعدتهم ليل نهار . ويجب أن تسد الطرق المؤدية إلى القاعدة بالعقبات ، ويجب أن تظل طرق الهرب مفتوحة وفى كل لحظة يجب أن يكون هناك عدد كاف من الرجال

للقيام بالحراسة . ولا يسمح لأى شخص بل لأشخاص مختارين معينين بالدخول إلى مخازن الذخيرة والامدادات . ولا بد وأن يضمنوا وجود طبيب بينهم بصفة مستمرة ، فاذا لم يتسن اقناع طبيب بالانضمام إلى الفدائيين ، فلا بد من تجنيده رغما عن ارادته . ويجب أن يضمن الفدائيون أن يكون فى قدرتهم الاستعانة بأطباء آخرين فى المستعمرات المجاورة وأن يعدوا العدة بعدد جاهز من الأسرة فى مستشفى أو فى منازل خاصة . ويحصل الفدائيون على معظم امداداتهم الطبية من كتائب العدو التى تتولى نقل الامدادات الطبية وذلك بعد أن تنصب لها كمينا . وبتدفق المتطوعين الجدد والرجال الفارين من اضطهاد البوليس إلى معسكر الفدائيين ، تتكون وحدات جديدة من الفدائيين تحت قيادة المحاربين القدامى ، وتنشأ قواعد جديدة وتقوم التنظيمات أو الفرق الجديدة بغاراتها مستقلة الواحدة عن الأخرى ، ولكن من واجبهم تنسيق عملياتهم اليومية وتوزيع الأهداف المراد مهاجمتها فيما بينهم ، حتى لا يقعوا فى خطأ قاتل أثناء الليل فتحدث مصادمات مسلحة فيما بينهم .

الولاء والزمالة

ويعتبر الولاء والزمالة أو الصداقة بمثابة الغراء الذى يلصق الفدائى بأخيه ، اذ يجب ألا يترك الزميل فى محنة ، وعلى القائد المحنك أن يعمل على تصفية النزاعات والمشاجرات التى تظهر بين رجاله من حين لآخر قبل أن تؤدى هذه المشاجرات إلى ضرر بليغ . ويجب أن يلقن أفراد الوحدات تلقيناً جيداً فيعرفهم بالغرض من الصراع ، وبمسئوليتهم أمام الأهالى وأمام الشعب والأمة ككل . ويميل عدد كبير من رجال العصابات إلى التفكير بأنهم اذا حاربوا دفاعا عن حقوق الشعب ، فان من حقهم أن ينالوا هبات ومكافآت من الشعب ، بل ان بعضهم يبالغ فى هذا « فيصادرون » باسم وحدة الفدائيين أشياء يشتهونها لأنفسهم . وأمثال هذه الأخطاء اذا ما ارتكبت على نطاق واسع قد تجلب عداء الأهالى لهم ، بل تسبب ضرراً بليغاً . ومن المستحيل الابقاء

على التماسك التام بين عصبة الفدائيين بدون اتباع نظام صارم . فسوء السلوك أو التصرفات الخرقاء أو الاخلال بالمبادىء الخلقية أمور تعالجها « محاكم الفدائيين » التى تنتخب من أعضاء من العصابة ، أما المخالفات الخطيرة الخاصة بخرق النظام فهى مخالفات يعالجها القائد بنفسه . أما الخيانة — اذا ثبتت على أحد — فانها جريمة عقوبتها الموت .

دروس من السوفييت

واذا كانت أغلبية الأهالى تتكون من الفلاحين الفقراء واذا كانت البلاد صغيرة جداً ، واذا كان للفدائيين زعماء سياسيون أكفاء ، فان عمليات الفدائيين سوف تتوج بثورة منتصرة وعلى العكس من ذلك فانه إذا كانت البلد كبيرة وتمتلك صناعة متطورة نوعا ما وطبقة متوسطة قوية ، فان الحكومة سوف تنجح فى محاصرة وعزل منطقة الفدائيين حتى تمنع الأهالى الفقراء من اعانة المحاربين الفدائيين ، وفى النهاية سوف تقوم الحملات التأديبية بابادة حركة التمرد ، ثم تقدم تنازلات جزئية وتدخل اصلاحات لتهدئة خواطر المنطقة .

ولقد استفاد السوفييت من الدروس التى تعلموها فى الحرب الأهلية الاسبانية وطبقوها فى حربهم ضد ألمانيا الهتلرية فى الحرب العالمية الثانية . فقد نظم السوفييت عشرات الآلاف من الفدائيين بقيادة خبراء حرب العصابات من مخابرات أمن الدولة ، وكان هؤلاء الفدائيون مصدر اضطراب لخطوط المواصلات والمراسلات الألمانية المتحدة من بولندا إلى ستالينجراد ، ومن كييف إلى القوقاز ومن لاتفيا إلى لينينجراد ، إذ قاموا بنسف الكبارى والقطارات العسكرية ، وببث الألغام فى الطرق وبمهاجمة الكتائب التى تسير على الأقدام وبنهب الامدادات والذخيرة . وتطورت الاستراتيجية الأساسية لحرب العصابات فى أثناء الحرب الاهلية الروسية ، بينما ظلت كما هى تقريباً فى اسبانيا . ولكن كان لا بد من ملاءمتها لعمليات ذات أبعاد هائلة . وبعد

تدفق الفلاحين الروس وسكان المدن للانضمام إلى قوة الفدائيين بلغ عدد بعض عصابات من الفدائيين عشرة آلاف لكل منها . وبعد أن تعلموا طريقة استعمال المدفعية ومدافع المورتار والبازوكا التى استولوا عليها من العدو ، صاروا قادرين على الحاق الهزيمة بوحدات يصل حجمها إلى حجم الكتائب من وحدات الجيش الألمانى . ولكنهم استمروا فى التمسك بالقواعد والقوانين القديمة وهى « لا تدخل المعركة ضد عدوّ يتفوق عددا ، ولا تشتبك فى حرب المواقع » ، وظلت الاستراتيجية الأساسية سارية وهى : « توجيه ضربة خاطفة سريعة كالبرق للعدو ، ثم الافلات منه حتى يتسنى الاستعداد لتوجيه الضربة التالية فى مكان آخر » . وكم كان حزن الألمان بعد أن لاقوا المتاعب . ووقعوا فى كمائن وتكبدوا خسائر فى كل ركن — ثم اشتد حزنهم — عندما أدركوا أن المؤخرة فى روسيا كانت جبهة قتال أيضا ، وصارت مهمة نقل امدادات إلى الجيوش الألمانية عبر أراضى روسية لمسافة آلاف الكيلومترات عملية مستحيلة ، وكانت الكبارى التى يعيد المهندسون الألمان بناءها تنسف مرة أخرى حتى قبل استعمالها .

ولم تستطع الجيوش الألمانية داخل الاتحاد السوفييتى الاحتفاظ بقوتها على القتال بدون امدادات منتظمة مستمرة من الرجال والسلاح . وكان الارهابيون والمخربون العاملون فى مخابرات أمن الدولة يتجولون فى المدن وهم يرتدون ملابس نازية ويحملون أوراقا زائفة وتصاريح مزورة . وكان الطباخون والخدم السوفييت الذين عينوا فى المنازل التى احتلها قواعد الاحتلال الهتلريين — كانوا يدسون القنابل فى غرف نوم السادة الألمان وينسفونها ، ولم تستطع قوانين المؤتمرات الدولية ولا الاعتبارات الانسانية أن تكبح جماح حرب العصابات الغاضبة ، اذ كان الألمان الذين يعتقلون فى معارك الفدائيين لا يعتبرون أسرى حرب ، بل كانوا يعدمون على الفور .

ماوتسي تونغ وحرب العصابات

والواقع أن العامل السياسى هو العامل الحاسم القاطع الذى يستند اليه نجاح حرب العصابات . ويعترف كل الثقاة فى هذا النوع من الحرب دون استثناء بطابعها السياسى ، فقد كتب ماوتسى تونغ فى كتابه « مشكلات فى حرب العصابات للمقاومة ضد اليابان » ما يلى :

« ان ثمة عناصر تعنى فقط بالشئون العسكرية وليست السياسية . ان الضباط العسكريين الذين يسير تفكيرهم فقط فى اتجاه واحد متجاهلين العلاقة بين الشئون السياسية والشئون العسكرية يجب دفعهم لتفهم العلاقة الصحيحة بين الاثنين . ان كل العمليات العسكرية لهى وسائل لتحقيق أغراض سياسية ، على حين أن العمل العسكرى هو فى حد ذاته صورة لابراز السياسة » .

ويتابع « ماو » حديثه فيقول :

« ان هناك ولا شك خلافا بين الشئون السياسية والشئون العسكرية ، فلكل منها خاصياته . ولكن يجب ألا تنفصل احداها عن الأخرى أو تنعزل ، ويمكن فقط لأولئك الذين يسيئون تقدير أهمية حرب العصابات اعتبار أن حرب العصابات ليست مشكلة سياسية بل مشكلة عسكرية الطابع خالصة له .

« ان هذا الطابع فى تبسيط وجهة النظر العسكرية تسبب فقد الأغراض السياسية لحرب العصابات ، ولا معدى من أن تؤدى إلى هجر الغرض السياسى وانحلال التعضيد الشعبي ، ومن ثم هزيمة حرب العصابات . واذا كانت حرب العصابات دون غرض سياسى فانها لا بد أن تفشل ، وهى كذلك لا بد أن تفشل اذا ما احتفظت بغرض سياسى لا يتمشى مع الأغراض السياسية للمواطنين ، انها بذلك لن تستطيع الحصول على تعضيدهم ومعاونتهم الفعالة . ويرجع هذا إلى أن حرب العصابات منظمة أساسا على الجماهير ، فاذا ما فشلت فى الحصول على مساهمتهم وتعاونهم ، فان بقاءها وتطورها يكونان مستحيلين . ان هناك الذين لا يستطيعون أن يتصوروا إلى أى مدى تستطيع

العصابات البقاء وراء مؤخرة العدو . ولكنهم لا يفهمون العلاقة بين الشعب وبين جيش العصابات . ان الشعب بمثابة الماء ورجال العصابات بمثابة السمك ... صحيح قد يصعب على السمك البقاء لو غمر فى كم كبير من الماء ، ولكن من الصحيح أيضا أنه اذا نضب الماء أو تبخر فلا بد أن يموت السمك » .

وبالرغم من أن ماوتسى تونغ قد وضع عدة جداول تخطيطية لتنظيم العصابات الصينية فى كثير من كتاباته ، فقد كان يقصد من نظام حرب العصابات عدم وجود جبهات ثابتة محددة للعمليات ، كما أكد ضرورة مرونة العمل من القاعدة . وفى عام ١٩٣٦ أوضح أن الجيش الأحمر سوف يتخلى عن حرب العصابات بعد تحقيق غرضه السياسى ، ويقول « ماو » فى ذلك :

« ان جمهوريتنا الديموقراطية التى تضم العمال والفلاحين هى دولة ذات سيادة . ولكنها اليوم لا تزال غير متكاملة ، فنحن لا نزال إلى الآن فى مرحلة الدفاع الاستراتيجى فى الحرب الأهلية ، وتكوين قواتنا السياسية لا يزال بعيدا عما يجب أن يتوافر للدولة المتكاملة ، وجيشنا لا يزال أقل بكثير من جيش العدو سواء من حيث العدد أو المستوى ، كما أن رقعة بلادنا لا تزال صغيرة للغاية . ولكى نحدد معالم سياستنا على هذا الأساس لا بد من اتخاذ طابع حرب العصابات فى الجيش الأحمر ، وليست هناك جدوى من الشعور بالخجل فى هذا المجال ، بل على النقيض فان حرب العصابات هى طابعنا المميز وهدفنا الوحيد ووسيلتنا لقهر العدو .

« ونحن يجب أن نستعد للتخلى عن هذا الطابع فى الحرب ، ولكننا لا نستطيع أن نفعل ذلك اليوم . وسوف يأتى اليوم الذى يصبح فيه هذا الطابع مدعاة للخزى والخجل وبذلك يجدر بنا التخلى عنه ، ولكنه اليوم له قيمته ولا بد من الأخذ به والسير عليه .

« كما أن حرب العصابات هى مثال اللامركزية وعدم التجانس ونقص الضبط والربط وتبسيط الطرق المتبعة فى الجيش » .

الفهرس